بلوغ الأرب

في معرفة أحوال العرب

تأليف

السيد محمود شكري الألوسي

البغدادي

عُني بشرحه وتصحيحه وضبطه

محمد بهجة الأثري

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلام على عوائد العرب فى الازدواج والتناكح أيام الجاهلية

كان النكاح فى الجاهلية على أنحاء[1] : فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطِبُ الرجل إلى الرجل وليته أو[2] ابنته فَيُصْدِقُهَا[3] أى يعين صداقها ويسمى مقداره ثم يعقد عليها ، وكانوا يخطبون المرأةَ إلى أبيها أو أخيها أو عمها أو بعض بنى عمها ، وكان الخاطب يقول إذا أتاهم : أنعموا صباحاً[4] . ثم يقول : نحن أكفاؤكم ونظراؤكم فإن زوجتمونا فقد أصبنا رغبة وأصبتمونا وكنا نصهركم حامدين ، وإن رددتمونا لعلة نعرفها رجعنا عاذرين . فإن كان قريب القرابة من قومه قال لها أبوها أو أخوها إذا حملت إليه : أيسرتِ وأذكرتِ ولا أنثتِ جعل الله منكِ عدداً وعزًّا وخلداً . أحسنى خلقك ، وأكرمى زوجك ، وليكن طيبك الماء .. وإذا زوجت فى غربة قال لها : لا أيسرتِ ، ولا أذكرتِ ، فإنك تدنين البعداء ، أو تلدين الأعداء . أحسنى خلقَكِ ، وتحببى إلى أحمائك ، فإن لهم عيناً ناظرةً إليك ، وأذناً سامعة إليك ، وليكن طيبك الماء . وكانت قريش وكثير من قبائل العرب على هذا المذهب فى النكاح ، فإن الله تعالى استخصّ رسولَهُ من أطيب المناكح ، وحماه من دنس الفواحش ، ونقله من أصلابٍ طاهرة ، إلى

---

(١) جمع نحو أى ضرب وزنا ومعنى ، ويطلق النحو أيضا على الجهة والنوع وعلى العلم المعروف اصطلاحا (٢) أو هنا للتنويع لا الشك (٣) قوله يصدقها بضم أوله والصداق بفتح الصاد وكسرها مأخوذ من الصدق لاشعاره بصدق رغبة فى الزوجة وفيه سبع لغات ، وله ثمانية أسماء يجمعها قوله :

صداق ومهر نحلة وفريضة ... حباء وأجر ثم عقر علائق

(٤) راجع باب تحية ملوك العرب فى هذا الجزء .

أرحام طاهرة ، واستخلصه من أكرم العناصر ، وأمده بأوكد الأواصر [١] ، حفظاً لنسبه من قدح ، ولمنصبه من جرح ، لتكون النفوسُ له أوطا ، والقلوب له أصغى ، فيكون الناس إلى إجابته أسرع ، ولأوامره أطوع . ومنها :

(نكاح آخر) كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طَمْثِها — أى حيضها — أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه — أى اطلبى منه الجماع — لتحملى منه . والمباضعة : المجامعة مشتقة من البضع وهو الفرج . ويعتزلها زوجها ، ولا يمسها أبداً حتى يتبينَ حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد أى اكتساباً من ماء الفحل لأنهم كانوا يطلبون ذلك من أكابرهم ورؤسائهم فى الشجاعة أوالكرم أو غير ذلك . وكان السر فى كون ذلك بعيد الطهر أن يسرع علوقها منه ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ومنها .

(نكاح آخر) يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يُصيبها أى يطؤها وذلك إنما يكون عن رضا منها وتواطؤ بينهم وبينها ، فإذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تَضَعَ حمْلَها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كانَ من أمركم وقد ولدتُ فهو ابنك يافلان تسمى من أحببت باسمه فيلحق به ولدها لايستطيع أن يمتنعَ به الرجل . قيل : هذا إن كان ذكراً ، وإلا فلا تفعل ذلك لما عرف من كراهتهم فى البنت وقد كان منهم من يقتل بنته التى يتحقق أنها بنت فضلا عمن تجىء بهذه الصفة . ومنها :

(نكاح) يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لاتمنع من جاءها وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن راياتٍ تكون عَلَماً فمن أرادهن دخل عليهنّ ، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة [٢] ثم ألحقوا ولدها بالذى

---

(١) جمع آصرة وهى الرحم والقرابة والمنة (٢) جمع قائف بقاف ثم فاء وهو الذى يعرف شبه الولد بالوالد بالآثار الخفية .

يرون فالتاطته به[1] ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك . وقد ساق هشام ابن الكلبي في (كتاب المثالب) أسامى صواحبات الرايات في الجاهلية فسمى منهن أكثر من عشر نسوة مشهورات . منهن امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح في الجاهلية فأراد بعض الصحابة أن يتزوجها فنزل النهى عن ذلك بقوله تعالى « الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك »[2] . ومنها .

(نكاح الخدن) وهو المشار إليه بقوله تعالى: « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان »[3] كانوا يقولون ما استتر فلا بأس به وما ظهر فهو لوم . ومنها :

(نكاح المتعة) وهو تزويج المرأة إلى أجل فإذا انقضى وقعت الفرقة . ومنها :

(نكاح البدل[4]) وهو أن يقول الرجل للرجل . انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى . ومنها :

(نكاح الشغار) وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوّجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق وغير البنات من الأخوات وبنات الأخ وغيرهن كالبنات في ذلك ، فذكر البنت في تفسير الشغار مثال :

---

(١) في رواية الكشميهني فالتاط بغير مثناة أى استلحقته به . وأصل اللوط بفتح اللام اللصوق (٢) قلت : ومنهن أيضا عناق وكانت صديقة مرثد في الجاهلية وكان رجلا شديدا وكان يقال له دلدل وبعد أن أسلم لقى صديقته فدعته الى نفسها فقال ان الله قد حرم الزنا ، وسريفة جارية زمعة بن الاسود ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة بن حبيب بن حذيفة بن جبل بن مالك بن عامر بن لؤى ، وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل ، ومرية جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار ، وحلالة جارية سهيل بن عمرو ، وأم سويد جارية عمرو ابن عثمان المخزومى ، وقريبا جارية هلال بن أنس بن جابر بن نمر بن غالب بن فهر .

وهؤلاء البغايا لسن من قريش ولا من صميم العرب بل هن من الاماء السواقط يدل عليه قوله تعالى : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) لأن الفتيات في عرف القرآن لا تطلق الا على الاماء ، يدل عليه قوله تعالى : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) ولو وجد بغى بين حرائر العرب لما خص النهى عن البغاء بالاماء فتخصيص النهى بالاماء يدل على ان البغاء لم يكن بين حرائر العرب وان انفة العرب عن بغاء الحرائر قد اغنى عن نزول النهى عنه ، والتفصيل في ردنا على كتاب المثالب لابن الكلبى الزنيم (٣) أى أصدقاء واحدهم خدن (٤) أخرجه الدارقطني من حديث أبى هريرة ولكن اسناده ضعيف جدا كما ذكر الحافظ العسقلانى في الفتح

مقاصد العرب من الزواج

لم تزل العرب تجتذب البعداء ، وتتألف الأعداء ، بالمصاهرة حتى يرجع المنافر موانساً ، ويصيرَ العدو موالياً ، وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين ، وموالاة بين العشيرتين ، وإنما كانت سبباً من أسباب الألفة لأنها استحداث أصله وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار ، انعقدا على خير وإيثار ، فاجتمع فيها أسباب الألفة ، مواد المصاهرة . حكى عن خالد بن يزيد[1] .

---

(١) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف — كان من رجالات قريش سخاء وعارضة وفصاحة ، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء فأفنى بذلك عمره وأسقط نفسه ، وام خالد بن يزيد أم هاشم بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف

ولما قتل ابن الزبير حج خالدبن يزيدبن معاوية فخطب رملة بنت الزبير بن العوام فأرسل اليه الحجاج حاجبه عبيد الله بن موهب وقال له : ماكنت أراك تخطب الى آل الزبير حتى تشاورنى وكيف خطبت الى قوم ليسوا لك بأكفاء وكذلك قال جدك معاوية وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة ورموه بكل قبيحة وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة ، فنظر اليه خالد طويلا ثم قال له : اولا أنك رسول والرسول لايعاقب لقطعتك اربا اربا ثم طرحتك على باب صاحبك ، قل له : ماكنت أرى أن الأمور بلغت بك الى أن أشاورك فى خطبة النساء ، وأما قولك لى : قارعوا أباك وشهدوا عليه بكل قبيح ، فانها قريش يقارع بعضها بعضا ، فاذا أقر الله عز وجل الحق قراره كان تقاطعهم وتراحمهم على قدر أحلامهم وفضلهم ، وأما قولك : انهم ليسوا بأكفاء فقاتلك الله ياحجاج ما أقل علمك بأنساب قريش أيكون العوام كفؤا لعبد المطلب بن هاشم بتزوجه صفية وبتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد ولا تراهم أهلا لأبى سفيان ؟ فرجع الحاجب اليه فأعلمه ، وقال عمرو بن شبة فى خبره : قال خالد بن يزيد بن معاوية فيها :

أليس يزيد السير فى كل ليلة ... وفى كل يوم من أحبتنا قربا
أحن الى بنت الزبير وقد علت ... بنا العيس خرقا من تهامة أو نقبا
اذا نزلت أرضا تحبب أهلها ... الينا وان كانت منازلها حربا
وان نزلت ماء وان كان قبلها ... مليحا وجدنا ماءه باردا عذبا
تجول خلاخيل النساء ولا أرى ... لرملة خلخالا يجول ولا قلبا
أقلوا على اللوم فيها فانني ... تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بنى العوام طرا لحبها ... ومن حبها أحببت أخوالها كلبا

قال أبو زيد وزادوا فى الأبيات :

فان تسلمى نسلم وان تتنصرى ... يحط رجال بين أعينهم صلبا

فقال له عبد الملك تنصرت ياخالد قال وما ذاك ؟ فأنشده هذا البيت فقال له خالد : على من قاله ومن نحلنيه لعنة الله (راجع الأغانى ج ١٦ ص ٨٤ الخ)

أنه قال : كان أبغض خلق الله عز وجل إلى آل الزبير حتى تزوجت منهم (رملة) فصاروا أحب خلق عز وجل إلىّ . وفيها يقول :

أُحبُّ بنى العوّام طراً لأجلها ومن أجلها أحببتُ أخوالها كلبا
فإن تُسلمى نُسلِمْ وإن تتنصرى يحطّ رجالٌ بين أعينهم صُلبا

ولذلك قيل : المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل إليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة ، فلا يجد إلى المخالفة سبيلا ، ولا إلى المباينة والمشاقة طريقا . ولما فى النكاح من حصول الألفة أكثرت العرب من النساء ، وكان عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تسع نسوة . والذى تحصل من كلام أهل العلم فى الحكمة فى سبب استكثاره من النساء عشرة أوجه . أحدها : أن يكثر من يشاهد أحواله الباطنة فينتفى عنه ما يظن به المشركون من أنه ساحر أو غير ذلك . ثانيها : لتتشرف به قبائل العرب بمصاهرته فيهم ، ثالثها : للزيادة فى تألفهم لذلك . رابعها : للزيادة فى التكليف حيث كلف أن لا يشغله ما حبب إليه منهن عن المبالغة فى التبليغ . خامسها : لتكثر عشيرته من جهة نسائه فتزداد أعوانه على من يحاربه . سادسها : نقل الأحكام الشرعية التى لا يطلع عليها الرجال لأن أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفى مثله . سابعها : الاطلاع على محاسن أخلاقه الباطنة فقد تزوج أم حبيبة وأبوها إذ ذاك يعاديه ، وصفيةَ بعد قتل أبيها وعمها وزوجها فلو لم يكن أكمل الخلق فى خلقه لنفرن منه بل الذى وقع أنه كان أحب إليهن من جميع أهلهن . ثامنها : لإظهار المعجزة البالغة فى خرق العادة فى كثرة الجماع مع التقليل من المأكول والمشروب ، وكثرة الصيام والوصال ، وقد أمر من لم يقدر على مُؤَن النكاح بالصوم ، وأشار إلى أن كثرته تكسر شهوته ، فانخرقت هذه العادة فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم . تاسعها : للدلاله على كمال بشريته ، والعرب كانت تمدح بكثرة النكاح لدلالته على الرجولية . عاشرها : إن ذلك زاده عبادة لتحصينهن وقيامه بحقوقهن ، واكتسابه لهن

وهدايته لهن ، ولم ينصف من نقد فى هذا الأمر فإنه لم يكن بِدْعاً[1] من الرسل فى ذلك فإن التزوج لا ينافى النبوة وأن الجمع بينهما قد وقع فى رسل كثيرة قبله . ذكر أنه كان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة مهرية وسبعمائة سرية وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة .

ومن مقاصدهم فى الزواج

القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وإن كان مختصاً بمعاناة النساء فليس بألزم حالتى الزوجات لأنه قد يجوز أن يعانِيَهُ غيرهن من النساء ، ولذلك قيل : المرأةُ ريحانة ، وليست بقهرمانة[2] . وليس فى هذا القصد تأثير فى دين ولا قدح فى مروءة ، والأحمد فى مثل هذا التماس ذوى الأسنان والحنكة فمن قد خبرن تدبير المنزل وعرفن عادات الرجال فإنهن أقوم بهذه الحال ، وقد يكون المقصود به الاستمتاع وهذه الحال مذمومة لأنه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية ويتابع شهواته الذميمة ، وقد قال الحارث بن النضر الأزدى . شر النكاح نكاح الغلمة إلا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالإضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عينٌ لريبة ، ولا تنازعه نفس إلى فجور ، ولا يلحقَه فى ذلك ذم ، ولا ينالَه وصْم[3] ، وهو بالحمد أجدر ، وبالثناء أحق . ولو تنزه فى مثل هذه الحال عن استبدال الحرائر إلى الإماء كان أكمل لمروءته ، وأبلغ فى صيانته . وهذه الحال تَقِفُ على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الأمور ، وهى أخطر الأحوال بالمنكوحة لأن الشهوات غايات متناهية يزولُ بزوالها ما كان متعلقاً بها ، فتصير الشهوة فى الابتداء ، كراهيةً فى الانتهاء ولذلك كرهت العرب فى الجاهلية البنات ، ووأدتهن[4] إشفاقاً عليهن وحميةً

---

(١) يقال فلان بدع فى هذا الأمر : أى هو أول من فعله ، وفى التنزيل « قل ماكنت بدعا من الرسل » أى ما أنا أول من جاء بالوحى من عند الله وتشريع الشرائع بل أرسل الله تعالى الرسل قبلى مبشرين ومنذرين فأنا على هداهم

(٢) القهرمانة : بلغة الفرس القائمة بأمر الرجل (٣) الوصم : العار

(٤) وأد بنته يئدها : دفنها حية

لهن من أن يبتذلهن اللئام بهذه الحال . وكان من تحوَّبَ[1] من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتُهن أحبَّ إليه ، وآثرَ[2] عنده . ولما خطب إلى عقيل بن علقمة ابنته الحرباء قال : إنى وإن سيق إلىّ المهر ألف وعُبدان وذَوْد[3] عشر أحب أصهارى إلىّ القبر . وقال عبد الله بن طاهر .

لـكل أبى بنت يراعى شئونها ثلاثة أصهار إذا حُمِدَ الصهر[4]
فَبَعْلٌ يُراعيها وخِدْرٌ يُـكنّها وقبرٌ يواريها وأفضلُها القبر[5]

ومن مقاصدهم

التناسل والتوالد فقد كانت العرب ترغب فى النكَاح لطلب الولد وتقول من لايلد لاولد . ولذلك كانوا يلتمسون الحداثة والبكارة لأنها أخص بالولادة وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : عليكم بالأبكار فانهن أعذب أفواهاً وأنتقُ أرحاماً وأرضى باليسير » ومعنى قوله « أنتق أرحاماً » أى أكثر أولاداً .

وقال معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه : « عليكم بالأبكار فإنهن أكثر حباً وأقل خنا » . وهذه الحال هى أولى الأحوال ، لأن النكاح موضوع لهـا والشرع وارد بها ، وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : سوداء ولود خير من حسناء عاقر . وقد كان العرب يختارون لمثل هـذه الحال إنـكاح البعداء والأجانب ويرون أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ويجتنبون إنـكاح الأهل

---

(١) التحوب : التأثم من الشىء (٢) أى أفضل (٣) عبدان جمع عبد وهو المملوك ، والذرد : من الابل مابين الثلاث الى العشر ، والذود مؤنثة لأنهم قالوا ليس فى أقل من خمس ذود صدقة والجمع أذواد مثل ثوب وأثواب

(٤) الأصهار جمع صهر ، قال الخليل : هو أهل بيت المرأة ، قال : ومن العرب من يجعل الاحماء والاختان جميعا أصهارا ، وقال الأزهرى : الصهر يشتمل على قرابات النساء ذوى المحارم وذوات المحارم كالأبوين والأخوة وأولادهم والأعمام والأخوال والخالات فهؤلاء أصهار زوج المرأة ومن كان من قبل الزوج من ذوى قرابته المحارم فهم أصهار المرأة أيضا ، وصاهرت اليهم اذا تزوجت منهم (٥) البعل : الزوج ، والخدر : الستر ويطلق على البيت ان كان فيه امرأة والا فلا ، ويكنها بضم الياء يسترها ، وواراه مواراة : ستره

والأقارب و يرونه مضراً بخلق الولد بعيداً من نجابته . و يقولون إن ولد الغيرى لاينجب و إنّ أنجب النساء الفروك[1] لأن الرجل يغلبها على الشبه لزهدها فى الرجال ، و يزعمون أن تقارب الأنساب مدح فى الإبل لأنه إنما يكون فى الكرايم يحمل بعضها على بعض حفظاً لنوعها وهو ذم للناس لأنه فيهم سبب للضعف . وفى الحديث: اغتربوا لا تَضْوَوْا . أى إن تزوج القرائب يوقع الضوَى فى الولد والضوَى بالضاد المعجمة بوزن الهوى مصدر ضَوِى بالكسر يضوَى بالفتح بمعنى الضعف والهزال ، ولذلك يمدحون بضد ذلك كقول راجزٍ :

إنّ بلالاً لم تشنه أمه لم يتناسب خاله وعمه

وقول شاعر :

فتًى لم تلده بنتُ عم قريبة فيَضْوَى وقد يَضْوَى رذيلُ الأقاربِ

وقال آخر :

تجاوزتُ بنت العم وهى حبيبة مخافةَ أن يضْوَى علىّ سليلى

ومن هذا القبيل ما يحكى عن العرب أيضاً أن التهجينَ مدحٌ فى الإبل وذم فى الآدميين لأن معناه فى الإبل كرم الأبوين ، وفى الآدميين أن يكون الأب عربياً والأم أمَةً ، يقال منه رجل هجين و إن كان الأمر بالعكس قيل : رجل مُقْرِفٌ وفَلَنْقَس بوزن سفرجل أوله فاء ورابعه قاف ، قال الراجز :

العبدُ والهجين والفلنقسُ ثلاثةٌ فأيهم تلتمسُ

وقال الشاعر:

كم بجودٍ مقرفٌ نال الغنى وكريم بُخْلُهُ قد وضعَهْ

وقالوا : إن الرجل إذا أكره المرأة وهى مذعورة ثم أذكرت أنجبت .

---

(١) هى التى تبغض الرجل ، قال القطامى :
لها روضة فى القلب لم يرع مثلها فروك ولا المستعبرات الصلائف

قال أبو كبير الهذلى :

ولقد سَرَيْتُ على الظلام بِمِغْشَمٍ　　جَلْدٍ من الفتيان غير مُثَقَّلِ (١)

ممن حَمَلْنَ به وهنّ عواقدٌ　　حُبُكَ النطاقِ فشبّ غيرَ مُهَبَّلِ (٢)

حَمَلَتْ به فى ليلةٍ مَزْءُودَةٍ　　كُرْهًا وعَقْدُ نِطَاقِها لم يُحْلَلِ (٣)

فأتت به حُوشَ الفـؤاد مُبَطَّناً　　سهُدًا إذا ما نامَ ليـلُ الهَوْجَلِ (٤)

ومُبَرَّءٍ من كل غُـبَّرِ حَيْضَةٍ　　وفسـادِ مُرْضِـعةٍ وداءٍ مُغْيِلِ (٥)

وإذا نَبَذْتَ له الحصـاةَ رأيتَه　　يَنْزُو لوقعتها طُمُورَ الأَخْيَلِ (٦)

وإذا يَهِبُّ من المنام رأيتَهُ　　كرُتُوبِ كعبِ الساق ليس بِزُمَّلِ (٧)

ما إنْ يَمَس الأرضَ إلا منـكِبٌ　　منه وحرفُ السَّاقِ طَيَّ المِحْمَلِ (٨)

وإذا رميت به الفِجاجَ رأيتَهُ　　يهوى مخارِمَها هُوِيَّ الأَجْـدَلِ (٩)

وإذا نظرتَ إلى أسِرَّةِ وَجهِهِ　　بَرَقَتْ كبرق العارض المتهلّلِ (١٠)

---

(١) يقال سريت بمعنى سرت ، وعلى الظلام أى فى الظلام ، والمغشم : من يرتكب الأمور على غير نظر فيها ، والمثقل : الثقيل على النفوس (٢) الحبك : الطرائق ، والنطاق من ملابس النساء ، والمهبل : المدعو عليه بالهبل بفتح الباء وهو أن تفقده أمه (٣) الزؤد : الفزع ونسبه الى الليلة لوقوعه فيها ، وأظهر التضعيف فى لم يحلل وهو فى لغة تميم ووجه الكلام لم يحل (٤) حوش الفؤاد : أى أذكى الفؤاد ، والمبطن الخميص البطن ، والسهد : من السهاد وهو السهر ، والهوجل : الثقيل الكسلان ، وقيل الأحمق لامسكة به ، وجعل الفعل لليل لأنه يقع به (٥) قوله غير حيضة أى بقايا حيضة ، والمغيل من الغيلة بكسر الغين وهو أن تغشى المرأة وهى ترضع (٦) قوله ينزو : أى يثب ، والطمور : الوثوب من علو الى أسفل ، والأخيل : طائر هو الشاهين (٧) الهبوب: الانتباه من النوم ، ورأيته أى رأيت رتوبه فحذف المضاف والرتوب القيام والانتصاب ، والزمل : الضعيف (٨) ان زيدت لتوكيد النفى ، وطى المحمل انتصب على المصدر دل عليه ماقبله لأنه لما قال يمس الأرض منه اذا نام جانبه وأنه حرف الساق علم أنه مطوى غير سمين ، والمعنى أنه اذا نام لاينبسط على الأرض ولا يتمكن منها بأعضائه كلها حتى لايكاد يتشمر عند الانتباه بسرعة ، والمحمل : حمالة السيف (٩) الفجاج جمع فج وهو الطريق الواسع فى جبل أو غيره ، والمخارم جمع مخروم وهو منقطع أنف الجبل ، والأجدل : الصقر وهذا الكلام كناية عن كونه صاحب همم اذا نيطت به الصعاب ذللها (١٠) أسرة وجهه أى خطوط جبهته ، والعارض من السحاب مايعرض فى جانب السماء ، والمتهلل المتلألىء بالبرق ، وروى فى الحماسة بعد هذا بيتا وهو :

صعب الكريهة لايرام جنابه　　ماضى العزيمة كالحسام المقصل

الكريهة اسم للحرب والجناب الفناء والحسام السيف والمقصل القطاع

يحمى الصحابَ إذا تـكون كريهةٌ ... وإذا همُ نزلوا فمأوى العُيَّـلِ[1]

وقد ذكر التبريزى قصة هذه الأبيات وتفسير ألفاظها فى شرح الحماسة[2]

ومقصود الهذلى وصف ربيبه تأبط شرًّا بأنه جمع جميع أوصاف الرجال المحمودة ومعنى قوله ممن حملن به الخ إنه من الفتيان الذين حملتهم أمهم وهن غير مستعدات للفراش فنشأ محموداً مرضياً لم يدع عليه بالهَبَل والثكل . وحكى عن بعضهم : إذا أردت أن تنجب المرأة فأغضبها عند الجماع ، ولذلك يقال فى ولد المذعورة : إنه لا يطاق .

قال الشاعر :

تسنمتُها غَضْبى فجاء مُسَهَّدًا ... وأنفع أولاد الرجالِ المسهدُ

وقال المبرد فى الـكامل : يقال أنجب الأولاد ولد الفارك وذلك لأنها تبغض زوجها فيسبقها بمائه فيخرج الشبه إليه فيخرج الولد ذكراً . وقال بعض الحـكماء من العرب : إذا أردت أن تنجب المرأة فأغضبها ، ثم قم عليها فإنك تسبقها بالمـاء وكذلك ولد الفزعة كما قال أبو كبير : وأنشـد البيتين ، والنطاق بكسر النون شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الركبة والأسفل ينجر إلى الأرض . ومعنى قوله : حملت به فى ليله مَزْءودَةٍ ؛ أى فى ليلة ذات زؤد وهو الفزع المستوجب لعدم ميل النساء للجماع لانـكسار سورة شهوتهن إذ ذاك

---

(١) الصحاب الأصحاب ، والعيل جمع عائل وهو الفقير ههنا يصفه بأنه شجاع كريم (٢) أقول أما شرحها فقد كتبناه لك بعبارة موجزة سهلة ، وأما قصتها فهى : ان الهذلى تزوج أم تأبط شرا وكان صغيرا فلما رأى أبا كبير يكثر الدخول على أمه تنكر له وعرف ذلك أبو كبير فى وجهه فقال أبو كبير لأمه ويحك قد والله رابنى أمر هذا الغلام ولا آمنه فلا أقربك ، قالت فاحتل عليه حتى تقتله ، فقال له ذات يوم هل لك أن تغزو ؟ فقال : ذاك من أمرى ، فخرجا ليلا حتى اذا أدركهما مساء اليوم الثانى أبصرا نارا يعرف أبو كبير أنها نار أعداء لتأبط شرا فوجهه اليها فرأى عليها رجلين من ألص العرب فوثبا اليه يريدان قتله فلما كان أحدهما أقرب اليه من الآخر عطف عليه فقتله ورجع الآخر فرماه أيضا فقتله ثم جاء الى نارهما فأخذ الخبز وجاء الى أبى كبير فألح عليه حتى أخبره بالخبر فخاف أبو كبير منه فلما رجعا قال : ان ام هذا الغلام لا أقربها ابدا وقال هذه الأبيات

فلا يكون لهن فى الولد حظ كامل ، و يكون كال الشهوة لأبيه ، فيكتسب بذلك إتمام خصال الرجولية . وفائدة ذكر الليلة أن تكون بدأت بحمله ليلا وهو أنجب له وصاحبه يوصف بالشجاعة وقد دعاهم ذلك إلى أن وصلوا أنسابهم بالليل تحققاً به . وقال .

أنا ابنُ عم الليل وابنُ خاله　　إذا دجا دخلتُ فى سرباله

* لست كمن يَفْرَقُ من خياله (١) *

فتبين أن العرب كانت غاية مقاصدهم ومرمى نظرهم من الزواج التناسل والأولاد لا قضاء الشهوة الحيوانية ولذلك تتبعوا الأسباب الباعثة على نجابة ذراريهم .

ما يستحسن من المرأة لدى العرب خلقاً وخلقاً

اعلم أن العرب كانوا يكرهون الجمال البارع إما لما يحدث عنه من شدة الإدلال وقد قالوا : من بسطه الإدلال ، قبضه الإذلال ، و إما لما يخاف من محنة الرغبة و بلوى المنازعة . وقد حكى : أن رجلا شاور حكيما فى التزوج فقال له : افعل و إياك والجمالَ البارع فإنه مرعى أنيق فقال الرجـل وكيف ذلك ؟ قال : كما قال الأول :

لن تصادفَ مرعى مُمرعاً أبداً　　إلا وجدتَ به آثار منتجعَ (٢)

و إما لمـا يخافه اللبيب من شدة الصبوة و يتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه امرأة تقول :

إن النساء رياحين خُلِقْنَ لـكم　　وكلـكم يشتهى شم الرياحـين

فقال رضى الله تعالى عنه :

إن النساء شياطين خُلِقْنَ لنـا　　نعوذ بالله من شر الشياطين

و إن كان العقد رغبة فى الجمال فذلك أدوم للألفة من المـال لأن الجمال صفة

---

(١) دجا الليل : أظلم ، والسربال فى الأصل مايلبس من قميص أو درع ، وفرق كفرح يفرق فزع (٢) الممرع : الخصيب ، والمنتجع : المنزل فى طلب الكلاء

لازمة والمال صفة زائلة . ولذلك قيل : حسن الصورة أولى السعادة . وفى الحديث : « أعظم النساء بركةً أحسنهُن وجهاً وأقلهن مهراً » ، فإن سلمت الحال من الإدلال ، المفضى إلى الملال ، استدامت الألفة ، واستحكمت الوصلة « أما محاسن خلقها » فأن تكون شابة حسنة الخلق جميلة الوجه حسنة المعرى والقد ، لينة القصب لم يركب بعض لحمها بعضاً لطيفة البطن ، لطيفة الكشحين[١] . لطيفة الخصر[٢] . مع امتداد القامة طويلة العنق . فى اعتدال وحسن ، عظيمة الوركين والعجيزة ممتلئة الذراعين والساقين رقيقة الجلد . ناعمة البشرة . كأن الماء يجرى فى وجهها طيبة الريح . طيبة الفم . طيبة ريح الأنف . طيبة الخلوة . لعوباً ضحوكا . تامة الشعر . لم يكن لمرفقها حجم .

« وأما محاسن أخلاقها » فأن تكون حَيِيّةَ منخفضةَ الصوت محبةً لزوجها متحببةً إليه نفوراً من الريبة تجتنب الأقذار عاملة اليدين خفيفنهما فى العمل ولوداً ، « وعن أبى دريد » قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال وصف أعرابى نساء فقال : يلتثمن على السبائك[٣] ويتّشِحْنَ على النيازك[٤] ، ويأْتَزِرْنَ على العوانك[٥] ، ويرتفعن على الأرائك[٦] ، ويتهادَيْنَ على الدرانك[٧] ، ابتسامهن وميض[٨] ، عن وليع كالأغريض[٩] ، وهن إلى الصبا صُور[١٠] ، وعن الخنا نَور[١١] « وعن أبى دريد » أيضاً بسنده إلى أبى عمرو بن العلاء قال : كان لرجل من مقاول[١٢] حمير ابنان يقال لأحدهما عمرو وللآخر ربيعة وكانا قد برعا فى العلم

---

(١) الكشح : كفلس مابين الخاصرة الى الضلع الخلف (٢) الخصر من الانسان وسطه وهو المستدق فوق الوركين (٣) اللثام على الفم واللفام على طرف الأنف يقال تلثمت المرأة وتلفمت المرأة ، والسبائك ههنا الأسنان شبهها لبياضها بالسبائك (٤) يتشحن : يتقلدن ، والنيازك واحدها نيزك وهو الرمح القصير (٥) واحدها عانك وهو رمل منعقد يشقى فيه البعير لايقدر على السير فيقال حينئذ قد اعتنك (٦) السرر واحدها أريكة ، وقال قوم الفرش (٧) واحدها درنوك وهو الطنفسة ، ويتهادين : يمشين مشيا ضعيفا ، قال الأعشى

تهادى كما قد رأيت البهيرا

(٨) اللمعان الخفى (٩) الاغريض والوليع : الطلع (١٠) أى موائل ومنه قيل للمائل العنق أصور والصبا جهلة الفتوة (١١) أى نفر من الريبة واحدها نوار ، والخنا : الفحش (١٢) جمع مقول بكسر الميم وهو الرئيس دون الملك

والأدب ، فلما بلغ الشيخ أقصى عمره وأشفى على الفناء ، دعاهما ليبلو عقولهما ويَعْرِفَ مبلغَ علمهما فلما أتياه سألهما عن أشياء فأحسنا فى الجواب عنها . ولعلنا نورد كل سؤال مع جوابه فيما يناسبه من مباحث الكتاب ومطالبه . وقد سألهما عن حال النساء فقال اخبرنى يا عمرو أى النساء أحب إليك ، قال الهِرْكَوْلَةُ اللفّاء[١] ، الممكورة الجيْداء[٢] ، التى يشفى السقيم كلامها ، ويبرى الوصِب[٣] إلمامُها ، التى إن أحسنتَ إليها شكرَتْ ، وإن أسأْت إليها صبرَتْ ، وإن استعتبتها أعتَبَتْ ، الفاترة الطَرْف ، الطفلة الكف[٤] ، العميمة الرِدف[٥] . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : نعَتَ فأحسَنَ وغيرُها أحبُّ إلىَّ منها . قال : ومن هى ؟ قال : الفتانة العينين ، الأسيلة الخدين[٦] ، الكاعب الثديين[٧] الرَداح الوَرِكين[٨] ، الشاكرة للقليل ، المساعدة للحليل ، الرخيمة الكلام[٩] ، الجمّاء العظام[١٠] ، الكريمة الأخوال والأعمام العَذْبة اللثام[١١] ، وقال رجل من العرب لآخر وقد أراد أن يتزوج : خذ ملساء القدمين ، لفاء الفخذين ضخمة الذراعين رخصة الكفين[١٢] ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين كحلاء العينين ، زجآء الحاجبين[١٣] ، لمياء[١٤] الشفتين ، بلجاء الجبين[١٥] شماء العرنين[١٦] ، شنباء[١٧] الثغر ، مُحْلَولِكة الشعر[١٨] ، غيداء العنق[١٩] . مكسرة البطن . . وقد وصف

---

(١) الهركولة كبرذونة الحسنة الجسم والخلق والمشية ، واللفاء الملتفة الجسم (٢) الممكورة : المطوية الخلق : والجيداء : الطويلة العنق أو دقيقتها مع طول (٣) المريض (٤) الطفل الناعم من كل شيء (٥) العمم عظم الخلق فى الناس وغيرهم ، وردف المرأة : عجزها (٦) الاسيل من الخدود : الطويل المسترسل (٧) هى التى نتأ ثديها (٨) هى الثقيلة العجيزة الضخمة الوركين (٩) هى اللينة الكلام ، قال ذو الرمة

لها بشر مثل الحرير ومنطق   رخيم الحواشى لاهراء ولا نزر

(١٠) هى التى لايوجد لعظمها حجم بمنزلة الجماء من البقر (١١) اراد موضع اللثام فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (١٢) أى ناعمتها (١٣) هى الدقيقة الحاجبين فى طول (١٤) هى التى فى شفتيها سمرة أو شربة سواد (١٥) البلج : نقاوة مابين الحاجبين (١٦) الشمم : ارتفاع الأنف ، والعرنين من كل شيء أوله ومنه عرنين الأنف لأوله وهو ماتحت مجتمع الحاجبين وهو موضع الشمم (١٧) هى التى فى أسنانها رقة وعذوبة أو فيها حدة تراها كالمنشار (١٨) المحلولك : الشديد السواد (١٩) أى مائلة العنق

المنذر الأكبر جارية أهداها إلى كسرى أنوشروان فقال فى كتابه له إنى قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ، بيضاء وطفاء[١] ، كحلاء ، دعجاء[٢] ، حوراء[٣] ، عيناء[٤] ، قنواء[٥] ، شماء[٦] ، برجاء[٧] ، زجاء[٨] ، أسيلة الخد ، شهية المقبل ، جثلة الشعر[٩] ، عظيمة الهامة ، بعيدة مهوى القُرط[١٠] ، عيطاء[١١] عريضة الصدر ، كاعب الثدى ، ضخمة مُشاش[١٢] المنكب والعضد ، حسنة المِعْصم[١٣] ، لطيفة الكعب والقدم ، قَطُوف المشى[١٤] مِكْسال الضحى ، بضة المُتَجَرَّدْ[١٥] سموعٌ للسيد ، ليست بخنساء[١٦] ولا سفعاء[١٧] رقيقة الأنف ، عزيزة النفس ، لم تغذَ فى بؤس ، رزينة ، حليمة ، ركينة ، كريمة الخال ، تقتصر على نسب أبيها ، دون فصيلتها[١٨] ، وتستغنى بفضيلتها ، دون جماع قبيلتها[١٩] ، قد أحكمتها الأمور فى الأدب ، فرأيها رأى أهل الشرف ،

---

(١) هى الكثيرة شعر الحاجبين والعينين (٢) هى الشديدة سواد العين مع سعتها (٣) فى مختصر العين ولا يقال للمرأة حوراء الا البياض مع حورها (٤) أى حسنة العينين واسعتهما (٥) بينة القنا والقنا ارتفاع أعلى الأنف واحديداب وسطه وسبوغ طرفه أو نتوسط القصبة واشراقه وضيق المنخرين من غير قبح ، وفى صفته صلى الله عليه وسلم كان أقنى العرنين ، وفى قصيدة كعب

قنواء فى ضرتيها للبصير بها   عتق مبين وفى الخدين تسهيل

(٦) مر تفسيره قريبا (٧) البرج محركة أن يكون بياض العين محدقا بالسواد كله (٨) هى التى يترجرج كفلها أى يضطرب (٩) أى كثيرته وغليظته (١٠) القرط الشنف أو المعلق فى شحمة الأذن ويقال ان أول من استعمل لفظ القرط فى نظمه هو عمرو ابن أبى ربيعة ، حيث يقول :

بعيدة مهوى القرط اما لنوفل   أبوها واما عبد شمس وهاشم

وادعى بعضهم أنه من مخترعات امرىء القيس ولم نعثر عليه فى شعره والله أعلم

(١١) هى الطويلة العنق (١٢) المشاش : رؤوس العظام المكنة المضغ (١٣) كمنبر موضع السوار من الساعد (١٤) القطوف التى تعجل سيرها مع تقارب الخطو (١٥) البضاضة : نعومة البدن ورقة الجلد ، وفى القاموس وشرحه للزبيدى : امرأة بضة الجردة والمجرد والمتجرد أى بضة عند التجرد والمتجرد على هذا مصدر فان كسرت الراء أردت الجسم ، وفى التهذيب : امرأة بضة المتجرد اذا كانت بضة البشرة اذا جردت من ثوبها ، انتهى باختصار (١٦) الخنساء هى التى انخفضت قصبة أنفها (١٧) هى التى فى خديها سواد وشحوب (١٨) الفصيلة من الرجل عشيرته ورهطه الأدنون أو أقرب آبائه اليه (١٩) جماع الناس كرمان أخلاطهم من قبائل شتى ومن كل شىء مجتمع أصله وكل ماتجمع وانضم بعضه الى بعض

وعملها عمل أهل الحاجة ، صَناع الكفين[١] ، قطيعة اللسان[٢] ، رهوة الصوت[٣] سا كنة تزين الولى ، وتشين العدو ، ان أردتها اشتهت ، وإن تركتها انتهت ، تحملق[٤] ، عيناها ، وتحمر وجنتاها ، وتذبذب شفتاها[٥] ، وتبادرك الوثبة إذا قمت ولا تجلس إلا بأمرك إذا جلست . . وأحسن ما رأيت من وصف النساء خَلقاً وخُلُقاً ما ذكره كثير من أئمة الأدب ومنهم الميدانى فى كتابه مجمع الأمثال عند قولهم (ما وراءك يا عِصام) قال : قال المفضل ؛ أول من قال ذلك الحارث ابن عمرو ملك كندة[٦] ، وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عَوْف بن محلم ، وكمالها ، وقوة عقلها ، دعا امرأةً من كندة يقال لها عِصام ذاتَ عقلٍ ولسان وأدب ، وقال لها : اذهبى حتى تعلمى عِلْمَ ابنة عوف فمضت حتى انتهت إلى أمها وهى أمامة بنت الحارث فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت إلى ابنتها ، وقالت : أىْ بُنَيّة هذه خالتك أتتك لتنظر إليك ،فلا تسترى عنها شيئاً إن أرادت النظر من وجه أو خُلُقٍ وناطقيها إن استنطقتك فدخلت إليها ، فنظرت إلى مالم ترَ مثله قط فخرجت من عندها وهى تقول (ترك الخداع ، من كشف القناع) فأرسلتها مثلا . ثم انطلقت إلى الحارث فلما رآها مقبلة قال : ماوراءكِ ياعصام ؟ قالت : صَرَّح المخضُ عن الزُبْدِ[٧] ، رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يَزِينها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن

---

(١) امرأة صناع اليدين كسحاب حاذقة ماهرة بعمل اليدين (٢) اى غير سليطة (٣) من الرهو وهو السكون (٤) حملق فتح عينيه ونظر شديدا (٥) الدبدبة هو أن يسمع الرجل ولا يدرى مايقول يعنى أنها اذا تكلمه لايسمع صوتها ولا يدرى ماتقول من حيائها (٦) وقيل ان المثل على التذكير ، وقائله النابغة الذبيانى قاله لعصام بن شهير حاجب النعمان وكان مريضا وقد أرجف بموته فقال :

فانى لاَ ألومك فى دخول ولكن ما وراءك يا عصام

يقول لست ألومك بمنعك اياى من الدخول ولكن أعلمنى حقيقة خبره ، ويجوز أن يكون أصل المثل ماذكر أولا ثم اتفق الاسمان فخوطب كل بما استحق من التذكير والتأنيث كما فى فرائد اللآل (٧) صرح الشيء بالضم صراحة وصروحة خلص من متعلقات غيره فهو صريح ، ومخضت اللبن مخضا اذا استخرجت زبده بوضع الماء فيه وتحريكه فهو مخيض فعيل بمعنى مفعول ، والزبد كقفل مايستخرج بالمخض من لبن البقر والغنم وأما لبن الابل فلا يسمى مايستخرج منه زبدا بل يقال له جباب والزبدة أخص من الزبد

أرسلته خِلتَهُ سلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل [١] ، وحاجبين كأنما خطّا بقلم ، أو سُوّدا بِحُمَم [٢] ، تقوّسا على مثل عين الظبية العَبْهَرة [٣] ، بينهما أنف كحد السيف الصنيع [٤] ، حَفّتْ به وجنتان ، كالأُرْجُوان [٥] ، فى بياض كالْجُمان [٦] شُقّ فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غُرّ ، ذات أُشُر [٧] ، تقلب فيه لساناً بفصاحة و بيان [٨] ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقاً كالشهد إذا دُلك ، فى رقبة بيضاء كالفضة ، رُكبت فى صدر كصدر تمثال دُمية [٩] ، وعضُدان مُدْمَجان ، يتصل بهما ذراعان ، ليس فيهما عظم يُمسّ ولا عِرْق يُحَسّ ، ركبت فيهما كفّان دقيقٌ قصبهما ، لَيّن عصبهما ، تعقدان شئت منهما الأناملْ ، نتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طُوِىَ طىَّ القُبَاطِىِّ [١٠] المدمجة ، كسّر عكَنًا [١١] كالقراطيس المدرّجة ، تحيط بتلك العكَن سُرّة كالمدهُن المجلوّ ، خلفَ ذلك ظهر فيه كالجدول [١٢] ، ينتهى إلى حصر [١٣] لولا رحمة الله لانبتر [١٤] ، لها كفل يقعدها إذا نهضت ، و ينهضها إذا قعدت ، كأنه دِعصُ [١٥] رمل لَبّدَهُ سقوط الطلّ ، تحمله فخذان لُفّا كأنما قُلبا على نَضد جُمان ، تحتها سافان خدلتان [١٦] ، كالبردتين وشّيتا بشعر أسود ، كأنه حلقُ الزرَد ، يحمل ذلك قدمان كحذْو اللسان ، فتبارك الله مع صغرها ، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ، فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجها إياه . و بعث

---

(١) المطر الشديد الضخم القطر (٢) كصرد الفحم واحدته بهاء ، وحمم : سخم الوجه به (٣) الممتلئة الجسم والعظيمة والناعمة الطويلة والجامعة لتحسن (٤) الصقيل المجرب (٥) الصبغ الأحمر الشديد الحمرة (٦) بالضم اللؤلؤ أو هنوات أشكال اللؤلؤ من فضة الواحدة جمانة (٧) أشر الأسنان وأشرها التحزيز الذى فيها يكون خلقة ومستعملا ونهى عنه ، وفى حديث لعنت الآشرة والمأشورة (٨) وفى نسخة : تقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان (٩) بالضم الصورة المنقشة من الرخام أو عام (١٠) الثياب المنسوبة الى القبط بالكسر نصارى مصر (١١) جمع عكنة كغرفة وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا (١٢) النهر الصغير ، ويكون ذلك اذا ازداد السمن (١٣) هو من الانسان وسطه وهو المستدق فوق الوركين (١٤) انبتر : انقطع (١٥) بالكسر قطعة من الرمل مستديرة أو الكثيب منه المجتمع أو الصغير والجمع دعص وادعاص ودعصة (١٦) أى ممتلئتان ضخمتان مستديرتان

بصداقها لجهزت . فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها : أى بُنيّةُ إن الوصيةَ لو تُركت لفضلِ أدبٍ تُرِكتْ لذلك منكِ ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعولة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خُلقن ، ولهن خُلق الرجال ، أى بنيّة إنك فارقت الجوّ الذى منه خرجت ، وخلفت العُشّ الذى فيه درجتِ ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرينٍ لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكا ، فكونى له أمَةً يكنْ لك عبداً وشيكا . يا بنية احملى عنى عشرَ خصالٍ يكنّ لك ذُخراً وذكرا : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينيه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلاتقع عيناه منك على قبيح ، ولايشم منك إلا طيبَ ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه حين منامه ؛ فإن حرارة الجوع مَلْهَبة ، وتنغيص النوم مَبغْضةَ ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فان الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء[1] على العيال والحشم حسن التدبير ، ولا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره ، لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره ، أوْغَرْتِ صدره[2] ، ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان تَرِحا[3] ؛ والاكتئابَ عنده إن كان فَرِحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاما ، يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة ، أطولَ ما تكونين له مرافقة ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبّينَ حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت والله يخيرُ لكِ . . . فحملت إليه فعظم موقعها منه وولدت له الملوك السبعةَ الذين ملكوا بعده اليمن . انتهى

---

(١) الارعاء الابقاء على أخيك ، قال ذو الاصبع :

بغى بعضهم بعضا فلم يرعو على بعض

(٢) وغر صدره وغرا : امتلأ غيظا (٣) ترح ترحا فهو ترح مثل تعب تعبا فهو تعب اذا حزن ويتعدى بالهمزة

ما أورده الميدانى ، ومثل ذلك فى عقد الأندلسى . . . وفى الشعر الجاهلى كثير من أوصاف النساء المحمودة ، من ذلك قول بعضهم من قصيدة :

بيضاء قد لبس الأديم أديـ ... م الحسن فهو لجلدها جلدُ
ويَزِينُ فَوْدَيْهاَ إذا حسرت ... ضافى الغدائر فاحمٌ جَعْدُ (١)
فالوجه مثل الصبح مبيض ... والفرع مثل الليل مسودُ (٢)
وجبينها صَلْتٌ وحاجبها ... شخت المخطّ أزج ممتدّ (٣)
وكأنها وَسْنَى إذا نظرتْ ... أو مدنفٌ لما يفُقْ بعدُ (٤)
بفتورِ عينٍ ما بها رمَدٌ ... وبها تداوى الأعين الرُمْدُ
وتُريك عرنيناً به شَمَمٌ ... وتريك خداً لونه الورد (٥)
وتجيل مسواكَ الأراك على ... رَتَلٍ كأنَّ رُضابَهُ الشهدُ (٦)
والجيد منها جيد راتعة ... تعطو إذا ما طالها المَرْدُ (٧)
وامتد فى أعضادها قصب ... فعم تلته مرافق ورد (٨)
والمعصمان فما يرى لهما ... من نَعمة وغضاضةٍ زند (٩)
ولها بنَانٌ لو أردتَ بها ... عَدْاً بكفك أمكن العَقْدُ (١٠)

(١) الفود : معظم شعر اللمة مما يلى الأذنين وناحية الرأس ، وقال ابن السكيت الفودان الضفيرتان ، والغدائر جمع غديرة وهى الذاؤبة ، والفاحم : الأسود ، والجعد من الشعر خلاف السبط أو القصير منه ، وحسرت المرأة خمارها كشفته (٢) الفرع الشعر التام ، ويروى بدل مبيض (منبلج) (٣) الصلت الجبين الواضح وقد صلت صلوتة ، والشخت : الدقيق ، والأزج الحاجب الدقيق فى طول (٤) الوسن بفتحتين : النعاس ورجل وسنان وامرأة وسنى بهما سنة ، والمدنف : المريض الذى لازمه المرض (٥) العرنين من كل شىء أوله ومنه عرنين الأنف لأوله وهو ماتحت مجتمع الحاجبين وهو موضع ارتفاع الشمم أى ارتفاع الأنف ، ويروى البيت :

وتريك عرنينا يزينه ... شمم وخدا لونه الورد

(٦) الأراك : شجر من الحمض يستاك بقضبانه الواحدة اراكة ، والرتل محركة بياض الأسنان وكثرة مائها ، والرضاب : الريق المرشوف أو قطع الريق فى الفم (٧) تعطو : ترفع رأسها والمرد : الغض من ثمر الأراك أو نضيجه (٨) الفعم الممتلىء ، وقوله تلته يروى بدله زهته ، والمرافق جمع مرفق وهو موصل الذراع فى العضد ، وقوله ورد هكذا بالأصل وفى بعض النسخ درد فليحقق (٩) المعصم كمنبر موضع السوار من الزند ، ونعم الشىء : لان ملمسه (١٠) البنان الأصابع أو اطرافها

وكأنما سقيت ترائبها والنحر ماء الورد إذ تبدو[١]
وبصدرها حقان خلتهما كافورتين علاهما ندّ[٢]
والبطن مطوى كما طويت بيضُ الرياط يصونها المَلْدُ[٣]
وبخصرها هَيَفٌ يزينه فإذا تنوء يكاد ينقد[٤]
والتف حاذاها وفوقهما كَفَلٌ كدِعْصِ الرمل مشتدُّ[٥]
وقيامها مَثْنى إذا نهضت من لينها وقعودها فرد
والكعب أدْرَمُ ما يَبِينُ له حجمٌ وليس لرأسه حَدُّ[٦]
ومشت على قدمين خصّرتا والتفّتا فتكامَلَ القدُّ
ما عابها طولٌ ولا قِصَرٌ في خلقها فقوامها قصدُ

والقصيدة طويلة ولها قصة مشهورة . وكانت العرب مع اعتبارهم هذه الأمورَ في المرأة يُرَاعون شرف الفضيلة ، وهم الذين ينتفي بهم العار ، ويحصل بهم الاستكثار . وفي الحديث « تخيروا لنطفكم ولا تضعوها إلا في الأكفاء » . وروى أن أكثم بن صيفي قال لولده : يابنيّ لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فإن المناكح اللئيمة مدرجة للشرف . قال أبو الأسود الدؤلي لبنيه : قد أحسنتُ إليكم صغاراً وكباراً ، وقبل أن تولدوا . قالوا : وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ قال . اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها . وأنشد الرياشي :

فأول إحساني إليكم تخيرى لماجدة العراق بادٍ عَفافُها[٧]

---

(١) الترائب : موضع القلادة ، والنحر أعلى الصدر (٢) الحقان : الثديان ، والند : طيب معروف ويكسر أو العنبر (٣) الرياط جمع ريطة وهى كل ثوب لين رقيق ، والملد : الناعم اللين من الرجال (٤) الخصر من الانسان وسطه وهو المستدق فوق الوركين ، والهيف محركة ضمر البطن ورقة الخاصرة ، وتنوء : تنهض ، وينقد : ينقطع (٥) الحاذان ماوقع عليه الذنب من ادبار الفخذين واعل الأولى (فخذاها) بدل حاذاها كما فى بعض الكتب ، والكفل : العجز . والدعص : الكثيب من الرمل المجتمع (٦) الأدرم فسره بقوله مايبين له حجم وليس لراسه حد (٧) أقول : أن شعر العرب وكلامهم فى هذا الباب جاهلية واسلاما لايعد ولا يحصى وقد درجوا على العمل بهذه الوصايا الى يومنا هذا .. ومن لطيف ما أحفظ بيتان لأحد الشعراء وهما :

النعوت المذمومة فى المرأة عند العرب خلقاً وخلقاً

مايلزم التحرز عنه من صفات الذات وأحوال النفس أمورٌ كثيرة مآلها إلى بعد الخير عنها ، وقلة الرشد فيها ، فإن كوامنَ الأخلاق باديةٌ فى الصور والأشكال كالذى روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لزيد بن حارثة : أتزوجت يازيد ؟ قال : لا . قال : تزوج تَسْتَعفِف مع عفتك ، ولا تتزوج من النساء خمساً . قال : وما هن يارسول الله ؟ قال : لاتتزوج شَهْبَرَةً ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هندرة ولا لفوتا . فقال يارسول الله إنى لا أعرف مما قلت شيئاً . قال أما الشهبرة فالزرقاء البذية . أما اللهبرة فالطويلة المهزولة . وأما النهبرة فالعجوز المدبرة . وأما الهندرة فالقصيرة الدميمة . وأما اللفوت فذات الولد من غيرك . . وقال شيخ من بنى سليم لابنه : يابنى إياك والرَقُوب والغَضُوب القَطوب : الرقوب التى تراقبه أن يموت فتأخذ ماله . وأوصى بعض الأعراب ابنه فى التزوج فقال : إياك والحنَّانة والمنّانة والأنّانة فالحنانة التى تحن لزوج كان لها ، والمنانة التى تمن على زوجها بمالها . والأنانة التى تئن كسلا وتمارضاً . وقال أوفى بن دلهم : النساء أربع ، فمنهن مقمع ، لها سنها أجمع ومنهن ممنع ، تضر ولا تنفع ، ومنهن مصدع ، تفرق ولا تجمع ، ومنهن غيث وقع ، ببلد فأمرع[1] . وقال الشاعر :

أرى صاحب النسوان يحسب أنها ... سواء وبَوْنٌ بينهن بعيد[2]

فمنهنّ جنّاتٌ يفىء ظلالها ... ومنهن نيران لهن وقيد

وروى ابن دريد عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهى تقول : والله إن شربَك لاشتفاف[3] ، وضجعتك لانجعاف[4]

لاتخطبن سوى كريمة معشر ... فالعرق دساس من الطرفين

او ماترى أن النتيجة دائما ... تبع الأخس من المقدمتين

(١) أى أخصب بكثرة الكلأ (٢) البون بالضم مسافة مابين الشيئين ويفتح وبينهما بون أى بين درجتيهما أو بين اعتباريهما فى الشرف وأما فى التباعد الجسمانى فتقول بينهما بين بالياء كذا فى المصباح (٣) هو شرب مافى الاناء كله (٤) الانجعاف : الانصراع يقال ضربه فجلفه وجعفه

وشملتَك الالتفاف ، وإنك لتشبع ليلة تضاف ، وتنام ليلة تخاف . فقال لها : والله إنك لَكَرْواء الساقين[١] ، قعواء الفخذين[٢] ، مقاء الرفغين[٣] ، مفاضة الكشحين[٤] ضيفك جائع ، وشرك شائع ، ومن جملة أسئلة القيل الحميرى ولديه أنه قال : وأىُّ النساء أبغضُ إليك ياعمرو ؟ قال : القتاتة الكذوب[٥] ، الظاهرة العيوب ، الطوافة الهبوب[٦] ، العابسة القَطوب[٧] السبابة الوثوب ، التى إن ائتمنها زوجها خانته ، وإن لان لها أهانته ، وإن أرضاها أغضبته ، وإن أطاعها عصته قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس — والله — المرأةُ ذكر وغيرُها أبغض إلىّ منها قال : وأيتهن التى هى أبغض منها ؟ قال : السليطة اللسان[٨] ، المؤذية للجيران ، الناطقة بالبهتان ، التى وجهها عابس ، وزوجها من غيرها آيس ، التى إن عاتبها زوجها وترته[٩] ، وإن ناطقها انتهرته . قال ربيعة : وغيرها أبغض إلىّ منها . قال : ومن هى ؟ قال : التى شقى صاحبها ، وخزى خاطبها ، وافتضح أقاربها . قال : ومن صاحبها ؟ قال : صاحبها مثلها ، فى خصالها كلها . لا تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها . فصفه لى . قال : الكفور غير الشكور ، اللئيم الفَجُور ، العبوس الكالح[١٠] الحرُون الجامح[١١] ، الراضى بالهوان ، المختال المنان ، الضعيف الجنان[١٢] الجَعْدُ البنان[١٣] ، القئول غير الفعول ، الملول غير الوصول ، الذى لا يبرح عن

---

(١) اكرواء الدقيقة الساقين والكرا دقة الساق والكرى النوم والكرا بمعنى الكروان وكرآء ممدود : موضع (٢) قال أبو بكر : القعواء المتباعدة مابين الفخذين ولم يسمع هذا من غيره ، والذى ذكره اللغويون فى كتبهم : الفجواء المتباعدة مابين الفخذين ، هذا مازعمه أبو على القالى (٣) قال أبو زيد : المقاء الدقيقة الفخذين وكذلك الرفغاء ، وقال الأصمعى المقاء الطويلة والمقق الطول ورجل أمق طويل (٤) أى مسترخية الخاصرتين (٥) القتاتة : النمامة ، وقال الحيانى : القتات والنمام والهماز واللماز والغماز والقساس والدراج والمهينم والمهتمل والمآئس والمؤوس مثال معوس والمماس مثال ممعس وقد مأس يمأس مأسا اذا مشى بينهم بالنميمة والفساد ، ويقال مأس بين الناس ومسأ بينهم يمسأ مسأ مثل معسا وكله واحد ويقال انه لذونيرب ومئبرة وابرة اذا كان نماما كله عن اللحيانى (٦) الكثيرة الانتباه (٧) قطب يقطب فهو قطوب زوى مابين عينيه وكلح (٨) أى البذية اللسان (٩) أى أدركته بمكروه (١٠) كلح كلوحا وكلاحا بضمهما تكشر فى عبوس (١١) يقال حرنت الدابة فهى حرون وهى التى اذا استدر جريها وقفت والجامح الذى يركب هواه (١٢) بالفتح القلب (١٣) أى بخيل

المحارم ، ولا يرتدع عن المظالم ؛ وذكر أهل الأدب كثيراً من معايبهن .. ومن النعوت المذمومة : أن تكونَ المرأة نهاية في السمَن والعظم ضخمة البطن ، مسترخية اللحم ، ضخمة الثديين ، طويلتهما ، مسترخيتهما ، أو أن تكون قليلة اللحم ، قصيرةً ، دميمة[1] ، غير طيبة الخلوة ، دقيقة الساقين والذراعين ، منتنة الريح ، أو أن تكون حديدة اللسان ، شديدة الصوت ، جريئة قليلة الحياء ، بذيئة فاحشة وقحة ، وتسمى هذه سَلْفَعَةَ ؛ وفي الحديث «شرهن السلفعة» . ومن الشعر المشتمل على ما يذم من النساء قول قائلهم :

لِأَسْماءَ وَجْهٌ بِدْعَةٌ من سماجةٍ ... يرغبني في نَيْكِ كلّ أتان[2]
بدا فبدت لي شُقةٌ من جهنم ... فقمت ومالي بالجحيم يدان[3]
وغادرت أصحابي الذين تخلفوا ... بما شئتَ من خزي وطول هوان[4]
وما كنت أدري قبلها أن في النسا ... جحيماً أراها جهرةً وتراني

وقال آخر :

رَقْطاءَ حَدْباءُ يُبْدِي الـكبْدَ مضْحَكها ... قَنواء بالعَرْض والعينان بالطول[5]
لها فَمٌ مُلتقَى شِدْقَيْه نقرتها ... كأنَّ مِشْفَرَهَا قد طُرَّ من فيلِ[6]
أسنانها أُضعِفَتْ في خَلْقِهَا عَدداً ... مُظهَّرَاتٍ جميعاً بالرواويل[7]

وقال آخر في القصر :

ألا يا شبيهَ الدُب مالكَ معرضاً ... وقد جعلَ الرحمنُ طولكَ في العَرْض[8]
وأقسم لو خرّتْ من استكَ بيضةٌ ... لما انكسرت لقرب بعضك من بعض

---

(١) الدمامة بالفتح قبح المنظر وصغر الجسم وكأنه مأخوذ من الدمة بالكسر وهى القملة او النملة الصغيرة (٢) قوله بدعة أى لم يصنع مثله فى القبح ، والسماجة : القباحة ، والاتان : الأنثى من الحمير (٣) الجحيم : النار ، واليدان أراد بهما القوة (٤) غادرت : تركت . والخزى : الوقوع فى البلية (٥) الرقطاء : المنقطة بالبرش ، والحدباء : الخارجة الظهر ، والكبد الشدة ، وقوله قنواء بالعرض الخ يعنى به أن طول أنفها قد بدأ بالعرض وعرض عينيها قد بدا بالطول فصار الحسن قبحا (٦) قوله نقرتها أراد لقرز قفاها ، ومعنى طر قطع من طرته أى جانبه يصفها بأن فمها فى السعة بلغ نقرة القفا وأن شفتها غاية فى الغلظ كأنها قطعة من شفة الفيل (٧) قوله مظهرات أى جعل بعضها فوق بعض ، والرواويل جمع راوول وهو اللعاب وكل سن زائدة لاتنبت على نبتة الأضراس (٨) المعرض : الذاهب فى العرض ، وخرت : سقطت . والاست الدبر .

وقال آخر :

أَلِمْ بجوهَرَ بالقُبضانِ والَمدَر ... وبالعصىّ التى فى روسها عُجَر[١]

أَلِمْ بِهـا لا لتسليم ولا مِقَةٍ ... إلا لِيَـكْسِرَ منها أنفَها الحجرُ[٢]

أَلِمْ بوطباء فى أشداقها سَـعةٌ ... فى صورة الـكاب إلا أنها بشر[٣]

حدباء وقصاء صيغت صيغةً عجباً ... وفى ترائبها عن وصفها زَوَر[٤]

وقال آخر :

لا تَنْـكِحَنَّ الدهر ما عشتَ أَيِّماً ... مُخَرّمةً قد ملَّ منها ومَلَّتِ[٥]

تَحُكُّ قفاها من وراء خمـارها ... اذا فقدت شيئاً من البيت جُنت[٦]

تجودُ بِرِجْلَيْها وتمنـع دَرَّها ... وإنْ طُلِبَتْ منها المودة هَرَّتِ[٧]

وقال آخر :

لا تَنْـكِحَنَّ عجوزاً إن اُتيتَ بهـا ... واخلَعْ ثيابك منها مُمْعِناً هَرَبا[٨]

وإن أتوك وقالوا : إنها نَصَفٌ ... فإن أمثلَ نِصْفَيْها الذى ذَهَبا[٩]

إلى غير ذلك من الشعر المشتمل على ما يذم من أوصاف النساء وكتب الأدب مشحونة منه . وربما اختار بعض العرب غير المستـكملة للأوصاف المحمودة رغبة فى حسبها .

---

(١) الالمام : الزيارة الخفيفة ، وقوله بالقضبان أى والقضبان معك كما يقال خرج بسلاحه أى والسلاح معه ، والعجر جمع عجرة وهى العقدة (٢) المقة : المحبة (٣) الوطباء : العظيمة الثديين ، والأشداق : جوانب الفم (٤) الحدباء : الخارجة الظهر الداخلة الصدر ، والوقصاء : القصيرة العنق ، والترائب ، عظام الصدر ، والزور : الميلان ، ومعنى الأبيات الأربعة : ان ترد أن تأتى هذه المرأة فلا تأتها الا ومعك العصا والحجارة لضربها ولا يكن اتيانك لتسليم عليها أو لمحبة لها بلّ لتكسر بالحجر أنفها وهذه المرأة بشعة الخلق كبيرة الفم أشبهت الكلاب فى الصورة وان كانت بشرا معوجة الظهر قصيرة العنق مائلة عظام الصدر أعجوبة من عجائب الدهر (٥) أراد بالنكاح العقد أى لاتتزوج ، والايم من النساء التى فارقها زوجها بموت أو طلاق ، وقوله مخرمة أى كثر الدعاء عليها أن تخترمها المنية أى تأخذها ، وقوله قد مل منها يريد انها طعنت فى السن وقضت مأرب الشهوات وقضيت منها (٦) قوله تحك قفاها أى من وسخها وكثرة القمل عليها ، والخمار ماتستر به المرأة وجهها (٧) قوله تجود برجليها هذا مثل أى تسرع بشرها ، وتمنع درها أى خيرها ، وهرت : نبحت مثل الكلاب (٨) أمعن فى الهرب : أسرع فيه وأبعد (٩) النصف من النساء : ماتكون لا صغيرة ولا كبيرة ، والأمثل : أفضل

ما ورد عن عرب الجاهلية في الزوج من الصفات المحمودة وغيرها

عن أبي بكر بن دريد قال : حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي عن أبيه قال : كان قَيْل[1] من أقيال حمير . منع الولد دهراً ثم ولدت له بنت فبنى لها قصراً منيعاً بعيداً من الناس ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها و يؤدّبنها حتى بلغت مبلغ النساء فنشأت أحسن منشأ وأتمه فى عقلها وكمالها فلما مات أبوها ملكها أهل مِخْلافها[2] فاصطنعت النسوة اللاتى ربينها وأحسنت إليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوما : يا بنتَ الكرام لو تزوجت لتم لك الملك . فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عز فى الشدائد ، وفى الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، و إن مرضت لطف . قالت : نعم الشئ هذا . فقالت الثانية : الزوج شعارى حين أَصْرَد[3] ، ومُتَّكَئى حين أرقُد ؛ وأُنسى حين أفرد . فقالت : إن هذا لمن كمال طايب العيش ، فقالت الثالثة : الزوج لما عنانى كاف ، ولما شَفَّنى[4] شاف يكفينى فقد الأُلاَّف ، ريقه كالشُهد ، وعناقه كالخلد لا يمل قرانه ، ولا يخاف حرانه . فقالت أمهلننى أنظر فيما قلتنّ ، فاحتجبت عنهن سبعاً ثم دعتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتنى أملكه رقى ، وأبثه باطلى وحقى ، فإن كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق[5] ، فقد أدركت بِغيتى[6] ، و إن كان غير ذلك فقد طالت شِقْوتى ، على أنه لا ينبغى إلا أن يكون كفؤاً كريماً ، يسود عشيرته ، و يرُبُّ فصيلته[7] لا أتقنَّع به عاراً فى حياتى ، ولا أرفع به شَناراً[8] لقومى بعد وفاتى ، فعليكُنَّه فابغينه وتفرقن فى الأحياء ، فأيتكن أتتنى بما أحب فلها أجزل الحِباء[9] علىّ لها

---

(١) القيل : الملك أو دون الملك الأعلى (٢) بكسر الميم بلغة اليمن الكورة والجمع المخاليف واستعمل على مخاليف الطائف أى نواحيه وقيل فى كل بلد مخلاف اى ناحية (٣) أى ابرد (٤) يقال شفه الهم : أى أهزله (٥) الدواهى (٦) بالكسر الحاجة التى تبغيها وضمها لغة وقيل بالكسر الهيئة وبالضم الحاجة (٧) يرب يجمع ويصلح ، والفصيلة من الرجل عشيرته ورهطه الأدنون وأقرب آبائه اليه (٨) الشنار العار (٩) العطاء

الوفاء ، فخرجن فيما وجهتهن له وكن بنات مقاول ذوات عقل ورأى . فجاءتها إحداهنّ وهى عَمرّطَةُ بنت زرعة ابن ذى خفر . فقالت : قد أصبتُ البغية . فقالت : صفيه ولا تسميه . فقالت غيثٌ فى المحل ، ثِمال فى الأَزْل[1] ، مُفيد ، مُبيد ، يصلح النائر[2] ، وينَعْشُ العاثر ، ويعْمر الندىّ ، ويقتاد الأبىّ ، عرضه وافر ، وحسبه باهر ، غض الشباب ، طاهر الأثواب . فقالت : ومن هو ؟ قالت : صبرة بن عوّال بن شدّاد بن الهَمّال . ثم خلت بالثانية فقالت : أصبت من بغيتك شيئاً ؟ قالت : نعم . قالت : صِفيه ولا تسميه . فقالت : مُصاِص النَسَب ،[3] كريم الحسَب ، كامل الأدب ، غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مُقتْبَل الشباب ، خصيب الجناب ، أمره ماض ، وعشيره راض . قالت : ومن هو ؟ قالت : يعلى ابن ذى هزّال بن ذى جدَن . ثم خلت بالثالث . فقالت : ما عندك ؟ قالت : وجدته كثيرَ الفوائد ، عظيم المرافد ، يُعطى قبل السؤال ، وينيل قبل أن يستنال ، فى العشيرة معظم ، وفى النـدىّ مكرم ، جم الفواضل ، كثير النوافل ، بذال أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال . قالت من هو ؟ قالت : رواحة بن خُمَيْرَ بن مُضْحى بن ذى هلاهلة . فاختارت يعلى بن ذى هزال فتزوجته ، فاحتجبت عن نسائها شهراً . ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحباء . وأعظمت لهن العطاء . . وعن أبى بكر محمد ابن الحسن بن دريد أيضاً . قال أخبرنى عمى عن أبيه عن ابن الـكلبي . قال : قالت عجوزٌ من العرب لثلاث بنات لها صفن ما تحببن من الأزواج فقالت الـكبرى : أريده أروع[4] بساما ، أحذ مجذاما[5] ، سيد ناديه ، وثمال[6] عافيه ، ومحسب راجيه ، فناؤه رحب[7] ، وقياده صعب .

---

(١) أى غياث فى الضيق والشدة . (٢) قال المجد : نأرت نائرة كمنع هاجت هائجة . (٣) المصامص : الحسيب الزاكى . (٤) الاروع والنجيب واحد وهما الكريم وقيل الاروع الذى يروعك جماله . (٥) الاحذ ههنا الخفيف والاحذ أيضا الخفيف الذنب ومنه قطاة حذاء ، والمجذام مفعـال من الجذم وهو القطع تريد انه قطاع للامور . (٦) الثمال : الغياث وثمال القوم غياثهم ومن يقوم بأمرهم ، والعافى : السائل وكل طالب فضل أو رزق .
(٧) أى واسع ويقال فناء الدار وثناؤها .

وقالت الوسطى : أريده عالى السناء[١] ، مُصَمِّم المَضاء[٢] ، عظيم نار ، متمم أيْسار[٣] ، يفيد و يبيد ، ويبدى و يعيد ، هوفى الأهل صبى ، وفى الجيش كَمِىّ[٤] ، تستعبده الحليلة[٥] ، وتسوده الفصيلة[٦] ، وقالت الصغرى : أريده بازل عام[٧] ، كالمهنـد الصمصام[٨] ، قِرانُه حُبور ، ولقاؤه سرور ، إنْ ضَمّ قَضْقَض[٩] ، و إنْ دَسَرَ[١٠] أغْمَض ، وإن أخلّ أحمض . فقالت أمها : فُضّ فوك لقد فَرَرْتِ شرّة الشباب جَذَعة[١١] « وذكر الميدانى » فى كتاب مجمع الأمثال : أن العَجْفاء بنت عَلْقمة السَعْدِىّ وثلاثَ نسوةٍ من قومها خرجن فاتَّعَدْنَ بروضةٍ يتحدثن فيها فوافَيْن بها ليلاً فى قمر زاهر وليلةٍ طلقة ساكنة ، وروضة مُعْشِبة خِصْبة ، فلما جلسن قلن ما رأينا كالليلة ليلةً ولا كهذه الروضة روضةً أطيبَ ريحاً ولا أنضرَ . ثم أفَضْنَ فى الحديث فقلن : أىّ النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخَرُود[٢٢] الوَدُود[١٣] الوَلُود[١٤] . قالت الأخرى : خيرهن

(١) السناء من الشرف ممدود ومن الضوء مقصور . (٢) المصمم من الرجال فى الامور لا يرد عزمه شىء والمصمم من السيوف الذى يمضى فى الضرائب لا يحبسه شىء . (٣) جمع يسر وهو الذى يدخل مع القوم فى القداح وهو مدح وقال الشاعر :

وراحلة نحرت لشرب صدق   وما ناديت ايسـار الجزور

والبرم الذى لا يدخل مع القوم فىالميسر وهو ذم وجمعه ابرام ، قال متمم :

ولا برم تهـدى النساء لعرسه   اذا التشع من برد الشتاء تقعقعا

ويقال كان رجـل برما فجاء الى امرأته وهى تأكل لحما فجعـل يأكل بضعتين بضعتين فقالت له : أبرما قرونا فأرسلتها مثلا . (٤) أى جرىء مقدم كان عليه سلاح أو لم يكن وقيل غير ذلك . (٥) حليلة الرجل امرأته وحليلة أيضا جارته التى تحاله وتنزل معه . (٦) هم رهط الرجل الادنون . (٧) أى تام الشباب كامل القوة لان البعير اتم ما يكون شبابا واكمله قوة اذا كان بازل عام . (٨) هو السيف لاينثنى . (٩) أى حطم كما يقضقض الاسد الفريسة وهو أن يحطمها وينفضها فتسمع لعظامها صوتا والاسـد القضقاض الحطام ، قال رؤبة :

كم جاوزت من حية نضناض   وأسـد فى غيلة قضـقاض

ليث على أقـرانه رباض   يلقى ذراعى كالـكل عـرباض

والعرباض الثقيل العظيم (١٠) أى دفع ومنه قول ابن عباس رضى الله عنهما فى العنبر انما هو شىء دسره البحر أى لا زكاة فيـه » وفلان مدسر جماع أى نياك . (١١) شرة الشباب بالكسر نشاطه ، وفتر الامر جذعا بالضم اذا رجع عودا لبدئه . (١٢) البكر لم تمسس أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة . (١٣) الكثيرة الحب لزوجها .

(١٤) الكثير الولادة .

ذات الغناء ، وطيب الثناء ، وشدةِ الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السَمُوع الجَموع النَفُوع غير المنوع . قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها الوادِعةُ الرافعة لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحَظِىُّ الرضى غير الحظّال[1] ولا التنبال . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم . قالت الثالثة : خيرهم السخىّ الوفىّ الرضىّ ، الذى لا يغير الحرّة ، ولا يتخذ الضرة . قالت الرابعة : وأبيكن إن فى أبى لنعتكنّ كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق ، والفَلَج عند السباق ، ويَحْمَدَهُ أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كلُ فتاةٍ بأبيها معجبة * وفى رواية أخرى : أن إحداهن قالت إنّ أبى يكرم الجار ، ويعظم النار ، وينحر العشار ، بعد الحُوار ، ويحمل الأمور الكبار . فقالت الثانية : إن أبى عظيم الخطر ، منيع الوزر ، عزيز النفر . يحمد منه الوِرْد والصَدَر . فقالت الثالثة : إنّ أبى صدوقُ اللسان ، كثير الأعوان ، يروى السِنانَ عند الطعان . قالت الرابعة : إنَّ أبى كريم النزال ، مُنيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤآل كريم الفعال . ثم تنافرن إلى كاهنة معهن فى الحى ، فقلن لها : اسمعى ما قلنا واحكمى بيننا واعدلى . ثم أعدن عليها قولهن . فقالت لهن : كل واحدة منكن ماردة ، على الإحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة، ولكن اسمعن قولى : خيرُ النساء المبقيةُ على بعلها ، الصابرةُ على الضراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ، فهى تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها ، فتلك الكريمة الكاملة ، وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفَشَل ، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل . كثير النَفَل . ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها مُعجبة . فصار مثلا يضرب فى عجب الرجل برهطه وعشيرته * وكان ذو الإصبع العَدْوانىُ حَكَم العرب رجلا غيوراً . وله بنات أربع وكان لا يزوجهن غَيْرَةً . ويقال إنه عرض عليهن أن يزوجهن فأَبين وقلن خدمتك وقربك أحب إلينا . فاستمع عليهن يوماً من حيث

(١) المقتر الذى يحاسب أهله بالنفقة .

لا يرينه وقد خلون يتحدثن ، فقالت قائلة منهن : لتقل كل واحدة منا ما فى نفسها ولنصدق جميعاً . فقالت كبراهن :

أَلا هَلْ أراها ليلةً وضجيعها أشمّ كنصلِ السيفِ عين مُهَنّدِ
عليم بأدواء النساء وأصله إذا ما انتمى من سرّ أهلى ومَحْتِدِى

ويروى : من أهل سرى ومن أصل سرى : فقلن لها أنتِ تريدينَ ذا قرابةٍ قد عرفتهِ . وفى رواية : أنت تريدين ابن عم لك قد عرفته .

ثم قالت الثانية :

ألا ليتَ زوجى من أناس ذوى عدى[1] حديث الشباب طيِّب النشر والذكر
لصوقٌ بأكبادِ النساء كأنّهُ خليفةُ جانٍ لا ينام على وَتْرِ

ويروى : لا ينام على هجرى ولا يقيم على هَجْرِ . فقلن لها : أنت تريدين فتى غنياً ليس من أهلك .

ثم قالت الثالثة :

ألا ليتَهُ يَكْسى الجمال نديّه له جَفْنَةٌ تشقى بها المعز والجُزْرُ
له حكمات الدهر من غير كربةٍ تَشين فلا وانٍ ولا ضَرعٌ غُمُرُ

وروى النيب بدل المعز ، وكبرة بدل كربة . فقلن لها : أنتِ تريدين سيداً شريفاً . وقلن للرابعة : ما تقولين ؟ قالت : لا أقول شيئاً : فقلن : لا ندعك وذاك إنّك قد اطلعت على أسرارنا وتكتمين سرك . . فقالت : (زَوْجٌ من عُودٍ ، خَيْرٌ من قُعُود) فمضت مثلا . فخطبن فزوجهن جمع ثم أمهلهن حولا وتركهن . ثم أتى الكبرى وزارها ، فقال : يا بنية كيف ترين زوجك ؟ قالت : خير زوج يُكرم الحليلة ، ويعطى الوسيلة . قال لها : فما مالكم ؟ قالت : خير مال الإبل . قال : وما هى ؟ قالت : نشرب ألبانَها جزعا ، ونأكل لُحمانَها مُزَعا ، وتحملنا وضعيفنا معا . فقال : يا بنية زوج كريم ، ومال عميم . ثم أتى الثانية فقال : يا بنية

---

(١) فى رواية ، ذوى غنى .

وكيف زوجك ؟ قالت : خير زوج يكرم أهله ، وينسى فضله . قال : وما مالكم ؟ قالت : البقر . قال : وما هى ؟ قالت : تألف الفناء ، وتملأ الإناء ، وتُودِك السقاء ، ونساء مع نساء . فقال : حظيتِ ورضيت . وفى رواية : رضيت فحظيت . ثم أتى الثالثة فقال : يا بنية كيف زوجك ؟ فقالت : لا سَمِحٌ بَذِر ، ولا بخيل حكِرٌ . قال : فما مالكم ؟ قالت : المِعْزَى . قال : وما هى ؟ قالت : لو كنا نولّدها فُطَماً ونَسْلَخُها أُدَما ، لم نبغ بها نَعَماً . فقال لها : جذوة مغنية . ثم أتى الصغرى فقال لها : يا بنية كيف زوجك ؟ قالت : شر زوجُ يكرم نفسه ، ويُهِين عرسه . قال : فما مالكم ؟ قالت : شر مال . قال : وما هو ؟ قالت : الضأن . قال : وما هى ؟ قالت : جُوفٌ لا يشبعنَ ، وهيمٌ لا ينقعن ، وصمٌّ لا يسمعن . وأمْرَ مغويتهنّ يتبعن . فقال أبوها : (أشبه امرؤٌ بعضَ بَزِّهِ) فمضت مثلا . وقد روى هذه القصة المبرد ، ونقلها عنه الميدانى وفيها بعض مغايرة للرواية السابقة : قال السيد المرتضى علم الهدى بعد إيراده ما سبق فى ترجمة ذى الإصْبَعَ العَدْوانىّ فى الأمالى[1] أما قول إحدى بناته فى الشعر : أشم فالشمم هو ارتفاع أرنبة الأنف وورودها ، يقال : رجل أشمّ وامرأة شماء وقوم شمٌّ . قال حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابُهم   شمُّ الأنوفِ من الطّراز الأوّلِ

والشمم : الارتفاع فى كل شىء . فيحتمل أن يكون أراد حسان بشم الأنوف ما ذكرناه من ورود الأرنبة لأن ذلك دليلُ العِتْق والنجابة عندهم ، ويجوز أَنْ يريد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعدهم عن دنايا الأمور ورذائلها . وخص الأنوف بذلك لأن الحمية والغضب والأنفة يكون فيها ولم يُرِدْ طولَ أنفهم ، وهذا أشبه أن يكون مراده لأنه قال بِيض الوجوه ، ولم يُرِدْ بياضَ اللون فى الحقيقة ، وإنما كنى بذلك عن نقاء أعراضهم وجميل أخلاقهم وأفعالهم ، كما يقول القائل : جاءنى فلان بوجه أبيض ، وقد بيض فلان وجهه بكذا وكذا ، وإنما يعنى ما ذكرناه .

---

(١) ج ١ ص ١٧٨

وقول المرأة : أشم كنصل السيف يحتمل الوجهين أيضاً ، ومعنى قول حسان : من الطراز الأول . أى أفعالهم أفعال آبائهم وسلفهم ، وأنهم لم يحدثوا أخلاقاً مذمومة لا تشبِهُ نِجارَهُمْ وأصولهم . وقولها : عين مهند ؟ أى هو المهند بعينه وعين الشئ نفسه ، وعلى الرواية الأخرى غير مهند ، أى ليس هو السيف المنسوب إلى الهند فى الحقيقة . وإنما هو شبيه فى مضائه . وقولها : من سر أهلى أى من أكرمهم وأخلصهم . يقال : فلان فى سرّ قومه أى فى صميمهم وشرفهم وسرّ الوادى أطيبه تراباً . والمحتد : الأصل . وقول الثانية : ذوى عدى فإنما معناه أن يكون له أعداء لأن من لا عدو له هو السفل الرذل الذى لا خير عنده والكريم الفاضل من الناس هو المحسد المعادى . وقولها : لصوق بأكباد النساء ، يعنى فى المضاجعة ، ويحتمل أن يكون أرادت فى المحبة والمودة ، وكَنَّتْ بذلك عن شدة محبتهن وميلهنّ إليه وهو أشبه . وقولها : كأنه خليفة جان أى كأنه حية لِلُصُوقِهِ والجان جنس من الحيات خففت لضرورة الشعر : وقول الثالثة : يكسى الجمال بديّه فالندىّ هو المجلس وقولها : له حكمات الدهر . تقول : قد أحكمته التجارب وجعلته حكيما . فأما الضرع : فهو الضعيف والغُمْرُ الذى لم يجرب الأمور « وقول الكبرى » يكرم الحليلة ، ويعطى الوسيلة : فالحليلة هى امرأة الرجل . والوسيلة : الحاجة . وقولها : نشرب ألبانها جزعا . فالجزع جمع جزعة وهو الماء القليل يبقى فى الإناء . وقولها : مزعا المزعة البقية من دسم . ويقال : ماله جزعة ولا مزعة . هكذا ذكره ابن دريد بالضم فى جزعة ووجدت غيره يكسرها فيقول جزعة وإذا كسرت فينبغى أن يكون نشرب ألبانها جزعا وتكسر المزعة أيضا ليزدوج الكلام . فتقول ونأكل لحمانها مزعا فان المزعة بالكسر هى القطعة من الشحم والمزعة أيضا بالكسر من الريش والقطن وغير ذلك كالمزقة من الخرق . والتمزيق : التقطيع والتشقيق . يقال : يكاد يتمزق من الغيظ . ومزع الظبى يمزع مزعاً : إذا أسرع . وقوله : مال عميم أى كثير « وقول الثانية » تودِكُ السقاء من الودك الذى هو الدسم .

وقول الثالثة : نولّدها فطما ، الفطم جمع فطيم وهو المقطوع من الرضاع . وقولها : نسلخها أدماً . فالأدم جمع أدام وهو الذى يؤكل ، تقول لو أنا فطمناها عند الولادة وسلخناها للأُدم من الحاجة لم نبغ بها نعما وعلى رواية أخرى أدماً من الأديم . وقوله جذوة مغنية فالجذوة القطعة « وقول الصغرى » جُوفٌ لا يشبعن : الجوف جمع جوفاء وهى العظيمة الجوف والهيم : العطاش . ولا ينقعن : أى لا يروين : ومعنى قولها : وأمرَ مغويتهن يتبعن أى القطيع من الضأن يمر على قنطرة فتزل واحدة فتقع فى الماء فيقعن كلهن اتباعاً لها . والضأن يوصف بالبلادة .

قال المفضل الضبي : أن عَثْمَةَ بنت مطرود البَجَلية كانت ذات عقل ورأى مستمع فى قومها ، وكانت لها أختٌ يقال لها خود ذات جمال وميسم وعقل ، وأن سبعة إخوة من غلمة بطن الأزد خطبوا خوداً إلى أبيها فأتوه وعليهم الحلل اليمانية ، وتحتهم النجائب الفره[1] ، فقالوا : نحن بنى مالك بن غُفَيلَة ذى النحيين فقال لهم : انزلوا على الماء . فنزلوا ليلتهم ثم أصبحوا غادين فى الحلل والهيئة ، ومعهم ربيبة لهم يقال لها الشعثاء كاهنة فروا بوصيدها — وهو فناؤها — يتعرضون لها كلهم وسيم جميل ، وخرج أبوها فجلسوا إليه فرحب بهم . فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ونحن كما ترى شباب ، وكلنا نمنع الجانب ، ونمنح[2] الراغب . فقال أبوها : كلكم خيار ، فأقيموا نر رأينا . ثم دخل على ابنته فقال : ما ترين فقد أتاك هؤلاء القوم . قالت : أنكحنى على قدرى ، ولا تشطط[3] فى مهرى ، فإن تخطئنى أحلامهم ، لاتخطئنى أجسامهم ، لعلى أصيب ولداً وأكثر عدداً . فخرج أبوها فقال : أخبرونى عن أفضلكم . قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة : اسمع أخبرك عنهم هم إخوة ، وكلهم أسوة . أما الكبير فمالك ، جرىء فاتك ، يتعب السنابك[4]

---

(١) النجائب : عتاق الابل التى يسابق عليها ، والفره جمع فاره وهو النشيط الحاد القوى . (٢) أى نعطى . (٣) أى لا تفرط . (٤) جمع سنبك وهو طرف الحافر وجانباه من قدم ، قال العجاج :

سنابك الخيل يصد عن الاير من الصفا العاسى ويدهسن الغدر

و يستصغر المهالك ، وأما الذى يليه فالغمر بحر غمر [١] ، يقصر دونه الفخر ، نهد [٢] ، صقر . وأما الذى يليه فعلقمة ، صليب المعجمة [٣] ، منيع المشتمة ، قليل الجمجمة . وأما الذى يليه فعاصم ، سيد ناعم ، جلد صارم ، أبىّ حازم ، جيشه غانم ، وجاره سالم ، وأما الذى يليه فثواب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب ، كريم النصاب ، كليث الغاب . وأما الذى يليه فمدرك ، بَذُول لما يملك ، عزوب عما يترك ، يفنى و يهلك . وأما الذى يليه فجندل ، لِقِرْنه [٤] مجدل ، مقلّ لما يحمل ، يُعطى و يبذل ، وعن عدوه لا ينكل [٥] . فشاورت أختها عثمة فيهم . فقالت أختها : «ترى الفتيان كالنَخْل.وما يدريك مَا الدَخْل» ، فذهب قولها مثلا يضرب فى ذى المنظر الأخير عنده . والدخل العيب الباطن . ثم قالت . اسمعى منى كلمة ، إنَّ شر الغريبة يُعلَن . وخَيْرَها يدفن . انكحى فى قومك ، ولا تغررك الأجسام ، فلم تقبل منها . و بعثت إلى أبيها : أنكحنى مدركا . فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورعاتها ، وحملها مدرك فلم تلبث عنده إلا قليلاً حتى صبحتهم فوارس من بنى مالك بن كنانة فاقتتلوا ساعة ، ثم إن زوجها و إخوته و بنى غامد انكشفوا فسبوها فيمن سبوا فبينا هى تسير بكت . فقالوا : ما يبكيك أعلى فراق زوجك ؟ فقالت : قبحه الله . قالوا : لقد كان جميلا قالت : قبح الله جمالا لا نفع معه ، إنما أبكى على عصيانى أختى . وقولها : ترى الفتيان كالنخل المثل وأخبرتهم كيف خطبوها . فقال لها رجل منهم يكنى أبا نواس شاب أسود أفوه مضطرب الخلق : أترضين بى على أن أمنعك من ذئاب العرب ؟ فقالت لأصحابه : أ كذلك هو ؟ قالوا: نعم إنه مع ماترين ليمنع الحليلة ، وتتقيه القبيلة قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال ، قد رضيت به فزوجوها منه .

وقد سأل القيل الحميرى ولديه عن الرجال فى جملة ماسأل . قال للأكبر « وهو

---

(١) أى كثير الماء مفرق بين الغمورة ، يريد انه كريم جواد كثير العطاء والنوال . (٢) النهد . الكريم ينهض الى معالى الامور . (٣) أى عزيز النفس اذا جرسته الامور وجدته عزيزا صلبا . (٤) الكفء فى الشجاعة أو عام . (٥) نكل عنه كضرب ونصر وعلم نكولانكص وجبن .

عمرو » ما أحب الرجال إليك وأكرمهم عليك ؟ فقال عمرو : السيد الجواد ، القليل الأنداد الماجد الأجداد ، الراسى الأوتاد ، الرفيع العماد ، العظيم الرماد ، الكثير الحساد ، الباسل الذوّاد ، الصادر الوراد ، قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : ما أحسنَ ما وصف ! وغيره أحب إليّ منه . قال : ومن يكون بعد هذا ؟ قال : السيد الكريم ، المانع للحريم ، المِفْضال الحليم ، القَمقام[1] الزعيم ، الذى إن همّ فعل ، وإن سُئِلَ بذل . قال : أخبرنى يا عمرو ما أبغض الرجال إليك ؟ قال : البَرَم[2] اللئيم ، المستخذى[3] للخصيم ، المِبْطان النهيم[4] . العيي البكيم[5] ، الذى إن سُئِلَ منع ، وإن هدد خضع ، وإن طلب جَشِع[6] . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : غيره أبغض إليّ منه . قال : ومن هو ؟ قال : النَمُوم[7] الكذوب ، الفاحش الغَضوب ، الرغيب عند الطعام ، الجبان عند الصِدام .

حديث النسوة التى أخبرن عن أحوال أزواجهن

روى أهل الكتب الصحيحة فى الحديث . وأئمة أهل اللغة والأدب . أنه خرج إحدى عشرةَ امرأة من خثعم وهى قبيلة من قبائل عرب اليمن . وكانت فى قرية من قرى اليمن فى الجاهلية إلى مجلس فجلسن وقلن تعالين فلنذكر بعولتنا بما فيهم ولا نكذب فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً . فتكلمت كل واحدة منهن فى وصف زوجها بكلام بلغ من فصاحة الألفاظ وبلاغة العبارة والبديع ما لا مزيد عليه . ولا سيما كلام الأخيرة منهن وهى أم زرع فإنه مع كثرة فصوله ، وقلة فضوله ، مجتاز الكلمات ، واضح السمات ، نير النسمات ، قد قدرت ألفاظه قدر معانيه ، وقررت قواعده وشيدت مبانيه ، أفرغ فى قالب

---

(١) بالفتح ويضم السيد الكثير الخير الواسع الفضل (٢) مر تفسيره قريبا (٣) الاستخذاء : الخضوع (٤) المبطان الذى همه بطنه أو الرغيب لا ينتهى من الاكل، والنهيم المفرط الشهوة فى الطعام ولا تمتلىء عينه ولايشبع (٥) البكم محركة الخرس او مع عى وبله أو أن يولد ولا ينطق ولا يسمع ولا يبصر ، بكم كفرح فهو ابكم وبكيم (٦) الجشع اسوأ الحرص وقد جشع الرجل فهو جشع (٧) ويروى النؤوم اى الكثير النوم والاول انسب .

الانسجام ، وأتى به الخاطر بغير تكلف ، وجاء لفظه تابعاً لمعناه منقاداً له غير مستكره ولا منافر ، والله يمن على من يشاء بما شاء لا إله إلا هو[1] . ولنذكر كلامهن مع شرحه :

قالت الأولى وهى مهدد بنت أبى هزومة :

(زوجى لحم جمل غث ، على رأس جبل وعث ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل ، وفى رواية فينتقى) . وصفته بقلة الخير و بعده مع القلة . فشبهته باللحم الذى صغرت عظامه عن النقى . وهو المخ وخبث طعمه وريحه مع كونه فى مرتقى يشق الوصول إليه . فلا يرغب أحد فى طلبه لينقله إليه . مع توفر دواعى أكثر الناس على تناول الشيء المبذول فقد أودعت كلامها تشبيه شيئين بشيئين : شبهت زوجها باللحم الغث ، وهو الهزيل الذى يستغث من هزاله ، أى يستترك و يستكره . وشبهت سوء خلقه بالجبل الوعث ، أى كثير الضجر شديد الغلظة يصعب الرقى إليه . والوعث بالمثلثة الصعب المرتقى بحيث توحل فيه الأقدام ، فلا يتخلص منه و يشق فيه المشى ، ومنه وعثاء السفر ، ثم فسرت ما أجملت فكأنها قالت لا الجبل سهل فلا يشق ارتقاؤه لأخذ اللحم ولو كان هزيلا لأن الشيء المزهود فيه قد يؤخذ إذا وجد بغير نصب ، ثم قالت : ولا اللحم سمين فيتحمل المشقة فى صعود الجبل لأجل تحصيله .

قالت الثانية :

(زوجى لا أبث خبره إنى أخاف أن لا أذره إن أذكره أذكر عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ)

جملت حال زوجها ، واكتفت بالإشارة إلى معايبه خشية أن يطول الخطب بإيراد جميعها . قال ابن فارس : يقال فى المثل أفضيت إليه بعجرى و بجرى أى بأمرى كله ومعنى : إنى أخاف أن أذره أى أخاف أن لا أترك من خبره شيئاً . والْعُجَرُ والبُجَرُ جمع عُجْرَةٍ و بُجْرَةٍ بضم ثم سكون . فالعُجَر تعقد العصب والعروق فى الجسد حتى

(١) هذا الوصف لابن حجر العسقلانى .

تصير ناتئة . والبُجَرَ مثلها إلا أنها مختصة بالتى تكون فى البطن . قاله الأصمعى وغيره وقال ابن الأعرابى : العجرة نفخة فى الظهر ، والبجرة نفخة فى السرة وقال ابن أبى أويس : العجر العقد التى تكون فى البطن واللسان ، والبجر العيوب . وقيل : العجر فى الجنب والبطن ، والبجر فى السرة . هذا أصلهما ، ثم استعملا فى الهموم والأحزان . ومنه قول على رضى الله تعالى عنه يوم الجمل : أشكو إلى الله عُجَرى وبُجَرِى . وقال الأصمعى : استعملا فى المعائب . وبه جزم ابن حبيب وأبو عبيد الهروى . وقال أبو عبيد بن سلام ، ثم ابن السكيت : استعملا فيما يكتمه المرء ويخفيه عن غيره . وبه جزم المبرد . قال الخطابى : أرادت عيوبه الظاهرة . وأسراره الكامنة وقد سبق قول ابن فارس :

قالت الثالثة وهى كبشة بنت الأرقم :

(زوجى العَشَنَّقُ ، إن أنطق أطلق . وإن أسكت أعلق) العشنق : الطويل المذموم الطول . قال الأصمعى : أرادت أنه ليس عنده أكثر من طوله بغير نفع . وقيل : ذمته بالطول لأن الطول فى الغالب دليل السفه ، وعلل ببعد الدماغ عن القلب . وقال أبو سعيد الضرير : الصحيح أن الشنق الطويل النجيب الذى يملك أمر نفسه ، ولا تحكم النساء فيه ، بل يحكم فيهن بما شاء فزوجته تهابه إن تنطق بحضرته فهى تسكت على مضض . قال الزمخشرى : وهى من الشكاية البليغة انتهى . ويؤيده ماوقع فى رواية يعقوب بن السكيت من الزيادة فى آخره وهو على حد السنان المذَلّق . أى المجرد بوزنه ومعناه ، تشير إلى أنها منه على حذر . ومعنى إن أنطق أطلق الخ أى إن ذكرت عيوبه فيبلغه طلقنى وإن سكت عنها فأنا عنده معلقة لا ذات زوج ولا أيم . فكأنها قالت : أنا عنده لا ذات بعل فانتفع به ، ولا مطلقة فأتفرغ لغيره ، فهى كالمعلقة بين العلو والسفل ، لا تستقر بأحدهما . ولم يرتض هذا بعضهم . وقال : وفى الشق الثانى عندى نظر لأنه لوكان ذلك مرادها لأنطقت ليطلقها فتستريح ، قال : والذى يظهر لى أنها أرادت وصف

سوء حالها عنده ، فأشارت إلى سوء خلقه وعدم احتماله لكلامها إن شكت له حالها وإنها تعلم أنها متى ذكرت له شيئاً من ذلك بادر إلى طلاقها ، وهى لا تؤثر تطليقه لمحبتها فيه ، ثم عبرت بالجملة الثانية إشارة إلى أنها إن سكتت صابرة على تلك الحال كانت عنده كالمعلقة التى لا ذات زوج ولا أيم . قال عياض : أوضحت بقولها : على حد السنان المذلّق ، مرادها بقولها قبل أن أسكت أعلق ، وإن أنطق أطلق . أى انها إن حادت عن السنان سقطت فهلكت ، وإن استمرت عليه أهلكها .

قالت الرابعة :

(زوجى كليل تهامة ، لا حرّ ولا قرّ ، ولا مخافةَ ولا سآمة ، والغيث غيث غمامة) تصف زوجها بأنه لين الجانب ، خفيف الوطأة على الصاحب . ومعنى والغيث غيث غمامة : إنه لا شر فيه يخاف . وقال ابن الانبارى : أرادت بقولها ولا مخافة أى أن أهل تهامة لا يخافون لتحصنهم بجبالها ، أو أرادت وصف زوجها بأنه حامى الذمار ، مانع لداره وجاره ، ولا مخافة عند من يأوى إليه ، ثم وصفته بالجود . وقال غيره : قد ضربوا المثل بليل تهامة فى الطيب ، لأنها بلاد حارة فى غالب الزمان ، وليس فيها رياح باردة فاذا كان الليل كان وهج الحرّ ساكناً فيطيب الليل لأهلها بالنسبة لما كان فيه من أذى حرّ النهار . فوصفت زوجها بجميل العشرة ، واعتدال الحال ، وسلامة الباطن ، فكأنها قالت لا أذى عنده ولا مكروه ، وأنا آمنة منه فلا أخاف من شره ، ولا ملل عنده فيسأم من عشرتى أو ليس بسيء الخلق فأسأم من عشرته ، فأنا لذيذة العيش عنده كلذة أهل تهامة بليلهم المعتدل .

قالت الخامسة وهى حبيُّ بنت علقمة :

(زوجى إن دخل فَهِد ، وإن خرج أسِد ، ولا يسأل عما عَهِدَ ، ولا يرفع اليوم لغد) شبهته فى لينه وغلفته بالفَهَد لأنه يوصف بالحياء ، وقلة الشر وكثرة الندم ، وشبهته بالأسد تصفه بالنشاط فى الغزو . وقال ابن أبى أويس : معناه

إن دخل البيت وثب علىّ وثوب الفهد ، و إن خرج كان فى الإقدام مثل الأسد .
تشير إلى كثرة جماعه لها إذا دخل فينطوى تحت ذلك تمدحها بأنها محبوبة لديه بحيث لا يصبر عنها إذا رآها ، و إذا خرج على الناس كان أمره أشد فى الجرأة والإقدام والمهابة كالأسد . وقولها : ولا يسأل عما عهد بمعنى أنه شديد الكرم ، كثير التغاضى ، لا يتفقد ما ذهب من ماله ، و إذا جاء بشىء لبيته لا يسأل عنه بعد ذلك ، أو لا يلتفت إلى ما يرى فى البيت من المعائب ، بل يسامح و يغضى ومعنى قولها : ولا يرفع اليوم لغد . يعنى لا يدّخر ماحصل عنده اليوم من أجل الغد فَكَنّتْ بذلك عن غاية جوده . و يحتمل أن يكون المراد أنه يأخذ بالحزم فى جميع أموره فلا يؤخر ما يجب عمله اليوم إلى غد . فالتمثيل بالفهد من جهة كثرة التكرم أو الوثوب ، و بالأسد من جهة الشجاعة ، و بعدم السؤال من جهة المسامحة ، و بعدم الرفع إلى الغد ما ذكر من عدم الادخار .

قالت السادسة وهى بنت أوس بن عبد ودّ :

(زوجى إن أكل لف ، و إن شرب اشتفّ ، و إن اضطجع التف ، ولا يولج الكف ليعلم البث) . وفى رواية بزيادة و إن ذبح اغتث . أى تحرى الغث وهو الهزيل . وقد جمعت فى وصفها له بين اللؤم والبخل ، والنهمة والمهانة ، وسوء العشرة مع أهله . فإن العرب تذم بكثرة الأكل والشرب ، وتتمدح بقلتهما و بكثرة الجماع لدلالتها على صحة الذكورية والفحولية . فإن المراد باللف الإكثار من الأكل واستقصاؤه حتى لايترك شيئاً منه . والاشتفاف فى الشرب استقصاؤه مأخوذ من الشفافة بالضم والتخفيف وهى البقية تبقى فى الإناء . فإذا شربها الذى شرب الإناء قيل اشتفّها وقولها : التف . أى رقد ناحيةً وتلفف بكسائه وحده ، وانقبض عن أهله إعراضاً فهى كئيبة حزينة لذلك . ولذلك قالت : ولا يولج الكف ليعلم البث أى لا يمد يده ليعلم ما هى عليه من الحزن فيزيله ، و يحتمل أن تكون أرادت أنه ينام نوم العاجز الفشل الكسل . والمراد بالبث الحزن ، و يطلق

على الشكوى ، وعلى المرض وعلى الأمر الذى لا يصبر عليه . أرادت أنه لا يسأل عن الأمر الذى يقع اهتمامها به فوصفته بقله الشفقة عليها ، وأنه لو رآها عليلة لم يدخل يده فى ثوبها ليتفقد خبرها كعادة الأجانب فضلا عن الأزواج ، وقيل فى المراد به غير ذلك .

قالت السابعة وهى هند :

(زوجى غياياء طباقاء ، كل داء له داء ، شَجَّك أو فَلَّك ، أو جمع كُلاًّ لك) الغياياء الطباقاء الأحمق الذى ينطبق عليه أمره وعن الجاحظ الطباقاء الثقيل الصدر عند الجماع ينطبق صدره على صدر المرأة فيرتفع سفله عنها . وقد ذمت امرأةٌ امرأ القيس فقالت له ثقيل الصدر خفيف العجز ، سريع الإراقة ، بطىء الإفاقة . وقولها : كل داء له داء أى كل شىْ تفرق فى الناس من المعائب موجود فيه . وقولها : شجك أو فلك أى جرحك فى رأسك وجسدك . قال عياض وصفته بالحمق والتناهى فى سوء العشرة وجمع النقائص بأن يعجز عن قضاء وطَرِها مع الأذى ، فإن حدثته سبها ، وإذا مازحته شَجّها ، وإذا أغضبته كسر عضواً من أعضائها ، أو شق جلدها ، أو أغار على مالها ، أو جمع كل ذلك من الضرب والجرح وكسر العضو وموجع الكلام وأخذ المال .

قالت الثامنة وهى عمرة بنت عمرو :

(زوجى المس مس أرنب ، والريح ريح زَرْنَب) وصفته بأنه لين الجسد ناعمه فإن الأرنب دُوَيبَة لينة المس ناعمة الوبر جداً ، والزرنب بوزن الأرنب لكن أوله زاى وهو نبت طيب الريح ، ويحتمل أن تكون كَنَّتْ بذلك عن حسن خلقه ، ولين عريكته ، بأنه طيب العرق لكثرة نظافته ، واستعماله الطيب تظرفا ويحتمل أن تكون كنَّت بذلك عن طيب حديثه ، أو طيب الثناء عليه لجميل معاشرته . وفى رواية أخرى بزيادة قولها : وأنا أغلبه والناس يغلب . فوصفته مع جميل عشرته لها ، وصبره عليها بالشجاعة . وهو كما قال معاوية رضى الله عنه :

يغلبن الـكرام ، و يغلبهن اللئام . وأما قولها : والناس يغلب ففيه نوع من البديع يسمى التتميم لأنها لو اقتصرت على قولها وأنا أغلبه لظن أنه جبان ضعيف فلما قالت والناس يغلب دل على أن غلبها إياه إنما هو من كرم سجاياه . فتمت بهذه الـكلمة المبالغة فى حسن أوصافه .

قالت التاسعة وهى كبشة :

(زوجى رفيعُ العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرّماد ، قريب البيت من الناد) زاد الزبير بن بكار فى روايته : (لا يشبع ليلةَ يُضاف ، ولا ينام ليلةَ يخاف) وصفته بطول البيت وعلوه فإن بيوت الأشراف كذلك يعلونها و يضربونها فى المواضع المرتفعة لِيَقْصِدَهم الطارقون والوافدون ، فطول بيوتهم إما لزيادة شرفهم ، أو لطول قاماتهم ، و بيوت غيرهم قصار . وقد لهج الشعراء بمدح الأول وذم الثانى كقوله :

* قصار البيوت لاترى صهواتها *

وقال آخر :

إذا دخلوا بيوتهم أكبوا على الركبات من قصر العماد

ومن لازم طول البيت أن يكون متسعاً فيدل على كثرة الحاشية والغاشية .

وقيل : كَنَّتْ بذلك عن شرفه ورفعة قدره . والنجاد بكسر النون وجيم خفيفة حمالة السيف ، تريد أنه طويل القامة يحتاج إلى طول نجاده ، وفى ضمن كلامها أنه صاحب سيف فأشارت إلى شجاعته ، وكانت العرب تمادح بالطول وتذم بالقصر وقولها : عظيم الرماد . تعنى أن نار قراه للأضياف لا تُطْفَأُ لتهتدى الضيفان إليها فيصير رماد النار كثيراً لذلك . وقولها : قريب البيت من الناد وقفت عليها بالسكون لمواخاة السجع ، والنادى والندىّ : مجلس القوم . وصفته بالشرف فى قومه ، فهم إذا تفاوضوا واشتوروا فى أمر أتوا فجلسوا قريباً من بيته فاعتمدوه على رأيه وامتثلوا أمره ، أو أنه وضع بيته فى وسط الناس ليسهلَ لقاؤه و يكون أقرب إلى الوارد وطالب القرى . قال زهير :

يسط البيوتَ لـكى يكون مَظِنَّةً   من حيث توضع جَفْنَةُ المسترفدِ

ويحتمل أن تريد أن أهل النادى إذا أتوه لم يصعب عليهم لقاؤه لـكونه لا يحتجب عنهم ولا يتباعد منهم بل يقرب ويتلقاهم ويبادر لإكرامهم ، وضده من يتوارى بأطراف الحلل وأغوار المنازل ويبعد عن سمت الضيف لئلا يهتدوا إلى مكانه ، فإذا استبعدوا موضعه صدوا عنه ومالوا إلى غيره . ومحصل كلامها : أنها وصفته بالسيادة والـكرم وحسن الخلق وطيب المعاشرة .

قالت العاشرة وهى حبىّ بنت كعب .

(زوجى مالك وما مالك ، مالك خير من ذلك ، له إبل كثيرات المبَارك قليلات المسارح ، وإذا سمعن صوت المِزْهَر أيقنَّ أنهنّ هوالك) ووقع فى رواية يعقوب بن السكيت وابن الأنبارى من الزيادة : وهو أمام القوم فى المهالك . المبارك بفتحتين جمـع مبرك وهو موضع نزول الإبل . والمسارح : جمع مسرح وهو الموضع الذى تطلق لترعى فيه . والمِزْهَر بكسر الميم وسكون الزاى وفتح الهاء آلة من آلات اللهو ، فجمعت فى وصفها له بين الثروة والـكرم وكثرة القرى والاستعداد له والمبالغة فى صفاته ، ووصفته أيضاً مع ذلك بالشجاعة لأن المراد بالمهالك الحروب . وهو لثقته بشجاعته يتقدم رفقته . وقيـل : أرادت أنه هاد فى السبل الخفية ، عالم بالطرق فى البيداء . فالمراد على هذا بالمهالك المفاوز ، والأول أليق والله أعلم . ومافى قولها : وما مالك استفهاميةٌ يقال للتعظيم والتعجب والمعنى وأى شىء هو مالك ما أعظمه وأكرمه ، وتـكرير الاسم أدخل فى باب التعظيم . وقولها : مالك خـير من ذلك زيادةٌ فى الإعظام ، وتفسير لبعض الإبهام ، وأنه خير مما أشير إليه من ثناء وطيب ذكر ، وفوق ما اعتقد فيه من سؤدد وفخر ، وهو أجل ممن أصفه لشهرة فضله . وهــذا بناء على أن الإشارةَ بقولها ذلك إلى ما تعتقده فيه من صفات المدح . ويحتمل أن يكون المراد مالك خير ممـا فى ذهنك من الأموال وهو خير مما سأصفه به . ويحتمل أن تـكون

الإشارة إلى ما تقدم من الثناء على الذين من قبله ، وأن مالكا أجمع من الذين قبله لخصال السيادة والفضل . ومعنى قولها : قليلات المسارح أنه لاستعداده للضيفان بها لا يوجه منهن إلى المسارح إلا قليلا ويترك سائرهن بفنائه . فإن فاجأه ضيف وجد عنده ما يَقْرِيه به من لحومها وألبانها . ومنه قول الشاعر :

حبسنا ولم نسرحْ لكي لا يلومنا على حكمه صبراً معوّدة الحبس

ويحتمل أن تريد بقولها : قليلات المسارح الإشارةَ إلى كثرة طروق الضيفان . فاليوم الذى يطرقه الضيف فيه لا تسرح حتى يأخذ منها حاجته للضيفان ، واليوم الذى لا يطرقه فيه أحد أو يكون هو فيه غائباً تسرح كلها ، فأيام الطروق أكثر من أيام عدمه ، فهى لذلك قليلات المسارح وبهذا يندفع اعتراض من قال لو كانت قليلات المسارح لكانت فى غاية الهزال . وقيل : المراد بكثرة المبارك أنها كثيراً ما تثار فتحلب ثم تترك فتكثر مباركها لذلك . وقال ابن السكيت : إن المراد أن مباركها على العطايا والحملات [1] وأداء الحقوق وقرى الأضياف كثيرة ، وإنما يسرح منها ما فضل عن ذلك . فالحاصل أنها فى الأصل كثيرة ، ولذلك كانت مباركها كثيرة ، ثم إذا سرحت صارت قليلة لأجل ماذهب منها . وأما رواية من روى : عظيمات المبارك . فيحتمل أن يكون المعنى أنها من سمنها وعظم جثتها تعظم مباركها ، وقيل : المراد أنها إذا بركت كانت كثيرةً لكثرة من ينضم إليها ممن يلتمس القرى ، وإذا سرحت سرحت وحدها فكانت قليلة بالنسبة لذلك . وأما قولها : أيقنّ أنهن هوالك . فالمعنى أنه لما كثرت عادته بنحر الإبل لقرى الضيفان — ومن عادته أن يسبقهم ويلهيهم أو يتلقاهم بالغناء مبالغة فى الفرح بهم — صارت الإبل إذا سمعت صوت الغناء عَرَفت أنها تنحر :

قالت الحادية عشر وهى عاتكة كما قال ابن دريد فى كتاب الوشاح :

(زوجى أبو زرع ، فما أبو زرع ؟ أناسَ من حُلّى أُذُنَيَّ ، وملأ من شحم

---

(١) الحمالة كسحابة الدية يحملها قوم عن قوم كالحمال .

عُضُدَىّ ، و بَجَحَنى فبَجَحَتْ إلىَّ نفسى ، ووجدنى فى أهل غُنَيْمَةٍ بشق ، فجعلنى فى أهلِ صهيلٍ وأطيطٍ ودائسٍ ومنِقّ ، فعنده أقول : فلا أقبح وأرقد فأتصبّح ، وأشرب فأتقنّح ، أم أبى زرع ، فما أم أبى زرع ؟ عُكُومها رداح ، و بيتها فَساح ، ابن أبى زرع ، فما ابن أبى زرع ؟ مضجعه كمسل شطبة ، و يشبعه ذراع الجفرة . بنت أبى زرع ، فما بنت أبى زرع ؟ طوع أبيها وطوع أمها وملء كسائها وغيظ جارتها . جارية أبى زرع ، فما جارية أبى زرع ؟ لا تبث حديثنا تبثيثاً ، ولا تنقّث ميرتنا تنقيثا ، ولا تملأُ بيتنا تعشيشا . قالت : خرج أبو زرع والأوطاب تمخض فلقى امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين فطلقنى ونكحها ، فنكحت بعده رجلا سَرّيا ، وركب شريّا ، وأخذ خطيا ، وأراح علىّ نعمًا ثريّا ، وأعطانى من كل رائحة زوجا ، وقال : كلى أمّ زرع وميرى أهلك . قالت : فلو جمعتُ كل شىء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبى زرع .

زاد الطبرانى فى رواية بعد قولها فما أبو زرع (صاحب نعم وزروع) ومعنى أناس من حلىّ أذنى : أنه ملأَ أذنيها بما جرت به عادة النساء من التحلى به من قرط وشنف من ذهب ولؤلؤ ونحو ذلك . ومعنى وملأَ من شحم عضدى : قال أبو عبيد : لم ترد العضد وحده و إنما أرادت الجسد كله ، لأن العَضُدَ إذا سمنت سمن سائر الجسد ، وخصت العضد لأنه أقرب ما يلى بصر الإنسان من جسده . ومعنى بجحنى فبجحت إلىّ نفسى : أنه فرحها ففرحت . وقال ابن الأنبارى: المعنى عظمنى فعظمت إلىّ نفسى . ومعنى وجدنى فى أهل غنيمة بشق : أنهم كانوا فى شق جبل أى ناحيته ولقلتهم وسعهم . ومعنى أهل صهيل وأطيط أى خيل وأبل، وأصل الأطيط صوت أعواد المحامل ، والرحال على الجمال ، فأرادت أنهم أصحاب محامل تشير بذلك إلى رفاهتهم ودائس من الدوس . قال ابن السكيت : هو الذى يدوس الطعام فكأنها أرادت أنهم أصحاب زرع . وقال أبو سعيد : المراد أن عندهم طعاماً منتقى . وهم فى دياس شىء آخر فخيرهم متصل . ومنق بكسر النون وتشديد

القاف ، وقد اختلف أهل اللغة فى تفسير هذه الكلمات . الحاصل أنها ذكرت أنه نقلها من شظف عيش أهلها إلى الثروة الواسعة من الخيل والإبل والزرع وغير ذلك . ومن أمثالهم : إن كنت كاذباً فحلبت قاعداً أى صار مالك غنما يحلبها القاعد ، وبالضد أهل الإبل والخيل . ومعنى فلا أقبح : لا يقال لى قبحك الله أو لا يقبح قولى ولا يردعلىّ ، أى لكثرة إكرامه لها وتدللها عليه لا يرد لها قولاً ولا يقبح عليها ما تأتى به . ومعنى وأرقد فأتصبح . أنام الصبحة ، وهى نوم أول النهار فلا أوقظ إشارة إلى أن لها من يكفيها مؤنة بيتها ومهنة أهلها . وأرادت بقولها وأشرب فأتقنح . أنها تشرب حتى لا تجد مساغا . واختلف اللغويون فى معنى أتقنح فقال أبو عبيد : معناه أروى حتى لا أحب الشرب . وقيل غير ذلك . والشرب يعم شرب اللبن والخمر والنبيذ والسويق وغير ذلك . والعكوم بضم المهملة جمع عِكم بكسرها وسكون الكاف هى الأعدال والأحمال التى تجمع فيها الأمتعة . وَرَداح أى عظام كثيرة الحشو قال أبو عبيد . وقال الهروى : معناه ثقيلة . يقال للمرأة إذا كانت عظيمة الكفل ثقيلة الورك رداح . وفَساح بفتح الفاء والمهملة أى واسع . وصفت والدة زوجها بأنها كثيرة الآلات والأثاث والقماش واسعة المال كبيرة البيت ، إما حقيقة فيدل ذلك على عظم الثروة ، وإما كناية عن كثرة الخير ورغد العيش والبر بمن ينزل بهم لأنهم يقولون فلان رحب المنزل أى يكرم من ينزل عليه . وأشارت بوصف والدة زوجها إلى أن زوجها كثير البر لأمه وأنه لم يطعن فى السن لأن ذلك هو الغالب ممن يكون له والدة توصف بمثل ذلك وقولها (ابن أبى زرع . فما ابن أبى زرع ، مضجعه كمسل شطبة ويشبعه ذراع الجفرة) وفى رواية لابن الأنبارى بزيادة (وترويه فِيقَةُ اليَعْرة . ويميس فى حلق النترة) قال ابن الأعرابى : أرادت بمسل الشطبة سيف سل من غمده فمضجعه الذى ينام فيه فى الصغر كقدر مسل شطبة واحدة . والجفرة : الأنثى من ولد المعز إذا كان ابن أربعة أشهر وفصل عن أمه وأخذ فى الرعى قاله أبو عبيد وغيره

وقال ابن الأنبارى وابن دريد : ويقال لولد الضأن أيضاً إذا كان ثنياً . وقال الخليل : الجفر من أولاد الشاة ما استجفر أى صار له بطن . والفيقة بكسر الفاء وسكون التحتانية بعدها قاف ما يجتمع فى الضرع بين الحلبتين والفُواق بضم الفاء الزمان الذى بين الحلبتين . واليعرة : بفتح التحتانية وسكون المهملة بعدها راء العناق . ويميس بالمهملة أى يتبختر . والمراد بحلق النترة . وهى بالنون المفتوحة ثم المثناة الساكنة . الدرعُ اللطيفة أو القصيرة ، وقيل اللينة الملمس ، وقيل الواسعة . والحاصل أنها وصفته بهَيَف القد وأنه ليس ببطين ولا جافى قليل الأكل والشرب ملازم لآلة الحرب يختال فى موضع القتال ، وكل ذلك مما تمادح به العرب ويحتمل أنها وصفته بأنه خفيف الوطأة عليها لأن الزوج غالباً يستثقل ولده من غيرها فكان هذا يخفف عنها فإذا دخل بيتها فاتفق أنه قال[1] فيه مثلا لم يضطجع إلاقدر ما يسل السيف من غمده ثم يستيقظ مبالغة فى التخفيف عنها . وكذا قولها : يشبعه ذراع الجفرة أنه لا يحتاج ما عندها بالأكل فضلا عن الأخذ بل لو طعم عندها لاقتنع باليسير الذى يسد الرَمَقَ من المأكول والمشروب . وقولها فى بنت أبى زرع : طوع أبيها وطوع أمها أى أنها بارة بهما . وفى رواية الزبير بزيادةِ : (وزين أهلها ونسائها) أى يتجملون بها . وملء كسائها : كناية عن كمال شخصها ونَعْمة جسمها . وغيظ جارتها ، أى ضرتها . أوهو على حقيقته لأن الجارات من شأنهن ذلك . وزاد الكاذى فى روايته عن ابن السكيت (وصفر ردائها) وزاد فى رواية (قبَّاء ، هضيمة الحشا، جائلة الوشاح ، عكناء، فعماء ، نجْلاء ، دعجاء ، رَجّاء ، قَنْواء ، مونَّقة، مفنَّقة) وصِفْر بكسر الصاد المهملة وسكون الفاء أى خال فارغ . والمعنى : أن رداءها كالفارغ الخالى لأنه لا يَمسُّ من جسمها شيئاً ، لأن ردفها وكتفيها يمنع مسه من خفقها شيئاً من جسمها ونهدها يمنع مسه شيئاً من مقدمها . وفى كلام ابن أبى أويس وغيره : معنى قولها صفر ردائها تصفها بأنها خفيفة موضع التردية وهو أعلى بدنها .

---

(١) قال قيلا وقائلة وقيلولة : نام فى القائلة وهى نصف النهار .

ومعنى قولها : وملء كسائها أى ممتلئة موضع الأزرة وهو أسفل بطنها . والصفر الشىء الفارغ . قال عياض : والأولى أنه أراد أن امتلاء منكبيها ، وقيام نهديها ، يرفعان الرداء من أعلى جسدها فهو لا يمسه فيصير كالفارغ منها بخلاف أسفلها . ومنه قول الشاعر :

أبَتِ الروادف والنهود لقمصها من أن تَمَسَّ بطونها وظهورها

وقولها « قبّاء » بفتح القاف و بتشديد الموحدة أى ضامرة البطن « وهضيمة الحشا » هو بمعنى الذى قبله « وجائلة الوشاح » أى يدور وشاحها لضمور بطنها « وعكناء » أى ذات أعكان « وفعماء » بالمهملة أى ممتلئة الجسم « ونجلاء » بنون وجيم أى واسعة العين « ودعجاء » أى شديدة سواد العين « ورَجّاء » بتشديد الجيم أى كبيرة الكفل ترتج من عظمه إن كانت الرواية بالراء ، فإن كانت بالزاى فالمراد فى حاجبيها تقويس « وقنواء » بفتح القاف وسكون النون والمد من القنو طول فى الأنف ورقة الأرنبة مع حدبة فى وسطه « ومونقة » بنون ثقيلة وقاف « ومغنّقة » بوزنه أى مغذية بالعيش الناعم وكلها أوصاف حسان ، وقولها فى جارية أبى زرع ، لا تبث حديثنا تبثيثاً ، بمعنى لا نظهره ، ولا تنقث بتشديد القاف بعدها مثلثة أى تسرع فيه بالخيانة وتذهبه بالسرقة ، والميرة بكسر الميم وسكون التحتانية بعدها راء الزاد وأصله ما يحصله البدوى من الحضر ويحمله إلى منزله لينتفع به أهله ، وقولها : ولا تملأ بيتنا تعشيشا أى إنها مصلحة للبيت مهتمة بتنظيفه وإلقاء كناسته وإبعادها منه وأنها لا تكتفى بقم[1] كناسته وتركها فى جوانبه كأنها الأعشاش . قالت : خرج أبو زرع والأوطاب تمخض أرادت أنه يبكر بخروجه من منزلها غدوة وقت قيام الخدم والعبيد لأشغالهم . والأوطاب : جمع وطب بفتح أوله وهو وعاء اللبن . وانطوى فى خبرها كثرة خير داره وغزارة لبنه وأن عندهم ما يكفيهم ويفضل حتى يمخضوه ويستخرجوا زبده ، ويحتمل أن يكون أنها أرادت أن الوقت الذى خرج فيه كان فى زمن الخِصْبِ وطيب الربيع ، وكان سبب ذكر

(١) قم البيت : كنسه .

ذلك توطئة للباعث على رواية أبى زرع للمرأة على الحالة التى رآها عليها ، أى إنها من مخض اللبن تعبت فاستقلت تستريح فرآها أبو زرع على ذلك . وفائدة وصف الولدين بأنها كالفهدين التنبيهُ على أسباب تزويج أبى زرع لها لأنهم كانوا يرغبون فى أن تكون أولادهم من النساء المُنجِبات فلذلك حرص أبو زرع عليها لما رآها : وفى تشبيه النهدين بالرمانتين إشارة إلى صغر سنها . وقولها : فنكحت بعده رجلا سريا أى من سراة الناس وهم كبراؤهم فى حسن الصورة والهيئة والسرىّ من كل شيء خياره . وركب شَرِيّا : تعنى فرساً خياراً فائقاً . وأخذ خطياً : أى رمحاً منسوباً إلى الخط وهو موضع بنواحى البحرين تجلب منه الرماح وأراح : من الرواح . ومعناه أتى بها إلى المراح وهو موضع مبيت الماشية . قال ابن أبى أويس : معناه أنه غزا فغنم فأتى بالنعم الكثيرة . والنَعَم بفتحتين الإبل خاصة ، ويطلق على جميع المواشى إذا كان فيها إبل وثريا أى كثيرة . والثرى : المال الكثير من الإبل وغيرها ، وأرادت بقولها : وأعطانى من كل رائحة زوجاً كثرة ما أعطاها وأنه لم يقتصر على الفرد من ذلك والرائحة الآتية وقت الرواح وهو آخر النهار . ومعنى قوله كلى أم زرع وميرى أهلك أى صليهم وأوسعى عليهم بالميرة وهى الطعام . والحاصل : أنها وصفته بالسؤدد فى ذاته والشجاعة والفضل والجود بكونه أباح لها أن تأكل ما شاءت من ماله وتهدى منه ما شاءت لأهلها مبالغة فى إكرامها ؛ ومع ذلك فكانت أحواله عندها محتقرة بالنسبة لأبى زرع . وكان سبب ذلك أن أبا زرع كان أول أزواجها فسكنت محبته فى قلبها ، كما قيل : * ما الحب إلا للحبيب الأوّل * ولذلك قالت . فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبى زرع . وقد تبين مما أوردناه من أسجاع العرب فى وصف الرجال والأزواج على الاختلاف فى العبارات أن مآله ومحصّله أن المحمود منهم هو الجامع للصفات المحمودة خلقاً وخلقا عند ذوى العقول السليمة ، وأن المذموم منهم من اتصف بخلاف ذلك ، وبه يعلم ما كان عليه العرب جاهليةً من المكانة فى الرأى .

طلاق العرب فى الجاهلية وعدة نسائهم

كان العرب فى الجاهلية يطلقون ثلاثاً على التفرقة ، وأول من سن ذلك لهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ثم فعلت العرب ذلك ، فكان أحدهم يطلق زوجته واحدة وهو أحق الناس بها حتى إذا استوفى الثلاث انقطع السبيل عنها . ومنه قول الأعشى حين تزوج امرأة فرغب بها عنه (١) فأتاه قومها فهددوه بالضرب أو يطلقها :

أيا جارتى بِينى فإنك طالقه ... كذاك أمورُ الناسِ غادٍ وطارقه (٢)

فالوا : ثانية فقال :

وبِينى فإن البينَ خيرٌ من العصا ... وإلا ترَىْ لى فوقَ رأسك بارقه

قالوا : ثالثة . فقال :

وبِينى حصان الفرج غيرَ ذميمةٍ ... وموموقة قد كنتِ فينا ووامقه (٣)

وكانوا يخلعون نساءهم أيضاً . والخلع فراق الزوجة على مال مأخوذ من خلع الثوب ، لأن المرأة لباس الرجل معنى وضم مصدره تفرقة بين الحسىّ والمعنوى . وذكر أبو بكر بن دريد فى أماليه : أنه أول خلع كان فى الدنيا أن عامر بن الظَرِب بفتح المعجمة وكسر الراء ثم موحدة ، زوج ابنته من ابن أخيه عامر بن الحارث

---

(١) وقيل بل انه لم يرضها ولم يستحسن خلقها فطلقها (راجع ج ٨ ص ٨٠ و ٨١ من الاغانى) .

(٢) قوله بينى يقال بان الشيء اذا انفصل فهو بائن وابنته بالالف فصلته وبانت المرأة بالطلاق فهى بائن بغير هاء وابانها زوجها بالالف فهى مبانة : وطلق الرجل امرأته تطليقا فهو مطلق وطلقت هى تطلق من باب قتل وفى لغة من باب قرب فهى طالق بغيرها ، قال الآزهرى : وكلهم يقول طالق بغير هاء، قال وأما قول الاعشى أيا جارتى الخ فقال الليث أراد طالقة غدا وانما اجترا عليه لانه يقال طلقت فحمل النعت على الفعل . وقال ابن فارس أيضا : امرأة طالق طلقها زوجها وطالقة غدا فصرح بالفرق لأن الصفة غير واقعة ، وهذه تعليلات باردة وأقوال فاسدة لا يقوم عليها برهان ولا شيء اضعف من حجج النحويين والصواب جواز الوجهين بدون تعليل وتمحل دعاوى واهنة ، قال الجوهرى : يقال طالق وطالقة وأنشد بيت الاعشى ، وأجيب بجوابين متكلفين، فان أحببت الوقوف عليهما فراجع مادة طلاق من المصباح

(٣) الحصان بالفتح المرأة العفيفة وهى بينة الحصانة أى العفة ، وومقه كورثه ومقا ومقه أحبه فهو وامق .

ابن الظرب . فلما دخلت عليه نفرت منه فشكا إلى أبيها ، فقال : لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك وقد خلعتها منك بما أعطيتها . قال : فزعم العلماء أن هذا كان أول خلع في العرب « وقال الشافعي » رحمه الله تعالى سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : كان أهل الجاهلية يطلقون بثلاث (الظهار) و (الإيلاء) و (الطلاق) فأقر الله تعالى الطلاق طلاقاً وحكم في الإيلاء والظهار بما بين في القرآن انتهى « والظهار » تشبيه الرجل زوجته أو ما يعبر به عنها أو جزء شائع بمحرم عليه تأبيداً ، كأن يقول : أنتِ عليَّ كظهر أمي ، أو كبطنها ، أو كفخذها ، أو كفرجها ، أو كظهر أختي ، أو عمتي . وأما الإيلاء : فهو الحلف على ترك قربان المرأة مدة . أخرج الطبراني من حديث ابن عباس : كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين ، فوقَّت الله لهم أربعة أشهر فمن كان إيلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بإيلاء . وكانت النساء تعتد من الطلاق والموت ، وكن يبالغن في احترام حق الزوج ، وتعظيم حرمة عقد النكاح غاية المبالغة . فقد كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها تتربص سنة في شر ثيابها ، وحِفْش[1] بيتها ، وبذلك أخبر الحديث . ففي البخاري عن أم سلمة جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحُلُها : فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا ، مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول : لا . ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إنما هي أربعة أشهر وعشراً ،[2] وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول . قال حميد : فقلت لزينب : وما ترمي بالبعرة على رأس الحول ؟ فقالت زينب : كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ولبست شر ثيابها ولم تمس طيباً حتى تمر بها سنة ، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طائر[3] فتفتض به فقلما تفتض بشيء إلا مات ، ثم

(١) بكسر الحاء وسكون الفاء : البيت الصغير الحقير وقيل في ضبطه وتفسيره غير ذلك (٢) كذا في الأصل بالنصب على حكاية لفظ القرآن ولبعضهم بالرفع وهو واضح (٣) قوله بدابة بالتنوين وحمار بالجر والتنوين على البدل وقوله أو شاة أو طائر التنويع لا الشك واطلاق الدابة على ما ذكر هو بطريق الحقيقة اللغوية لا العرفية .

تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره انتهى .
وتفتض بفاء ثم مثناة ثم ضاد معجمة ثقيلة فسره مالك بقوله : تمسح به جلدها ، وأصل الفض الكسر أى تكسر ما كانت فيه وتخرج منه بما تفعله بالدابة . ووقع فى رواية للنسائى : تقبض بقاف ثم موحدة ثم مهملة خفيفة وهى رواية الشافعى . والقبض : الأخذ بأطراف الأنامل . قال الأصبهانى وابن الأثير : هو كناية عن الإسراع أى تذهب بِعَدْوٍ وسرعة إلى منزل أبويها لكثرة حيائها لقبح منظرها أو لشدة شوقها إلى التزويج لبعد عهدها به . والضبط الأول أشهر . قال ابن قتيبة : سألت الحجازيين عن الافتضاض فذكروا أن المعتدة كانت لا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً ، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ، ثم تفتض أى تكسر ما هى فيه من العدة بطائر تمسح به قبلها وتنبذه ، فلا يكاد يعيش بعد ما تفتض به .
واختلف فى المراد برمى البعرة فقيل : هو إشارة إلى أنها رمت العدة رمى البعرة . وقيل : إشارة إلى أن الفعل الذى فعلته من التربص والصبر على البلاء الذى كانت فيه لما انقضى كان عندها بمنزلة البعرة التى رمتها استحقاراً له وتعظيما لحق زوجها . وقيل : بل ترميها على سبيل التفاؤل بعدم عودها إلى مثل ذلك . ووقع فى رواية شعبة : فإذا كان حول فمر كلب رمت ببعرة : وظاهره أن رميها البعرة يتوقف على مرور الكلب سواء طال زمن انتظار مروره أم قصر . وقيل : ترمى بها من عرض من كلب أو غيره ترى من حضرها أن مقامها حولا أهون عليها من بعرة ترمى بها كلباً أو غيره . وقد أبطل الله تعالى ذلك بالإسلام وشريعته التى جعلها رحمة وحكمة ومصلحة ونعمة ، فجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً على وفق الحكمة والمصلحة ، إذ لابد من مدة مضروبة لها ، وأولى المدد لذلك المدة التى يعلم فيها وجود الولد وعدمه ، فإنه يكون أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين علقة ، ثم أربعين مضغة ، فهذه أربعة أشهر ، ثم ينفخ فيه الروح فى الطور الرابع ، وقدر بعشرة أيام لتظهر حياته بالحركة إن كان ثَمَّ حمل .

بيان ما كان للعرب في هذا الباب مما أبطله الشريعة

كانت العرب فى جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها . كانوا لاينكحون الأمهات ولا البنات ولا الخالات ولا العمات ، إلا ما يحكى أن حاجب بن زرارة وهو سيد بنى تميم تزوج بنته وأولدها . وقد كان سماها (دختنوس) باسم بنت كسرى ، فقال فيها حين نكحها مرتجزاً :

يا ليتَ شعرى عنك دختنوسُ إذا أتاها الخبر المرموسُ
أتسحب الذيلين أم تميسُ لا بل تميس إنها عروسُ[١]

وقد تنزهت العرب ولا سيما قريش من هذه المناكح حفظاً لحرمة الأرحام الدانية أن تُنْتَهك بالمناكح العاهرة فتضعف الحمية ، وتقل الغيرة ، وهم أخص الناس بالمناكح الطاهرة . وكان أقبح ما يصنع بعضهم أن يجمع بين الأختين . وأول من جمع بينهما أبو جنحة سعيد بن عاصم جمع بين هند وصفية ابنتَىْ المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فأبطل ذلك الإسلام . ومن قبيح ما كانوا يفعلون أن يخلف الرجل على امرأة أبيه وكانوا يسمون من فعل ذلك الضيزن . قال أوس بن حجر التميمى يعير قوماً من بنى قيس بن ثعلبة تناوبوا على امرأة أبيهم واحداً بعد آخر وكانوا ثلاثة :

نيكوا فكيهة وامشوا حول قبتها فكلُّكم لأبيه ضَيْزَنٌ سَلَفُ[٢]

وكان الرجل من العرب إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه ، إن كان

---

(١) نسبهما أبو الفرج الأصبهانى فى الاغانى (ج ١٠ ص ٣٨ والمجد فى القاموس) الى لقيط ابن زرارة ، قال أبو الفرج : دختنوس بنت لقيط بن زرارة وكانت تحت عمرو بن عمرو بن عدس وكذلك الزمخشرى فى الأساس فى مادة رمس ، قال : ورمست على الأمر كتمته ورمس الخبر قال لقيط بن زرارة ياليت شعرى الخ ، والميس : التبختر ، وسيأتى للبحث مزيد تفصيل

(٢) رواية التاج :

والفارسية فيهم غير منكرة فكلهم لابيه ضيزن سلف

يقول هم مثل المجوس يتزوج الرجل منهم امرأة أبيه وامرأة ابنه ، وقال ابن الاعرابى : الضيزن الذى يتزوج امرأة ابيه اذا طلقها أو مات عنها ، وقيل من يزاحم أباه فى امرأته .

له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد . وقد أبطل الله تعالى ذلك بقوله سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلّا ما قد سَلَفَ إنه كانَ فاحِشةً ومقتاً وساءَ سبيلا » وقد كان هذا النكاح يسمى فى الجاهلية نكاح المقت ويسمى الولد منه مقتيّ ، ويقال له أيضاً مقيت أى مبغوض مستحقر . وكان من هذا النكاح على ما ذكره الطبرسى : الأشعثُ ابن قيس ومعيط جد الوليد بن عقبة . قال ابن قتيبة : من خلف على امرأة أبيه بعده جماعة ، كانت برة ابنة مرّ أخت تميم بن مرّ تحت خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر . فخلف عليها ابنه كنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة وغيره من ولده إلا عبد مناة بن كنانة . وكانت ناجية بنت جرم بن ريان من قضاعة تحت سامة بن لؤيّ فولدت له غالب بن سامة ، ثم هلك عنها فخلَف عليها ابنه الحارث بن سامة . وكانت واقدة من بنى مازن بن صعصعة عند عبد مناف فولدت له نوفلا وأبا عمرو فهلك عنها ، وخلف عليها هاشم بن عبد مناف فولدت له خالدة وضعيفة وكانت آمنة بنت أبان بن كليب عند أُميّةَ بن عبد شمس فولدت له الأعياص ثم هلك عنها فخلف عليها ابنه أبو عمرو بن أمية وولدت له أبا معيط . وكانت مليكة بنت سنان ابن أبى حارثة المرى أخت هرم بن سنان تحت زبان ابن سيار بن عمرو الفزاريّ فتزوجها بعده ابنه منظور بن زبان وولدت له خولة بنت منظور وهاشم بن منظور فتزوج بها الحسن بن على بن أبى طالب فولدت له الحسن بن الحسن رضى الله تعالى عنهم ، ثم خلف عليها بعده محمد بن طلحة بن عبيد الله فجاءت بإبراهيم بن محمد وهو الأعرج إلى غير ذلك انتهى . وعمرو بن معد يكرب تزوج امرأة لأبيه بعده فى الجاهلية ، وهى التى قال فيها هذه الأبيات :

تقول حَليلتى لما قَلَتْنى — شرائج بين كُدرِيٍّ وجون
تراه كالثُغام يعلّ مسكا — يسوء الفالياتِ إذا فلينى
فزينُك فى شريطك أُمّ عمرو — وسابغة وذو النُونينِ زينى

فلو شَمَّرْنَ ثم عَدَوْنَ رَهْواً بكل مُدَجَّجٍ لعرفت لونى
إذا ماقلتُ : إن علىَّ ديناً بطعنة فارسٍ قضيتُ دينى
اقعقعة اللجام برأس طِرْف أحبُّ إلىَّ من أن تنكحينى
أخاف إذا هَبَطْنَ بنا خَباراً وجدَّ الركضُ أن لاتحملينى
فلولا إخوتى و بنىَّ منها ملأتُ لها بذى شطب يمينى

الحليلة : الزوجة . وقلتنى : من القلى وهو البغض . وشرائج : جمع شريج بضم الشين المعجمة وآخره جيم الضرب والنوع قال ابن دريد فى الجمهرة : كل لونين مختلفين هما شريجان وأنشد هذا البيت . وقوله . بين كدرى وجون أى بعض الشرائج كدرى أى أغبر و بعضها جون والكدرىّ منسوب إلى الكدرة وجون بضم الجيم جمع جونة وهو مصدر الجون بالفتح وهو من الاضداد . يقال للأبيض جون وللأسود جون . وقوله : تراه كالثغام الخ أى ترى الحليلة الشعر كالثغام وهو نبت له نور أبيض يشبه به الشيب وعلته ماء علالاً من باب طلب : سقيته السقية الثانية ، وعل وهو يعل من باب ضرب : إذا شرب . قال الأعلم : ومعنى يعل يطيب شيئاً بعد شيء ، وأصل العلل الشرب بعد الشرب وهذا غير مناسب هنا . والفاليات : جمع فالية وهى التى تفلى الشعر أى تخرج القمل منه . وقوله : فزينك فى شريطك الخ هذا خطاب لها ، وأم عمرو منادى . والزين نقيض الشين . والشريط هو العَيْبَةُ الصغيرة . والعيبة . بالفتح ما يجعل فيه الثياب . والسابغة الدرع الواسعة الطويلة . وذو النونين : السيف والنون شفرته . وقوله : فلو شمرن ثم عدون الخ يعنى النساء الفاليات وشمر أزاره تشميراً رفعه . والرهو : السير السهل . والمدجج بجيمين على صيغة اسم المفعول وهو اللابس آلة الحرب والسلاح . وقوله : إذا ما قلت الخ هو بضم التاء فى الموضعين والطرف : بالكسر الفرس الجواد . والخبار بفتح الخاء المعجمة بعدها موحدة الأرض الرخوة وذو شطب : السيف وشطب السيف طرائقه التى فى متنه الواحدة شطبة ، ولغموض هذه الأبيات ذكرنا تفسيرها .

ومما أبطل الشرع من عوائدهم فى هذا الباب

أنهم كانوا يطلقون النساء حتى إذا قرب انقضاء عدتهن راجعوهن لا عن حاجة ولا لمحبة ، ولـكن لقصد تطويل العدة وتوسيع مدة الانتظار ضراراً . وكان الرجل يطلق امرأته ، أو يتزوج ، أو يعتق ويقول : كنت لاعباً ، فأبطل الله تعالى ذلك وردّه عليهم بقوله سبحانه : « وإذا طلقتم النساء فأَمسِكُوهنّ بمعروفٍ أو سَرِّحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومَنْ يفْعَلْ ذلك فقد ظلم نفسه » . وفى الحديث : ثلاث جدهن جد وهزلهن جدّ النـكاح والطلاق والرجعة ، ومن ذلك أنهم كانوا يمنعون النساء أن يتزوجن من أردن من الأزواج بعد انقضاء عدتهن حمية جاهلية كما يقع كثيراً من نحو الملوك غيرة على من كنّ تحتهم من النساء أنْ يَصِرْنَ تحتَ غيرهم فإنهم بسبب ما نالوه من رياسة الدنيا وما صاروا فيه من النخوة والـكبرياء يتخيلون أنهم قد خرجوا من جنس بنى آدم إلا من عصمه الله تعالى منهم بالورع والتواضع . وقد أبطل الله تعالى ذلك ونهى عنه بقوله : « وإذا طلقتم النساء فَبلغْنَ أجلهنّ فلا تَعضِلوهُنّ أن ينـكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يُوعَظُ به من كان منـكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلـكم أزكى لـكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . ومن ذلك أنهم كانوا إذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحقّ بامرأته إن شاء أن يتزوجها بعضهم وإن شاءوا زوّجوها وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها ، فنهى الله تعالى عن ذلك بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا يحلّ لـكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » . أى لتأخذوا ميراثهن أو ليدفعن إليكم صداقهن إذا أذنتم لهن بالنـكاح . قال ابن عباس فى سبب هذه الآية : كان الرجل يرثُ امرأة ذى قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها . وفى رواية : إن كانت جميلةً تزوجها وإن كانت دميمةً[1] حبسها حتى تموتَ فيرثها ، وحاصل معنى الآية :

---

(١) الدمامة بالفتح : قبح المنظر وصغر الجسم وكأنه مأخوذ من الدمة بالكسر وهى القملة والنملة الصغيرة .

لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث فتزعمون أنكم أحق بهن من غيركم وتحسبوهن لأنفسكم . ولهم فى هذا الباب غير ذلك من المنكرات قد ذكرت فى كتب الحديث والتفاسير .

صفة حروب العرب فى الجاهلية وحروب غيرهم من الأوائل

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله تعالى وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منهم أهل عصبيته ، فإذا تذامروا[1] لذلك وتواقفت الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب ، وهو أمر طبيعى فى البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل . وسبب هذا الانتقام فى الأكثر إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده . فالأول أكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة ، والعشائر المتناظرة . والثانى وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والأكراد وأشباههم لأنهم جعلوا أرزاقهم فى رماحهم ومعاشهم فيما بأيدى غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ، ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك ، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما فى أيديهم ، والثالث هو المسمى فى الشريعة بالجهاد . والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها . فهذه أربعة أصناف من الحروب ، الصنفان الأولان منها حروب بغى وفتنة . والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل ، وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفاً ونوع بالكر والفر . أما الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم . وأما الذى بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر ، وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة

---

(١) تذمر : تنكر له وأوعده .

ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في إزالته ، وفي التنزيل : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . أي يشد بعضهم بعضاً بالثبات . وفي الحديث الكريم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . ومن هنا تظهر لك حكمة إيجاب الثبات وتحريم التولي في الزحف فإن المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه ، فمن ولّى العدو ظهره فقد أخل بالمصاف وباء بإثم الهزيمة إن وقعت وصار كأنه جرها على المسلمين ، وأمكن منهم عدوهم فعظم الذنب لعموم المفسدة وتعديها إلى الدين بخرق سياجه[1] فعد من الكبائر . ويظهر من هذه الأدلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع . وأما قتال الكرّ والفرّ فليس فيه من الشدة والأمن من الهزيمة ما في قتال الزحف إلا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الكر والفر ، ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما نذكره بعد .

ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس ويسوون في كل كردوس صفوفه ، وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشدوا من قاصية النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب ، واعتوروا[2] مع عدوهم الطعن والضرب ، فيخشى من تدافعهم فيما بينهم لأجل النكراء وجهل بعضهم ببعض ، فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب ويسمون هذا الترتيب (التعبئة) وهو مذكور في أخبار فارس والروم وللدولتين صدر الإسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكراً

---

(١) السياج : الحائط وما أحيط به على كل شيء مثل النخل والكرم
(٢) اعتوروا الشيء وتعوروه وتعاوروه : تداولوه

منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة ، ثم عسكراً آخر ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سَمْته يسمونه الميمنة ، ثم عسكراً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ، ثم عسكراً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة ويقف الملك وأصحابه فى الوسط بين هذه الأربعة ويسمون موقفه القلب ، فإذا تم لهم هذا الترتيب المحكم أما فى مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها ، أو كيفما أعطاها حال العساكر فى القلة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة .

وانظر ذلك فى أخبار الفتوحات وأخبار الدولتين بالمشرق ، وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخلف عن رحيله لبعد المدى فى التعبئة فاحتيج لمن يسوقها من خلفه . وعين لذلك الحجاج بن يوسف وكان فى الدولة الأموية أيضاً كثير منه وهو مجهول فيما لدينا لأنا إنما أدركنا دولة قليلة العساكر[1] لا تنتهى فى مجال الحرب إلى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معاً يجمعهم لدينا حلة أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قِرنه[2] ويناديه فى حَوْمَةِ[3] الحرب باسمه ولقبه ، فاستغنى عن تلك التعبئة .

ومن مذاهب أهل الكر والفر فى الحروب

ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العُجْم فيتخذونها ملجأ للخيالة فى كرّهم وفرّهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدونَ للحرب ، وأقرب إلى الغلب ، وقد يفعله أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة ، فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الفيلةَ فى الحروب ويحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلةِ والسلاح والرايات ويصفونها وراءهم

---

(١) لا تعجب أيها القارىء الكريم من هذا الكلام فانه ليس المصنف انما هو للامام ابن خلدون (المقدمة ٢٢٦ ط بولاق) !

(٢) القرن بالكسر الكفء فى الشجاعة أو عام

(٣) حومة الحرب : أشد موضع فيها .

فى حومة الحرب كأنها حصون فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم ، وانظر ماوقع من ذلك فى القادسية ، وأن فارس فى اليوم الثالث اشتدوا بهم على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فخالطوهم وبَعَجوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على أعقابها إلى مرابطها بالمدائن فجفا معسكر فارس لذلك وانهزموا فى اليوم الرابع . وأما الروم وملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم ، فكانوا يتخذون لذلك الأسرّةَ ينصبون للملك سريره فى حومة الحرب ويحف به من خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات فى أركان السرير ويحدق به سياج آخر من الرماة والرجالة فيعظم هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجأ للكرّ والفرّ وجعل ذلك الفرس أيام القادسية . وكان (رستم) جالساً فيها على سرير نصبه لجلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب فى سريره ذلك فتحول عنه إلى الفرات وقتل . وأما أهل الكر والفر من العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة فيصفون لذلك إبلهم والظهر الذى يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمونها المجبوذة وليس أمة من الأمم إلا وهى تفعل ذلك فى حروبها وتراه أوثق فى الجولة وآمن من الغرة والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد أغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل الأثقال والفساطيط [1] . يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغنى غناء الفيلة والإبل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار فى المواقف . وكان الحرب أول الإسلام كله زحفاً ، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر لكن حملهم على ذلك أول الإسلام أمران أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم بمثل قتالهم . الثانى : أنهم كانوا مستميتين فى جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الإيمان ، والزحف إلى الاستماتة أقرب .

وأول من أبطل الصف فى الحروب وصار إلى التعبئة كراديس مروان بن

---

١) جمع فسطاط بالضم والكسر بيت من شعر

الحكم فى قتال الضحاك الخارجى والجبيرى بعده . قال الطبرى : لما ذكر قتال الجبيرى فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكرى و يلقب أبا الدلفاء ، قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف من يومئذ انتهى . فتنوسى قتال الزحف بإبطال الصف ، ثم تنوسى الصف وراء المقاتلة بما داخل الدول من الترف ، وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم فى الإحياء فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الإبل والظعائن وصعب عليهم اتخاذها فخلفوا النساء فى الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخبية ، فاقتصروا على الظهر الحامل للأثقال والأبنية أى الخيام ، وكان ذلك صفتهم فى الحرب ، ولا يغنى كل الغناء لأنه لايدعو إلى الاستماتة كما يدعو إليها الأهل والمال فيخف الصبر من أجل ذلك وتَصْرفهم الهيعات[1] وتخرم صفوفهم . ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده فى قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الإفرنج فى جندهم واختصوا بذلك ، لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر والسلطان يتأكد فى حقه ضرب المصاف ليكون ردءاً[2] للمقاتلة أمامه فلا بد أن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات فى الزحف و إلا أجفلوا[3] على طريقة أهل الكر والفر فانهزم السلطان والعساكر بأجفالهم فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعودة الثبات فى الزحف — وهم الأفرنج — و يرتبون مصافهم المحدق بهم منها هذا على مافيه من الاستعانة بأهل الكفر وأنهم استخفوا ذلك للضرورة التى أريناكها من تخوف الأجفال على مصاف السلطان ، والأفرنج لا يعرفون غير الثبات فى ذلك لأن عادتهم فى القتال الزحف فكانوا أقومَ بذلك من غيرهم مع أن الملوك فى المغرب إنما يفعلون ذلك عند الحرب

---

(١) هى الاصوات تفزع منها (٢) أى عونا (٣) أجفل القوم : انقلعوا : فمضوا

مع أمم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة وأما فى الجهاد فلا يستعينون بهم حذراً من ممالأتهم[1] على المسلمين . وقد كان قتال أمم الترك مناضلة بالسهام وتعبئة الحرب عندهم بالمصاف ، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفاً وراء صف ، ويترجلون عن خيولهم ويفرغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً . وكل صف ردءٌ للذى أمامه أن يكبسهم العدو إلى أن يتهيأ النصر لأحدى الطائفتين على الأخرى وهى تعبئة محكمة غريبة . . وكان من مذاهب الأول فى حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عنــد ما يتقاربون للزحف حذراً من معرة البَيَات والهجوم على العسكر بالليل لما فى ظلمته ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار وتجـد النفوس فى الظلمة ستراً من عاره ، فإذا تساووا فى ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم[2] ويديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول فى أمثال هذا قوة وعلية واقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدى عليه فى كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك ، فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفَعَلَة نسى هذا الشأن جملةً كأنه لم يكن والله خير القادرين .

وانظر وصية على كرم الله تعالى وجهه وتحريضه لأصحابه يوم صفين تَجِدْ كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحدٌ أبصرَ بها منه . قال فى كلام له : فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدّموا الدارع وأخرو الحاسر ، وعَضُّوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، والتووا على أطراف الرماح فإنه أصون للأسنة وغُضُّوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكنُ للقلوب ، اخفتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار ، وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبْر ينزل النصر . . وقال الأشتر

---

(١) ملأه على الأمر ومالأه : ساعده وشايعه وتمالئوا عليه : اجتمعوا

(٢) أى خيامهم

يؤمئذ يحرض الأزد : عَضُّوا على النواجِذ(١) من الأضراس ، واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين(٢) يثأرون بآبائهم وإخوانهم حناقا على عدوهم ، وقد وطنوا على الموت أنفسهم لئلا يسبقوا بوتر ، ولا يلحقهم فى الدنيا عار . كذا فى مقدمة العبر وتمام الكلام فيها ، وما نقلناه واف بغرضنا .

آلات العرب فى الحروب

وهى كل ما استعمل لإزهاق الروح وإهلاك الأنفس وهى كثيرة منها السيوف وهى أحسن آلاتهم وأشهرها ذكراً فلذلك كثرت أسماؤها عندهم ولهجوا بها فى أشعارهم ، وأول من عمل الحديد من العرب الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة . ولذلك قيل لبنى أسد القيون ، وقيل لكل حداد هالكى . وكان من أحسن السيوف عند العرب السيوف المشرفية وكانوا أكثر ما يتحمسون بها كما فى قوله :

ولو سئلت عنا جَنُوب لخبرت عشيةَ سالتْ عَقْرباء بها الدم
عشية لاتغنى الرماح مكانها ولاالنبلُ إلا المَشْرَفى المصمَّم(٣)

والمشرفى بفتح الميم هو السيف المنسوب إلى مشارف . قال البكرى فى معجم ما استعجم : قال الحربى والمشارف قرى من قرى العرب تدنو من الريف واحدها مشرف . وقال فى موضع آخر : وهى مثل خيبر ودومة الجندل وذى المروة والرحبة . وقال البكرى فى (مؤتة) أيضاً : وكان لقاؤهم يعنى المسلمين الروم فى

---

(١) جمع ناجذ وهو السن بين الضرس والناب وضحك حتى بدت نواجذه قال ثعلب : المراد الانياب وقيل الناجذ آخر الاضراس وهو ضرس الحلم لانه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل وقيل الاضراس كلها نواجذ

(٢) الموتور : من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه

(٣) البيتان من جملة أبيات لضرار بن الازور ، وقوله بها الدم يروى بداله ومالهم ، و (عقرباء) منزل من أرض اليمامة فى طريق النباج قريب من قرقرى وهو من أعمال الفرض وهو لقوم من بنى عامر بن ربيعة كان لمحمد بن عطاء أحد فرسان ربيعة المذكورين وخرج اليها مسيلمة لما بلغه سرى خالد الى اليمامة فنزل بها لانها فى طرف اليمامة ودون الاموال وجعل ريف اليمامة وراء ظهره فلما انقضت الحرب وقتل مسيلمة قتله وحشى مولى جبير بن مطعم قاتل حمزة ، قال ضرار بن الازور : ولو سئلت الخ وكان للمسلمين مع مسيلمة الكذاب عندد وقائع (معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٣) .

قرية يقال لها مشارف من تخوم البلقاء ثم انحاز المسلمون إلى (مؤتة) وهو موضع من أرض الشام من عمل البلقاء فالسيف المشرفيّ إن كان منسوبا إلى الأول فالنسبة على القياس لأن الجمع يرد إلى الواحد فينسب إليه و إن كان منسوبا إلى الثانى فالنسبة على خلاف القياس . وبهذا التحقيق يعرف ما فى قول الصاغانى وغيره : والسيوف المشرفية منسوبة إلى مشارف الشام . قال أبو عبيدة : هى قرى : من أرض العرب تدنو من الريف يقال سيف مَشْرفيّ ولا يقال مشارفى لأن الجمع لا ينسب إليه إذا كان على هذا الوزن انتهى . وقال صاحب المصباح بعد أن نقل هذا : وقيل هذا خطأ بل هى نسبة إلى موضع من اليمن . وقال ابن الانبارى فى شرح المفضليات عند الكلام على هذا البيت : والمشرفى منسوب إلى المشارف وهى قرى للعرب تدنو من الريف . ويقال : بل هى منسوبة إلى مشرف رجل من ثقيف . فالقول الأول من كلام البكرى ويدل على الجمعية دخول اللام عليها فى كلامها . وفى عمدة ابن رشيق : وليس قول من قال إنها : منسوبة إلى مشارف الروم أو مشارف الهند بشىء عند العلماء و إنْ قاله بعضهم . ومن أحسن السيوف السُرَيجِيّة نسبة إلى سُرَيْج وهو رجل من بنى أسد . قال محمد بن حبيب : هو أحد بنى معرّض بن عمرو ابن أسد بن خزيمة وكانوا قُيُونا . قال عمرو الحميرى لما سأله أبوه القيل عن أحب السيوف إليه : الصقيل الُحسام ، الباتر المِجذَام[1] ، الماضى السِطام[2] ، المرهف الصمصام[3] ، الذى إذا هززته لم يكْبُ ، وإذا ضربت به لم ينْبُ ، وقال أخوه ربيعة : نعم السيفُ نَعَتَ وغيره أحب إلىّ منه ، وهو الُحسام القاطع ، ذو الرونق اللامع ، الظمآن الجائع ، الذى إذا هززتهُ هتك ، و إذا ضربتَ به بتك[4] . ثم قال الأب : فما أبغض السيوف إليك ياعمرو ؟ قال : الفُطار بالفاء مضمومة[5] الكَهام[6]

---

(١) مفعال من الجذم وهو القطع (٢) حد السيف وغيره وفى الحديث : العرب سطام الناس أى حدهم (٣) رهف السيف كمنع رققه ، والصمصام: السيف الذى لا ينثنى (٤) أى قطع (٥) هو الذى لا يقطع وهو مع ذلك حديث الطبع (٦) كسحاب الكليل الذى لا يقطع .

الذى إن ضربت به لم يقطع ، و إن ذبح به لم ينخع[1] . قال : فما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس السيفُ واللهِ ذكَرَ وغيره أبغضُ إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الطبع الددان[2] ، المِعضَد المهان[3] . . ومن آلاتهم (الرماح) وأجودها عندهم الرماح الآزنيّة منسوبة إلى ذى يزن الملك . ويقال لها اليزنية أيضاً . قال ذو الرمة :

أزين الذى استودعنَ سوداء قلبه هوى مثل شكّ الآزنىّ النواجمِ

قال هكذا جاءت الرواية فى البيت . والرماح الخطية منسوبة إلى خط اسم أرض. قال الأصمعى : لا أعلم إلاّ نسبة الخط وهى جزيرة بالبحرين إليها تنسب الرماح إلا أن يقال إن سفن الرماح ترفأ[4] إلى هذا الموضع فقيل للرماح خطية . والردينية منسوبة إلى امرأةٍ يقال رُدَيْنَة كانت تعمل الرماح .(والرمح فوق الصعْدَةِ فإن العنزَةَ إذا طالت شيئاً وفيها سنان دقيق فهى نَيْزك ومطرد فإذا زاد طولها وفيها سنان عريض فهى ألّةٌ وحَرْبةٌ فإذا كانت مستوية نبتت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف فهى صَعْدة فإذا اجتمع فيها الطول والسنان فهى القناة والرمح . ومن الأسنة ضرب يقال لها القَعضَبيَّة تنسب إلى قَعْضَب رجل قشيرىّ كان يعملها وكذلك الشرعبية أيضاً . قال الأعشى :

ولدنٍ من الخطىّ فيها أسنةٌ ذخائرُ مما سَنَّ أبزى وَشَرْعَب

وسأل القيل الحميرى ابنه عمراً عن أحب الرماح إليه عند المراس ، إذا اعتكر الباس ، واشتجر الدعاس[5] . قال : أحبُّها إلىّ المارِنُ المثقَّف[6] المقوم المخطف ، الذى إذا هززته لم ينعطف ، وإذا طعنتَ به لم ينقصف ، ثم قال لأخيه : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : نعمُ الرمحُ نَعَتَ ، وغيره أحب إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الذابل العسّال[7] ، المقوم النسّال ، الماضى إذا هززته ، النافذ إذا همزته[8] . قال :

(١) أى لم يبلغ النخاع والنخاع مثلثة الخيط الابيض فى جوف الفقار ينحدر من الدماغ وتتشعب منه شعب (٢) الطبع : الصدىء ، والددان الذى لا يقطع وهو نحو الكهام (٣) القصير الذى يمتهن فى قطع الشجر وغيرها
(٤) رفأ اليه : لجأ (٥) اى الطعان يقال دعسه أى طعنه والمداعسة المطاعنة
(٦) الرمح المارن : الصلب اللدن (٧) أى الشديد الاضطراب اذا هززته ومنه العسلان وهو عدو فيه اضطراب ، والنسلان قريب منه
(٨) الهمز : الضرب والنخس

أخبرنى يا عمرو ما أبغض الرماح إليك ؟ قال : الأعصل[1] عنـد الطعان ، المثلم السنان ، الذى إذا هززته انعطف ، و إذا طعنت به انقصف . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس الرمح ذكر وغيره أبغض إلىّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الضعيف المهز ، اليابس الـكز[2] ، الذى إذا أكرهته انحطم ، و إذا طعنت به انقصم . .
ومن آلاتهم (القسىّ) وأجودها القسىّ العُصفورية منسوبة إلى رجل يسمى عُصفوراً حكاه الجاحظ وأنشد لابن بشير :

عطف السياتِ موانع فى بذلها تعزى إذا نسبت إلى عُصفور[3]

يعنى قسىّ البندق دعا بها على حمام جاره . والقسى الماسخية منسوبة إلى رجل من الأزد اسمه ماسخة وهو أول من عملها .) وسهم القوس الذى يرمى به فإن أول ما يقطع العود و يقتضب يسمى قطعا ثم يبرى فيسمى بريًا وذلك قبل أنْ يقوَّمَ فإذا قُوِّم وأنى له أن يُراش و ينصل فهو القدح فإذا ريش وركب نصله صار سهماً ونبلا . قال أبو عبيدة : أجود السهام التى وصفتها العرب سهامُ بِلَادِ وسهام يثرب وهما قريتان من حَجْر اليمامة . وأنشد للأعشى : (بسهام يثرِبَ أو سهام بَلَادِ)[4]
والـكنانة محفظة النبال . والـكنائن الزغرية : منسوبة إلى زُغَر موضع بالشام تعمل به كنائن حمر مذهبة . قال أبو دؤاد يصف فرساً :

كـكنانة الزُغَرى زينَّهـا من الذهب الدُلامص[5]

(وكان الشماخُ أوصفَهم للحُمُر الوحشية والقسىّ بشهادة الُحطَيْئةِ والفرزدق وكذلك الشَنْفَرَى كان من أوصف الشعراء للقسىّ قال :

---

(١) الملتوى المعوج (٢) أى الذى خشـبته صلبة (٣) سـية القوس بالكسر مخففة ما عطف من طرفيها ، وتعزى : تنسب
(٤) بلاد بوزن قطام وحذام ورواه بعضهم بكسر الباء بلد قريب من حجر اليمامة ، وقيل بلاد محارث باليمامة ، وهذا الشطر من بيتين للاعشى ذكرهما الحموى فى معجم البلدان وهما :

انى تذكر ودها وصـفاءها سفها وانت بصـوة الاثمان
منعت قياس الماسخية رأسه بسهام يثرب أو سهام بلاد

(٥) الدلامص : اللمعان ، وفى القاموس ان زغر كزفر أبو قبيلة كنائنهم من أدم حمر مذهبة .

وإنّى كفانى فقدُ من ليس جازياً ... بحُسْنَى ولا فى قربه مُتعلَّلُ (١)

ثلاثةُ أصحابٍ فؤادٌ مشيَّعٌ ... وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عَيْطَلُ (٢)

هَتُوفٌ من الملس المتونَ يزينها ... رصائعُ قد نيطَتْ إليها ومِحْمَلُ (٣)

إذا زلَّ عنها السهمُ حَنَّتْ كأنَّها ... مُرَزَّأة ثَكْلى تِرِنُّ وتُعْوِلُ (٤)

ومن آلاتهم (الدرع) وهو القميص المتخذ من الزرد وتنسب إلى فرعون . قال شاعرهم :

بكل فرعونيةٍ لونُها ... لون فضيض البَغْشَةِ الغاديه (٥)

وتنسب إلى داود وسليمان عليهما السلام وإلى تُبَّع وإلى محرِّق يريدون بذلك القدم وجودة الصنعة . والدروع الحُطَمِيَّة منسوبة إلى حُطَمَة بن محارب بن عمرو ابن وديعة بن لكيز بن عبد القيس بن أفصى . وقال ابن الكلبى : هى منسوبة إلى حُطَم أحد بنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة . والدروع السلوقية منسوبة إلى سلوق قرية باليمن وإليها تنسب أيضاً الكلاب السلوقية وقد لبس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الدرع فى الحروب ولا ينافى لبسُها التوكلَ ، وكذا اتخاذ سائر الآلات ، والحق أنَّ الحذر ، لا يرد القدر ، ولكن يضيق مسالك الوسوسة لما طبع عليه البشر . وفى كتاب الأحكام السلطانية للإمام الماوردى : أنَّ درع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المعروفة بالبتراء كانت على الحسين بن علىّ رضى الله تعالى

(١) التعلل التلهى بالشيء يقال فلان يتعلل بكذا أى يتلهى به والمتعلل هو الشيء الذى يتعلل به (٢) المشيع: الشجاع المقدام كانه فى شيعة ، والاصليت: الصقيل الماضى ، والصفراء اسم القوس ذكره الجوهرى وقال غيره قوس من نبع ، والعيطل : الطويلة (٣) الهتوف : من القسى المصوتة بكثرة ومثله الهتافة والهتفى بالتحريك ، والمتون : الظهور واحدها متن ، والرصائع جمع رصيعة وهى كل حلقة مستديرة فلعل القسى العربية كانت تزين بالحلق المستديرة ومن الناس من فسر الرصائع هنا بسيور مضفورة ، والمحمل : علاقة السيف وهو السير الذى يقلده المتقلد ، ونيطت : علقت (٤) حنت : صوتت والمرزأة: الكثيرة الرزايا أى المصائب ، والثكلى : الحزينة على فقد وليدها ويروى عجلى ، وتزن : تصوت مأخوذ من الرنة وهى الصوت ، وتعول : ترفع صوتها بالبكاء (٥) الفضيض : ما انتشر من الماء اذا تطهر به وكل متفرق ومنتشر ، والبغشة : المطرة الضعيفة ، والغادية : السحابة تنشأ غدوة أو مطرة الغداة ، والبيت على ما فى عمدة ابن رشيق لراشد بن كثير .

عنهما يوم قتل فأخذها عبيد الله بن زياد ، فلما قَتَل المختار عبيدَ الله بنَ زيادصارت الدرع إلى عباد بن الحصين الحنظلى . ثم إن خالد بنَ عبد الله بن خالد بن أسيد وكان أمير البصرة سأل عباداً عنها فجحده إياها فضربه مائة سوط فكتب إليه عبد الملك بن مروان : مثلُ عباد لا يضرب إنما كان ينبغى أن يقتل أو يعفى عنه ، ثم لم يعرف للدرع خبر بعد ذلك ، ومنها « البَيْضة » بفتح الباء وهى ما يلبس فى الرأس من آلات السلاح . ومنها « المِجَنّ » وهى والتُرس والدرقة بمعنى واحد وهى ما يعمل من بعض الجلود بلا خشب ولا عقب وقد توجد الآن فى أحياء العرب يتقون بها وقع السيوف على أبدانهم . ومنها « المنجنيق »[1] بكسر الميم وهى آلة لرمى الحجارة . والعرّادات بتشديد الراء أصغر من المنجنيق وقد نصب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منجنيقاً على أهل الطائف ويروى أن أول من استعمله نمروذ فى حادثة إبراهيم عليه السلام . ولهم غير ذلك من الآلات وقد رأيت عدة رسائل فى كيفية استعمالها والمضاربة بها مع العدو . وأما (اللواء) وهو العَلَم أيضاً فكان الأصل أن يمسكها رئيس الجيش ثم صارت تحمل على رأسه . وقال أبو بكر بن العربى : اللواء غير الراية فاللواء ما يعقد فى طرف الرمح ويلوى عليه . والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه[2] الرياح . وقيل اللواء دون الراية وقيل : اللواء العلم الضخم والعلم علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار والراية يتولاها صاحب الحرب . وكانت عادة جميع العرب اتخاذ اللواء فى حروبهم ومن عاداتهم جعل الرايات فى أطراف الرماح وبذلك تعرف الحكمة فى الاقتصار على ذكر الرمح دون غيره من آلات الحرب كالسيف فى الحديث الذى فى صحيح

---

(١) معرب من جه نيك (أى ما أجودنى) أو انا شيء جيد لانه لا يجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية غير اسم صوت بكسر الميم فى القاموس وضبطه ابو منصور بفتحها آلة لرمى الحجارة كالمجنون ومنجليق لغات فيه معربة ، وقيل الاقرب انه معرب منجل نيك ومنجل ما يفعل بالحيل وميمه زائدة وقيل أصلية ويدل على الاول قول بعض العرب كانت بيننا حروب عون ، تفقأ فيها العيون ، مرة بمنجنيق ، وأخرى بوثيق ، وقيل النون زائدة والميم أصلية وعكسه ، وقيل هما أصليتان وقيل زائدتان كما فصل فى التصريف» انتهى من شفاء العليل للخفاجى (٢) أى تحركه

البخاري عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : أنه قال جعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري . ولما كان ظل الرمح أسبغَ كان نسبة الرزق إليه أليق . وقد تعرض في الحديث الآخر لظل السيف في قوله صلى الله تعالى عليه وسلم . الجنة تحت ظلال السيف . فنسب الرزق إلى ظل الرمح لأن المقصود بذكر الرمح الراية ونسبت الجنة إلى ظل السيف لأن الشهادة تقع به غالباً ، ولأن ظل السيف يكثر ظهوره بكثرة حركة السيف في يد المقاتل ولأن ظل السيف لايظهر إلا بعد الضرب به ، لأنه قبل ذلك يكون مغموداً معلقاً . وفي الحديث السابق إشارة إلى فضل الرمح وإلى حل الغنائم لهذه الأمة و إلى أن رزق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جعل فيها لا في غيرها من المكاسب ولهذا قال بعض العلماء : إنها أفضلُ المكاسب والمراد بالصغار (وهو بفتح المهملة و بالمعجمة) بذلُ الجزيةِ . وفي قوله تحت ظل رمحي إشارة إلى أن ظله ممدود إلى أبد الآباد .

أيام العرب المشهورة

وقد ناسب أن نذكر هنا أيام العرب ونثبت بعض وقائعهم على سبيل الاختصار ولم أستقْصها فإن أبا عبيدة وغيرَهُ قد فرغوا مما ذكرت حتى إن أبا الفرج الأصبهاني قد استقصى حسب إمكانه أيامهم في كتابٍ أفرده لذلك فكانت ألفاً وسبعمائة يوم (يوم أداب[1]) لبني ثعلبة بن بكر رئيسهم الهذيل أبو حسان على بني رياح بن يربوع وقد كان الهزيل سبى نساء بني رياح والتقى بهم على أداب وقد سبقه بنو رياح إليه ليمنعوهم الماء حتى يردوا السبي فأقسم الهذيل لئن رددتم إلينا إناء فارغاً ليأتينكم فيه رأس إنسان منكم تعرفونه فاشتروا منه بعض السبي وأطلق البعض (يوم نعف

(١) كذا الاصل ، وفي العمدة يوم ارب ، والصواب : يوم اراب ، قال مساور بن هند :

وجلبته من أهل أبضة طائعا ... حتى تحكم فيه أهل أراب

وقال الفضل بن العباس اللهبي :

أتبكي ان رأيت لام وهب ... مغاني لم تحاورك الجوابا
أثافي لا يرمن وأهل خيم ... سواجد قد خوين على أرابا

قشاوة) لبسطام بن قيس رئيس بنى شيبان على بنى يربوع قتل فيه بَجَيْراً وأسر أباه أبا مليل ثم منّ عليه من وقته وترك له مليلا وولده وكان أسيراً عنده بعدأن كساه وحمله يوم (نجران) للأقرع بن حابس فى قومه بنى تميم على اليمن هزمهم وكانوا أخلاطاً وفيهم الأشعث بن قيس وأخوه وفيهم ابن ماكور الكلاعى الذى اعتق فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أربعة آلاف أهل بيت فى الجاهلية أسروا (يوم الصمد) وهو يوم طلح ويوم بلقاء ويوم أود ويوم ذى طلوح كلها يوم واحد لبنى يربوع على بنى شيبان ورئيسهم الحوفزان ورئيس اللهازم أبجر بن بجير العجلى (يوم طخفة) وهو أيضا يوم ذات كهف ويوم خزان [1] فى قول بعضهم لبنى يربوع والبراجم على المنذر بن ماء السماء أسروا فيه أخاه حسانا [2] وابنه قابوس وجزت ناصية قابوس وكان ذلك لسبب إزالة الردافة عن عوف بن عتاب الرياحى (يوم المَرُّوت) — وهو أيضاً يوم إرَم الكلابة نقا قريب من النباج لبنى حنظلة وبنى عمرو بن تميم على بنى قُشَيْر بن كعب بن ربيعة بن عامر وكان الذكر فيه لبنى يربوع وإنما أغارت قشير على بنى العنبر وسبيهم من بنى عامر (يوم مليحة) لبنى شيبان رئيسهم بسطام ابن قيس على بنى يربوع وقتل ذلك اليوم عصمة بن النجار فلما رآه بسطام قال ما قتل هذا إلا لتثكل رجلا أمه فقتل به (يوم العظالى) قاتله هيش [3] بن

---

(١) الصواب (خزاز) أو خزازى قال عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أوقد فى خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا

هذه رواية محمد بن خطاب والزوزنى » وروى الخطيب (خزاز) وأكثر ما جاء فى الشعر خزازى راجع معجم البلدان .

(٢) اسره بشر بن عمرو الرياحى ثم من عليه وأرسله فقال مالك بن نويرة:

ونحن عقرنا مهر قابوس بعدما رأى القوم منه والخيول تلهب

عليه دلاص ذات نسج وسيفه جراز من الهندى أبيض مقضب

طلبنا بها أنا مداريك قبلها اذا طلب الشأو البعيد المقرب

وكان طارق بن عميرة ضرب فرس قابوس فعقره واخذه ليجز ناصيته فقال قابوس ان الملوك لا تجز نواصيها فجهزه وأرسله الى أبيه وهذه الرواية اعنى مسألة جز ناصية قابوس تخالف ما ذكره المصنف

(٣) فى العمدة : الهبش بالموحدة .

المقعاس) يوم اللوى [١] لفزارة على هوازن فيه قتل عبـد الله بن الصمة وأثخن أخوه دريد (يوم الصليفـاء) لهوازن على فزارة وعبس وأشجع وفيه قتل دريد بأخيه ذؤاب بن أسماء (يوم الهباءة) وهو يوم الحفر لعبس على ذبيان فيـه قتل حُذَيْفَةَ بن بدر وأخوه حمل سيدا بنى فزارة وكان يقال لحذيفـة رب معد (يوم عراعر) لعبس على كلب وذبيان وفيه قتل مسعود بن مصاد الـكلبي وكان شريفاً (يوم الفروق) بين عبس و بنى سعـد بن زيد مناة قاتلوهم فمنعت عبس نفسهـا وحريمها وخابت غارة بنى سعد وقيل لقيس بن زهير ويقال عنترة : كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : مائة فارس كالذهب لم نـكثر فنفشل ، ولم نقل فنذل . (يوم شعب جبلة) قال أبو عبيدة : كانت أيام العرب ثلاثةً يوم كلاب ربيعة ويوم شعب جبلة ويوم ذى قار . وكان يوم الشعب لبنى عامر بن صعصعة وعبس حلفـاؤهم على الحليفين أسد وغَطفَان رئيسهم حصن بن حذيفة يطلب عبساً بدم أبيه ومعهم معاوية بن الجون الـكندى فى جمع من كندة وعلى بنى حنظلة بن مالك والرباب [٢] رئيسهم لقيط بن زرارة يطلب بدم معبد أخيه ويثربيّ بن عدس ومعهم حسان بن الجون

(١) تفصيل المسألة هو أن عبد الله بن الصمة (وهو أخو دريد بن الصمة لابيه وأمه) اغار على غطفان فاصاب منهم ابلا عظيمة فاطردها فقال له دريد انجاء فقد ظفرت ، فابى عليه وقال : لا ابرح حتى أنتقع نقيعتى — والنقيعة ناقة ينحرها من وسط الابل فيصنع منها طعاما لاصحابه ويقسم ما أصاب على أصحابه — فاقام وعصى أخاه فتتبعته فزارة فقاتلوه وهو بمكان يقال له (اللوى) فقتل عبد الله وارتث دريد فبقى فى القتلى فلما كان فى بعض الليل اتاه فارسان فقال أحدهما انى أرى عينيه تبص فانزل فانظر الى نفسه فنزل فكشف ثوبه فاذا هى تزمر فطعنه فخرج دم قد كان احتقن ، قال دريد : فافقت عندها فلما جاوزانى نهضت قال فما شعرت الا وأنا عنـد عرقوب جمل امرأة من هوازن فقالت من انت اعوذ بالله من شرك ، قلت: لابل من انت ويلك ؟ قالت : امرأة من هوازن سيارة ، قلت، وأنا من هوازن وأنا دريد بن الصمة قال وكانت فى قوم مجتازين لا يشعرون بالوقعة فضمته وعالجته حتى افاق فقـال دريد يرثى عبد الله أخاه ويذكر عصيانه له وعصيان قومـه بقصيدة مطلعها :

اعاذل ان الرزء فى مثـــل خالد ... ولا رزء فيما أهلك المرء عن يد
وقلت لعارض وأصحاب عارض ... ورهط بنى السوداء والقوم شهدى

(٢) سموا بذلك لانهم ادخلوا أيديهم فى رب وتعاقدوا والرب بالضم دبس الرطب اذا طبخ وقبل الطبخ هو صقر .

أخو معاوية وقيل بل عمرو بن الجون · وحسان بن وبرة الكلبي أخو نعمان بن المنذر لأمه . وقال غير أبي عبيدة : كان مع أسد وذبيان معاوية بن شُرَحْبِيل بن الأخضر ابن الجون بن آكل المُرار ومع بني حنظلة والرباب حسان بن عمرو بن الجون في جموع من كندة وغيرهم فأقبلوا إليهم بوضائع كانت تكون مع الملوك بالحيرة وغيرها وهم الرابطة وجاءت بنو تميم فيهم لقيط وحاجب وعمرو بن عمرو . ولم يتخلف منهم إلا بنو سعدٍ لزعمهم أن صعصعة هو ابن أسعد ولم يتخلف من بني عامر إلا هلال بن عامر وعامر بن ربيعة بن عامر . وشهد غني وباهلة وناس من بني سعد ابن بكر وقبائل بَجِيلة كلها إلا قُشَيراً . وشهدت بنو عبس بن رفاعة بن بهثة بن سليم عليهم مرداس بن أبي عامر أبو العباس بن مرداس . وشهد معهم نفر من عُكْل فانتهى جميع أهل الشعب يومئذ ثلاثين ألفاً ، وجاء الآخرون في عدد لا يعلمه إلا الله تعالى ولم يجتمع في الجاهلية جمع قط مثله ، فانهزمت سليم وذبيان وأسد وكندة ومن لف لفهم . وقتل لقيط بن زرارة طعنه شريح بن الأحوص فحمل مرتثاً فمات بعد يوم وأسر حسان بن الجون أسره طفيل بن مالك وأسر معاوية بن الجون أسره عوف بن الأحوص وجز ناصيته وأطلقه على الصواب وكان يوم جبلة قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة . وفي يوم الشعب ولد عامر بن الطفيل هكذا روى محمد بن حبيب عن أبي عبيدة . وروى غيره عنه خلاف ذلك (يوم اقرن) لبني عبس على بني تميم وبخاصة بني مالك بن حنظلة . وفي هذا اليوم قتل عمرو بن عمرو ابن عدس وابنه شريح وأخوه ربعي وكان عمرو بن عمرو بن عدس خرج مراغماً للنعمان بن المنذر فسبي سبياً من عَبْس وغنم مالا وابتنى بجارية من السبي فأدركته عبس فكان من أمره ما كان (يوم زبالة) لبني بكر بن وائل وخاصة بني شيبان وبني تيم الله رئيسهم بسطام على بني تميم ورئيسهم الأقرع بن حابس . أسر فيه الأقرع وأخوه فراس فاستنقذهما بسطام بعد أن حكم عليه عمران بن مُرَّةَ بمائة ناقة (يوم جدود) لبني سعد بن زيد مناة على بني شيبان وكانت شيبان أغارت

مع الحوفزان على سعد فأدركهم قيس بن عاصم المنقرى ففلهم واستنقذ ما كان في أيديهم وفاته الحوفزان بصلابة فرسه فلما يئس من أسره حفزه[١] بالرمح فى خزانة وركه فانتقضت عليه بعد حول فمات منها وسالمت فى هذا اليوم بنو يربوع الجيش على تمر أخذوه منهم وفضل ثياب فعيرتهم بذلك منقر (يوم الكُلاب الأول) لسلمة بن الحرث بن عمرو المقصور ومعه بكر بن وائل وحنظلة بن مالك و بنو أسيد وطوائف من بنى عمرو بن تميم والرباب ولم يكونوا ذلك الوقت يدعون ربابا و إنما تربيوا بعد ذلك حكاه أبو عبيدة فقتل شُرَحْبيل قتله أبو حنش عاصم بن النعمان الجشمى و يقال بل قتله ذو السُنَيْنة حبيب بن عُتبة الجشمى[٢] كانت له سن زائدة وهو أخو أبى حنش لأمه سلمى بنت عدىّ بن ربيعة أخى مهلهل هكذا أثبتوا فى هذا الموضع أن عدياً أخو مهلهل . و يسمى الكُلاب الأول أيضاً يوم الشعيبة[٣] (يوم الكُلاب الثانى) لبنى تميم و بخاصة بنى سعد والرباب رئيسهم قيس ابن عاصم على قبائل مَذْحج وكانت مذحج فى نحو اثنى عشر ألفاً . رئيسهم يزيد ابن المأمور وهم مذحج وهمدان وكندة ، وفى هذا اليوم أسر عبد يغوث ابن وقاص الحارثى وهتم فم[٤] سنان ابن سمى بن سنان بعد أن أسر رئيس كندة هتمه قيس بن عاصم بقوسه وانتزع عبد يغوث من يد الاهتم بعد أن شرط المأصول[٥] الموصلة إليه مائة من الإبل انتزعته التيم فقتلوه برئيسهم النعمان ابن جساس وكان قد قتل ذلك اليوم و يسمى الكلاب الثانى يوم جزّ الدوابر . وقال أبو عبيدة : لم يشهده من تميم إلا الرباب وسعد خاصة ، وكان الغناء من الرباب للتيم ، ومن سعد لمقاعس (يوم ذى بيض) أغار الحوفزان على بنى

---

(١) أى طعنه (٢) فى القاموس : البجلى (٣) كذا الاصل ومثله فى عمدة ابن رشيق (٢ : ١٦٣) والصواب (الصفقة) انظر العقد الفريد (٣ : ٢٥٣) من طبعة الجمالية . ومعجم البلدان (٥ : ٣٦٨) من طبع مطبعة السعادة.
(٤) هتم فاه يهتمه القى مقدم اسنانه كاهتمه ، وكفرح انكسرت ثناياه من أصولها فهو أهتم وتهتم تكسر (٥) وفى العمدة : (المأسورة) ولعل الأصح المأمور فليحرر .

يربوع فسبى نسوة منهم فأصرختهم بنو مالك بن حنظلة فاستنقذوا النسوة وأسر الحوفزان . أسره حنظلة بن بشر بن عمرو . وزعم قوم : أن هذا اليوم يوم الصمد . (يوم عاقل) لبنى حنظلة على هوازن وفيه أُسر الصمّة بن الحارث بن جُشَم وهزم جيشه وكان الذى أسره الجعد بن الشمّاخ أحد بنى مالك بن حنظلة ثم أطلقه بعد سنة وجزّ ناصيته على أن يثيبه فأتاه على الثواب فضرب الصمة عنقه ثم غزا بنى حنظلة ثانية فأسره الحرث بن يببة المجاشعى وأسر رجل من بنى أسد كان نزيلا عند ابن أخت له فى بنى يربوع أبناء للصمة فافتدى الصمة نفسه ومضى مع ابن يببة[1] فى فداء ابنه إلى المنازل فى بنى يربوع فطعنه أبو مرحب بالسيف فقتله لشىء كان بينهما عند حرب بن أمية فبنو مجاشع تعير بذلك . (يوم عَيْنَيْن) لبنى نهشل على عبد القيس منعوا منه بنى منقر وقد خرجوا ممتارين من البحرين فعرضت لهم عبد القيس فاستغاثوا بنى نهشل فحموهم واستنقذوهم (يوم قَلْهى) منعت فيه بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان بنى عبس الماء وغلبتهم عليه بعد إصلاح فزارة ومرة حتى أخذوا دية عبد العُزّى بن جدار[2] ومالك بن سُبيع . (يوم بُزاخة) لبنى ضبة على محرق الغسانى وأخيه فارس مودود . أغارا على بنى ضبة بُزاخة فى طوائف من العرب من إياد وتغلب وغيرهما فأدركهم بنو ضبة فأسر زيد الفوارس محرقاً وأسر أخاه حبيش بن الذلف[3] ثم قتلاهما بعد أن هزم من كان معهما وقتل منهم عدة ، (يوم إضم) لبنى عائذة بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة على الحرث بن مُزَيْقياء الملك الغسانى ومزيقياء هو عمرو بن عامر وفيهم كان ملك غسان فى الشام فى آل جفنة بن علية بن عمرو بن عامر فقتل بنى عائذة قتلا ذريعاً . وفى ذلك اليوم قتل الرديم وحمل رجل من بنى عائذة ثم من بنى قيس يدعى عامر ابن ضامر فقال . والله لأطعنَنَّ طعنة كمنخر الثور النعر[4] . ثم قصد ابن مزيقياء

---

(١) فى العمدة : (ابن نبيه) فليحقق (٢) فى معجم البلدان جداد بدالين
(٣) فى العمدة : (حنش بن الدلف) (٤) هو الذى يصيح بخيشومه .

فقتله وانهزم أصحابه هزيمة فاحشة . وزعم قوم أن هذا اليوم هو يوم بزاخة . وقال آخرون : بل كانت الوقعة مع غير الحرث من ولد مُزَيقِياء . وزعم غيرهم أنها مع مزيقياء بنفسه لا مع ولده . (يوم نقا الحسن) الحسن شجر سمى بذلك لحسنه وقيل هو جبل وهذا اليوم لبنى ثعلبة بن سعد بن ضبة على بكر بن وائل وفيه قتل بسطام بن قيس قتله عاصم بن خليفة أحد بنى صباح وكان رجلا أعسر[1] فأصاب صدغه الأيسر حتى نجمَ السنانُ[2] من الصدغ الأيمن (يوم أعيار) وهو يوم النقيعة لبنى ضبة على بنى عَبْس وفيه قتل عمارة الوهاب قتله شرحاف بن المثلم بابن عم له يدعى مفضالاً كان عمارة قد قتله وانطوى خبره ثم سمعه شرحاف ذكره على شراب وكان حينئذ غلاماً فحين شبَّ أخـذ بثأر ابن عمه يوم النقيعة واستنقذت بنو ضبة إبلها من بنى عبس وكانوا أدركوهم فى المرعى (يوم رحرحان الأول) غزا يثربى بن عدس بن زيد بن عبـد الله بن دارم بن عامر بن صعصعة وعلى بنى عامر يومئذ الأحوص بن جعفر بن كلاب فقتل من بنى عامر قريط بن عبد بن أبى بكر ابن كلاب . وقتل يثربى (يوم رحرحان الثانى) لبنى عامر بن صعصعة ورئيسهم الأحوص على بنى دارم وفى ذلك اليوم أسر معبد بن زرارة أسره عامر ابن مالك وأخوه طفيل وشاركهما فى أسره رجل من غنىّ يقال له أبو عميلة[3] عصمة بن وهب . وكان أخا طفيل من الرضاعة وفى أسرهم مات معبد شدوا عليه القيد وبعثوا به إلى الطائف خوفاً من بنى تميم أن يستنقذوه وكان هذا كله بسبب قتل الحرث بن ظالم المرى خالد بن جعفر غدراً عند الأسود بن المنذر . وقيل عند النعمان والتجأ به إلى زرارة بن عدس فلما انقضت وقعة رحرحان جمع لقيط ابن زرارة لبنى عامر وألّب عليهم وكان بين رحرحان ويوم جبلة سنة واحـدة (يوم ضرية) اختلف سعد والرباب على بنى حنظلة وكان بنو عمرو بن تميم حالفت

---

(١) أعسر يسر يعمل بيديه جميعا فان عمل بالشمال فهو اعسر وهى عسراء
(٢) نجم من باب قعد : طلع ، والسنان : نصل الرمح (٣) فى عمدة ابن رشيق : عميرة .

بكر بن وائل فصافت حنظلة لسعد والرباب فساروا إلى عمرو بن تميم فردوهم وحالفوهم ثم جمعوا لسعد والرباب ورئيسهم يومئذ ناجية بن عقال ورئيس سعد والرباب قيس بن عاصم فقال ابن خفاف لسعد والرباب : من لعيال عمرو وحنظلة إن قتلتم مقاتلهم ؟ قالوا : نحن . قالوا : فمن لعيالكم إن قتلوا مقاتلتكم ؟ قالوا : هم . قال : فدعوهم لعيالهم وليدعوكم لعيالكم . وتكلم الأهتم بذلك ورجال من أشراف سعد وساروا إلى عمرو وحنظلة إلى النسار من حمى ضرية فأجابهم ناجية بن عقال والقعقاع بن معبد بن زرارة وسنان بن علقمة بن زرارة إلى الصلح وأبى ذلك مالك بن نويرة[1] .

خيل العرب وما يحمد منها ويذم

اعلم أن الخيل أحسنُ ذوات الأربع صورةً وأفضلها وأشبهها بالإنسان فى الكرم ، وشرف النفس ، وعلو الهمة . وقد ورد الثناء عليها فى القرآن والحديث وأشعار العرب . قال تعالى (ومن رِباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وقال سبحانه (والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً) أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح ضبحاً وهو صوت أنفاسها عند العدو . والموريات التى تورى النار والإيراء إخراج النار . يقال : قدح الزند فأورى . فالمغيرات تغير أهلها على العدو . صبحاً أى فى وقته . فأثرن به نقعاً فهيجن بذلك الوقت غباراً . فوسطن به أى توسطن بذلك الوقت جمعاً من جموع الأعداء . وفى الحديث : الخيل معقودٌ فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة . وفى حديث آخر : بطونها كنز ، وظهورها حرز ، وأصحابها معانون عليها . وسأل

(١) تنبيه : ان أيام العرب كثيرة جدا وقد اقتصر المصنف على ايراد طرف مما هنالك ولم يستوعب ومن أحب التوسع فليرجع الى (عقد الفريد) لابن عبد ربه ، و (العمدة) لابن رشيق القيروانى . و (الاغانى) لابى الفرج الاصبهانى و (الكامل) لابن الاثير . وغيرها من كتب التاريخ والادب .

رجلٌ النبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إنى أريد أن أشترى فرساً أعده فى سبيل الله فقال له : اشترِ أدهَمَ أو كُمَيْتاً[1] أقرح[2] أرثَمَ[3] محجلاً[4] مطلق اليمين فإنها ميامن الخيل . وخيل العرب أجود خيول الدنيا ويزعمون أنها كانت من الوحش ، وأول من ذلل الصعب منها أبوهم إسماعيل عليه السلام . وكانت الخيل عندهم أعظم عددهم فى الحروب وعليها مدار أمرهم وبها يجولون فى كرّهم وفرّهم وكانوا يقودون خيولهم ليريحوها ويركبون إبلهم ، فإذا قربوا من عدوهم وأغاروا نزلوا عن إبلهم إلى خيلهم مخافةَ أن يتبعوا فيدركوا قال شاعرهم :

النازلينَ بكل معتركٍ والطيبين معاقد الأزُر[5]

وقيل فى معنى البيت أنهم ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على أقدامهم . وفى ذلك الوقت يتداعون : نزالِ كما قال ربيعة بن مقروم الضبيّ :

ولقد شهِدْتُ الخيل يوم طرادها بسليم أوظفة القوائم هيكل[6]

فدعوا : نزالِ ، فكنت أولَ نازلٍ وعلامَ أركبه إذا لم أنزلِ

وقال ابن السيد : النزول فى الحرب على ضربين : أحدهما ماذكر . والثانى فى أول الحرب وهو أن ينزلوا عن إبلهم ويركبوا خيلهم . قال اللخمى : وإنما ينزلون عن الإبل إلى الخيل فى الغارات . وزعم ابن سيدة فى نزولهم إنما هو من الإبل إلى الخيل وليس كذلك . وفى قوله النازلين إلخ إشارة إلى أن حالهم فى القتال على الخيل كحالهم فى القتال على الأقدام وأنهم لا يكفون عن النزول إذْ أحوال الناس فى ذلك مختلفة ولا ينزل فى ذلك الموضع إلا أهل البأس والشدة ولذلك قال مهلهل :

---

(١) الدهمة السواد والادهم الاسود ، والكمتة : حمرة تدخلها قنوء
(٢) القرحة بالضم فى وجه الفرس دون الغرة (٣) الرثمة بالضم بياض فى طرف انف الفرس أو كل بياض أصاب الجحفلة العليا فبلغ المرسن أو بياض فى الانف ٤) التحجيل : هو البياض بموضع الخلاخيل من اليدين والرجلين
(٥) الازر جمع ازار ، وطيب معاقدها كناية عن عفة ذويها والبيت من أبيات فى الفخر للخرنق الشاعرة الشهيرة (٦) الاوظفة جمع وظيف وهو مستدق الذراع والساق من الخيل وغيرها ، والقوائم : الارجل، والهيكل : العظيم ووصف به الفرس .

لم يطيقوا أن ينزلوا فنزلنـا وأخو الحرب من أطاق النزولا

وكان للعرب فى تربية الخيل مزيد اعتناء جاهلية وإسلاماً . وكان الرجل منهم يبيت طاوياً ويشبع فرسه ويؤثره على نفسه وأهله وولده . وقد دل على ذلك أشعارهم . فمن ذلك قول الجعفى :

الخيرُ ما طلعت شمسٌ وما غربت معلّق بنواصى الخيل معقود

وقال طفيل الغنوىّ :

وللخيل أيامٌ فمن يَصطبرْ لها ويعرف لهـا أيامها الخير يعقب

وقال شاعر بنى عامر :

بنى عامر ماذا أرى الخيلَ أصبحت بِطاناً وبعض الضر للخيل أمثل

بنى عامر إن الخيـول وقايةٌ لأنفسكم والموت وقت مؤجـل

أهينوا لها ما تكرمون وباشروا صيانتها والصون للخيـل أجملُ

متى تـكرموها يكرم المرء نفسه وكل امرىء من قومه حيث ينزل

وقال رجل من قريش :

أتقى دونه المنـايا بنفسى وهو يغشى بنا صـدور العوالى

فإذا مُتُّ كان ذاك تراثى وسخالاً محمودةً من سخالى

وقال لبيد :

معاقلنا التى نأوى إليهـا بناتُ الأعوجيّةِ والسـيوفُ (١)

وقال ضبيعة العبسىّ :

جزى الله الأغرَّ جزاء صدقٍ إذا ما أوقدت نار الحـروب

يقينى باللَّبانـ ومنـكبيه وأحميـه بمطّردِ الـكعوب (٢)

وأدفيـه إذا هبت شمـالٌ بَليلٌ حَرْجَفٌ عند الغروب (٣)

---

(١) قوله بنات الاعوجية : سيأتى بيانه قريبا فى (خيل العرب المشهورة) والمعاقل : جمع معقل وزان مسجد وهو الملجأ ، ونأوى : نلجأ

(٢) اللبان بالفتح : الصدر ، ومطرد الكعوب : هو الرمح

(٣) الشمال : ريح تأتى من ناحية القطب الشمالى ، والحرجف كجعفر : الريح الباردة الشديدة الهبوب ، والبليل كقتيل المبلولة من الندى أو بالة لما تمر عليه لرطوبتها .

أراه أهل ذلك حين يسعى رعاء الحى فى جمع الحلوب
فيخفق مرة ويفيد أخرى ويفجع ذا الضغائن بالأريب [(١)]
إذا سمن الأغر دنا لقاء يغص الشيخ باللبن الحليب
شديد مجامع الكتفين طِرْفٌ به أثر الأسنة كالعلوب [(٢)]
وأكرهه عل الأبطال حتى يرى كالأرجوانىّ المجوب [(٣)]
ألست بصاحبى يوم التقينا بسيف وصاحبى يوم الكثيب

ويروى بعضهم هذا الشعر لشداد . قال أبو محمد الأعرابى فى كتاب الخيل : أنكر أبو الندى هذا الشعر أن يكون لشداد بن معاوية ، وأن يكون الأغر فرسه وذكر أن الأغر لضبيعة بن الحارث العبسى وهو القائل فيه :

لولا اعتراض فى الأغر وجرأةٌ لفعلت فاقرة بجيشِ مُقيدِ [(٤)]

قال : مقيد عامر بن الطفيل بن مالك الجعفرى أقاد العرب دماء قومه يوم الرقم انتهى . وقال عنترة بن شداد بن معاوية بن فراد أحد بنى مخزوم بن عوذ بن غالب ، وكانت أمه حبشية سوداء وهو من غرابيب العرب صاحب المعلقة :

ويمنعنا من كل ثغر نَخَافُهُ أقَبُّ كسرحان الأباءة ضامر [(٥)]
وكل سبوح فى العنان كأنها إذا اغتسلت بالماء فتخاء كاسر [(٦)]

وقال أيضاً فى معلقته :

تُمْسى وتُصبح فوق ظهر حَشِيَّةٍ وأبيتُ فوق سَرَاةِ أدهمَ مُلْجَمِ

---

(١) ذو الضغائن : ذو الاحقاد (٢) الطرف : الكريم من الخيل ، والاسنة جمع سنان وهو نصل الرمح ، والعلوب ثلم السيف (٣) الارجوان بالضم الاحمر وثياب حمر وصبغ أحمر وأحمر ارجوانى قانى

(٤) الفاقرة : الداهية الكاسرة الفقار كذا قاله الليث وغيره وقال أبواسحق فى قوله تعالى « تظن أن يفعل بها فاقرة » المعنى توقن أى يفعل بها داعية من العذاب ونحو ذلك (٥) أى يحمينا فى الثغور — وهى مواضع المخافة من فروج البلدان — فرسان على أفراس كانها الذئاب ، وسرحان من أسماء الذئب ، والقبب ، دقة الخصر وضمور البطن ، والاباءة كعباءة : اجمة الحلفاء والقصب

(٦) قوله سبوح فى العنان كناية عن الفرس . والفتخاء من العقبان اللينة الجناح ، والكاسر : الطير الذى يضم جناحيه يريد الوقوع .

وحَشِيَّتى سَرْجٌ على عَبْل الشَوَى ... نَهْدٍ مراكِلُه نبيلِ المَحْزِمِ

هل تُبلِغَنّى دارَها شَدَنِيَّةٌ ... لُعِنَتْ بمحروم الشراب مُصَرَّمِ

خَطّارةٌ غِبَّ السُرى زَيّافَةٌ ... تَقِص الإكامَ بذاتِ خفٍّ ميثَمِ

وفى هذه الأبيات ألفاظ تخفى معانيها على المطالعين فلابد من كشفها على سبيل الإيجاز . فقوله : تمسى وتصبح يعنى حبيبته عَبْلة . والحشية : الفراش المحشو والسراة بفتح السين أعلى كل شيء ، وأراد به هنا ظهر فرسه . يقول : تمسى وتصبح فوق فراش وطىء وأبيت أنا فوق ظهر فرس أدهم ملجم يعنى أنها تتنعم وأنا أقاسى شدائد الأسفار والحروب ويريد بقوله : وحشيتى سرج أنه مستوطئ بسرج الفرس كما يستوطئ غيره الحشية ، والاضطجاع عليها . ثم وصف الفرس بأوصاف محمودة وهى غلظ القوائم وانتفاخ الجنبين وسمنها . والعبل بالفتح الغليظ . والشوى بالفتح القوائم جمع شواة أى على فرس غليظ القوائم . والعظام كثير العصب . والنهد بفتح النون الضخم المشرف . والمراكل جمع مركل كجعفر وهو الموضع الذى يصيب رجل الفارس من الجنبين إذا استوى على السرج . والنبيل العظيم . والمحزم موضع الحزام . وقوله : هل تبلغنى الخ استبعد الوصول إليها لشدة بعدها فاستفهم عنه وأبلغه المنزل إذا أوصله إليه . ودارها أى دار عبلة . وشدنية ناقة منسوبة إلى شدن بفتحتين وهو حىّ باليمن ، وقيل أرض فيه . وقوله : لعنت قال التبريزى فى شرح المعلقة : دعاء عليها بانقطاع لبنها أى بأن يحرم ضرعها اللبن فيكون أقوى لها وأسمن وأصبر على معاناة شدائد الأسفار لأن كثرة اللحم والولادة يكسبها ضعفاً وهُزالاً ، ويجوز أن يكون غير دعاء ويكون خبراً ، وأصل اللعن البعد . وقوله : بمحروم الشراب أى بضرع ممنوع شرابه وأصل حرم منع وقيل بمحروم الشراب فى محروم الشراب . وقال خالد بن كلثوم : لعنت نحيت عن الإبل لما علم أنها معقومة فجعلت للركوب الذى لايصلح له إلا مثلها

(والمصرم الذى أصاب أخلافه[1] شيء فقطعه من صرار أو غيره وقال أبو جعفر المصرم الذى يلوى رأس خِلْفه حتى ينقطع لبنه وهو هنا مثل يريد أنها معقومة ولا لبن لها انتهى . وقال الاعلم فى شرح الأشعار الستة : قوله لعنت أى سبت بضرعها كما يقال لعنه الله ما أدهاه وما أشعره ! وانما يريد أن ضرعها قد حرم اللبن فذلك أوفر لقوتها وأصلب لها فتلعن ويدعى عليها على طريق التعجب من قوتها . والمصرم : المقطوع اللبن . وقيل : معنى لعنت أنه دعا عليها بأن ضرعها يكون مقطوع اللبن اذ كان أقوى لها ، والمعنى الاول أحسن وأبلغ انتهى . وقوله : خطارة الخ هو صفة لشدنية ، والخطارة التى تخطر بذنبها يمنة ويسرة لنشاطها . والسُرى : سير الليل . وغب الشيء بعده . يقول : هى خطارة بعد السرى فكيف بها اذا لم تسر . والزيافة : التى تزيف فى سيرها كما تزيف الحمامة أى تسرع . وقوله : تقص الإكام أى تكسرها خفافها لشدة وطئها وسرعة سيرها . يقال وقص يقص بالقاف والصاد المهملة . ويروى تطس بمعناه يقال وطس يطس اذا كسر . والإكام بالكسر جمع أكم بفتحتين كجبال جمع جبل وهو ما ارتفع من الأرض . والميثم : الشديد الوطء : يقال وثم الأرض يثمها بالمثلثة اذا وَطِئَها وطئاً شديداً . وقوله : بذات خف أى بقوائم ذات أخفاف . ومن الشعر الدال على اعتنائهم بالخيل قول طفيل الغنوى :

إنى وإن قلّ مالى لا يفارقنى ... مثل (النعامة) فى أوصالها طول
تقريبُها المَرطى والجوزُ معتدلٌ ... كأنه سُبــد بِالماء مغسول[2]
أو ساهم الوجه لم تقطع أناجله ... يصان وهو ليوم الروع مبذول[3]

---

(١) جمع خلف بكسر فسكون وهو من ذوات الخف كالثدى للانسان وقيل الخلف طرف الضرع (٢) التقريب : ضرب من العدو ، والمرطى فوق التقريب ودون الالهاب ، والجوز : الوسيط ، والسبد : ثوب يسد به الحوض المركو لئلا يتكدر الماء يفرش فيه وتسقى الابل عليه .

(٣) ساهم الوجه عاليه وهى صفة ممدوحة للحرب فى الخيل ، والناجل : الكريم النسل كما فى كتاب نخبة عقد الاجياد .

وقال آخر فى ذلك :

لمــا رأيت قبيلةً مسعودةً بالخيل يسعفها الرهان ويجلبُ

صافيت منهوس اللبانِ كأنه بازٍ تراوحه اليدان مذرب[١]

وإذا تصفحه الفوارسُ معرضاً فتقول سرحان الغضا المتنصب

ويروى أن أحد فرسان العرب أيام الجاهلية وهو عبيدة بن ربيعة التميمى قد طلب منه أحد ملوكهم فرساً تسمى (سكاب) فمنعها منه وقال :

أبيْتَ اللعنَ إن سَكاب عِلْقٌ نفيسٌ لايعار ولا يباعُ[٢]

مفدَّاةٌ مكرمةٌ علينا يُجاع لها العيالُ ولا تجاعُ

سليلةُ سابقيْن تناجلاها إذا نسبا يضمهما الـكُراع[٣]

ففيها عزةٌ من غير نفر يحيدها إذا حر القراع[٤]

فلا تطمع — أبيتَ اللعنَ — فيها ومنعكها بشيء يستطاع

وكفى تستقل بحمل سيفى وبى ممن تهضَّمنى امتناع[٥]

وحولى من بنى قُحفانَ شِيبٌ وشبان إلى الهيجا سِراع[٦]

إذا فزعوا فأمرهُمُ جميعٌ وإن لاقوا فأيديهم شَعاعُ[٧]

---

(١) المنهوس : القليل اللحم ، واللبان بالفتح : الصدر ، والباز : ضرب من الصقور ، والسرحان من أسماء الذئب (٢) قوله أبيت اللعن : من تحيــات العرب لملوكهم وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام وكانت منازاهــم الحيرة وما يليها ، ومعنى أبيت اللعن : أبيت أن تأتى من الاخلاق المذمومة ما تلعن عليه ، وسكاب : أسم فرس ، وقوله علق نفيس أى مال يبخل به وهذا كما يقال : هو علق مضنة (٣) يقول : هى ولد فرسين سابقين اذا انتسبا انتهيا الى كراع وهو بالضم فحل كريم معروف واصل الكراع انف يتقدم من الجبل فسمى هذا الفحل به لعظمته ، وسليلة : الحق الهاء بها وان كان فعيــلا فى معنى مفعول لانه جعل اسما كما تقول هى قبيلة بنى فلان ومعنى سل نزع ويقال : نجلا والدهما وتناجلاه بمعنى واحد ومنه النجل بمعنى الولد

(٤) قوله يحيدها اى يجعلها حائدة وحر بمهملتين أى اشتد ، والقراع : مصدر قارعة اذا ضاربه (٥) يقال تهضم حقه أى ظلمه (٦) قحفان بالضم والشيب بالكسر جمع أشيب وهو الذى حصــل له شيب ، والهيجا يمــد ويقصر الحرب (٧) الشــعاع : المتفرق يقول : ان فزعوا من أمر فكلمتهــم واحدة واذا لاقوا العدو فايديهم متفرقة عليه بالطعن .

إلى غير ذلك من الشعر الذى لا يسعه المقام مما يدل على عزة الخيل لديهم وأنها مقدمة على أنفسهم ولعزتها فدوها بالأمهات والآباء ، وقدموها على عيالهم فى البأساء والضراء ، وآثروها على أعزتهم فى الطعام والماء .

ما يحمد من الخيل و يذم لدى العرب

كل من مارس شيئاً ولازمه كان أدرى بشؤونه وأعرف بأحواله مما سواه . هؤلاء العرب لما كانوا على ممر الأيام فى كرّ وفرّ وإقدام وإحجام ، لم تزل مواكبهم مصطفة ، وكتائبهم ملتفّة ، وأعلامهم منشورة ، وراياتهم مشهورة ، و بنودهم [١] خافقة ، وجموعهم مشتبكة ، وأقرانهم متطاعنة ، وفرسانهم متضاربة ، وسيوفهم بدم النحور مشرقة [٢] ، ورماحهم متشاجرة ، وخيولهم متصاهلة ونيران حروبهم مشتعلة ، كانت الخيل من أعظم عددهم وأنفذ آلات ظفرهم بمقصدهم ، بل كانت حصونهم المشيدة ، وكنوزهم المخلدة ، وعزهم الرفيع ، وحرزهم المنيع [٣] ، فلذلك وقفوا من أحوالها وأوصافها المحمودة والمذمومة ما لم يقف عليه غيرهم ، وعلموا من عللها وأدوائها ما لم يعلمه سواهم ، حتى بلغ فى ذلك صبيهم ووليدهم ما لم يبلغه شيوخ قوم آخرين . والشواهد على ذلك كثيرة استوعبتها كتبهم المؤلفه فى الخيل . ولنورد من ذلك شاهداً مشتملا على بيان ما نحن بصدده . روى أبو بكر بن دريد قال : حدثنى عمى عن أبيه عن الكلبىّ عن أبيه . قال : اجتمع خمس جوارٍ من العرب فقلن : هلممن ننعتْ خيل آبائنا . فقالت الأولى : فرسُ أبى ورده وما ورده ؟ ذات كفل مُزَحْلَقَ ، ومتن أخلق ، وجوف أخْوَق ،

---

(١) جمع بند وهو العلم الكبير (٢) يقال شرق الشىء شرقا فهو شرق اشتدت حمرته بدم أو بحسن لون أحمر ، قال الاعشى :

وتشرق بالقول الذى قد أذعته   كما شرقت صدر القناة من الدم

(٣) الحرز بالكسر العوذة والموضع الحصين . ومنه حديث الدعاء : اللهم اجعلنا فى حرز حارز ، أى كهف منيع ، والقياس أن يكون حرزا محرزا لان الفعل منه أحرز قال ابن الاثير : كذا روى واعله لغة .

ونَفْس مَرُوح ، وعين طَروح ، ورجل صروح ، ويد سبوح ، بُداهَتُها إهذاب وعَقبها غِلاب . وقالت الثانية : فرس أبي اللعّابُ ، وما اللعاب ؟ غَبْيَةُ سَحاب ، واضطرام غاب ، مُتْرَصُ الأوصال ، أشم القَذال ، مُلاحَكُ المَحال ، فارسه مُجيد وصيده عتيد ، إنْ أقبل فظبيٌ معّاج ، وإن أدبر فظليم هدّاج ، وأن أحضر فعِلْجٌ هرّاج .. وقالت الثالثة : فرس أبي حُذَمَة . وماحُذَمة ؟ إن اقبلتْ فقناة مقوّمة ، و إن أدبرت فأثفية ململه وإن أعرضت فذئبة مُعَجْرَمة أرساغها مترصه وفصوصها محصة ، جريها انثرار . وتقريبها إنكدار .. وقالت الرابعة فرس أبي خيفق وما خيفق ؟ ذات ناهق مُعْرَق ، وشدقٍ أشدق ، وأديم مُمَلّق ؛ لها خلق أشدف ، ودسيع منفنف ، وتليل مسيف ، وثّابة زَلوج ، خَيْفانة رَهُوج ، تقريبها إهماج ، وحُضَرُها ارتعاج .. وقالت الخامسة : فرس أبي هُذْلول وماهذْلول ؟ طريده محبول ، وطالبه مشكول ، رقيق الملاغم أمين المعاقم ، عَبْلُ المَحزِم ، مِخَدٌّ مِرْجَم ، منيف الحارك أشم السنابك ، مجدول الخصائل ، سَبِط الفلائل ، غَوج التليل ، صَلْصَال الصهيل ، أديمه صاف ، وسبيبه ضاف ، وعفوه كاف . . فمن هذه الفقرات التى ارتجلتها جوارٍ لم يبلغن الحلم ، ولم يتدارسن شيئاً من فنون العلم ، يعلم الحاذق ما كان عليه القوم من الفطنة وقوة الفهم والإدرك ، وما أوتوه من الذكاء والوقوف على دقائق الحقائق والفصاحة فى المنطق العذب ، وحيث إن هذه الكلمات التى اشتملت عليها هاتيك العبارات مما تخفى معانيها على كثير من الناس استوجب كشف ما فيه من إبهام والتباس فنقول فى شرح قول الأولى ؛ قالت : فرس أبي وردة وما وردة ؟ معنى هذا العبارة أن من عوائدهم فى محاوراتهم اللطيفة إذا أرادوا تشويق المخاطب فى معرفة شئ ودرايته أتوا بإجمال وتفصيل أى أى شئ أعلم المخاطب ماهى تأكيداً لعتقها وجودتها حتى كأنها خرجت عن دائرة علم المخاطب على معنى أن عظم شأنها وما اشتملت عليه من الأوصاف مما لم تبلغه دراية أحد من المخاطبين ، ولم تصل إليه معرفه سامع من السامعين ، ولا أدركه وهمه وكيفما قدر حالها فهى وراء ذلك

وأعظم . ومنه يعلم أن الاستفهام كناية عن لازمه من أنها لاتعلم ولا يصل إلى ما هى عليه من الأوصاف وهم ولا فهم . والجوار الخمس سلكن هذا المسلك البديع ، والأسلوب الرفيع . ووردة . اسم فرس أبيها سميت بذلك إما المشابهة فى اللون أو فى اللطافة وكان ذلك من عوائدهم كما سموا كل ما يخصهم من أسباب وآلات بأعلام شخصية تمييزاً لها عما يشاركها فى الجنس المستوجب انبهام مقصدهم لولا الوضع وقد جبلوا على الفصاحة والبيان فى المنطق ولا سيما الخيل فهى لديهم أحق مما سواها بالاعتناء والتمييز فلذلك سموها بأسما ناسبت أحوالها ، قولها : « ذات كفل مزحلق » الكفل محركة العجز أو ردفه أو القطن محركة وهو مابين الوركين . والمزحلق المملس كأنه زحلوقة وهى آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل وذلك فى الخيل من سيماء العتق ودليل النجابة . ومعنى قولها : «ومتن أخلق» أنها ناعمة الجلد فالمتن ما اكتنف بالصلب والظهر والأخلق الأملس ومنه صخرة خلقاء أى ملساء . ونعومة الجلد فى الخيل دليل العتق والجودة كما أن خشونته من أمارات الهجنة وعلاماتها . ومعنى قولها : « وجوف أخوق » أنها واسعة البطن فإن الأخوق الواسع ، وسعة الجوف من خصائص جياد الخيل وصفاتها المحمودة ، وضيقه من علائم الهجنة ومن المنكر فى الخيل . روى أن الحجاج بن يوسف الثقفى سأل ابن القرية عن صفات الجواد فقال : نعم أصلح الله الأمير الطويل الثلاث ، القصير الثلاث ، الرحب الثلاث ، الصافى الثلاث ، فقال : صفهن و بين لفظك . فقال . أما الطويل الثلاث : فالأذن والعنق والذراع . وأما القصير الثلاث فالعسيب والساق والظهر . وأما الرحب الثلاث : فالجوف والمنخر والجبهة . وأما الصافى الثلاث : فالأديم والعين والحافر . ومعنى قولها : « ونَفَس مروح[1] » أنها تتنفس بنفس سهل كثير التردد وأما إذا كان التنفس بصعوبة وضيق فهو من العيوب فى الخيل . ومعنى قولها : « عين طروح » أنها حادة البصر بعيدة مرمى النظر فإن

---

(١) فى أمالى أبى على القالى : ومروح : كثيرة المرح ، وضبط النفس بسكون الفاء .

ذلك معنى الطروح وهو من الصفات المحمودة وضد هذه الصفة من العيوب . ومعنى قولها : « ورِجل ضروح » إنها قوية الرجل عند الجرى لا يتعبها مشيها ، وإنها تدفع ما يصادفها من الحجارة ولا يصدها عن جريها ، فإن الضروح الدفوع يريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا مشت[١] . ومعنى قولها : « ويد سبوح » أنها سهلة المشى ، حسنة الجرى ، لا تتعب راكبها بل كأنه فى سفينة تجرى فى الماء والقطوف تتعب راكبها وتقلقه . ومعنى قولها : « بداهتها إهذاب » أنها إذا أركضت لاتهملج[٢] أولاً ثم تهذب ، بل إنها تهذب فجاءة من غير مقدمة فالبداهة والبديهة واحد وهو الفجاءة والإهذاب السرعة . يقال : أهذب الفرس إهذابا فهو مهذب ومعنى قولها : « وعقبها غلاب » أنهذه الفرس تستمر على الجرى ولا تتعب بل إنها إذا تطاير الحجر بمصادفة قوائمها تسبقه إلى موقعه وعدم الكلال من العتاقة والجودة كما أن الإعياء بسرعة من الهجنة فالعَقْب جرى بعد جرى . وغلاب مصدر غالبته مغالبة وغلابا كأنها تغالب الحجر . وحاصل ما وصفت به هـذه الجارية فرس أبيها وردة أنها كثيرة اللحم عظيمة الكفل . ملساء الجلد وناعمته ، واسعة الجوف سهلة التنفس حادة البصر قوية القوائم . حسنة الجرى . بحيث لا تتعب راكبها كأنها تجرى فى الماء سريعة الحركة . متيقظة . إن أجراها فارسها كان أول حركتها وجريها إهذاب وأسرع ما يكون من الحركة مع عدم كلالها وتعبها وأضداد هذه الأوصاف منتفية عنها حيث إنها من العيوب .

(شرح قول الثانية) فرس أبى اللعاب وما اللعاب غَبْيَة سحاب أى الدفعة من المطر . وذلك أنه لشدة جريه كأنه غيث نزل من السحاب ، وربما يقال إن فارسه فى غزوه عليه يكون فى خصْب ونعمة لأنه بمنزلة الغيث النازل . أو يقال إنه فى سرعة انحداره ومشيه كأنه مطر نازل من السحاب على حد قول امرىء القيس :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِل مدْبِرٍ معاً ... كجُلمود صخر حطَّه السيل من علِ[٣]

---

(١) وفى نسخة : اذا عدت (٢) هملجت الدابة مشت مشية سهلة فى سرعة
(٣) الكر : العطف ، والمكر فعل من كر يكر ومفعل يتضمن مبالغة كقولهم فلان مسعر حرب وفلان مقول ومصقع متضمنا مبالغة لأن مفعلا قد يكون

ومثل ذلك قولها : « واضطرام غاب » فان الاضطرام الاشتعال والغاب جمع غابة وهى الأجمة [١] تريد به سرعة جريه كما يسرع الحريق فى الأجم وعليه مثل الحريق وافق القصَبا [٢] ، ومعنى « مترص الأوصال » أنه محكم الأعضاء قويها لا يتزلزل عند الجرى ولا يكل والمترص المحكم والأوصال الأعضاء . ومعنى « أشم القذال » أن قَذاله وهو مَعْقد العِذار أشم مرتفع وذلك من أدلة العتق حيث يدل على عظم الدماغ فيكون قابلا للتطبع ، وأما الهجين فهو بخلاف ذلك ومعنى « مُلاحَك المحال » أن فقرات ظهره متقاربة متضامة دخل بعضها فى بعض فالملاحك المداخل والمحال جمع محالة وهى فقار الظهر وواحدة الفقار فَقارة ، ومتى رأيت الفقار متباينة متباعدة فى فرس فهو هجين ركيك الظهر لا يتحمل كثرة الركوب ومعنى « قولها فارسه مجيد » أن راكبه راكب فرس جواد ، وقد سبق تعريفه فى قول ابن القرية من أنه الطويل الثلاث القصير الثلاث الرحب الثلاث الصافى الثلاث . وربما يقال : إن فارسه يعد فى الحروب صاحب جواد بناء على أنهم كانوا يفضلون بين راكب الجواد وراكب الهجين كما فاضلت الشريعة الغراء . ومعنى قولها : « صيده عتيد » أنه إذا انفلت من فارسه لا يغيب عنه بل صيده عتيد أى حاضر لديه وهكذا شأن الخيل العتاق إذا انفتلت من يد فارسها أو سقط عنها راكبها وقفت أو دارت حوله بخلاف الهجين فى ذلك . ومعنى قولها : « إن أقبل فظبى معّاج وإن أدبر فظليم هداج وإن أحضر فعلج هراج » أنه سريع الجرى على كل حال من الأحوال الثلاثة فهو كالظبى المسرع إذا أقبل ، وكالظليم إذا أدبر ، وكحمار الوحش إذا أحضر . والمعاج : من معج فى سيره وعمج إذا أسرع . والظليم :

من أسماء الأدوات نحو المعول والمكتل والمخرز فجعل كأنه أداة للكرور وآلة لسعر الحرب وغير ذلك والكلام فى مفر نحو الكلام فى مكر ، والجلمود : الحجر العظيم الصلب » والحط : القاء الشىء من علو الى سفل ، وقوله : من عل أى من فوق (١) الأجمة محركة الشجر الكثير الملتف والجمع أجم بالضم وبضمتين وبالتحريك وآجام وإجام وأجمات (٢) تمامه : (والتبن والحلفاء فالتهبا) وقد عزاه سيبويه فى الكتاب لرؤبة وقال ابن يسعون أنه لربيعة بن صبيح على مازعم الجرمى.

ولد النعام وهو يوصف بسرعة المشى . واهداج : من الهدج وهو المشى الرويد ، والسريع . والعلج هنا : حمار الوحش . والهراج : كثير المشى .

(شرح قول الثالثة) معنى « إن أقبلت فقناة مقومة » إنهـا سريعة الجرى كأنها قناة مقومة رميت فإنها حينئذ أسرع فى النفوذ . والقناة الرمح والمقومة المعدلة المثقفة . وربما يقال فى معنى ذلك أنها دقيقة القدم وهو مدح فى الإناث يدل على ذلك قولها فى الفقرة التى تليها : وإن أدبرت فأثفيةململة . والأثفية : واحدة الأثافى . والململة : المجتمعة : تريد أنهـا مدورة المؤخر والعجز . ومعنى « وإن أعرضت فذئبة معجرمة [1] » لم يتعرض أحد له وكأن المراد أنهـا على كل وضع وحالة محمودة وعلى أى حال صادفتها استحقت المدح اللائق بهـا . ومعنى « جريها انثرار ، وتقريبها انـكدار » أنها سريعة السير سهلته . فجريها كأنه انثرار وتقريبها وهو ضرب من السير كأنه انـكدار . وكفى بذلك دليلا على ماهى عليه من القوة والسرعة .

(شرح قول الرابعة) معنى « خفيق » من الخفق وهو السرعة . ومعنى « ذات ناهق مُعْرَق » أن عظم خدّيْها قليل اللحم ، فالناهق : العظم الشاخص فى خد الفرس والناهقان : العظمان الشاخصان فى خديها . والمعرق : قليل اللحم . وكان العرب يستحسنون ذلك ويجعلونه من شواهد العتق . وقال أبو عبيدة : النواهق من الحمار مخرج نهاقه . ومعنى « وشدق أشدق » أنها واسعة الشدق وهو أيضاً من شواهد العتق ولعل ذلك يزيد فى حسن الصور فى الخيل . وقد يقال الشدق الشخص والأشدق العظيم الشخص وهو معنى صحيح فى الخيل كما لا يخفى . ومعنى «وأديم مملق» أنها ناعمة الجلد فالأديم الجلد . والمملق المملس . وهو كما مر من خصائص عتاق الخيل وجيادها . ومعنى « ودسيع منفنف » أن أصل عنقها واسع عظيم . فالدسيع مركب العنق

---

(١) العجرمة وثب كوثب الظبى وهذا القول لأبى بكر ، قال القالى : ولا أعرف عن غيره فى هذا الحرف تفسيرا

فى الحارك . ومنفنف واسع من النفنف ، وهو الهواء بين السماء والأرض . و إذا لم يكن أصل العنق واسعاً فهو صفة ذم فى الفرس ومعنى « وتليل مسيف » أن عنقها كالسيف فى الدقة والانحناء والطول وذلك مما نص علماء الخيل على استحسانه فالتليل العنق . والمسيف : كالسيف ومعنى « وثابة زلوج » أنها سريعة الوثب . ومعنى « خيفانة رهوج » كمعنى سابقه . والخيفانة : الجرادة التى بها نقط سود تخالف سائر لونها . وإنما قيل للفرس خيفانة لسرعتها لأن الجرادة إذا ظهرت بها تلك النقط كان أسرع لطيرانها ورهوج كثيرة الرهج وهو الغبار . يعنى أنها سريعة كثيرة الجرى والمشى فلذلك يكثر الغبار خلفها . ومعنى « تقريبها إهماج وحضرها ارتعاج » أن أقل عدوها الذى هو التقريب بمنزلة الاهماج الذى هو أسرع العدو وهكذا الحضر والارتعاج فإن الحضر ضرب من السير دون الارتعاج وهو سرعة الجرى وأصله كثرة البرق وتتابعه . وحاصل هذه الأوصاف : أن خيفق قليلة لحم الوجه ، واسعة الأشداق ، ناعمة الجلد ،واسعة الدسيع — وهو مركب العنق طويلة العنق ، دقيقته ، مقوسته ، سباقة الغايات ، سريعة الخطو والحركات —

(شرح قول الخامسة) معنى « طريده محبول . وطالبه مشكول » أنه إذا طلب أدرك و إذا طرد لم يدرك . فطالبه ومطلوبه كلاهما كأنهما مقيدان بقيد لسرعة جريه وبُطْء غيره عنه والطريد بمعنى المطرود . ومحبول فى حبالة ومشكول موثق فى إشكال وهو القيد . ومعنى « دقيق الملاغم » أنه دقيق الجحافل وهو جمع جحفلة[1] ، وهى معلومة . و بعضهم أبى ذلك وقال : إنما الملاغم من الإنسان ما حول الفم . وكلا التفسيرين موافق لحقيقة الحال . ومعنى « أمين المعاقم » أمين المفاصل وعَبْل المحزم غليظه . وهو من علامات العتق بخلاف ما إذا لم يكن محزمه عبلا بل كان دقيقاً فإنه ليس بمحمود « ومعنى مخد مرجم » أنه قوى على السير حتى كأنه يشق الأرض بحوافره شقاً و يجعل ما يصادف الحوافر من الحجارة يرجم بعضه بعضا على حد قوله :

---

(١) هى بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة نَفْىَ الدراهم تنقاد الصياريف[١]

فالمخد من خد الأرض يخدها أى يجعل فيها أخاديد ، وهى الشقوق واحدها أخدود . ومرجم من الرجم . وقد يكون بمعنى أنه يرجم الأرض بحوافره . ومعنى أنه منيف الحارك : أن حاركه وهو مِنسج الفرس مرتفع . وأشم السنابك بمعنى أن أطراف حوافره مرتفعة والسنابك جمع سنبك . ومعنى مجدول الخصائل مفتولها والخصائل جمع خصلة . هذه جملة من الأوصاف المحمودة فى الخيل تضمنتها هـذه الفقرات والأسجاع البليغة التى أعجزت فرسان ميادين الفصاحة . ولبعض المتأخرين من أهل الفضل والأدب كتاب أنشأه فى أوصاف الخيل مشتمل على فوائد جمة نذكره تتميماً للمقصد وهو : ينهى وصول ما أنعم به من الخيل التى وجد الخير فى نواصيها ، وادخرت صهواتها[٢] حصوناً يعتصم فى الوغى[٣] بصاصيها[٤] « فمن أشهب » غطاه النهار بحلته ، وأوطأه الليل على أهلته ، يتموج أديمه رياً ويتأرّج رِياً[٥] ، ويقول من استقبله فى حلى لجامه : هـذا الفجر قد طلع بالثريا ، إن التقت المضايق انساب انسياب الأيم[٦] ، وإن انفرجت المسالك مر مرور الغيم ، كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعته ، وكم عاين طرف السنان مقاتل العدا فى ظلام النقع[٧] بنور أشعته . لا يستن[٨] داجن فى مضماره . ولا تطمع الغبراء فى شق غباره . ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره . تسابق يداه مرامى طرفه ويدرك شوارد البروق ثانياً من عطفه « ومن أدهم » حالك الأديم[٩] ، حالى

---

(١) وصف ناقته بسرعة السير فى الهواجر فيقول ان يديها لشدة وقعهما فى الحصى تنفيانه فيقرع بعضه بعضا ويسمع له صليل كصليل الدنانير اذا انتقدها الصيرفى فنفى رديها عن جيدها وخص الهاجرة لتعذر السير فيها ، وزاد الياء فى الصياريف تشبيها لها بما جمع فى الكلام على غير واحد نحو ذكر ومذاكير وسمح ومساميح (٢) جمع صهوة وهى ما أسهل من ناحيتى سراة الفرس أو مقعد الفارس (٣) الوغى مقصور الجلبة والأصوات ومنه وغى الحرب وقال ابن جنى الوعى بالمهملة الصوت والجلبة وبالمعجمة الحرب نفسها (٤) الصياصى: الحصون وكل ما امتنع به (٥) ارج المكان ارجا فهو ارج اذا فاحت منه رائحة طيبة ذكية ، والرى الريح الطيبة (٦) انساب : جرى ومشى مسرعا ، والايم : الحية (٧) أى فى ظلام الغبار (٨) يستن يسلك (٩) أى أسود الجلد

الشكيم[١] ، له مقلة غانية[٢] وسالفة ريم[٣] ، قد ألبسه الليل بُرده ، وأطلع بين عينيه سعده ، يظن من نظر إلى سواد طرّته ، و بياض حجوله وغرته ، أنه توهم النهار نهراً فخاضه ، وألقى بين عينيه نقطة من رشاش تلك المخاضة ، لين الأعطاف سريع الانعطاف ، يُقبل كالليل . و يمر كجلمود صَخرٍ حطه السيل[٤]. يكاد يسبق ظله[٥] . ومتى جارى السهم إلى غرض بلغه قبله[٦] « ومن أشقر » وشاه الغدو بلهبه ، وغشاه الأصيل بذهبه ، يتوجس لديه برقيقتين ، و ينفض وَفْرَتَيْهِ[٧] ، عن عقيقتين ، و ينزل عذار لجامه بين سالفتيْهِ على شقيقتين ، له من الراح لونها ، ومن الرياح لينها ، إن جرى فبرق خفق ، و إن أسرع فهلالٌ على شفق ، لو أدرك وائل حرب بنى وائل لم يكن للوجيه[٨] وجاهة ، ولا للنعامة[٩] نباهة ، ولكان ترك إعارة سَكابٍ لؤماً وتحريم بيعها سفاهة[١٠] ، يركض ما وجد أرضاً ، و إذا اعترض به راكبه بحراً وثبه عرضاً « ومن كميتٍ » نَهْدٍ[١١] ، كأن راكبه

(١) لعله جمع شكيمة ، وهى فى اللجام الحديدة المعترضة فى فى الفرس
(٢) المقلة شحمة العين التى تجمع السواد والبياض ، أو الحدقة » والغانية : التى غنيت بزوجها عن غيره (٣) الريم الظبى الخالص البياض وسالفته ماتقدم من عنقه (٤) الجلمود الحجر العظيم الصلب ، والحط القاء الشىء من علو الى أسفل هذا من قول امرىء القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معــــا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقد مر تفسير هذا البيت قريبا (٥) هذا من قول بعضهم

يجــرى فلمع البرق فى آثاره   من كثرة الـكبوات غير مفيق
ويكاد يخرج سرعة من ظــله   لو كان يرغب فى فــراق رفيق

(٦) أقول وقريب من هذا قول الصفى الحلى الشهير :

واغــر تبرى الاهــاب مــورد   سبط الأديم محجــل ببياض
أخشى عليه أن يصاب بأسهمى   ممــا سابقها الى الأغــــراض

(٧) الوفرة الشعر المجتمع على الرأس أو ماسال على الأذنين منه أو ماجاوز شحمة الأذن ثم الجمة ثم اللمة (٨) الوجيه من مشاهير خيل العـــرب قال الشاعر :

بنات الوجيه والغــراب ولاحق   وأعوج تنمى نســبة المتنسب

(٩) النعامة اسم لعدة افراس (١٠) يشير الى قصة فرس عبيدة بن ربيعة التميمى أحد فرسان العرب وكان أحد ملوكهم طلب منه فرسا تسمى سكاب فمنعها منه وقال :

أبيت اللعن أن ســـكاب علق   نفيس لاتعــــار ولا تبــــاع

الى آخر الأبيات التى مرت قريبا فى هذا الجزء فراجعها (١١) الكميت الذى خالط حمرته قنوء والنهد : الفرس الحسن الجميل الجسيم اللحيم المشرف

فى مهد[١] عندمى الإهاب[٢] ، شمالى الذهاب ، يزلُّ الغلام الخف عن صهواته ، وكأن نغم الغَريض ومعبـد[٣] فى لهواته[٤] ، قصير المطا[٥] فسيح الخطا ، إن ركبَ للصيد قيد الأوابد[٦] وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد[٧] وإن جنب إلى حرب لم يزورّ من وقع القَنا بلَبانه[٨] . ولم يشك لو علم الـكلام بلسانه ، لم ير دون بلوغ الغاية وهى غرض راكبه ثانياً من عنانه ، وإن سار فى سهل[٩] ، اختال براكبه كالثمل[١٠] ، وإن أصعد فى جبل طار فى عقابه كالعقاب وانحط فى مجاريه كالوعل[١١] ، متى ما ترق العين فيه تسهل . ومتى أراد البرق مجاراته قال له الوقوف عند قدره ما أنت هناك فتمهل (ومن حبشى أصفر) يروق العين ، ويشوق القلب مشابهته العين ، كأن الشمس ألقت عليه من أشعتها جلالا وكأنه نفر من الدجا فاعتنق منه عرفا واعتنق حجالا ، ذى كفل يزين سرجه ، وذيل يسد إذا استدبرته منه فرجه[١٢] قد أطلعته الرياضة على مراد فارسه . وأغناه نضار لونه ونضارته عن ترصيع قلائده ، وتوشيع ملابسه[١٣] . له من البرق خفة

---

(١) المهد : الموضع يهيأ للصبى ويوطأ (٢) العندم : دم الاخوين أو البقم ، والاهاب ككتاب الجلد (٣) الغريض ومعبدهما من مشاهير المغنيين ، ولهما أخبار مذكورة فى الأغانى الاصبهانى (٤) جمع لهاة وهى اللحمة المشرفة على الحلق أو مابين منقطع أصل اللسان الى منقطع القلب من أعلى الفم (٥) أى الظهر (٦) الأوابد ، الوحوش وقد أبد الوحش يأبد أبودا ومنه تأبد الموضع اذا توحش وخلا من القطان ومنه قيل للفذ آبدة لتوحشه عن الطباع ، قال امرؤ القيس :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيـد الأوابد هيكل

قالوا هذا البيت يعد من ابتداعاته ومخترعاته لأنهم كانوا يقولون فى الفرس السابق يلحق الغزال والظليم وشبهه حتى قال (قيد الأوابد) ومثل هذا له كثير ولم يكن قبله من فطن لمثلها غيره فامتثلوه بعده (٧) أى ذوات اللبـدة كالأسد ونحوه ، واللبدة شعر مجتمع على زبرة الأسد وفى المثل هو أمنع من لبدة الأسد (٨) قوله لم يزور أى لم ينحرف ، والقنا جمع قناة وهى الرمح ، واللبان بالفتح : الصدر (٩) قال ابن فارس : السهل خلاف الحزن ، وقال الجوهرم : السهل خلاف الجبل وللنسبة اليه مهيلى بالضم على غير قياس (١٠) السكران (١١) بالفتح وككتف ودئل « وهذا نادر » تيس الجبل (١٢) هذا من قول امرىء القيس فى معلقته الشهيرة :

ضليع اذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

(١٣) توشيع الملابس أعلامها

وطئه وخطفه ، ومن النسيم لين مروره ولطفه ، ومن الريح هز يزها إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه . يطير بالغمز . ويدرك بالرياضة مواقع الرمز . ويعدو كألف الوصل فى استغناء مثلها عن الهمز « ومن أخضر » حكاه من الروض تفويفه . ومن الوشى تقسيمه وتأليفه . قد كساه النهار والليل حلتَيْ وقار وسنا ، واجتمع فيه من السواد والبياض ضدان لما اجتمعا حَسُنا[1] ومنحه البارى حلية وشيه . ونحلته الرياح ونسماتها قوة ركضه وخفة مشيه ، يُعطيك أفانين الجرى قبل سؤاله ، ولما لم يسابقه شىء من الخيل أغراه حب الظفر بمسابقة خياله كأنه تفاريق شيب فى سواد عذار ، أو طوالع فجر خالط بياضه الدجا فما سجا ومازج ظلامه النهار فما أنار ، يختار لمشاركة اسم الجرى بينه و بين الماء فى السير كالسيل ، ويدل بسبقه على المعنى المشترك بين البروق اللوامع و بين البرقية من الخيل ، ويكذب المانَوية[2] لتولد اليمن بين إضاءة النهار وظلمة الليل ، « ومن أبلق[3] » ظهره حرم ، وجريه ضرم[4] ، إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه و بينها عدم ، و إن صرف فى حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما تُريد الكف والقدم ، قد طابق الحسن البديع بين ضدَّيْ لونه ، ودلت على اجتماع النقيضين علة كونه ، وأشبه زمن الربيع باعتدال الليل فيه والنهار . وأخذ وصف حلتيْ الدجا فى حالتيْ الإبدار والسِرار[5] لا تكلّ مناكبه ، ولا يضل فى حجرات الجيوش راكبه ، ولا يحتاج ليله المشرق بمجاورة نهاره إلى أن تسترشد

---

(١) من قول الشاعر :

ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

والبيت من القصيدة المعروفة بالدعدية وقد مر بعضها وحلا ، وأكثر هذه الأوصاف التى تراها هنا مأخوذة من أقوال الشعراء (٢) المانوية قوم ينسبون الى رجل اسمه مانى يقول الخير من النهار والشر من الليل ، وقد رد عليه المتنبى فقال :

وكم لظلام الليل عندى من يد تخبر أن المانوية تكذب
وقال ردى الأعداء تسرى اليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب

(٣) البلق محركة سواد وبياض وارتفاع التحجيل الى الفخذين (٤) فرس ضرم ككتف عداء (٥) الابدار طلوع البدر ، والسرار : آخر ليلة من الشهر

فيه كواكبه ، ولا يجاريه الخيال فضلا عن الخيل ، ولا يَمَلُّ السُرى إلا إذا كل مشبهاه النهار والليل ، ولا تتمسك البروق اللوامع من لحاقه بسوى الأثر فإن جهدت فبالذيل ، فهو الأبلق الفرد[١] . والجواد الذى لمحاربه العكس وله الطرد ، قد أغنته شهرة نوعه من جنسه عن الأوصاف ، وعدل بالرياح عن مباراته سلوكها فى الاعتراف له جادة الإنصاف ، فترقى الملوك إلى رتب العز من ظهورها ، وأعدها مطية الجنان إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها . وكلف بركوبها فكلما أكمله عاد ، وكلما أمله سره إليه فلو أنه زيد الخيل لما زاد ، ورأى من آدابها ما دل على أنها من أكرم الأصائل . وعلم أنها ليومَىْ سلمه وحربه جَنة الصائد وجُنة الصائل . وقابل إحسان مُهديها بثنائه ودعائه ، وأعدها فى الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه ، والله تعالى يشكر بره الذى أفرده فى النَدَى بمذاهبه ، وجعل الصافنات الجياد من بعض مواهبه .

ما ورد عن العرب فى مشى الخيل وعدوها

من المشى : العَنَقُ وهو أول المشى . والتوقص وهو أن ينزوَ نزواً ويقرمط[٢] ويقال مرّ يتوقص به فرسه . ومن المشى الدَألان وهو مشى يقارب فيه الخطو ويتقى فيه كأنه مثقل من حمل . ومنه الذألان وهو مر خفيف سريع يقال : مرّ فرسه يذأل ذَألاناً . ومنه سمى الذئب ذؤالة لخفة مره . وإذا راوح بين يديه فذلك الخبب ، فإذا رفع يديه ووضعهما معاً فذلك التقريب ، فإذا عدا عدو الثعلبِ فتلك الثعلبية ، فإذا ارتفع حتى يكون إحضاراً قيل مر يحضر ويقال مرّ يعدو ، فإذا ارتفع فسال سيلا قيل مرّ يجرى جرياً ، فإذا اضطرم جريه قيل مر يُهذب إهذابا ومر يلهب إلهابا ، فإذا بدا العدو قيل مَرّ يضطرم وقيل قد أمَجَّ إمجاجا ، فإذا اجتهد قيل أهمج يُهمج إهماجاً ، فإذا رجم الأرض رجماً بين العدو

---

(١) قال المجد : هو حصن السموال بن عاديا بناه أبوه أو سليمان (عليه السلام) بأرض تيماء وقصدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد فقالت : تمرد مارد وعز الأبلق (٢) القرمطة : مقاربة الخطو .

والمشى الشديد قيل رَدَى يَرْدِي رَدَياناً . قيل لمنتجع بن نبهان ما الرديان ؟ قال : عدو الحمار بين آريه ومتمعكه[1] ، فإذا رمى بيديه رمياً فلم يرفع سُنبكه[2] عن الأرض قيل مر يدحو دحواً . فإذا مرَّ مراً سهلا بين العدو الشديد واللين فذاك الطميم يقال مر يطم طميما ، فإذا وقعت حوافر رجليه موضع حوافر يديه قيل قد قرن قراناً وهو قَرون ، وإذا مر مراً خفيفاً قيل مر يهزع ويمزع ويمصع ، فإذا خلط بين الهملجة فراوح بين شيء من هذا قيل قد ارتجل ارتجالا . وقيل خير جرى الذكور أن يشترف[3] وخير جرى الإناث أن تنبسط وتصغى كعدوة الذئبة . ويقال للفرس إذا كان شديد العدو وكثيره : إنهُ لَمِهْرَجٌ ، وإذا بدأ الجرى من غير أن يختلط قيل قد غلج يغلج غلجاً وإنه لَمِغْلَجٌ فإذا كان رغيب الشحوة[4] كثير الأخذ من الأرض قيل هو ساطٍ من الخيل ويقال هو غمر وسكب وبحر وفيض وحَت كل هذا إذا أكثر العَدْوَ ، فإذا جمع يديه فوثب فوقعت مجموعة يداه فذلك الضبر فإذا أهوى بحافره إلى عضده فهو الضبع وهو فرس ضبوع والخناف وهو أن يهوى بحافره إلى وحشيه[5] ويقال : الخيل تجرى مساويها يراد بذلك أن الفرس يعدو وفيه بعض هذه العيوب ، ويقال للذى لا يسبق من غاية بعيدة أهضم . ويكره من جرى الخيل الهملجة .

ألوان الخيل

الـكمتة والحمة وهو أحب الألوان إلى العرب مع الحوة والـكمتة حمرة تدخلها

---

(١) الآرى ويخفف الاحية ، والمتبعك : محل تمرغ الدابة يقال تمعكت الدابة تمعكا أى تمرغت فى التراب وتقلبت فيه (٢) السنبك فنعل بضم الفاء والعين طرف مقدم الحافر وهو معرب وقيل سنبك كل شيء أوله كذا فى المصباح (٣) أى ينتصب وفرس مشترف سامى النظر سابق ، قال جرير :

من كل مشترف وان بعد المدى ضرم الرقاق مناقل الأجرار

(٤) أى واسع الخطوة (٥) الوحشى من كل دابة الجانب الأيمن وقال الشاعر :

فمالت على شق وحشيها وقد ريع جانبها الأيسر

قال الأزهرى قال أئمة العربية الوحشى من جميع الحيوان غير الانسان الجانب الأيمن وهو الذى لا يركب منه الراكب ولا يحلب منه الحالب والانسى الجانب الآخر وهو الأيسر .

قَنُوءٌ يقال اكْأت يكمئت اكميتاتاً ويقال أكمت يكمت إكمتاتاً ويقال ادهامَّ يدهام ادهيماماً ، وفي الكمتة لونان يكون الفرس كميتاً مُدَمًّى ويكون كميتاً أحم . وأشد الخيل جلوداً وحوافِرَ الكُمتُ والحم . ومنها « الصفر » يقال فرس أصفر وفرس صفراء ولايسمى أصفر حتى يصفر ذنبه وعرفه . ومنها « الحوة » وهي خضرة تضرب إلى سواد . ويقال قد احواوى يحواوى احويواءً ، وبعض العرب يقول احووى يحووى احوواءً وبعض العرب يقول قد حوى يحوى حوة . ومن الخيل : الوردة[1] يقال فرس ورد وفرس وردة وخيل ورد . وفي الخيل « الدغم » وهو قليل من الألوان وهو أن يكون وجهه يضرب إلى السواد وجحافله[2] أشد سواداً يقال فرس أدغم وفرس دغماء . وفي الألوان « الاغراب » وليس بناصع[3] الحمرة فإذا ابيضت الأرفاغ وهي أصول الفخذين مما يلي الخاصرةَ والمحاجر والأشفارفهو مغرب فإذا ابيضت الحدقة فهو أشد الإغراب . ومنها « الخضرة » وهي التي تخلطها غبرة قال الجعديّ :

واخضر كالقَهقرّ ينفض رأسهُ   أمامَ رِعالِ الخيل وهو يُقرّبُ

وفي الخيل « الشقرة » وهي الحمرة التي فيها مغرة يقال فرس أمغر بَيّن المغرة وفي الخيل « الدهمة » وهو السواد شديده وهينه . وفيها « الحوة » وهو سواد ليس بالشديد تصفر أرفاغ الدابة معه ومحاجرها ويكون أعلاه أشدّ سواداً . وفيها «الشهبة» وهو البياض فإذا كان في الدابة ضروب من الألوان من غير بلق فذلك التوليع يقال برذون مولع .

---

(١) الوردة التي تعلوها الحمرة الى الشقرة الخلوقية وأصول شعرها سود (٢) جمع جحفلة وهي بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير (٣) نصع لونه خلص وابيض وأحمر ناصع قال الشاعر :

من صفرة البياض وحمرة   نصاعة كشقائق النعمان

وهذه الكلمة مما يؤكد بها اللون الأحمر ، ولشيخنا المؤلف رسالة مفيدة في تأكيد الألوان نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي م : ١ (٤) القهقر : الحجر الأملس الصلب الأسود كالقهقار ، والرعال : الجماعات واحدها رعلة ، والتقريب ضرب من السير

الشيات

منها الغرة وهى بياض الجبهة فإذا صغرت فهى قرحة فإذا استطالت وانصبت شِمْراخ فإذا انتشرت قيل غرة شادخة وفرس شادخ الغرة . قال ابن مفرغ :

شدخت غرة السوابق فيهم   فى وجوه مع اللمام الجعاد[1]

فإذا ابيض موضع اللاطمة من الفرس قيل لطيم فإذا ابيضت جحفلته العليا فهو أرثم وهى رثماء وهى الرثمة ويقال : إنها لذات أحجال إذا كان بها تحجيل والواحد حجل ، فإذا خالط البياضُ الذنبَ فى أىّ لون كان فذلك الشعلة يقال فرس أشعل وفرس شعلاء فإذا خاص لونه من كل لون كان بهما إذا كان من ضرب واحد لم يختلف . ويقال إذا كان بأطراف جحفلته شىء من بياض ألمظ وفرى لمظاء ، وفيها التجويف وهو أن يصعد البلق حتى يبلغَ البطن قال الغنوى :

شميط الذنابى جوفت وهى جونة   بنقبة ديباج وريط مقطع[2]

فإذا ارتفع التحجيل فجاوز الثنن حتى يصعد فى الأوظفة فهو التجبيب يقال فرس مجبب ومجببة فإذا جاوز البياض الركبة فى اليد وفى العرقوب فى الرجل فهو أبلق وإذا صعد البياض فى البطن إلى الجنب فهو أنبط والمصدر النبط قال ذو الرُمة :

كعرض الحصان الأنبط البطن قائما   تمايل عنه الجل فاللون أشقر

ويقال فرس أنبط وفرس نبطاء . وفى كل الألوان يكون البلق فكل لون خالطه بياض فهو أبلق والبلق هجنة فى الخيل فإذا ابيضت اليد فهو فرس أعصم فإذا ابيضت الرجل فهو فرس أرجل والمصدر الرجل والعصم ، وإذا كان البياض بموضع الخلاخيل من اليدين والرجلين فهو التحجيل ، فإذا حجلت بثلاث وتركت واحدة قيل محجل ثلاث مطلق واحدة ، فإذا ابيضت الرجل واليد التى من شقها

---

(١) يريد أن غررهم انتشرت فى وجوههم حتى انتهت الى اللمام (٢) البيت لطفيل الغنوى يصف فرسا ، يقول : اختلط فى ذنبها بياض وغيره وقال ابن دريد : قوله شميط الذنابى أى شعلاؤها والتجويف ابيضاض البطن حتى يتحدد البياض فى القوائم

قيل به شكال ، فاذا ابيضت رجله من شقه الأيمن ويده من شقه الأيسر قيل به شكال مخالف ، وعليك بالكتب المطنبة فى استيفاء هذا المطلب .

سوابق الخيل

قال الأصمعىُّ : ما سبق فى الرهان فرس أهضم(١) قط . وأنشد لأبى النجم(٢) (منتفج الجوف عريضٌ كلْكَلُهُ (٣)) قال وكان هشام بن عبد الملك رجلاً مسبقاً لا يكاد يسبق فسبقت له فرس أنثى وصلت أختها ففرح لذلك فرحاً شديداً وقال علىَّ بالشعراء . قال أبو النجم : فَدُعينا فقيل لنا : قولوا فى هذه الفرس وأختها فسأل أصحاب الرشيد النظرة حتى يقولوا ، فقلت له : هل لك فى رجل ينقدك إذا استنسئوك ؟ قال : هات . فقلت من ساعتى :

أشاع للغراء فينا ذكرَها   قوائمٌ عوجٌ أطعنَ أمرها
وما نسينا بالطريق مهرها   حتى نقيسَ قدْرَهُ وقدرها
وصبره إذا عدا وصبرها   والماء يعلو نحرَهُ ونحرها
ملمومة شد المليكُ أزرها   أسفلَها وبطنَها وظهرها
قد كاد هاديها يكون شطرَها (٤)

قال أبو النجم . فأمر لى بجائزة وانصرفت . وعن الأصمعى أن هارون الرشيد ركب سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة ، قال الأصمعى فدخلت

---

(١) الهضم محركة خمص البطن ، ولطف الكشح وفى الخيل استقامة الضلوع وانضمام أعالى البطن واستقامتها ودخول أعاليها وهو عيب
(٢) أبو النجم هو الفضل بن قدامة الراجز المشهور (٣) يجوز رفع منتفج وعريض وخفضهما لأن قبله :

بمفرع الكتفين حر عيطله   نفرعه فرعا ولسنا نعتله
طار عن المهر نسيل ينسله   صور فى صلب أمين موصله

فمن خفضهما جعلهما صفتين المفرع أو الصاب ، ومن رفعهما قطعهما مما قبلهما واضمر مبتدأ يحملهما عليه والقطع فى الصفات التى يراد بها المدح أو الذم أبلغ من اجرائها على موصوفها والانتفاج نحو من الانتفاخ الا أن الانتفاخ من علة وداء والانتفاج من خلقة وسمن ، والكلكل من الفرس مابين محزمه الى مامس الأرض منه اذا ربض (٤) الهادى : العنق

لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون ولسليمان بن أبى جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر فجاء فرس أدهم يقال له الربيذ لهارون الرشيد سابقة فابتهج لذلك ابتهاجاً علم ذلك فى وجهه وقال علىّ بالأصمعى فنوديت له من كل جانب فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه . فقال يا أصمعىُّ خذ بناصية الربيذ ثم صفه من قَوْنَسِهِ إلى سُنبكه[1] فإنه يقال إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير . قلت : نعم يا أمير المؤمنين وأنشدك شعراً جامعاً فيه من قول أبى حزرة . قال : فأنشدنا لله أبوك . قال : فأنشدته :

وأقبّ كالسرحان تمّ له ما بَيْنَ هامتِهِ إلى النسر

الأقب : اللاحق المخطف البطن وذلك يكون من خلقته وربما حدث من هُزال أو بعد قود والأنثى قباء والجمع قب والمصدر القبب . والسرحان : الذئب شبهه فى ضموره وعدوه به وجمعه سراحين وقد قالوا سراح . والهامة أعلى الرأس وهى أم الدماغ وهى من أسماء الطير . والنسر : هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه كأنه النوى والحصى وهو من أسماء الطير وجمعه نسور .

رحبت نَعامتُه ووفَّر فرخه وتمكن الصُرَدانِ فى النحر

رحبت : اتسعت . نعامته : جلدة رأسه التى تغطى الدماغ وهى من أسماء الطير. وقوله : ووفر فرخه . الفرخ : هو الدماغ وهو من أسماء الطيور ووفر أى تم يقال وفرت الشئ ووفرته بالتخفيف فهـو موفور . والصُرَدان : عرقان فى أصل اللسان . ويقال إنهما عرقان أخضران مكتنفان باطن اللسان منهما الريق ونفس الرية وهما من أسماء الطير وفى الظهر صُرَد أيضاً وهو بياض يكون فى موضع السرج من أثر الدبَرَ يقال فرس صُرَد إذا كان ذلك به . والنحر موضع القلادة من الصدر وهو البرك

وأناف بالعُصفور من سعف هامٍ أشمّ موثق الجَذْرِ

---

(١) اى من أعلى راسه الى طرف حافره

وأناف : أشرف . والعصفور : منبت الناصية والعصفور أيضاً عظم ناتئ في كل جبين والعصفور من الغُرَر أيضاً وهي التي سالت ودقت ولم تتجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقرحة وهي من أسماء الطير . والسعف : يقال فرس بين السعف وهو الذي سالت ناصيته . هام : أي سائل منتشر . أشم : مرتفع والشمم في الأنف ارتفاع قصبته ويروى هادٍ أشم يريد عنقاً مرتفعاً وجمعه هواد . وقوله موثق أي شديدقويٌّ . والجذر : الأصل من كل . شيء قال الأصمعي وغيره : هو بالفتح وقال أبو عمرو بن العلاء هو بالكسر .

وازدانَ بالديكَيْنِ صلصلهُ ونَبَتْ دَجاجتهُ عن الصَدْرِ

ازدان : افتعل من قولك زان يزين وكان الأصل ازتان فقلبت التاء دالا لقرب مخرجها من مخرج الزاى ، وكذلك ازداد من زاد يزيد . والديكان : واحدهما ديك وهوالعظم الناتئ خلف الأذن وهو الذى يقال له الُخشَشاء والخشاء . والصلصل : بياض الناصية ويقال هو أصل الناصية . والدجاجة اللحم الذى على زوره بين يديه والديك والصلصل والدجاجة من أسماء الطير .

والناهضان أمرَّ جلزهما فكأنما عثما على كسر

الناهضان : واحدهما ناهض وهو لحم المنكبين ويقال هو اللحم الذى يلي العضدين من أعلاهما والجمع نواهض . ويقال في الجمع أنهض على غير قياس والناهض فرخ القطا وهو من أسماء الطير . وقوله أمرَّ جلزهما أي فتل وأحكم يقال أمررت الحبل فهو ممر أي فتلته . الجلز : الشد وقوله : فكأنما عثما على كسر ؛ أي كأنهما كسرا ثم جبرا يقال : عثمت يده ، والعثم الجبر على عقدة وعوج وعثمان فعلان منه .

مسحنفر الجنبين ملتئم ما بين شيمته إلى الغر

مسحنفر الجنبين : أي منتفخهما . ملتئم : أي معتدل . وشيمته : منخره والشيمة أيضاً من قولك فرس بين الشيمة وهي بياض فيه . ويقال أن تكون

شامة أو شام جسده . والغر فى الأغلب على الذى يسمى الرخمة من الفرس وهى عضلة الساق .

وصفت سماناه وحافره   وأديمه ومنابت الشعر

السمانى طائر وهو موضع من الفرس لا أحفظه إلا أن يكون أراد السَمامةَ وهى دائرة تكون فى سالفة الفرس وهى عنقه . والسَمامة من الطير أيضاً والأديم الجلد .

وسما الغراب لموقعيه معاً   فأبين بينهما على قدر

سما الغراب : أى ارتفع والغُراب رأس الورِك ويقال للصلوين الغرابان وهما مكتنفا عجب الذنب ويقال لهما أعالى الوركين والموقعان منه فى أعالى الخاصرتين فأبين أى فرق بينهما على قدر أى على استواء واعتدال .

واكتنّ دون قبيحه خطافه   ونأت سَمامته على الصقر

اكتن أى استتر ، والقبيح ملتقى الساقين ولا يقال إنه مركب الذراعين فى العضدين والخطاف من أسماء الطير وهو حيث أدركت عقب الفارس إذا حرك رجليه . يقال لهذين الموضعين من الفرس المركلان . ونأت أى بعدت والسمامة دائرة تكون فى عنق الفرس وقد ذكرناها ، وهى من أسماء الطير والصقر أحسبها دائرة فى الرأس ولم أقف عليها وهى من أسماء الطير .

وتقدمت عند القَطاة له   فنأت بموقعها عن الحر

القَطاة : مقعد الردف وهى من أسماء الطير ، والحر : من الطير يقال إنه ذكر الحمام وهو من الفرس سواد يكون فى ظاهر أذنيه .

وسما على نقويه دون حداته   خرَبان بينهما مدى الشبر

النقوان واحدها نقو والجمع أنقاء وهو عظم ذو مخ وإنما عنى ههنا عظام الورِكين لأن الخرَب هو الذى تراه مثل المدهن فى ورك الفرس وهو من الطير ذكر الحبارى والحداة من الطير وأصله الهمز ولكنه خفف وهى سالفة الفرس

وجمعها حـداء على وزن فعال كما تقول عظاة وعظاء ويقال عظاية وإذا فتحت الفاء قلت حداة وهو الفأس ذات الرأسين وجمعها حدأ مثل نواة ونوى وقطاة وقطا .

يدع الرضيم إذا جرى فلقاً   بتوائم كمـواسم سمر

الرضيم : الحجارة . الفلق : المكسورة فلقا بتوائم جمع توأم وقد قالوا أتؤم على وزن أفعل جمع تؤم على غير قياس يقال هو مثنى يعنى حوافره . والمواسم جمع ميسم الحديد أى فى صلابتها . وقوله : سمر أى لون واحد وهو أصلب الحوافر .

ركبن فى محض الشوى سبِط   كفت الوثوب مشدّد الأسر

الشوى : ههنا القوائم والواحدة شواة ويقال فرس محض الشوى إذا كانت قوائمه معصوبة . سبط : سهل . كفت الوثوب : أى مجتمع ، من قولك كفت الشيء إذا جمعته وتممته . مشدد الأسر : أى الخلق . . قال الأصمعى : فأمر لى بألف درهم . وأنشد بعضهم :

قد أطرق الحىّ على سابحٍ   أسطع مثل الصدع الأجردِ (١)

لما أتيت الحى فى ودقه   كأن عرجوناً بمثنى يدى

أقبل يختالُ وفى شأوهِ   يضرِب فى الأقرب والأبعدِ

كأنه سكرانُ أو عابسُ   أو ابنُ رب حرثِ المولدِ

وقال عنترة :

أما إذا استقبلتَهُ فـكأنه   جِذْعٌ سما فوقَ النخيِل مشذّبُ (٢)

وإذا عرضتَ له استوتْ أقرابهُ   وكأنه مستدبِراً مستصوب (٣)

والشعر فى هذا الباب كثير فإن غالب شعر العرب فى وصف الخيل ومايتعلق بها .

---

(١) الطروق : المجىء أو الزيارة ليلا ، والسابح الفرس لسبحه بيديه فى سيره ، والأسطع : الطويل العنق ، والصدع : قال الجوهرى هو الوسط من الوعول ليس بالعظيم ولا الصغير ولكنه وعل بين وعلين وكذلك هو الظباء والحمر لايقال فيه الا بالتحريك (٢) قال فى الأساس : فرس مشذب طويل استعير من الجذع المشذب ، قال يصف فرسا :

بمشذب كالجذع صـــــا   ك على حواجبه خضابه

يعنى دم الصيد (٣) الأقراب : الخواصر

الحلبة والرهان

اَلْحَلْبَة[1] مجمع الخيل و يقال مجتمع الخيل و يقال مجتمع الناس للرهان وهو من قولك حلب بنو فلان على بنى فلان وأحلبوا إذا اجتمعوا . و يقال منه أخذ حَلَبَ الحالبُ اللبنَ فى القدح أى جمعه فيه . والحلب الحبل الذى يمد فى صدور الخيل عند الإرسال للقبض والمنصبة الخيل حين تنصب للإرسال . وأصل الرهان من الرهن كان الرجل يراهن صاحبه فى المسابقة يَضَع هذا رهناً وهذا رهناً فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه . والرهان مصدر راهنته مراهنةً ورهاناً كما تقول قاتلته مقاتلة وقتالا . وهذا كان من أمر الجاهلية وهو القمار المنهى عنه فإن كان الرهن من أحدهما بشىء مسمى على أنه إن سبق لم يكن له شىء و إن سبقه صاحبه أخذ الرهن فهذا حلال لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر . وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهناً وأدخلا بينهما محللا وهو فرس ثالث يكون مع الأولين و يسمى أيضاً الدخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شىء ثم يرسلون الأفراس الثلاثة فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه فكان له طيباً و إن سبق الدخيل أخذ الرهنين جميعاً و إن سبق هو لم يكن عليه شىء ولا يكون الدخيل إلا رائعاً جواداً لا يأمنان أن يسبقهما و إلا فهذا قمار لأنهما كأنهما لم يدخلا بينهما محللا . قال الأصمعى : السابق من الخيل الأول والمصلّى الثانى الذى يتلوه . قال : و إنما قيل له مصلى لأنه يكون عند صلوى السابق وهما جانبا ذنبه عن يمينه وشماله . ثم الثالث والرابع لا إسم لواحدٍ منهما إلى العاشر فإنه يسمى سكّيتاً . قال أبو عبيدة : لم نسمع فى سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه إسماً لشىء منها إلا الثانى والعاشر فإن الثانى إسمه المصلى والعاشر السكيت وما سوى ذَينَك يقال له الثالث والرابع وكذلك إلى التاسع ثم السكّيت و يقال السكيت بالتشديد والتخفيف فما جاء بعد ذلك لم يعتدّ به .

---

(١) وزان سجدة

والفِسْكل بالكسر الذى يجىء آخر الخيل والعامة تسميه الفُسكل بالضم . وقال أبو عبيدة القاشور الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل وهو الفِسكل و إنما قيل للسكيت سكيتاً لأنه آخر العدد الذى يَقِفُ العادُّ عليه والسكت الوقوف هكذا كانوا يقولون فأما اليوم فقد غيروا . وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق قال جرير :

إذا شئتُمُ أن تمسحوا وجهَ سابقٍ جوادٍ فمدّوا فى الرهانِ عنانيا

أقول : ذكر الخطيب التبريزى وغيره من مشاهير أهل الأدب وأئمة اللغة ؛ أن أسماء خيل الحلبة عشرة لأنهم كانوا يرسلونها عشرة عشرة ، وسمى كل واحد منها باسم فالأول منها السابق وهو المجَلىّ لأنه كان يجلى عن صاحبه ، والثانى المُصَلىّ لأنه يضع جحفلتَه على صَلا(١) السابق ، والثالث المُسَلىّ لأنه يسليه ، والرابع التالى ، والخامس المُرْتاح ، والسادس العاطف ، والسابع المؤمَّل ، والثامن الحظىّ ، والتاسع اللَطِيم لأنه يلطم عن الحجرة ، والعاشر السكيت لأنه يعلوه تخشع وسكوت . و يقال سكيت أيضاً مشددة الكاف ، والفسكل الذى يجىء آخر الخيل فى الحلبة . و يقال للحبل الذى يجعل فى صدور الخيل يوم الرهان المقبض والمقوس . وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « الخيل تجرى بأعرافها وعتقها فإذا وضعت على المقوس جرت بجدود أربابها » . وقيل في أسماء خيل الحلبة إن أولها المجلىّ ثم المصلّى ثم المسلّى ثم العاطف ثم المرتاح ثم الحظىّ ثم المؤمَّل . هذه السبعة لها حظوظ ، ثم اللواتى لا حظوظ لها اللطيم ثم الوغد ثم السكيت . وقال محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان يصف الحلبة وذكر أسماء الخيل .

فجلّى الأغرّ وصلّى الكميت وسلّى فلم يذمم الأدهمُ
وأتبعها رابعٌ تالياً وإنّى من المنْجِدِ المتهِمِ
وما ذم مرتاحها خامساً وقد جاء يقدم ما يقدم
وسادسها العاطف المستحير يكاد لحيرته يحرم

(١) الصلا وزان العصا مفرز الذنب من الفرس

وخاب المؤمّل فيما يخيب وعنّ له الطائر الأشأم

وجاء الحظىّ لها ثامناً فأسهم حصتَه المسهم

حدا سبعة وأتى ثامناً وثامنة الخيل لا تسهم

وجاء اللطيم لها تاسعاً فمن كل ناحية يلطم

يخب السُكَيْت على أثرها وعلباه من قُنْبِهِ أعظم (١)

على ساقة الخيل يعدو به مليماً وسائسه ألوم

إذا قيل من ربُّ ذا لم يجب من الحزن بالصمت مستعصم (٢)

خيل العرب المشهورة

قد أفرد أبو محمد الأعرابى الغندجانىّ وهو اللغوى الشهير كتابا ذكر فيه أسماء خيل العرب الفحول والحجور التى نجلت وأنجبت وتفرق نجلها فى العرب ، وإنها لمن كانت فى بدء أمرها وإلى من صارت وفيمن صار نجلها من العرب ممن ذكر ذلك وافتخر به فى الجاهلية والإسلام ، وأسماء خيل العرب المنفردة التى ذكرت بأنفسها ولم يذكر نجلها ، وقد رتبه على ولاء الحروف المعجمة ليسهل على المطالع مرامها ، وينقادَ إليه زِمامها ، وفى الحقيقة أن هذا الكتاب لم يسبق إليه مؤلفه . وقد طالعته مراراً فوجدته مفيداً فى بابه . ولا بأس أن نذكر منه نبذة يسيرةً تكون كالأنموذج فى هذا الباب « فمن مشاهيرها » أعوج الأكبر لغنى ابن أعصر . قال بشر ابن أبى خازم يفتخر ببنات أعوج :

وبكل أجردَ سابحٍ ذى ميعة متماحلٍ فى آل أعوجَ ينتمى (٣)

---

(١) القنب بالضم فالسكون جراب قضيب الدابة أو وعاء قضيب كل ذى حافر هذا الأصل ثم استعمل فى غير ذلك ويقال اضرب قنب فرسك تنج بك ، والرواية الصحيحة فى البيت

يخيب السكيت على أثره حياؤه من خزيه أعظم

(٢) تجد القصيدة برمتها فى (ص ٢٤٩) من كتاب نخبة عقد الأجياد فى الصافنات الجياد تأليف المفضال الأمير محمد باشا نجل أمير العلماء وعالم الأمراء الأمير عبد القادر الحسنى الجزائرى (٣) السابح : الفرس سمي إسبحه بيديه فى سيره ، والأجرد : السباق ، وماع الفرس يميع جرى وميعة الحضر : أوله نشاطه ، والمتماحل : الطويل المضطرب الخلق من الابل

وقال طفيل بن عوف :

بنات الوجيه والغُراب لاحق   وأعوجَ تَنمى نسبة المنتسب

وليس لهم فحل أشهر فى العرب ولا أكثر نسلاً ولا الشعراء والفرسان أكثر ذكراً له وافتخاراً به من أعوج . قال الأصمعى : حدثنى حبيب بن شوذب — رجل من أهل نجد وكان ينزل ضرية — قال حدثنى أبى قال سمعت كعب بن سعد الغنَوى ينشد المرثية براذان أراه فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه . قال : أول ما روى من عدو أعوج يعنى الأكبر الذى لغنى أنه أغير على الناس فى يوم النسار . وصاحب أعوج الأكبر موثقه بثُمامةٍ [1]. فلما أغارت الخيل فى وجه الصبح حال فى متنه [2] ثم صاح به ونسى الوثاق . فاقتلع الثمامة فخرج يحف به [3] كأنه خُذروف [4] فسار بياضَ يومه ثم أمسى يأكل حميم قباء . وسار أربع مراحل كأنه دفعه من الأنسر من ضرية ثم أتى العين ثم فَلْجة ثم الدفينة ثم قباء ثم لم يشغله . وقد كان عدا مسيرةَ أربع ليال أن تعشى من حميم قباء . وأما أعوج الأصغر فهو لبنى هلال بن عامر « ومنها الأغر » وهو لبلعاء بن قيس الكنانى الذى يقول :

أبلغ الحرث عنى أننى   شرُّ شيخ فى أيادٍ ومُضَر

رألة منتتف بلعومها   تأكل القتَّ وخُمّان الشجر [5]

إن مضى الحول ولم أغزُكمُ   فى عناج تهتدى أحوى طِمِرّ [6]

---

(١) واحدة الثمام كغراب وهو نبت يسد به خصاص البيوت (٢) أى وثب واستوى على ظهره (٣) حف الفرس حفيفا سمع عند ركضه صوت وهو دوى جريه ويقال أجرى الفرس حتى أحضه اى حمله على الحضر الشديد (٤) كعصفور شىء يدوره الصبى بخيط فى يديه فيسمع له دوى ، قال امرؤ القيس :

دريرٍ كخذروف الوليد أمره   تتابع كفيه بخيط موصل

وعوام البغداديين اليوم يسمونه (معجان) ومنهم من يقول (معجال) باللام (٥) الرألة : فرخ النعام ، والقت : الاسفست بالكسر وهى الفصفصة أى الرطبة من علف الدواب كذا فى النهاية وخص بعضهم به اليابسة منها ، والخمان بالضم والكسر ردىء الشجر وبالضم نبات (٦) قوله « ولم أغزكم » يروى بدله « ولم آتكم » وقوله « بعناج » يروى وبعناجى فمن رواه بعناج

قدّر الرحمن أن ألقـاكُم عارضاً رمحى على متن (الأغر)[1]

« ومنها الأشقر » كان لقتيبـة بن مسلم . فبعث به إلى الحجاج فعرض له « اشكاب » اللص بجوخى فسرقه . وخبر هذا أن الحجاج بن يوسف كتب إلى قتيبة بن مسلم أنه قد اجتمعت جياد خيل العرب بخراسان فاكتب إلى أهـل الـكور ومرهم باجراء الخيل وابعث إلىّ بسوابقها ففعل . فبعث إليه قتيبة بالأشقر والرؤاسى وهما ابنا الحميراء لبطنها فجاءت بهما رسـله ، فعرض لهما إشكاب اللص بجوخى فسرق الأشقر فذهب به وجاءوا بالرؤاسى إلى الحجاج فبعث به الحجاج إلى عبد الملك فاستوهبه منه بشر بن مروان أخوه فوهبه له . فـكانت خيل عبد الملك ابن بشر من بنات الرؤاسى فـكانت سوابق الخيل بالعراق . وكان يوسف بن عمر يجرى الخيل فسبقه عبـد الملك بن بشر ببنات الرؤاسى . وقيل ليوسف ابن عمر . ألا تجرى الخيل ؟ فقال : ألا أتغنىّ وابعث بالسبق إلى عبد الملك فلم تزل عند عبد الملك بن بشر فحمل بعضهن على بعض فرقهن وقادهن عبد الملك بعدُ إلى بنات الذائد بالشام فسبقتها الذائدية فما قصبت الرؤاسية مع الذائدية وذلك لأنهن رقفن وضعفن . وكانت الذائدية أغلظ منها وأقوى فاعترّتها بقوتها . قال أبو يحيي وإنما سمى الرؤاسى لأن رجلا من بنى سليم يقال له عبد الملك رؤاس استوهب ما فى بطن الحميراء من معقل بن عروة فوهبه له ، فلما وضعته أعجب معقل بن عروة . فقال لعبد الملك رؤاس دعه العام وأهب الك ما شئت فأبى فقال معقل : إذا لا ألبته الك قال هاته فأخذه واشترى له برذونةً حين وضعت فألباه منها ثم صنعه حتى اجذع فأرسله فلم يصنع شيئاً ، ثم أثنى فأرسله فلم يصنع شيئاً فأعاره رجلا من دهاقين[2] أهل خُراسان فابتذله الدهقان حتى أربَعَ فانتسب

أى بعناجيج (وهى جياد الخيل) فحذف الياء للضرورة فقال بعناجج ثم حول الجيم الاخير ياء قصار على وزن جوار فنون لنقصان البناء وهو محول التضعيف ، ومن رواه (عناجى) جعله بمنزلة قوله « ولضفاى جمة نقانق » اراد غناجيج كما أراد ضفادع ، (التاج) والاحوى : الاحمر يضرب الى السواد والطمر : الفرس الجواد (١) المتن : الظهر (٢) جمع دهقان بالكسر والضم وهو التاجر وزعيم فلاحى العجم ورئيس الاقاليم وقيل : هو مقدم قرية أو صاحبها بخرسان والعراق ، فارسى معرب

الفرس بعد ما ابتذل فكان سابقاً مبراً . انتسب أى رجع إلى نسبه وعرقه ..
وقال أبو يحيى : كانت الحمراء لمعقل بن عروة وكانت سابقة وبناتها سوابق ،
وكان معقل بصيراً بالخيل وكان إذا أجريت الخيل استدبرها فأيتها كان أدنى
سُنبكاً[١] من الأرض سبقه عليها « ومنها الأحزم » فرس نُبَيْشَة بن حبيب السُلَمى
قال يوم قتل ربيعة بن مكدم وهو (الكَدِيد) :

سائِلْ كنانةَ أين فارسُها الذى ... ورد الكَدِيدَ ربيعةُ بن مكَدَّم
فلتخبرنّ بنو فراس أنه ... ألوى بمهجته جرىء المقدم
لما أطالَ عِنانَهُ متقصداً ... نحوى قصرت له عنانَ (الأحزم)
فأثرتُ بينَ ضُلوعِهِ جياشةً ... فوهاء تنفث بالحقين وبالدمِ[٢]

ومنها « الأزور » فرس عبد الله بن حازم السُلَمى . قال فيه :

لَعَمْرى لقد أنظرت بكر بن وائل ... وخندفَ حتى لم أجد متنظراً
إذا أكثروا يوماً علىّ فرجتهم ... برمحى وألحقتُ الفوارسَ أزورا

ومنها « البيضاء » فرس قعنب بن عتاب بن الحرث بن عمرو بن همام بن رياح
بن يربوع قال بعض الشعراء :

لو أمكنتنى من شامةَ مهرتى ... للاقى كما لاقى فوارسُ قعنبِ
تمطّت به البيضاء بعد اختلاسةٍ ... على دهش وخلتنى لم أكذبِ

قال أبو بكر بن دريد : هى فرس بجير وفيها يقول الشعر . قال أبو محمد ،
قلت : الصحيح إنها لقعنب وذلك أنه التقى هو وبُجَيْرَ بن عبد الله بن سَلَمة بن
قُشَير بن كعب بِعُكاظ والناس متوافرون فقال بجير لقعنب : يا قعنب كيف
شكرك للبيضاء ؟ قال قعنب : وما عسيت أن أشكرها . قال : ولم لا تشكرها وقد

---

(١) السنبك : ضرب من العدو ، وطرف الحافر وجانباه من قدم
(٢) أثرت بعثت ، والافوه والفوهاء : البينا الفره والفوه محركة سعة الفم وعظمه ومن المجاز طعنة فوهاء : اى واسعة ، وحقنه يحقنه فهو محقون. وحقين : حبسه

أنجتك منى ؟ قال : ومتى ذاك ؟ قال بجير : حيث أقول :

أمخترمى ريبُ المنونِ ولم أرع　　بشعث النواصى سرح عمرو بن جندبِ
ولو أمكنتنى من بشامةَ مهرتى　　اللاقى كما لاقى فوارسُ قعنب
تمطت به البيضاء بعد اختلاسةٍ　　على دهش وخلتنى لم أكذب

قال أبو عبيدة : فأنكر ذلك قعنب فتحالفا وتلاعنا فآلى قعنب يميناً لئن اجتمع سقفى وسقفك (يعنى شخصى وشخصك) لأقتلنك أو أقتل دونك . وله حديث فيه طول . وقتل قعنب بُجَيْراً فى المَرُّوتِ و يسمى يوم إرم الكلبة . ومنها « بُرْجة » فرس لسنان بن أبى حارثة المرىّ . قال فيها :

لما رأونى ووجه بُرْجة　　والريطة ولى فوارس الملك
فأدبروا والرماح تأخذهم　　نزو القطاقى خبائل الشرك[1]

وقال فيها أيضاً :

ألا فاعجلْ (لبرجةَ) بالصَّبُوح　　صَرِيحاً إنها بنتُ الصريحِ[2]

ومنها « البرّيتُ » فرس إياس بن قبيصة الطائى . قال حارثة بن أوس الكلبى :

ونحى إياساً منى سيف مجنب　　تراه إذا ما جدتِ الخيلُ يلعب[3]
أبو أمه (البرّيت) أو هو خالهُ　　إلى كل عرق صالح يتنسب

ورواه بعض العلماء أبو أمه العريان فأنكره أبو الندى وقال : هو البريت وقال أبو بكر بن دريد هو البريت بضم الباء وتخفيف الراء وأنشد الشعر على غير ما أنشده أبو محمد :

---

(١) نزو القطا : وثوبه ، والشرك محركة : حبائل الصيد وما ينصب للطير والجمع شرك بضمتين نادر ، وبرجة بضم الباء وفى اللسان : هى لسنان بن ابى سنان (٢) الصبوح بالفتح ماحلب من اللبن بالغداة ، والصريح : الخالص من كل شىء (٣) قوله (سيف مجنب) لعل صوابه (شدف مجنب) والشدف ككتف الطويل العظيم السريع الوثبة من الخيل سكن داله ضرورة ، والمجنب المنعطف العظام والتجنيب فى الخيل مما يوصف صاحبه بالشدة

ونجى إياساً سابحٌ ذو عُلالةٍ ملح إذا يعلو الحَزَابىّ يغلب (١)

أبوأمه (العريان) أو هو خالهُ إلى كل عرق صالح يتنسب

كأن استهُ إذْ أخطأته رماحُنا وفات (البُرَيْتَ) لبده يتصبب

ذنابى حبارى أخطأ الصقر رأسه فجادت بمكنون من السلح يشعب (٢).

ومنها « البرخاء » لعوف بن الكاهن الأسلمى . قال فيها :

نصبت لهم وجهى و (برخاء) جونة إذا نصبت للشر أقعت على رجل (٣)

كأن بها كراثَ رمل خميلة ولت نبته الجوزاء بالنبل والوبل (٤)

« ومنها « جِروة » فرس قعين بن عامر النميرىّ . قال فيها :

تركت ابنَ بدرٍ والسباع يعدنه وفى النفس مما يذكر الناس عاذرُ

قصرت له من صدر (جروة) إنها تصادم أحياناً وحيناً تغاور

قصرت له من صدرها وكأنها عقاب تدلت مطلع الشمس كاسرُ (٥)

ومنها « الحرون » بن الأثانى بن الخزز بن ذى الصوفة بن أعوج لمسلم بن عمرو الباهلى أبى قتيبة بن مسلم وإنما سمى الحرون لأنه كان يسبق الخيل فإذا فاتها حرن وإذا لحقته نجا ثم يحرن وله يقول القائل :

إذا ما قريشٌ خلا ملكها فإن الخلافةَ فى باهله (٦)

---

(١) يقال لأول جرى الفرس (بداهة) وللذى يكون بعده (علالة) كما فى التاج والحزابى : أماكن منقادة غلاظ مستدقة ، والسابح الفرس لسبحه بيديه فى سيره (٢) الذنابى : ذنب الطائر وقيل منبت الذنب ، والحبارى : طائر معروف وهو على شكل الأوزة برأسه وبطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا ، والسلح : الغائط ، ويشعب : يجرى (٣) أقعى الكلب والسبع جلس على استه وأقعى فرسه رده القهقرى (٤) قوله ولت أى أمطرت (٥) العقاب بالضم معروف ، وكسر الطائر جناحيه كسرا ضمهما للوقوع وبازكاسر وعقاب كاسر ، وجروة أيضا فرس شداد أبى عنترة (٦) باهلة قبيلة من أخس قبائل العرب ويضرب بلؤمها المثل ولم تزل العرب تصف باهلة باللؤم فى الجاهلية والاسلام ثم خفت منهم تلك السمة وشرفت بقتيبة بن مسلم وبنيه حتى قال القائل : اذا ماقريش الخ

ومما يحكى من لؤم باهلة أنه قيل لأعرابى : أيسرك أن لك مائة ألف درهم وأنت من باهلة فقال : لا والله . فقيل : أفيسرك أن لك حمر النعم وأنك منها ؟ قال : اللهم لا ، قيل : أفيسرك أنك فى الجنة وانت باهلى ؟ قال نعم ولكن بشريطة أن لايعلم أهلها أننى منها !! ومما يستجاد لبعضهم قوله :

لِرَبٍّ الحرون (أبى صالح) وما تلك بالسنة العادله[١]

وقد اشتراه مسلم من أعرابى بالبصرة بألف دينار معارضة بمتاع فذكر أنه كان فى عنقه رسن حين أدخله الأعرابى يطير عفاؤه[٢] فسبق الناس عليه عشرين سنة . وكان الحجاج بعث بابن يقال له البطان إلى الوليد بن عبد الملك فصيره لمحمد ابنه وولد البطان البطين لمحمد بن الوليد أيضاً قال العجلى .

أغر من خيل بنى ميمون بين الحميليات والبطين

يعنى ميمون بن موسى المرائى وولد البطين الذائد وهو للعباس بن الوليد ابن عبد الملك . وكان لا يدخل عليه سائسه إلا بإذن يرفع له المخلاة فيها شعير ، فإن رفع رأسه دخل إليه وإن لم يفعل به ذلك شد عليه فمنعه من الدخول إليه وكذلك كان يصنع بالفرس إذا جاراه يَكدِمُه[٣] قال الأصمعى : وكان إذا أرسل معه حمار أو فرس مثله فى الجودة جاء سابقه بقدر رمح . وأخبار هذا كثيرة .

ومنها « حزمة » ذكر الأصمعى قال : حدثنى شيخ يقال له (ابن قتب) قال : قدم أعرابىٌّ من أهل نجد على الوليد بن عبد الملك ، وقد أضمر الوليد الخيل ليرسلها ، فأتى أعرابى فقال : يا أمير المؤمنين أريد أن أرسل خيلى مع خيلك . قال : يا أسيلم كيف تراها ؟ فقال : حجازية لو ضمها مضمارك ذهبت . فقال له الأعرابى : ما اسمك ؟ قال : أنا أسيلم بن الأحنف . قال فقال : إنك لمنقوص الاسم أعوج اسم الأب . قال فأرسلت الخيل فسبق الأعرابى على فرس له يقال له (حزمة) فقال له الوليد : أواهبها أنت لى ؟ قال إنها قديمة الصحبة ولها حق ولكنى أحملك على مُهْرٍ لها سبق الناس عاماً أول وهو فى بطنها له عشرة أشهر .

أباهــل ينبحنى كلبكم وأسدكم ككلاب العرب
ولو قيل للكلب : يا باهلى عوى الكلب من لؤم هذا النسب

وقول آخر :

لاتنفع الأنساب من هاشم ان كانت الأنفس من باهله

والشعر فى باهلة كثير وله محل آخر (١) أبو صالح هو مسلم بن عمرو الباهلى
(٢) العفاء : الشعر الطويل الوافى ، ووبر البعير (٣) أى يعضه بأدنى فمه

والفرس إذا أتت عليه عشرة أشهر وهو فى بطن أمـه ربض وكذلك البعير إلا أنه يبرك ، فمرض هذا الأعرابى فأرسل الوليد بن عبد الملك الأطباء إليـه يداوونه فأنشأ يقول :

جاء الأطباء من (حمصٍ) كأنهمُ من أجل أن لا يداوونى مجانين[1]

قال الأطباء : ما يشفى ، فقلت لهم : دخان رِمث من (التسرير) يشفينى[2]

مما يجرّ إلى عُمران حاطبه من الُجنينة جزلا غـير ممنون

الرمث بالـكسر مرعى الإبل . قال : فأرسل إليه أهله بحمل من سليخة رمث فوجدوه قد مات . (والسليخة) قال أبو بكر بن دريد : أن يجف الرمث فلا يبقى فيه من الندى شىء . قال أبو محمد الأعرابى : سألت أبا الندى عن اسم هذا الأعرابى ونسبه ، فقال هو الأصم حكيم بن مالك بن جناب النميرى . قال (وحزمة) قال فيها ابنه عتاب بن الأصم هذا الرجز :

يا (حَزْمَ) قد جد الرهان بالقوم ليس عليك اليوم فى جَرْىٍ لَوْم

إن أنت جليت الوجوه ذا اليوم

ومنها « حومل » لحارثة بن أوس الـكلبىّ . ولها يقول يوم هزمت بنو يربوع بنى عبد ودّ من كلب :

ولولا جَرْىُ (حوملَ) يوم غدر لَمَزّقنى وإياها السلاحُ

---

(١) حمص : كورة بالشام (٢) الرمث : شجر يشبه الغضا لايطول ولـكنه ينبسط ورقه وهو شبيه بالاشنان والابل تحمض بها اذا شبعت من الخلة وملتها وربما يخرج فيه عسل ابيض كأنه الجمان وهو شديد الحلاوة وله حطب وخشب ووقود حار وينتفع بدخانه من الزكام ، والتسرير ذو بحار أسفله حيث سيواله السر : قال أبو رياد : ذو بحار واد يصب أعلاه فى بلادبنى كلاب ثم يسلك نحو مهب الصبا ويسلك بين الشريف شريف بنى نمير وبين جبلة فى بلاد بنى تميم حتى ينتهى الى مكان يقال له التسرير من بلاد عكل ، قال : وفى التسرير أثناء وهى المعاطف فيه ، منها ثنى لغنى بن اعصر وثنى نمير ابن عامر وفيه ماء يقال له الغريفة وجبل يقال له الغريف وثنى لبنى ضبة لهم فيه مياه ودار واسعة ثم سائر التسرير الى أن ينتهى فى بلاد بنى تميم ، قال الراعى :

حى الديار ديار ام بشـير بنـو يعتين فشاطىء التسرير

لعبت بها عصف النعامى بعدما زوارهـا من شـمال ودبور

تثيب إثابةَ اليَعْفُورِ لمَّا تناول ربَّها الشُعْثُ الشِّحَاح[١]

« ومنها الحفار » فرس سراقة بن مالك الكنانى . قال فيه :

صبرت لهم نفسى وأحرزت جنتى ومثل مشدى يوم ذلك يذكر
ومرجعى (الحفار) خلف ظهورهم بمعترك ضنك به الضيم أعسر

ومنها « الحسامية » لحميد بن حريث بن بجدل الكلبىّ . قال فيها شبيل بن الجنبار العميرىّ :

ولى حميد ولم ينظر فوارسه قبل التبين والمغرور مغرورُ
من بعد ما ألثق السربال طعنته كأنه بعصير الورس ممكور[٢]
نجىّ (الحسامية) الكبداء مبترك من جريها وحثيث الركض مذعورُ
كأنما يلدغ الأقرابِ إذ حميت من شدها بحصى الأرض الزنابير[٣]

ومنها « خصافٌ »[٤] لِسُمَيْر بن ربيعة الباهلى ويسمى فارس خصاف ويضرب به المثل . فيقال (أجرأ من فارس خِصاف) قال بعض الشعراء .

إذا وجَّهَ الدهْرُ السهامَ إلى امرىء أصاب ولم يُخْطِىء وَيَمَّمَ قاصِدا
ورُبَّ خِصافٍ قد أصابتْ سهامُهُ وأىُّ فتى يبقى على الدهر خالدا

ولمالك بن عمرو الغسانى فرس أنثى يقال لها (خصاف) أيضاً . وكان مالك فيمن شهد (يوم حليمة) فأبلى بلاء حسناً وجاءت حليمة تطيب رجال أبيها من مركن[٥] ، فلما دنت من هذا قبلها فشكت ذلك إلى أبيها فقال هو أرجى رجل عندى فدعيه فإما أن يقتل أو يبلى بلاء حسناً . ويسمى فارس خصاف . ويقال أجرأ من فارس خصاف بسبب القصة المذكورة « وخِصَافٌ » أيضاً لِحَمل بن زيد ابن عوف بن عامر بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل

---

(١) اليعفور : ظبى بلون العفر وهو التراب أو عام فى الظباء ، والشعث جمع اشعث وهو المغبر الرأس المنتتف الشعر الجاف الذى لم يدهن ، والشحاح جمع الشحيح (٢) ألثقه : بلله ونداه فالتثق به ، والورس نبات يصبغ به ، وممكور : مصبوغ (٣) الأقراب : الخواصر (٤) على وزن كتاب وكذلك فرس حمل بن زيد وأما فرس مالك بن عمرو الغسانى فعلى وزن قطام وحذام (٥) كمنبر آنية

كان معه هذا الفرس فطلبه المنذر بن امرىء القيس ليفتحله فخصاه بين يديه لجرأته فسمى (خاصىَ خصاف) ويقال فى المثل (أجرأ من خاصى خصاف) . ومنها « خَرج »[1] فرس جريبة بن الأشيم الأسدىّ قال فيها :

تالله مامنوا علىّ وإنما منت علىّ (خراج) حين تصرفوا

قال أبو الندى وابن الأعرابى : هو بالتخفيف . وقال غيرهما . هو الخراج وأنشد البيت . منوا على الخراج حين تصرفوا . وأنشد لجريبة أيضاً :

وكنت إذا (الخراج) حال استحلته بمنجية أو قلت : (خراج) أعقبا
فما الأزرق الحولىّ منه بأوثب رأى أرنباً فامتلّ فى شأو أرنبا[2]

ومنها « درهم » فرس خداش بن زهير العامرىّ قال فيه :

وقلت لعبد الله فى السر بيننا : لك الويلُ قَدّمْ لى اللجامَ ودرهما
فجاء بلا شختٍ قصير لَبانهُ ولا حنكل بادى الشرارة أدهما[3]
وقلت له : إنْ تدرك القومَ لاتزل مكانَ (بجير) أو أحب وأكرما

بجير : ابنهُ وقال أيضاً يذكر ضيفاً :

وأقفيتهُ دون العيال لحافنا وبات أنيسيه (بجير) و (درهمُ)[4]

ومنها « دعلج » فرس عبد عمرو بن شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب قال فيه يوم فيف الريح :

طلقتِ إن لم تسألى أىُّ فارس حليلكِ إذ لاقى صداء وخثعما
أقدمُ فيهم (دَعْلَجاً) وأكرّه إذا كرهوا فيه الرماح تحمحما[5]

---

(١) قال فى القاموس : خراج كقطام فرس حريبة بن الأشيم (٢) امتل : أسرع ، والشأو : السبق والغاية والأمد (٣) الشخت الدقيق الضامر لاهزالا ويحرك ، واللبان : الصدر ، والحنكل كجعفر القصير والجافى الغليظ (٤) القفى والقفية الشىء الذى يكرم به الضيف من الطعام قال عيلان يصف فرسا : مقفى على الحى قصير الاظماء ، والقفى الضيف المكرم . واقفى الرجل على صاحبه فضله فمعنى قوله واقفيته دون العيال أى خصصته دون العيال (٥) ونسبهما بعضهم لعامر بن الطفيل ، وقوله طلقت يحتمل أن يكون دعاء او اخبارا ، وحليل المرأة زوجها ، وصداء وخثعم : قبيلتان كانتا مع من أراد قتال بنى عامر فى ذلك اليوم

ومنها « دباس » فرس جبار بن قرط الكلبي قال فيه :

ألا أبلغْ أبا كربٍ رسولاً مغلغلةً وليست بالمزاح
فإني لن يفارقني (دباسٌ) ومطردٌ أحذّ من الرماح[1]
يراخيني إذا ماشئتُ منهم ويدنيني إذا كرهوا جناحي

ومنها « العرادة » لهبيرة بن عبد مناف اليربوعي[2] واشتهر بابن الكلحبة والكلحبة أمه وهو الذي يقول في العرادة :

فإن تنجُ منها يا (حَزِيم بن طَارقٍ) فقد تركتْ ما خلفَ ظهرِكَ بلقعا
ونادى منادى الحيّ أنْ قد أتيتمُ وقد شربت ماء المزادة أجمعا[3]
وقلت لكأس ألجميها فإنما نزلنا الكثيب من (زَرود) لنفزعا
فأدرك إبقاء (العرادة) ظلعها وقد جعلتني من (حزيمة) إصبعا
أمرتكمُ أمرى بمنعرج اللوى ولا أمرَ للمعصيّ إلا مضيعا
إذا المرء لم يغشَ الكريهةَ أوْشكت حبالُ الهوينى بالفتى أن تَقطّعا[4]

وسبب هذه الأبيات أن ابن الكلحبة كان نازلا (بزَرود) وهي أرض بني مالك بن حنظلة وهو من بني يربوع فأغارت بنو تغلب على بني مالك وكان رئيسهم (حزيمة بن طارق) فاستاق إبلَهم فأتى الصريخ إلى بني يربوع فركبوا في أثره فهزموه واستنقذوا ما كان أخذه . فقوله « إن تنج منها الخ » أي من الفرس . و « حزيم » بفتح الحاء المهملة وكسر الزاى المعجمة مرخم حزيمة . وهذا البيت يشعر بانفلاته وشعر جرير يشعر بأسره . وهو قوله « قُدْنا حَزِيمةَ قد علمتم عنوةً » ولا مانع منه بأن أدركه غير ابن الكلحبة وأسره لما ظلعت فرسه . قيل : ولما أسر اختصم فيه اثنان أحدهما أنيف بن جبلة الضبي وهو أحد بني

---

(١) رسالة مغلغلة محمولة من بلد الى بلد ، والمطرد رمح قصير يطرد به الوحش ، والأخذ السريع النفاذ (٢) في القاموس : العرني (٣) البلقع : الأرض القفر ؛ والمزادة بفتح الميم الراوية أو لاتكون الا من جلدين تقام بثالث بينهما لتتسع (٤) قوله الهوينى يروى بدله « المنايا »

عبد مناة بن سعد بن ضبة . وكان أنيف يومئذٍ نازلا فى بنى يربوع وليس معه من قومه أحد . وثانيهما أسيد بن حناءة السليطىّ فاختصما إلى الحرث بن قراد فحكم أن جز ناصيته لأنيف وأن لأسيد عنده مائةً من الإبل فرضيا بذلك والحرث ابن قراد بن بنى حميرى بن رياح بن يربوع وأمه من بنى عبد مناة بن بكر بن سعد ابن ضبة . وقوله : « فقد تركت الخ » العرب كثيراً مّا تذكر أن الخيل فعلت كذا وكذا وإنما يراد به أصحابها لأنهم عليها فعلوا وأدركوا . يقول : إن تنج يا حزيمة من فرسى فلم تفلت إلا بنفسك وقد استبيح مالك وما كنت حويته وغنمته فلم تدع لك هذه الفرس شيئاً . وقوله : « ونادى منادى الحى الخ » كأن ابن الكلحبة يعتذر من انفلات حزيمه . يقول : أتى الصريخ وقد شربت فرسى ملء الحوض ماء وخيل العرب إذا علمت أنه يغار عليها وكانت عطاشاً . فمنها ما يشرب بعض الشرب ولا يروى وبعضها لا يشرب البتة لما قد جربت من الشدة التى تلقى إذا شربت الماء وحورب عليها . وقوله : « وقلت لكأس البيتَ » كأس بنت ابن الكلحبة . وقيل : جاريته . والعرب لا تثق فى خيلها إلا بأولادها ونسائها . وقوله : « لنفزع الخ » أى لنغيث . يقول : ما نزلنا فى هذا الموضع إلا لنغيث من استغاث بنا والفزع من الأضداد بمعنى الإغاثة والاستغاثة . وقوله : « فأدرك إبقاء العرادة الخ » العَرَادة بفتح العين والراء والدال المهملات اسم فرس ابن الكلحبة كانت أنثى ، و(الإبقاء) ما تبقيه الفرس من العَدْو إذ من عتاق الخيل مالا تعطى ما عندها من العدو بل تبقى منه شيئاً إلى وقت الحاجة يقال فرس مبقيةَ إذا كانت تأتى بجرى عند انقطاع جريها وقت الحاجة يريد أنها شربت الماء فقطعها عن إبقائها ففاته حَزِيمة . وروى (انقاء العرادة) بفتح الهمزة وبالنون جمع نقو بالكسر وهو كل عظم ذى مخ يعنى ظلعها وصل إلى عظامها . وروى أيضاً (إرقال العرادة) بكسر الهمزة والقاف وهو السير السريع وهو مفعول والظلع فاعل . قال ابن الأنبارىّ : الظلوع فى الإبل بمنزلة الغمز أى العرج اليسير يقال

ظلع يظلع بفتحهما ظلعاً وظلوعاً ولا يكون الظلوع فى الحافر إلا استعارة . يقول : فاتنى حَزيمة وما بينى و بينه إلا قدر أصبع . وقوله « أمرتـكم أمرى الخ » اللوى بالقصر هو لوى الرمل أى منقطعه حيث ينقطع و يفضى إلى الجدد ومنعرجه حيث انثنى منه وانعطف ، و إنمـا قال بمنعرج اللوى ليعلم أين كان أمره إياهم كما قال الآخر :

ولقـد أمرتُ أخاك عمراً فأبى وضيعه بذات العجرمِ

« ومنها الغرّاف » للبراء بن قيس بن عتاب بن هرمى بن رياح اليربوعى قال فيه :

فإن يك عراف تبدل فارساً سواى فقد بدلت منه السميدعا

قال أبو محمد الأعرابى : سألت أبا الندى عن السميدع من هو ؟ فقال : كان جاراً للبراء بن قيس وكانا فى منزل فأغار عليهما ناس من بكر بن وائل فحمل البراء أهله وركب فرساً يقال له (غراف) فلا يلحق به فارس منهم إلا صرفه برمحه . وأخذ السميدع فناداه : يا براء أنشدك الجوار . وأعجب القوم الفرس فقالوا : لك جارك وأنت آمن وأعطنا الفرس فاستوثق منهم ودفع إليهم الفرس واستنقذ جاره فلما رجع إلى أخو يه عمرو وأسود لاماه على دفعه فقال البراء فى ذلك :

ألا أبلغا عمروَ بن قيس رسالةً وأسودَ أن لو ما على الغيب أودعا

وشرّ عوان المستعين على الندى ملامة من يرجى إذا العتب أضلعا

فإن يك (غراف) تبدل فارساً سواى فقد بدلت منه السميدعا

دعانى فـلم أورء به فأجبته ومد بثدى بيننا غير أقطعـا

وقال : تذكر سعيكم فى رقابنـا ولا تتركنّى العام أخضر لعلعا

« ومنها الـكاملة » لعمرو بن معدى كرب عرضها على سلمـان بن ربيعة الباهلى فهجنها سلمان فقال عمرو « إن الهجين يعرف الهجينا » وأنشأ يقول :

يهجن سلمان بنت البعيث جهلاً لسلمان بالـكاملة

فإن كان أبْصَرَ مني بهـا ... فأمى لا أمه الثاكله[١]

قال أبو محمد الأعرابى ؛ قال أبو الندى : لا أعرف الكاملةَ ولا البعيث ولا هذه الأبيات . قال أبو محمد : وقرأت أنا بخط يعقوب بن السكيت قال ؛ عرض سلمان بن ربيعة الباهليّ الخيل فمر عمرو بن معد يكرب على فرس فقال له سلمان : هجين قال عمرو : عتيق ، فأمر به سلمان فعطش ثم دعا بماء ودعا بخيل عتاق فشربت فجاء فرس عمرو فثنى يده وشرب وهذا صنيع الهجين . فقال له سلمان : ترى ! فقال أجَلْ الهجينُ يعرف الهجينَ و بلغت عمر وكتب إليه قد بلغنى ما قلت لأميرك و بلغنى أن لك سيفاً تسميه الصمصامة وعندى سيف أسميه مصمماً . وأيم الله لئن وضعته على هامتك لا أقلع حتى أبلغ به شيئاً قد ذكره من جوفه فإن سرك أن تعلم أحقٌ ما أقول فعـد . ومنها « الـكلب » فرس عامر بن الطفيل وكان تسمى (الورد) و (المزنوق) لأنه زنقه[٢] . قال أبو الندى : الزناق فى الجحفلة . و (أحوى) أخو الـكلب فرس عامر وأبوهما المتهد (!) فرس مرة بن خالد بن جعفر بن كلاب . قال عامر :

وقد عَلِمَ (المزنوق) أنى أكرّهُ ... عشيةَ فيف الريح كرّ المدوّرِ[٣]

إذا ازورّ من وقع الرماح زجرتُهُ ... وقلت له : ارجع مقبلاً غيرَ مدبِرِ

وأنبأتُهُ أن الفرارَ خزاية ... على المرء مالم يبل جهداً فيعذرِ

ومنها « المُحبَّر » فرس ضرار بن الأزورالأسدى وهو قاتل مالك بن نويرة[٤] وكان يقال له فارس المحبّر . قال فيه :

جزانى ذؤابته المحـبر إذ بدا ... بذى الرمث أعجاز السوام المؤبّل[٥]

كأنى طلبت الخيلَ حين تفاوتت ... سوابقها دون السماء بأجدلِ[٦]

---

(١) ثكلت المرأة ولدها : فقدته (٢) زنق فرسه : جعل تحت حنكه الأسفل حلقة فى الجليدة ثم جعل فيها خيطا ، وكل رباط فى الجلد تحت الحنك فهو زناق ككتاب (٣) رواية التاج :

وقد علم المزنوق أنى أكره ... على جمعهم كر المنيح المشهر

(٤) المشهور فى التاريخ والسير أن الذى قتل مالكا خالد بن الوليد (رض) « التاج » (٥) ذؤابة الفرس شعر فى أعلى ناصيته ، وذو الرمث اسم موضع ، والرمث مرعى من مراعى الابل وهو الحمض ، والسوام : الابل الراعية ، والمؤبل كقبر : المهملة بلا راع (٦) الأجدل : الصقر

من المنهبات الركض ظلّ كأنه على الجمر حتى يستغيثَ بمأ كلِ
أخالط منهم من أردت بمخلط وإنْ أنأ عنهم انأْ عنهم بمِزْيل (١)
أنَهْنِهُ عنّى نفسه وكأنه بذى الرمث والغضياء مريخ معتلى (٢)

« ومنها مرهوب » للجميح بن الطماح الأسدى أعطاه إياه خراشة بن علبة المرّىّ . وكان الجميح غزا فعقر به فجاء إلى صديق له من بنى مرة بن عوف بن سعد ابن ذُبيان يقال له خراشة بن علبة : ولخراشة ابنٌ يقال له نزال أسير فى بنى سليم وكان لخراشة فرس يقال له مرهوب رائع وكان ابنه أسيراً فيهم يتغالون بفدائه ويسومون خراشة أن يفديه بفرسه فيأبى فحمل عليه الجميح وترك ابنه أسيراً فقال الجميح .

نفسى الفداء لمن لما تكايدنى كسب الجياد حشا سرجى بمرهوب
وقلّت الخيل عندى واختللت لها وحصنى الشرك أر باب المثاحيب
هذا الثناء وإن يجلبك مأربة فى المال ذانكبة أو غير منكوب
اصبر لها وتجدنى دائماً خلقى والقول منه كثير غير مرقوب

« ومنها النعامة » وهو اسم لعدة أفراس : اسم لفرس الحرث بن عباد . ولها يقول :

قربا مربطَ (النعامة) منى لقحت حربُ وائل عن حيال (٣)

واسم فرس خالد بن نضلة الأسدى قال يوم النِسار لما أسر حنثر بن بحر وهب بن وبر بن الأضبط بن كلاب ، ودودان بن خالد أحد بنى نفيل :

تدارك أرخاء (النعامة) حنثراً ودودان أدّت فى الحديد مكبَّلا (٤)

---

(١) المخلط كمنبر من يخالط الامور ويزايلها وهو يخلط مزيل كما يقال رانق فانق، والنأى : البعد (٢)انهنه : أكف، والغضياء مجتمع الغضا أو منبتها والمريخ : السهم الذى يغالى به وهو سهم طويل له اربع قذذ (٣) لقحت : حملت ، والحيال أن يضرب الفحل الناقة فلا تحمل وهذا مثل ضربه لان الناقة اذا حالت وضربها الفحل كان أسرع للقاحها وانما يعظم أمر الحرب لما تولد منها الامور التى لم تكن تحتسب (٤) الكبل : القيد وكبلت الاسير كبلا : قيدته والتشديد مبالغة

واسم فرس مرداس بن معاذ الجشمى وكان يقال لها ابنة صمر قال فيها : —

ولم أزج فى ظل اللواء ظهيرةً خنوفاً إذا صاح الرقيب ونفّرا(١)

إذا الكلب لم يعرف حليلةَ أهلِهِ وخالط فى يوم الصباح وأنكرا(٢)

وقلت لهم شلوا مع القوم إننى مطرف أولى القوم يا ابنة صمرا(٣)

فلم أقِ نفسى و (النعامةَ) عامداً كلومَ السلاح أن أصاب وتعقرا(٤)

ظللت كأنى للرماح دريئـة أقلب سربالاً من الدم أحمرا(٥)

واسم فرس مسافع بن عبد العزى الضمرى قال :

ووالله لا أنسى النعامة ليـلةً ولا يومها حتى أوسد مِعصمى(٦)

مسحة غيطان الفضـاء ولقوة إذا طوطئت كأنها حمى منسم(٧)

ومنها « ابن النعامة » فرس عنترة وكان يؤثره أى يفضله على سائر خيله ويسقيه اللبن وكانت امرأته تلومه على ذلك فخاطبها وقال :

لا تذكرى فرسى وما أطعمته فيكون جلدُك مثلَ جلد الأجرب !

إن الغَبُوقَ له وأنتِ مسوءة فتأوّهى ما شئت ثم تحوبى !

كذَبَ العتيقُ وماء شنٍّ باردٍ إن كنتِ سائلتى غَبُوقا فاذهبى

إن الرجالَ لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تـكحلى وتخضبى !

ويكون مركبكِ القَعود وحِدْجه وابن النعامة عند ذلك مركبى

(١) الزجو : السوق ، وفرس خنوف : يميل رأسه الى فارسه من نشاطه
(٢) الحليلة : الزوجة (٢) شل الدرع لبسها وشله : طرده ، والشلال القوم المتفرقون ، وطرف الخيل تطريفا : رد أوائلها على أواخرها ، قال الشاعر

وقد علمت اولى المغيرة أننا نطرف خلف الموقصات السوابقا

(٤) الكلوم : الجروح (٥) الدريئة كالخطيئة الحلقة يتعلم الرامى الطعن والرمى عليها ، قال عمرو بن معديكرب :

ظللت كأنى للرماح دريئـة اقاتل عن أبناء جرم وفرت

(٦) المعصم وزان مقود : موضع السوار من الساعد ، ووسده اياه اذا جعله تحت رأسه (٧) فرس مسح بالكسرة أى جواد سريع ، والغيطان جمع غوط وهو المطمئن الواسع من الارض ، واللقوة التى تلقح لاول قرعة ، وطأطأ فرسه : دفعه بفخذيه وحركه للاسراع .

وأنا امرؤٌ إنْ يأخذونىَ عَنْوَةً أقرن إلى شر الركاب وأجنبِ
إنى أحاذر أن تقولَ ظعينتى هـذا غبارٌ ساطعٌ فتلببِ

وهذه أبيات بعيدة المرمى تحتاج إلى كشف وبيان ؛ فقوله (مثل جلد الأجرب) أى لا تلومين فى إيثار فرسى فأبغضك واهجـر مضجعك وأتحاماك كما يتحامى الأجرب من الإبل و يبعد عنها لئلا يعديها . وقيل معناه أضربك فيبقى أثر الضرب عليك كالجرب فيـكون تهددها بالضرب الأليم . وقوله (إن الغبوق له الخ) الغبوق شرب اللبن بالعشى والعشى ما بين الزوال إلى الغروب ، وقيل من الزوال إلى الصباح . ومسوءة أى آتٍ إليك ما يسوؤكِ بإيثار فرسى عليك . والتأوه التحزن وأن تقول آه توجعاً . والتحوب التوجع و يقال هو الدعاء على الشيء . وقوله (كذب العتيق الخ) أى عليك بالعتيق وهو إغراء . والعتيق هو التمر القديم . قال الدينورى فى كتاب النبات : يقال عتَق وعتُق بالفتح والضم إذا تقادم والعتيق اسم للتمر علم وأنشد هذا البيت . والشن القربة الخلق والماء يكون فيها أبرد منه فى القربة الجديدة ، يقول : عليك بالتمر فـكليهِ والماء البارد فاشربيه ودعينى أوثر فرسى باللبن وإن تعرضت لشرب اللبن فاذهبى و إنما يتوعدها بالطلاق . وقوله (إن الرجال الخ) ويروى إن العدو والوسيلة القربة وقيل المنزلة القريبة . قال الأعلم فى شرح مختار شعر عنترة : هذا منه وعيد وتخويف أن تسبى فيستمتع بها الرجال قال تـكحّلى وتخضبى ، والمعنى إنْ أخذوك تـكحلتِ وتخضبتِ لهم ليستمتعوا بك . وقوله (ويكون الخ) القَعود بفتح القاف ما اتخذ من الإبل للركوب خاصةً والحدج بكسر المهملة وآخره جيم مركب من مراكب النساء وروى بدله رحله ، وابن النعامة اسم فرسه يقول إن أخذوك حملت سبيه على قَعود ونجوتُ أنا على فرسى ، وقوله (وأنا امرؤ الخ) العنوة بالفتح القسر والقهر والركاب الإبل التى يحمل عليها الأثقال ، واقرن أى الصق بها واجعل مقروناً إليها واجنب أفاد . يقول : إن أخذت عنوة قرنت إلى شر الإبل وجنبت كما تجنب الدابة . وقوله

(أنى أحاذر الخ) الظعينة الزوجة مادامت فى الهودج ، والتلبب : التحزم أى تحزم للمحاربة . وقيل : هو الدخول فى السلاح . وقوله (هذا غبار) يعنى غبار الخيل عند الغارة والساطع المستطير فى السماء .

ومنها (ناصح) لسويد بن شداد العبشمى وفيها كان يقول :

أناصحُ بَرِّزْ للسباق فإنها غداةَ رهانٍ جمعتْهُ الحلائبُ[1]

فإنك مجلوبٌ علىَّ ضحى غدٍ ومالك إن لم يجلب الله جالبُ

قال أبو الندى : هذا الشعر للحرث بن مراغة الحبطى وناصح له لا لسويد ابن شداد[2] .

« ومنها النبز » فرس طارق بن ضمرة وفيه يقول نبزة أخو طارق بن ضمرة حين تراهن خديج بن قيس بن عمرو بن قطن . وطارق بن ضمرة بن جابر بن قطن على فرسيهما الجنحة والنبيز وسبقه . ولما كان بعد ذلك ذعر الناس فركبوا فأدرك طارق على الجنحة إبلا فلما حواها انقطعت فرسه فأدركه خيب الناس فاقتسموا تلك الإبل وطارق غلام . فقال فى ذلك ضمرة أخو طارق بن ضمرة :

أبقى رهان أبى ربيعة غدوة منها ولم يك بعدها تعقيب

وتسوقها رجلا جداية حُلْبٍ وتسد لبة صدرها وتصوب[3]

غيبت عن ذاك الصنيع وأهله والمرء يشهد مرةً ويغيب

ومنها « نحلة[4] » لسبيع بن الخطيم التيمى قال فيها :

---

(١) برز بروزا: خرج الى البراز أى الفضاء كتبرز وظهر بعد الخفاء، والحلائب جمع حلبة كسجدة وهى تجمع للسباق من كل أوب ولاتخرج من وجه واحد قال الفيومى : يقال جاءت الفرس فى آخر الحلبة أى فى اخر الخيل وهى بمعنى حليبة ولهذا جمعت على حلائب (٢) قلت جاء فى القاموس مانصه : والناصح فرس الحرث بن مراغة أو فضالة بن هندوفرس سويد بن شداد ؛ انتهى ، وهذا يفند مالدعاه أبو الندى نعم يجوز أن يكون الحرث بن مراغة قال هذا الشعر فى فرسه ...... (٣) الجداية : الغزال كذا فى القاموس ، وفى الصحاح والمحكم هو الذكر والأنثى من أولاد لظباء اذا بلغ ستة أشهر أو سبعة اشهر ، والحلب كسكر نبت فى القيظ بالقيعان وشطآن الادوية ويلزق بالارض حتى يكاد يسوخ ولا تأكله الابل انما تأكله الشاء والظباء وهى مغزرة مسمنة وتحتبل عليها الظباء يقال تيس حلب ذو حلب وهو أسرع الظباء (٤) فى القاموس ونحلة فرس لكندة ولسبيع بن الخطيم

تقول (نحلة) أودعني ، فقلت لها عول عليّ بإبكار هراجيب[١]
لجت عليّ يمين لا أبدلها من ذات قُرْطين بين النحر واللوب[٢]

قال أبو محمد الأعرابي : سألت أباالندى عن معنى البيتين . فقال : كان خطب إلى عمه بنته فقال أعطني مهرها نحلة فقال لا ولكن خذ إبلا فرده عمه ولم يخطبه « ومنها اليُخْموم » فرس النعمان بن المنذر قال الأعشى :

ويأمر (لليحموم) كلّ عشيةٍ بِقتٍ وتعليق فقد كان يسنق[٣]

وله أيضاً على ماثبت فى ديوانه :

وإليكَ أعملتُ المطيةَ من سهل (العراق) وأنت بالقفر
أنت الرئيسُ إذا هُمُ نزلوا وتواجهوا كالأسد والنمر
أو فارس (اليَحْموم) يتبعهم كالطلق يتبع ليلةَ البهر
ولأنتَ أشجعُ من أسامة إذ يقع الصُراخ ولج فى الذعر
ولأنتَ أجودُ بالعطاء من الـ ريان لما ضُن بالقطر
ولأنت أحيا من مخبأة عذراء تقطن جانب الكِسْر
ولأنت أبين حين تنطقُ من (لقمانَ) لما عىّ بالأمر
لو كنت من شيء سوى بشر كنتَ المنور ليلة القدر

وفارس اليحموم : هو النعمان بن المنذر ملك الحيرة . واليحموم اسم فرسه والطلق الليلة التى لاحر فيها ولا برد وليلة البهر ليلة البدر حين يبهر النجوم . وفى القاموس أسامة بالضم معرفة علم الأسد والأسامة لغة فيه . والصُراخ بالضم الصوت الشديد يكون للاستغاثة وغيرها . والريان قال ياقوت فى معجم البلدان جبل ببلاد طيىء لايزال يسيل منه الماء وضن بالبناء للمفعول أى بخل وتقطن بالقاف أى تسكن

---

(١) الهراجيب : الطوال الضخام (٢) القرط مايعلق فى شحمة الاذن
(٣) القت : الفصفصة اذا يبست ، وقال الازهرى القت حب برى لاينبته الآدمى فاذا كان عام قحط وفقد أهل البادية مايقتاتون به من لبن وتمر ونحوه ، دقوه وطبخوه واجتزؤا به على ما فيه من الخشونة ، وسنق الفصيل من اللبن كفرح : بشم واتخم .

والكسر بكسر الكاف الشفة السفلى من الخباء . ولقمان هو كما قال الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين هو لقمان بن عاد الأكبر . وكانت العرب تعظم شأنه فى النباهة والقدر وفى العلم وفى الحكم وفى اللسان وفى الحلم وهو غير لقمان المذكور فى القرآن العظيم الشأن .

ومنها (الهراوة) للريان بن حويص العبدى وكانت لا تدرك وتسمى (هراوة الأعزاب) لأنه تصدق بها على أعزاب قومه فكان العزب منهم يغزوا عليها فاذا استفاد مالاً وأهلاً دفعها إلى آخر من قومه فكانوا يتداولونها كذلك فضربت مثلاً . قال لبيد :

لا تسقنى بيديك إن لم ألتمس ... نعم (الضجوعُ) بغارةٍ أسرابِ
تهدى أوائلهن كل طمرة ... جرداء مثل (هراوة الأعزاب) [١]

قال أبو محمد الأعرابى : سألت أبا الندى عن الضجوع فقال هو قتادة بن كعب ابن عوف بن عبد بن أبى بكر بن كلاب أخو جواب بن كعب . وقال عمرو المحاربى من عبد القيس :

سقى جدثَ الريان كل عشية ... من المزن وكاف العشىّ دلوحُ [٢]
أقام لفتيان العشيرة سهوة ... لهم منكح من جريها وصبوح [٣]
فيامن رأى مثل الهراوة منكحاً ... إذا بلّ أعطافَ الجياد جروح
وذى إبل لولا الهراوة لم يثب ... له المال ما انشق الصباح يلوح

وذكر أبو بكر محمد بن دريد أن الهراوة تسمى آوة و بعضهم يسميها الهراوة . وهذا الذى أوردناه ، كاف فيما قصدناه ، وهذا الباب ، بحر عُباب ، كم ألف فيه من كتاب .

---

(١) الطمرة : المستعدة للعدو أو المستنفرة للوثب من الخيل ، والجرداء : السباقة ، والضجوع على مافى التاج موضع وقيل رحبة لهم ، وقيل الضجوع رملة بعينها معروفة (٢) الجدث محركة : القبر وتقول شر الاحداث ، نزول الاجداث ، والوكاف : المطر المنهل ، والمزن : السحاب الواحدة مزنة ، وسحابة دلوح كثيرة الماء (٣) السهوة الفرس السهلة ، والصبوح بالفتح شرب الغداة

طرف من أخبار مشاهير فرسان العرب

اعلم أن العرب فى الجاهلية لم يزالوا فى كر وفرّ وغارات ومحاربات . أرخصوا نفوسهم فى طلب العز وإشادة المجد وهانت عليهم الحياة دون وصمة تلحقهم ، ومذلة تشينهم ، حتى أصبحوا كلهم فرسانا كماة ، بل ليوث غابات ، وكان قائلهم يقول (وهو النابغة الجعدى) :

وإنا لَقَوْمٌ ما نعوّد خيلنا   إذا ما التقينا أن تَحيدَ وتنفرا

وننكر يوم الروع ألوانَ خيلنا   من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا (١)

وليس بمعروف لنا أن نردها   صحاحاً ولا مستنكراً أن تعقرا

إلى أن قال :

حَسبنا زماناً كلّ بيضاء شحمةً   ليالىَ إذ نغزو جُذاماً وحميرا (٢)

إلى أن لقينا الحىّ بكر بن وائل   ثمانين ألفاً دارعين وحُسّرا (٣)

فلما قرعنا النبعَ بالنبعِ بعضه   ببعض أبتْ عيدانه أن تكسرا (٤)

سقيناهمُ كأساً سقونا بمثلها   ولكننا كنا على الموت أصبرا

واستيعابهم لا تقوم متونُ الكتب المفصلات ولكننا نذكر طرفا من

---

(١) يوم الروع هو يوم الحرب ، والجون من الابل والخيل الادهم ، والاشقر الاحمر فى مغرة حمرة يحمر منها العرف والذنب ، والمغرة بالضم لون ليس بناصع الحمرة أو شقرة بكدرة ، ومعنى تحيد فى البيت الاول : تتنحى وتبعد

(٢) يقول كنا نطمع فى أمر فوجدناه على خلاف ماكنا نظن وهذا قولهم فى المثل : (ماكل بيضاء شحمة) ومثله (ماكل سوداء تمرة) وجذام بضم الجيم بطن من كهلان من القحطانية وحمير قبيلة من بنى سبأ من القحطانية وهم بنو حمير بن سبأ (٣) الدارع الذى عليه درع ، والحاسر من لا مغفر له ولا درع أو لا جنة (٤) النبع شجر صلب تعمل منه القسى ، وقوله عيدانه الضمير فيه عائد الى النبع وقيل عيدانه يعنى القوم الذين حاربوه لأنه شهد لهم بالصبر ، ضرب ذلك مثلا لتكافؤ الفريقين جلادة وصبرا

هذا وقد نسب بعضهم هذا الشعر لأبى الهذيل زفر بن الحرث الكلابى كبير قيس فى زمانه وهو فى الطبقة الاولى من التابعين من أهل الجزيرة وكان من الامراء وشهد وقعة صفين مع معاوية رضى الله عنه أميرا على أهل قنسرين وشهد وقعة مرج راهط تلك الوقعة المشهورة مع الضحاك ابن قيس ، قيل وفيها يقول هذا الشعر ، ومرج راهط بالاضافة موضع بالشام

أخبار بعض من اشتهر منهم بالفروسية ومقاومة الأقران ، وضربت به الأمثال وذكرته الشعراء عند المفاخرة وهم عدد كثيرون . منهم :

ربيعة بن مكرم

وهو من بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة وكان يُعْقَرُ على قبره فى الجاهلية ولم يعقر على قبر أحـــدٍ غيره . ومر على قبره حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه[1] فقال :

نَفَرَتْ قَلوصى من حجارةِ حرَّةٍ　　بُنِيتْ على طَلْقِ اليدين وَهُوب[2]

لا تَنْفِرى يا ناقُ منه فإنه　　شِرّيبُ خمرٍ مِسْعَرٌ لحرُوب[3]

لولا السفارُ وطولُ قفرٍ مَهْمَهٍ　　لتركتها تحبو على عرقوب

وكان بنو فراس بن كنانة أنجد العرب . كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم وفيهم يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه لأهل الـكوفة : من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخْيَب أبدلـكم الله بى من هو شر لـكم وأبدلنى بكم من هو خير منـكم ووددت والله أن لى بجميعكم وأنتم مائة ألف . ثلاثمائة من بنى فراس ابن غنم .

هنالك لو دعوت أتاك منهم　　فوارسُ منهم ارميةِ الحميم[4]

(١) نسب هذا الشعر فى ديوان مختارات اشعار القبائل الى حفص بن الاخيف الكنانى وقال محمد بن سلام : الصحيح أن هذه الابيات لعمرو بن شقيق أحد بنى فهر بن مالك ، ومن الناس من يرويها اكرز بن حفص بن الاخيف العامرى وعمرو بن شقيق أولي بها ، وهذا الشعر قيل فى قتل ربيعة بن مكدم الكنانى أحد فرسان مضر المعدودين وشجعانهم المشهورين قتله نبيشة بن حبيب السلمى فى يوم الكديد ، وقبل هذه هذه الابيات قوله :

لايبعدن ربيعة بن مكدم　　وسقى الغوادى قبره بذنوب

الغوادى جمع غادية وهى سحابة الصباح ، والذنوب بفتح الذال الداو العظيمة استعير هنا للغيث ، يتفجع على ربيعة ويدعو له بالرحمة والرضان

(٢) نفرت : فزعت ، والقلوص من النوق الشابة ، وقوله من(حجارة حرة) المراد بها قبر ربيعة والحرة أرض ذات حجارة سود (٣) مسعر على وزن منبر آلة فى ايقاد الحرب ، والسفار : السفر ، والمهمه المفازة البعيدة الاطراف ، والحبو المشى على اليدين والبطن ، وعرقوب الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها (٤) الارمية جمع رمى كغنى قطع صغار من السحاب أو سحابة عظيمة القطر والوقع ، والحميم القيظ والمطر الذى يجىء بعد اشتداد الحر

ومنهم :

عنترة العبسى بن شداد

قال الكلبي : شداد جده غلب على اسم أبيه وإنما هو عنترة بن عمرو بن شداد وقال غيره شداد عمه تكفله بعد موت أبيه فنُسب إليه . و يقال إن أباه ادعاه بعد الكبر وذلك أنه كان لأمة سوداء يقال لها (ز بيبة) وكانت العرب فى الجاهلية إذا كان لأحدهم ولد من أمة استعبده وكان لعنترة إخوة من أمه عبيد وكان سبب ادعاء أبى عنترة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من بنى عبس فأصابوا منهم فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم وفيهم عنترة فقال له أبوه كرّ ياعنترة فقال : « العبد لا يحسن الكر إنما يحسن الحلاب والصرّ » قال كرّ وأنت حر فقاتلهم واستنقذ مافى أيدى القوم من الغنيمة فادعاه أبوه بعد ذلك وهو أحد (أغر بة العرب) وهم ثلاثة . والثانى خُفاف كغراب واسم أمه نَدْبة كتمرة . والثالث السُلَيْك بالتصغير واسم أمه السُلَكة بضم ففتح وأم الثلاثة سود . وكان عنترة أشجع أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده وكان شهد حرب (داحس) و (الغبراء) وحمدت مشاهده فيها وقتل فيها ضمضما المرى أبا الحصين بن ضمضم وأبا أخيه هرم ولذلك قال فى معلقته :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تَدُرْ   للحرب دائرةٌ على ابنَىْ ضَمضم [1]
الشاتِمَىْ عِرْضى ولم أشتمهما   والناذِرَيْنِ إذا لم ألقهُما دمى
إنْ يفعلا فلقد تركتُ أباهما   جزرَ السباع وكلّ نسرٍ قَشْعَم [2]

وهذا آخر المعلقة قال أبو عبيدة : إن عنترة بعد ما أوت عبس إلى غَطَفان بعد يوم جبلة وحمل الدماء احتاج وكان صاحب غارات فكبر وعجز عنها . وكان

(١) الدائرة اسم للحادثة سميت بها لأنها تدور من خير الى شر ومن شر الى خير ثم استعملت فى المكروهة دون المحبوبة (٢) النسر القشعم : الكبير المسن ، يقول ان يشتمانى لم يستغرب منهما ذلك فانى قتلت اباهما وصيرته جزر السباع وكل نسر كبير مسن

له يد على رجل من غَطَفان فخرج يتجازاه فمات فى الطريق . ونقل عن أبى عبيدة أيضاً : أن طيئاً تدعى قتـلَ عنترة ويزعمون أن الذى قتله (الأســد الرهيف) وهو القائل .

أنا (الأسدالرهيص) قتلت (عمراً) و (عنترةَ الفوارس) قد قتلتُ

والله أعلم والعنتر فى اللغة الذباب الأزرق الواحد عنترة ونونه ليست بزائدة ومنهم

ملاعب الأسنة

وهو عامر بن مالك وسمى ملاعب الأسنة بقول أوس بن حجر[١] :

ولاعب أطرافَ الأســنة عامرٌ فراحَ له حظُّ الـكتيبة أجمع[٢]

قال ابن قتيبة : وملاعب الأسنة عم لبيد انتهى . وكان أخذ أربعين مِرباعا[٣] فى الجاهلية وهو من الفرسان الذين يضرب بهم المثل فى الشجاعة والإقدام . ومنهم :

زيد الخيل

هو كما قال صــاحب الاستيعاب زيد بن مهلهل بن زيد بن منهب الطائى . قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى وفد طيء سنة تسع فأسلم وسماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (زيدَ الخير) وقال له ما وصف لى أحــد فى الجاهلية فرأيته فى الإســلام إلا رأيته دون الصفة غيرَك وأقطع له أرضين فى ناحيته . يكنى (أبا مكنف) وكان له ابنان مكنف وحريث وقيل حارث أسلما وصحبا النبى صــلى الله تعالى عليه وسلم وشهدا قتال الردة مع خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه . وكان زيد الخيل شاعراً محسناً خطيباً لسناً شجاعاً بُهْمَةً[٤] كريماً . وكان بينه و بين كعب

---

(١) حجر بفتحتين (٢) الكتيبة : الطائفة من الجيش مجتمعة والجمع كتائب (٣) مرباع ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية ثم صار خمسا فى الاسلام (٤) الشجاع لايهتدى من اين يؤتى

ابن زهير هجاء لأن كعباً اتهمه بأخذ فرس له . مات زيد الخيل منصرَفهُ من عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم محموماً فلما وصل إلى بلده مات . وكان قبل إسلامه قد أسر عامر بن الطفيل وجز ناصيته . هذا ما أورده صاحب الاستيعاب . وقيل له زيدالخيل لخمسة أفراس كانت له . وكان طويلاجسيما موصوفاً بطول الجسم وحسن القامة وكان يركب الفرس العظيم الطويل فتخطّ رجلاه فى الأرض كأنه راكبٌ حماراً . وهو القائل :—

تمنى مِزْيَدٌ زيد فلاقى … أخا ثقةٍ إذا اختلف العوالى (١)

كمنيةِ جابرٍ إذ قال : ليتى … أصادفه وأتلف بعض مالى (٢)

تلاقينا فما كنا سواءً … ولكن خرّ عن حالٍ لحالِ (٣)

ولولا قولهُ يا زيد قَدْنى … لقد قامت نويرة بالمآلى (٤)

شككت ثيابه لما التقينا … بمطرد المهزة كالخلال (٥)

ومزيد رجل من بنى أسد كان يتمنى أن يلقى زيدالخيل فلقيه زيد الخيل فطعنه فهرب منه . وجابر رجل من غطفان تمنى أن يلقى زيداً حتى صبحه زيد . فقالت له امرأته كنت تتمنى زيداً فعندك فالتقيا فاختلفا طعنتين وهما دارعان فاندق رمح جابر ولم يغن شيئاً وطعنه زيد برمح له كان على كعب من كعابه ضبةٌ من حديد فانقلب ظهراً لبطن وانكسر ظهره . فقالت امرأته وهى ترفعه منكسراً ظهره

(١) قوله اخاثقة أى صاحب وثوق بشجاعته وصبره فى الحرب ، والعوالى جمع عالية والعالية من الرمح مايلى الموضع الذى يركب فيه السنان يعنى وقت اختلاف الرماح ومجيئها أو ذهابها للطعان (٢) المنية بالضم اسم للتمنى وفى الاصل الشىء الذى يتمنى ويستشهد النحويون بهذا البيت على أن حذف نون الوقاية من ليتنى شاذ خاص بالضرورة وظاهر الخلاصة أنه نادر ، قال : وليتنى فشا وليتى ندرا . ولا يخفى أن النادر والشاذ بينهما فرق .

(٣) قوله خر أى سقط و (حال) الأول ظهر الفرس والثانى بمعنى فى الحال اى سقط من حاله (٤) نويرة اسم امرأة جابر ، والمآلى جمع مئلاة وهى الخرقة التى تكون مع النائحة تأخذ بها الدمع أى لولا ذلك لقتلته

(٥) شككته بالرمح : طعنته ، والخلال : عود يجعل فى لسان الفصيل لئلا يرضع ، والخلال العود الذى يخل به الثوب أى يثقب

« كنت تتمنى زيداً فلاقيت أخائقة » ومعنى البيتين : أن مزيداً تمنى أن يلقى زيداً كما تمنى جابر ، وكلاهما لقى منه ما يكره . ومنهم :

عامر بن الطفيل

واسم جده مالك بن كلاب العامرى وهو ابن عم لبيد الصحابىّ ، وكنية عامرٍ فى الحرب أبو عقيل ، وفى السلم أبو على ، وكان أصيبت إحدى عينيه فى بعض الحروب . قال ابن الأنبارى فى شرح المفضليات : كان عامرٌ من أشهر فرسان العرب بأساً ونجدةً وأبعدها اسماً حتى بلغ أن قيصرَ كان إذا قدم عليه قادم من العرب قال ما بينك و بين عامر بن الطفيل ؟ فإن ذكر نسباً عظم عنده حتى وفد عليه علقمة بن علاثة فانتسب له فقال ابن عم عامر بن الطفيل فغضب علقمة . وكان ذلك مما أوغر صدره[1] وهيجه إلى أن دعاه إلى المنافرة . وكان عمر بن معد يكرب وهو فارس اليمن يقول : ما أبالى أىّ ظعينة لقيت على ماء من من أمواهِ معدٍّ مالم يلقنى دونها عبداها أو حراها . و يعنى بالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعىّ ، وعنى بالعبدين عنترة العبسى والسُّلَيْك ابن السلكة . قال الأشرم : و يقال كانت المنافرة أن علقمة بن علاثة شرب الخمر فضرب به عمر الحد فلحق بالروم فارتد ، فلما دخل على ملك الروم قال : انتسب فانتسب له علقمة . فقال : أنت ابن عم عامر بن الطفيل ؟ فقال ألا أرانى لا أعرف ههنا إلّا بعامر فغضب فرجع فأسلم وتقدم[2] بيان المنافرة عند الكلام على المفاخرات . ولما قدمت وفود العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة تسعٍ من الهجرة قدم وفد بنى عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس أخو لبيد الصحابى لأمه وكانا رئيسى القوم ومن شياطينهم ، فقدم عامر بن الطفيل عدوّ الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد الغدر به وقد قال له

---

(١) أى ملأه غيظا (٢) انظر الجزء الأول ص ٢٧٨ .

قومه : يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم . قال : والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى عن تتبع العرب عقبى فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش . ثم قال لأربد : إذا قدمنا على الرجل فإنى شاغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعْلُه بالسيف فلما قَدِما على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به فجعل أربد لا يحير شيئاً ، فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال له عامر أتجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولىّ الأرض بعدك فأسلم فأبى عليه صلى الله تعالى عليه وسلم فانصرف عامر وقال : أما والله لأملأنّها عليك خيلا ورجالا ، فلما ولى قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم اكفنى عامر بن الطفيل ، فلما خرجا من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال عامر لأربد : ويلك يا أربدُ أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوفَ عندى علىّ منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً . قال : لا أباً لك لا تعجل علىّ والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلتَ بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف وخرجا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سلول فجعل يقول : يا بنى عامر أغدة كغدة البَكْر[1] فى بيت امرأة من بنى سلول ثم خرج أصحابه حين واروه التراب حتى قدموا أرض بنى عامر فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شىء والله لقد دعانا إلى عبادة شىء لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما . وقد أشار إلى ذلك أخوه لأمه لبيد العامرىّ بقوله يرثيه :

أخشى على (أربد) الحتوف ولا   أرهبُ نوءَ السِّماكِ والأسدِ[2]

---

(١) الغدة لحم يحدث من داء بين الجلد واللحم يتحرك بالتحريك والغدة للبعير كالطاعون للانسان واغد البعير صار ذا غدة والبكر : الفتى من الابل .

(٢) الحتوف جمع حتف وهو الموت ، والنوء : المطر ، والسماك : الأعزل والرامح نجمان نيران ، والأسد : أحد البروج الاثنى عشر .

فجعنى البرق والصواعق بالفا   رس يوم الكريهة النجد[1]

وروى ابن الأنبارىّ فى شرح المفضليات : لما مات عامر نصبت بنو عامر نصاباً ميلا فى ميل حِمًى على قبره لا تنشر فيه راعية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش . وكان جبار بن سلمى بن عامر بن مالك غائباً فلما قدم قال : ما هذه الأنصاب ؟ قالوا . نصبناها حمى على قبر عامر . فقال : « ضيقتم على أبى علىّ إن أبا على بانَ من الناس بثلاث كان لا يعطش حتى يعطش الجمل وكان لا يضل حتى يضل النجم وكان لا يجبن حتى يجبن السيل » . ولعامر وقائع فى مَذْحِج وخثعم وغَطَفَان وسائر العرب . ومنهم :

عمرو بن معد يكرب

ينتهى نسبه إلى كهلان بن سبأ ، ومعدى اشتقاقه مثل اشتقاق معدان ويزيد عليه بأنه يجوز أن يكون من العدوان ، وكرب يجوز أن يكون من الكرب الذى هو أشد الغم ومن كرب فى معنى قارب أو من أكربت الدلو إذا شددتها بالكرب وهو الحبل الذى يشد على العَرَاقى . قال ابن جنى : فسره ثعلب أنه عداه الكرب أى تجاوزه وانصرف عنه . وكنية عمرو أبو ثور وهو الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع فى الجاهلية والإسلام . قال فى الاستيعاب . وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى سنة تسع . وقال الواقدى : فى سنة عشر . فى وفد زبيد فأسلم انتهى . وأقام مدة فى المدينة ثم رجع إلى قومه وأقام فيهم سامعاً مطيعاً وعليهم فروة ابن مسيك فلما توفى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ارتد . قال النووى فى تهذيب الأسماء واللغات : ارتد مع الأسود العنسىّ فسار إليه خالد بن سعيد فقاتله فضربه خالد على عاتقه فانهزم وأخذ خالد سيفه فلما رأى عمرو الأمداد من أبى بكرٍ أسلم ودخل على المهاجر بن أبى أمية بغير أمان فأوثقه وبعث به إلى أبى بكر

---

(١) يوم الكريهة : يوم الحرب .

فقال له أبو بكر : أما تستحي كل يوم مهزوماً أو مأسوراً لو عززت هذا الدين لرفعك الله تعالى . قال : لا جرم لأقبلن ولا أعود فأطلقه وعاد إلى قومه ثم عاد إلى المدينة فبعثه أبو بكر إلى الشام فشهد اليرموك انتهى . وله فى اليرموك بلاء حسن وقد ذهبت فيه إحدى عينيه ثم بعثه عمر إلى العراق وله فى القادسية أيضاً بلاء حسن وهو الذى ضرب خطم الفيل بالسيف فانهزمت الأعاجم وكان سبب الفتح ومات سنة إحدى وعشرين من الهجرة . وفى كيفية موته خلاف : قيل مات عطشاً يوم القادسية ، وقيل قتل فيه ، وقيل بل مات فى وقعة نهاوند بعد الفتح ، وقيل غير ذلك ، وعمره يومئـذ مائة وعشرون سنة وقيل مائة وخمسون ولم يذكره السجستانى فى المُعَمَّرِين . روى أن رجلا رآه وهو على فرسه فقال : لأنظر ما بقى من قوة أبى ثور فأدخل يده بين ساقه وجنبِ الفرس ففطن لهـا عمرو فضم رجله وحرك الفرس فجعل الرجل يعدو مع الفرس ولا يقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منه صاح به فقال له : يا ابن أخى مالك ؟ قال . يدى تحت ساقك ، فخلَّى عنه وقال له : إن فى عمك بقية ؛ وعمرو بن معد يكرب هو القائل .

ولما رأيت الخيل زُوراً كأنّها ... جداول زُرع أرسلت فاسبطرّت

فجاشت إلىَّ النفسُ أول مرةٍ ... فردَّتْ على مكروهها فاستقرتِ

عـلامَ تقول الرمحُ يُثْقِلُ عاتِقِى ... إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرّتِ[١]

لحا الله جَرْماً كلما ذرَّ شارق ... وجوهَ كلاب هارشتْ فازبأرّتِ[٢]

فلم تغن جَرْمَ نهـدها إذ تلاقيا ... ولـكن جَرْماً فى اللقاء ابذعرّتِ[٣]

ظَلَلْتُ كأنى للرِّماح دريئـةٌ ... أُقاتل عن أبناء جَرْم وفرّتِ[٤]

---

(١) شرح المؤلف البيتين الأولين فكفانا مؤنتهما . ولنأخذ بشرح أبيات الباقية العاتق : موضع الرداء من المنكب ، أو هو ما بين المنكب والعنـق . وكرت الخيل : عطفت .

(٢) لحاه الله : أى قبحه ، وجرم : قبيلة . وذرت الشمس : بدا قرنها أول الطلوع . والشارق : الشمس . ووجوه كلاب : نصب على الذم . والمهارشة: المواثبة وازبأرت : تهيأت للقتال .

(٣) نهد : قبيلة ومعنى « ابذعرت » تفرقت . (٤) دريئة : أى عرضة .

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقتُ ولـكنَّ الرماحَ أجَرَّتِ (١)

وقصة هـذه الأبيات هو ما حكاه المفضل الطبرسى فى شرح الحماسة أن جرماً ونهداً وهما قبيلتان من قضاعة كانتا من بنى الحرث بن كعب فقتلت جرم رجلا من أشراف بنى الحرث فارتحلت عنهم وتحولت فى بنى زبيـد فخرجت بنو الحرث ففرت جرم واعتلت بأنها كرهت دماء نهد فهزمت يومئذ بنو زبيد فقال عمرو هذه الأبيات يلومها ثم غزاهم بعد فانتصف منهم . فقوله زوراً هو جمع أزور وهو المعوج الزَّوْر بالفتح أى الصدر يقول لما رأيت الفرسان منحرفين للطعن وقد خلوا أعنة دوابهم وأرسلوها علينا كأنها أنهار زرع أرسلت مياهها فاسبطرت أى امتدت والتشبيه وقع على جرى الماء فى الأنهار لا على الأنهار فـكأنه شـبه امتداد الخيل فى انحرافها عنـد الطعن بامتداد الماء فى الأنهار وهو يطرد ملتوياً ومضطرباً وهذا تشبيه بديع . وقوله فجاشت الخ جاشت ارتفعت من فزع وهذا ليس لـكونه جباناً بل هذا بيان حال النفس ونفس الجبان والشجاع سواء فيما يدهمهما عند الوهلة الأولى ثم يختلفان فالجبان يركب نفرته والشجاع يدفعها فيثبت قال أبو عبيدة قال عبد الملك بن مروان وجدت فرسان العرب ستة نفر ثلاثة منهم جزعوا من الموت عند اللقاء ثم صبروا وثلاثة لم يجزعوا . قال عمرو :

فجاشت إلىَّ النفس أول مرة فردت على مكروهها فاستقرَّت

وقال ابن الأطنابة :

وقولى كلما جشأت وجاشت مكانَكِ تُحمدى أو تستريحى (٢)

---

(١) اجرت من الاجرار وهو شق لسان الفصيل لئلا يرضع أمه ويجعل فيه عويد ، يقول لو أنهم ابلوا فى الحرب بلاء حسنا لمدحتهم وذكرت بلاءهم ولكنهم قصروا فاجرروا لسانى فما انطق بمدحهم والافتخار بهم (٢) يستشهد فى النحو بهذا البيت على أن العرب جزمت بعد الظرف ـ يعنى الواقع اسم فعل وهذا معنى بيت الخلاصة :

والامر ان كان بغير افعل فلا تنصب جوابه وجزمه اقبـلا

قال فى التصريح : فجزم (تحمدى) فى جواب اسم الفعل وهو مكانك فانه فى معنى اثبتى ، وقولى مصدر مبتدأ خبره مكانك تحمدى على حد قولى

وقال عنترة :

إن يتقون بى الأسنة لم أخم عنها ولـكنى تضايق مقدمى[١]

فأخبر هؤلاء الثلاثة أنهم هابوا ثم أقدموا وقال عامر بن الطفيل : —

أقول لنفس ما أريد بقاءها أقلى المراحم إنى غير مدبر(؟)

وقال قيس بن الخطيم :

وإنى فى الحرب الضروس موكل بإقدام نفس ما أريد بقاءها[٢]

وقال العباس بن مرداس :

أشدُّ على الـكتيبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها[٣]

فأخبر هؤلاء أنهم لم يجزعوا . وشرح الأبيات يطول . وربما عد فى مثل هذا المقام من الفضول . ومنهم :

دريد بن الصمة

روى أبو بكر بن دريد عن أبى عبيدة قال : خرج دريد بن الصمة فى فوارس من بنى جُشَم حتى إذا كانوا فى واد لبنى كنانة يقال له الأخرم — وهم يريدون الغارة على بنى كنانة . رُفع لهم رجل فى ناحية الوادى ومعه ظعينة[٤] ، فلما رآه قال لفارس من أصحابه صِح به « خلّ الظعينة وانجُ أنت بنفسك وهم لا يعرفونه »

لا اله الا الله ، وجشأت : ارتفعت وجاشت غثت من الغثيان ، وقوله مبتدأ الاظهر انه عطف بيان على وضربى فى البيت الذى قبله :

أبت لى عفـتى وابى ابـائى واخذى الحمد بالثمن الربيـح
واجشـامى على المكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى
لادفـع عن مآثرى صـالحات واحمى بعد عن عرض صحيح

يقال ان معاوية رضى الله عنه يوم صفين هم بالفرار فما منعه الا هذه الابيات

(١) الاتقاء : الحجز بين الشيئين تقول اتقيت العـدو بترسى أى جعلت الترس حاجزا بينى وبين العدو ، والخيم : الجبن ، والمقدم : موضع الاقدام

(٢) الضروس : الشديدة ، وفلان موكل بكذا ملازم له ومقبل عليه .

(٣) الشدة بالفتح : الحملة فى الحرب ، والكتيبة : الطائفـة من الجيش مجتمعة ، والحتف : الهلاك (٤) قال الفيومى : ويقال المرأة ظعينـة فعيلة بمعنى مفعولة لان زوجها يظعن بها ويقال الظعينة الهودج وسواء كان فيه

فانتهى إليه الفارس فصاح به وألح عليه . فلما رأى إباءه ألقى زمام الراحلة وقال للظعينة : —

سِيرى على رِسْلِكِ سيرَ الآمنِ سيْرَرَداحٍ ذات جأشٍ ساكنِ[(١)]
إن انثنائى دون قرنى شائنى أبْلِى بلائى واخْبُرى وعاينى[(٢)]

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه الظعينة ، فبعث دريدٌ فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه ، فلما انتهى إليه ورآه صريعاً صاح به فتصامم عنه فظن أنه لم يسمع فغشِيَهُ فألقى زمام الراحلة إلى الظعينة ثم رجع وهو يقول :

خَلِّ سبيل الحرة المنيعة إنك لاقٍ دونَها ربيعة
فى كفه خَطِّية مطيعة أو، لا . فخذها طعنةً سريعة
فالطعنُ منى فى الوَغَى شريعة[(٣)]

ثم حمل فصرعه ، فلما أبطأ على دريد بعث فارساً ثالثاً لينظر ما صنعا . فلما انتهى إليهما رآهما صريعين ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له خلِّ سبيل الظعينة . فقال للظعينة اقْصِدى قَصْدَ البيوت ثم أقبل عليه يقول : —

ماذا تريد من شَتيم عابس ألم تر الفارسَ بعد الفارسِ ؟
أرادهما عاملُ رمحٍ يابسِ

ثم حمل عليه فصرعه وانكسر رمحه . وارتاب دريد وظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل . فلحق ربيعة وقد دنا من الحى ووجد أصحابه قد قتلوا . فقال أيها الرجل : إن مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحاً والخيلُ ثائرة بأصحابها فدونَكَ هذا الرمحَ فإنى منصرف إلى أصحابى فَمُثَبِّطهم[(٤)] عنك ! فانصرف

امرأة أم لا والجمع ظعائن وظعن بضمتين ويقال الظعينة فى الاصل وصف للمرأة فى هودجها ثم سميت بهذا الاسم وان كانت فى بيتها لانها تصير مظعونة

(١) قوله على رسلك بالكسر اى على هينتك ، والرداح : الثقيلة الاوراك .

(٢) القرن وزان حمل من يقاومك فى علم أو قتال أو غير ذلك .

(٣) الخطية : الرمح المنسوب الى خط اسم أرض وقد مر تفسيرها . والوغى مقصور : الجلبة والاصوات ومنه وغى الحرب ، وقال ابن جنى : الوعى بالمهملة الصوت والجلبة ، وبالمعجمة الحرب نفسها ، والشريعة : الدين

(٤) ثبطه عن الامر عوقه وبطأ به عنه كثبطه فيهما .

دريد وقال لأصحابه : إن فارس الظعينة قد حماها وقتل أصحابكم وانتزع رمحى ولا مَطْمَعَ لـكم فيه فانصرفوا فانصرف القوم . فقال دريد فى ذلك : —

ما إنْ رأيت ولا سمعتُ بمثله حامى الظعينة فارساً لم يُقْتَل

أردى فوارسَ لم يكونوا نُهزةً ثم استمرّ كأنه لم يفعلِ (١)

مُتَهللاً تبدو أسرة وجهه مثلَ الُحسامِ جَلَتْه كفُّ الصَيْقَل (٢)

يزْجِى ظعينتَهُ ويسحَبُ ذيلَهُ متوجهاً يُمناه نحوَ المنزل (٣)

وتَرى الفوارسَ من مخافة رمحه مثلَ البغاثِ خَشِينَ وَقْعَ الأجدل (٤)

يا ليتَ شعرى من أبوه وأمه يا صاح من يكُ مثلَهُ لم يُجْهل

وقال ربيعة :

إن كان يَنْفَعُكِ اليقينُ فسائلى عنى الظعينةَ يومَ وادى الأخرمِ

إذْ هِى لأول من أتاها نُهْبَةٌ لولا طعانُ ربيعةَ بن مكدَّمِ

إذ قال لى أدنى الفوارس مِيتةً خلِّ الظعينة طائعاً لا تندم

فصرفت راحلة الظعينة نَحوه عمداً ليعلمَ بعضَ مالم يعلَمِ

وهتـكتُ بالرمح الطويل إهابَهُ فهوى صريعاً لليدَيْن وللفم (٥)

ومنحت آخرَ بعـده جَيّاشةً نجلاء فاغرةً كشِدْق الأضجم (٦)

ولقـد شفعتهما بآخَرَ ثالثٍ وأبى الفرارَ لىَ الغداةَ تـكرمى

ثم لم تلبث بنو كنانة أن أغارتْ على بنى جشَم فقتلوا وأسروا دريدَ بن

(١) النهزة بالضم الفرصة تجدها من صاحبك ويقال فلان نهزة المختلس أى هو صيد لكل أحد (٢) تهلل الوجه : تلألأ ، والاسرة جمع سر وهو خط الوجه والجبهة ، والحسام : السيف القاطع أو طرفه الذى يضرب به ، والصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها (٣) قوله يزجى أى يسوق سوقا رفيقا، راجع معنى الظعينة التى مر تفسيرها قريبا (٤) البغاث من الطير ما لا يصيد ولا يرغب فى صيده لانه لا يؤكل ، والاجدل : الصقر (٥) يقال هتك الستر وغيره يهتكه فانهتك وتهتك جذبه فقطعه من موضعه أو شق منه جزأ فبدا ما وراءه ، والاهاب ككتاب الجلد (٦) النجلاء : الطعنة الواسعة ، والفاغرة : الفاتحة ، والشدق : جانب الفم ، والضجم : عوج فى الفم وميل فى الشدق وقد يكون عوجا فى الشفة والذقن والعنق .

الصمة فأخفى نفسه فبينا هو عندهم محبوس إذ جاءه نسوة يتهادَيْنَ إليه فصرخَت إحداهن فقالت هلكتم وأهلكتم ماذا جرّ علينا قومناهذا والله الذى أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة ، ثم ألقت عليه ثوبَها وقالت يالفراسِ أنا جارةٌ له منكم هذاصاحبنا يوم الوادى فسألوه من هو ؟ فقال : أنا دريد بن الصمة . فمن صاحبى ؟ قال : ربيعة ابن مكدم . قال : وما فعل ؟ قال : قتلته بنو سُلَيْمَ . قال : فما فعلت الظعينة ؟ قالت المرأة أناهِيَهْ وأنا امرأته فحبسه القوم وأمروا أنفسهم ، فقال بعضهم لاينبغى لدريد أن تكفر نعمته على صاحبنا . وقال آخرون والله لايخرج من أيدينا إلا برضى الْمُخارق الذى أسره فانبعثت المرأة فى الليل — وهى رَيْطة بنت جِذل الطعان — تقول :

سَنَجزى دُرَيْداً عن ربيعةَ نعمةً ... وكلُّ امرىءٍ يجزى بما كان قدما
فإن كان خيراً كان خيراً جزاءه ... وإن كان شراً كان شراً مُذَمَّما
سنجزيه نُعمى لم تكن بصغيرةٍ ... بإعطائه الرمحَ الطويلَ المقوّما
فقد أدركت كفاه فينا جزاءه ... وأهلٌ بأن يجزى الذى كان أنعَما
فلا تكفرُوه حق نُعماء فيكمُ ... ولا تركبوا تلك التى تملأُ الفما
فلو كان حياً لم يَضِقْ بثوابه ... ذراعاً غنيًّا كان أوْ كان مُعدِما
ففكوا دريداً من إسار مُخارقٍ ... ولا تجعلوا البؤسَى إلى الشر سُلَّما

فلما أصبحوا أطلقوه فكسته وجهزته ولحق بقومه ، فلم يزل كافًّا عن غزو بنى فراس حتى هلك . ومنهم :

زيد الفوارس

وهو ابن حصين بن ضرار الضبي وهو جاهلى وذكره الآمدى فى (المؤتلف والمختلف) ولم يرفع نسبه ولا ذكر له شيئاً من شعره . وهذه نسبته من جمهرة ابن الكلبي : زيد الفوارس بن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب ابن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . كان من أشهر الفرسان وطالت رياسته ،

وشهد يوم القرنتين ومعه ثمانية عشر من ولده يقاتلون معه وزيد الفوارس كان فارسهم ، ولهذا قيل له زيد الفوارس وهو القائل :

دلهتِ إن لم تسألى أىّ امرىء ... بلوى النقيعة إذ رجالك غُيَّبُ (١)

إذ جاء يوم ضوؤه كظلامه ... بادى الكواكب مقمطرٌ أشهب (٢)

عوذ وبُهثَةُ حاشدون عليهمُ ... حَلَق الحديد مضاعفاً يتلهّبُ

ولّوْا تكبهم الرماح كأنهم ... أثل جافتَ أصوله أو أثأب (٣)

لو غدوة حتى أغاث شريدهم ... جو العشاوة فالعيون فزُنقبُ

فتركت زراً فى الغبار كأنه ... بشقيقتى قدمية متلبب (٤)

قال أبو محمد الأعرابى كان سبب هذه الأبيات إنه أغار زر بن ثعلبة أحد بنى عوذ بن غالب بن قطيعة بن عَبْس فى بنى عبس وعبد الله بن غطفان فأصابوا نعماً لبنى بكر بن سعد بن ضبة فطردوها ، فأتاهم الصريخ ورئيسهم يومئذ زيد الفوارس حتى أدركوهم بالنقيعة تحت الليل فقتلوا زراً والجند بن تيجان من بنى مخزوم وابن أزنم من بنى عبد الله بن غطفان . فقال زيد الفوارس هذه الأبيات فى ذلك ومنهم :

أمية بن حرثان الكنانى

وينتهى نسبه إلى مضر وكان من سادات قومه وفرسانهم وله أيام مأثورة مذكورة وابنه كلاب بن أمية أدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأسلم مع أبيه ثم هاجر إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وروى صاحب الأغانى بسنده إلى الزهرى عن عروة بن الزبير قال :—

---

(١) دلهه العشق والهم : حيره وأدهشه ودلهت المرأة على ولدها تدليها اذا فقدته (٢) المقمطر الشديد العبوسة (٣) الاثل : شجر وهو نوع من الطرفاء ، الاثاب : شجر ينبت فى بطون الاودية بالبادية وهو على ضرب التين ينبت ناعما كأنه على شاطىء نهر وهو بعيد من الماء . وجأف الشجرة : قلعها من أصلها (٤) القدمية محركة ضرب من الادم ، والمتلبب المتحزم بالسلاح وغيره وكل مجمع لثيابه متلبب .

هاجر كلاب بن أمية بن الأسكر إلى المدينة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأقام بها مدة ثم لقى ذات يوم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فسألهما أى الأعمال أفضل فى الإسلام ؟ فقال الجهاد فسأل عمر فأغزاه فى جيش وكان أبوه قد كبر وضعف فلما طالت غيبة كلاب عنه قال :

لِمَن شيخان قد نشدا كلابا ... كتاب الله لو قبل الكتابا
أناديه فيعرض فى إباء ... فلا وأبى كلاب ما أصابا
إذا سجعت حمامة بطن وجّ ... إلى بيضاتها دَعوا كلابا[1]
أتاه مهاجرانِ تكنّفاه ... ففارق شيخه خطأً وخابا
تركت أباك مرعشةً يداه ... وأمك لا تسيغ لها شرابا[2]
تمسح مُهره شفقاً عليه ... وتجنبه أباعرها الصعابا[3]
فإنك وابتغاء الأجر بعدى ... كباغى الماء يتّبع السَرابا[4]

فبلغت عمر رضى الله تعالى عنه فلم يردد كلاباً فاهتز أمية وخلط جزعاً عليه ثم أتاه يوماً وهو فى مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار فوقف عليه وأنشأ يقول : —

أعاذلَ قد عذلتِ بغير علمٍ ... وما تدرينَ عاذلَ ما ألاقى
فإما كنتِ عاذلتى فردى ... كلاباً إذ توجه للعراق
ولم أقضِ اللبانةَ من كلابٍ ... غداةَ غدٍ وآذنَ بالفراق[5]
فتى الفتيان فى عسر ويسر ... شديد الركنِ فى يوم التلاقى
فلا وأبيكَ ما باليت وجدى ... ولا شغفى عليك ولا اشتياقى

---

(١) سجعت الحمامة سجعا : هدرت وصوتت ، ووج اسم واد بالطائف .
(٢) قوله لا تسيغ يقال ساغ الشراب يسوغ سوغا سهل مدخله واسغته اساغة جعلته سائغا ويتعدى بنفسه فى لغة وقوله تعالى ولا يكاد يسيغه أى يتبلعه ، وقوله فى البيت المتقدم (تكنفاه) أى أحاطا به (٣) المهر : ولد الخيل ، والاباعر : الصعاب التى تركت ولم تركب (٤) السراب ما تراه نصف النهار كانه ماء وفى التنزيل (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا) (٥) اللبانة بالضم : الحاجة ، وآذنه الامر وبه اعلمه .

وإبقائى عليك إذا شتونا ... وضمك تحت نحرى واعتناقى

فلو فلق الفؤاد شديدُ وجد ... لهمَّ سواد قلبى بانفلاق

سأستعدى على الفاروق ربًّا ... له رفع الحجيج إلى بُساق[1]

وأدعو الله مجتهداً عليه ... ببطن الأخشبَيْن إلى دُفاق[2]

إنِ الفاروقُ لم يردد كلاباً ... إلى شيخين هامهما زواقى[3]

قال فبكى عمر بكاءً شديداً وكتب إلى سعد بن أبى وقاص بالكوفة يأمره بإقفال كلاب بن أمية إلى المدينة فلما دخل عليه قال له : ما بلغ من برّك بأبيك قال : كنت أكفيه أمره وكنت أعتمد إذا أردت أن أحلب لبناً أغزرَ ناقة فى إبله وأسمنها فأريحها فأتركها حتى تستقر ثم أغسل أخلافها[4] حتى تبرد ثم أحلب له فأسقيه . فبعث عمر إلى أمية فجاء يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى فقال له : وكيف أنت يا أبا كلاب ؟ فقال : كما ترى يا أمير المؤمنين . قال : فهل لك من حاجة ؟ قال نعم ، أشتهى أن أرى كلاباً فأشمه شمةً وأضمه ضمة قبل أن أموت فبكى عمر وقال : ستبلغ فى هذا ما تحب إن شاء الله ثم أمر كلاباً أن يحتلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث إليه بلبنها ففعل فناوله عمر الإناء قال : دونك هذا يا أبا كلاب فلما أخذه وأدناه إلى فمه قال لعمر : الله ! يا أمير المؤمنين ! إنى لأشم رائحة يَدىْ كلاب من هذا الإناء فبكى عمر ، وقال له : هذا كلاب عندك

---

(١) بساق بالضم ويقال بصاق بالصاد : جبل بعرفات وقيل واد بين المدينة والجار (٢) الاخشبان : جبلا مكة أبو قبيس والاحمر وجبلا منى . ودفاق : واد (٣) الهام جمع هامة وهى الرأس والهامة الصدى والبومة وكانت العرب تقول أن عظام الموتى وقيل أرواحهم تصير هامة أى بومة فتطير فنفاه الاسلام ونهاهم عنه (التاج) وقال المسعودى : من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط فى الجسم فاذا مات الانسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشا يصدح على قبره ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم وهو أبدا مستوحش ويوجد فى الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور وانها لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره انتهى ، والزواقى جمع زاق من زقا يزقى زقيا اذا صاح وكل صائح زاق ومنه قيل للديكة الزواقى (٤) جمع خلف وهو من ذوات الخف كالثدى للانسان وقيل الخلف طرف الضرع .

حاضر قد جئناك به فوثب اليه ابنه فضمه اليه وقبله وجعل عمر يبكى ومن حضره وقال لـكلاب : الزم أبويك ما بقيا ثم شأنك بنفسك بعدهما وأمر له بعطائه وصرفه إلى أبيه فلم يزل معه مقيماً حتى مات أبواه . وأمية الـكنانى هو القائل :

ألا سائِلْ هوازنَ يوم لاقوا   فوارسَ من كنانة معلمينا(١)

لدى شربٍ وقد جاشوا وجشنا   فأَوْعَبَ فى النفير بنو أبينا(٢)

ومنهم :

عمرو بن كلثوم

وهو صاحب المعلقة الشهيرة و ينتهى نسبه إلى تغلب بن وائل قال أبو عبيد البـكرى فى شرح نوادر القالى : عمرو بن كلثوم شاعر فارس جاهلى وهو أحد فتّاكِ العرب وهو الذى فتك بعمرو بن هند الملك . وكنيته أبو الأسود وأخوه مرة هو الذى قتل المنذر بن النعمان وأمه أسماء بنت مهلهل بن ربيعة ولما تزوج مهلهلٌ هنداً بنت عتيبة ولدت له جارية فقال لأمها : اقتليها وغيبيها ، فلما نامَ هتف به هاتِفٌ يقول * كم من فتى مؤمّل * وسيدٍ شمرذل(٣) * وعددٍ لا يجهل * فى بطن بنت مهلهل * فاستيقظ فقال : أين بنتى ؟ فقالت : قتلتها . فقال : لا وإلٰه ربيعة وكان أول من حلف بهـا ثم رباها وسماها « أسماء » وقيل « ليلى » وتزوجها كلثوم بن مالك . فلمـا حملت بعمرو أتاها آتٍ فى المنام فقال : * ياللك ليلى من من ولد * يقدم إقدام الأسد * من جشم فيه العدد * أقول قولا لا نفد . فلمـا ولدت عمراً أتاها ذلك الآتى فقال :

أنا زعيم لك أم عمرو   بمـاجدِ الجـد كريم النحر

---

(١) قوله معلمينا من أعلم نفسه اذا وسمها بسيما الحرب (٢) قوله جاشوا أى فزعـوا ، واوعب بنو فـلان . جاءوا أجمعين وجاءوا موعبين اذا جمعوا ما استطاعوا من جمع ، وانطلق القوم فأوعبوا اى لم يدعوا منهم احدا، ونفروا الى الشيء اسرعوا اليه ويقال القوم النافرين لحرب أو لغيرها نفير تسمية بالمصدر كما فى المصباح (٣) لغة فى الشمرذل وهو الفتى السريع من الابل وغيرها الحسن الخلق .

أَشجع من ذى لبد هِزَبْرٍ وقّاص أقرانٍ شديد الأَسر (١)
يسودهم فى خمسة وعشر

وكان كما قال سادهم وهو ابن خمس عشرة سنة ومات وهو ابن مائة وخمسين سنة . وقال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : عمرو بن كلثوم جاهلى قديم وهو قاتل عمرو بن هند الملك وكان سبب ذلك أن عمرو بن هند قال ذات يوم : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمى ؟ قالوا : لانعلمها الا ليلى أم عمرو بن كلثوم . قال : ولِمَ ذلك ؟ قالوا : لأن أباها مهلهلُ بن رَبيعة ، وعمّها كليبُ وائل أعزُّ العرب وبعلها كلثوم بن مالك فارس العرب وابنها عمرو بن كلثوم سيد من هو منه فأرسل عمرو بن هند الى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يُزِير أمه فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب وأقبلت ليلى فى ظعن من بنى تغلب وأم عمرو بن هند برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل عمرو بن كلثوم رواقه ودخلت ليلى بنت مهلهل على هند قبتها ، وهند أم عمرو بن هند عمة امرئ القيس الشاعر ، وليلى بنت مهلهل هى بنت أخى فاطمة بنت ربيعة أم امرئ القيس ، فدعا عمرو بن هند بمائدة فنصبها ثم دعا بالطرف فقالت هند : ياليلى ناولينى ذلك الطَبَق ! فقالت : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ! فأعادت عليها فلما ألحت صاحت ليلى واذُلاَّه يالتغلب ! ! فسمعها ابنها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه فقام الى سيف لعمرو بن هند معلقٍ بالرواق وليس هناك سيف غيره فضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله ! ونادى فى بنى تغلب فانتهبوا جميع مافى الرواق واستاقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة ! وابنه عتاب بن عمرو بن كلثوم قاتل بشر بن عمرو بن عدس ، وأخوه مرة بن كلثوم قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر ولذلك قال الأخطل :

---

(١) ذولبد : كنية الاسد ، والهزبر : الاسد » ووقص عنقه : كسره ؛ والأسر : شدة الخلق .

أبنى كليبٍ إن عَمَّىَّ اللـذا   قتلا الملوكَ وفكـكا الأغلال (١)

ومنهم :

الشنفرى الحارثى القحطانى

وكان من الفرسان المذكورين والشعراء المفلقين وهو كما فى الجمهرة وغيرها من بنى الحرث بن ربيعة بن الأواس بن الحَجْر بن الهُنْء بن الأزد ، وهو بفتح الشين وآخره ألف مقصورة هو اسمـه الأواس بفتح الهمزة والحجر بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم والهنء بتثليث الهاء وسكون النون و بعدها همزة . وزعم بعضهم أن الشنفرى لقبه ومعناه عظيم الشفة وأن اسمـه ثابت بن جابر ، وهذا غلط كما غلط العينى فى زعمه أن اسمه (عمرو بن بَرّاق) بفتح الباء وتشـديد الراء المهملة بل هما صاحباه فى التلصص . وكان الثلاثة أعدى العـدائين فى العرب لم تلحقهم الخيل ، ولـكن جرى المثل فى الشنفرى فقيل « أعدى من الشنفرى » ومن حديثه ما ذكره أبو عمرو الشيبانى كما نقله ابن الأنبارى فى شرح المفضليات وحمزة الأصبهانى فى الدرة الفاخرة ، قال : أغار تأبط شراً وهو ثابت بن جابر ، والشنفرى الأزدى ، وعمرو بن براق على بجيلة بفتح الباء وكسر الجيم فوجدوا بجيلة قد أقعدوا لهم الماء رصداً فلما مالوا له فى جَوْفِ الليل قال لهم تأبط شراً : إن بالماء رصداً و إنى لأسمع وجيبَ قلوبِ القوم أى اضطراب قلوبهم قالوا : والله ما نسمع شيئاً ولا هو إلا قلبك يَجِبُ فوضع يده على قلبه فقال : والله ما يَجِبُ وما كان وجّاباً . قالوا : فلا والله ما لنا بدٌّ من ورود الماء فخرج الشنفرى . فلما رآه الرصد عرفوه فتركوه فشرب ثم رجع إلى أصحابه فقال والله ما بالمـاء أحد ولقد

---

(١) البيت من قصيدة له يفتخر فيها بقومه ويهجو جريرا وعنى بعميـه عمرا ومرة ابنى كلثوم وقيل عنى بهما ابن هبيرة التغلبى والهذيل بن عمران الاصغر وقيل غير ذلك وبنو كليب قوم جرير ، والاغلال : القيود واحدها غل ، ومن نسب البيت الى الفرزدق فقد أخطأت استـه الحفرة لان رواة الاخبار اتفقوا على أن عميه اللذين افتخـر بهما وقال انهما « قتـلا الملوك وفككا الاغلال » على الاختلاف فيهما هما من بنى تغلب وتغلب قوم الاخطل لاقوم الفرزدق .

شربت من الحوض فقال تأبط شراً : بلى لا يريدونك ولكن يريدوننى ثم ذهب ابن براق فشرب ثم رجع فلم يعرضوا له ، فقال : ليس بالماء أحد . فقال تأبط شراً : بلى لا يريدونك ولكن يريدوننى . ثم قال للشنفرى : إذا أنا كرعت فى الحوض فإن القوم سيشدون على فيأسروننى فاذهب كأنك تهرب ثم ارجع فَكِنْ[١] فى أصل ذلك القَرْن[٢] فإذا سمعتنى أقول « خذوا خذوا » فتعالَ فأطلقنى . وقال لابن براق : إنى سآمرك أن تستأسر للقوم فلا تبعد منهم ولا تمكنهم من نفسك . ثم أقبل تأبط شراً حتى ورد الماء فلما كرع فى الحوض شدُّوا عليه فأخذوه وكتفوه بوتر وطار الشنفرى فأتى حيث أمره وانحاز ابن براق حيث يرونه . فقال تأبط شراً يا بجيلة هل لكم فى خير هل لكم أن تياسروا لنا فى الفداء ويستأسر لكم ابن براق ؟ فقالوا : نعم ويلك يا ابن براق إن الشنفرى قد طار فهو يصطلى نار بنى فلان وقد علمت الذى بيننا وبين أهلك فهل لك أن تستأسر ويياسروننا فى الفداء ؟ فقال : أما والله حتى أروزَ[٣] نفسى شوطاً أو شوطين ، فجعل يعدو فى قُبل[٤] الجبل ثم يرجع ، حتى إذا رأوا أنه قد أعيا وطمعوا فيه اتبعوه . ونادى تأبط شراً « خذوا خذوا » فذهبوا يسعون فى أثره فجعل يطمعهم ويبعد عنهم ورجع الشنفرى إلى تأبط شراً فقطع وثاقه فلما رآه ابن براق قد قطع عنه انطلق وكروا إلى تأبط شراً فإذا هو قائم فقال : أعجبكم يا معشر بجيلة عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدونّ لكم عَدْوًا أنسيكموه ثم انطلق هو والشنفرى . انتهى .

« ومن المشهورين » فى العدو السُّلَيْك بن السلكة وهو تميمى من بنى سعد والسليك بالتصغير فرخ الحجلة[٥] والأنثى سُلَكة بضم السين وفتح اللام وهى

---

(١) قوله كن أى استتر (٢) الاصل اسفل الشيء والقرن : الجبل الصغير أو قطعة تنفرد من الجبل (٣) أى اجرب ، ومن سجعات الاساس « كم رزته روزا ، فلم أر عنده فوزا (٤) القبل من الجبل سفحه (٥) قال فى المصباح الحجل : طير معروف الواحدة حجلة وزان قصب وقصبة وجمعت الواحدة أيضا على حجلى ولا يوجد جمع على فعلى بكسر الفاء الاحجلى وظربى انتهى، ويعرف الآن (بالككلك) بضم فسكون فضم وهى شائعة فى لسان البغداديين واظنها فارسية والله أعلم .

اسم أمه وكانت سوداء وإليها نسب . وذكر أبو عبيدة السليك فى العدائين مع المنتشر بن وهب الباهلى وأوفى بن مطر المازنى . والمثل للسليك من بينهم فقيل « أعدى من السليك » ومن حديثه فيما ذكره أبو عبيدة كما نقله حمزة الأصبهانى فى الدرة الفاخرة : أن السليك رأته طلائع [١] الجيش من بكر بن وائل جاءوا متجردين ليغيروا على بنى تميم ولا يعلم بهم فقالوا : إنْ علم بنا السليك أنذر قومه فبعثوا إليه فارسين على جوادين فلما هايجاه خرج يعدو كأنه ظبيٌ فطارداه يوماً أجمع ، ثم قالا : إذا كان الليل أعيا فيسقط فنأخذه فلما أصبحا وجدا أثره قد عثر بأصل شجرة وقد وثب وانحطمت قوسه فوجدا قطعة منها قد ارتزّت [٢] بالأرض ، فقالا : لعل هذا كان من أول الليل ، ثم فتر فتبعاه فإذا أثره متفاجاً قد بال فى الأرض وخدّها [٣] : فقالا : ما له قاتله الله ! ما أشد متنَهُ ! [٤] والله لا نتبعه ! فانصرفا . ووصل السليك إلى قومه فأنذرهم فكذبوه لبعد الغاية وجاء الجيش فأغاروا عليهم .

رجعنا إلى حديث الشنفرى ، روى الأصبهانى فى الأغانى وابن الأنبارى فى شرح المفضليات أن الشنفرى أسرته بنو شَبابة وهم حى من فهم بن عمرو ابن قيس عيلان وهو غلام صغير فلم يزل حتى أسرت بنو سَلامان بن مفرج « بسكون الفاء وآخره جيم » رجلاً من فهم ، ثم أحد بنى شَبابة ففدته بنو شبابة بالشنفرى فكان الشنفرى فى بنى سلامان يظن أنه أحدهم حتى نازعته ابنة الرجل الذى كان فى حجره وقد كان اتخذه ابناً فقال لها : اغسلى رأسى يا أخية فأنكرت أن يكون أخاها فلطمته فذهب مغاضباً إلى الذى هو فى حجره فقال له : أخبرنى من أنا ؟ فقال له : أنت من الأوس بن الحجر . فقال : أما أنى سأقتل منكم مائة رجلٍ بما استعبدتمونى . ثم إن الشنفرى لزم دار فهم وكان

---

(١) جمع طليعة وهى القوم يبعثون امام الجيش يتعرفون طلع العدو بالكسر اى خبره (٢) اى ثبتت (٣) اى حفرها حفرا مستطيلا (٤) اى ظهره

يغير على بني سلامان على رجليه فيمن تبعه من فهم وكان يغير عليهم وحده أكثر وما زال يقتل منهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلاً حتى قعد له في مكان أسيد بن جابر السلاماني بفتح الهمزة وكسر السين ومع أسيد ابن أخيه وحازم البقمي وكان الشنفرى قتل أخا أسيد بن جابر فمر عليهم الشنفرى فأبصر السواد بالليل فرماه . وكان لا يرى سواداً إلا رماه ، فشك(١) ذراع ابن أخي أسيد إلى عضده فلم يتكلم وكان حازم منبطحاً يرصده فقطع الشنفرى بضربة أصبعين من أصابع حازم حتى لحقه أسيد وابن أخيه فأخذوا سلاح الشنفرى وأسروه وأدوه إلى أهلهم . وقالوا له : أنشدنا . فقال : « إنما النشيد على المسرة » فذهبت مثلاً . ثم ضربوا يده فقطعوها ثم قالوا له حين أرادوا قتله : أين نقبرك ؟ فقال :

لا تقبروني إن قبري محرَّمٌ عليكم ولكن أبشري أمّ عامرِ(٢)
إذا احتملت رأسي وفي الرأس أكثري وغُودِر عند الملتقى ثَمّ سائري(٣)
هنالك لا أرجو حياة تسرني سجيسَ الليالي مبسلاً بالجرائرِ(٤)

وكانت حلفة الشنفرى على مائة قتيل من بني سلامان فبقي عليه منهم رجل إلى أن قتل فمر رجل من بني سلامان بجمجمته فضربها برجله فعقرته فتم به عدد المائة وذرع خطو الشنفرى يوم قتل فوجد أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوةً ، والثانية سبع عشرة خطوة ، والثالثة خمس عشرة خطوة . وكان حرام ابن جابر أخو أسيد بن جابر المذكور قتل أبا الشنفرى . ولما قدم مِنىً وبها حرام ابن جابر قيل للشنفرى هذا قاتل أبيك فشد عليه فقتله ثم سبق الناس على رجليه وقال : —

---

(١) أي طعن (٢) أم عامر كنية الضبع يقول : لا تدفنوني فانه محرم عليكم دفني بل اتركوني ياكلني الضبع (٣) اذا ظرف لقوله ابشري وثم ظرف أيضا بدل من (عند الملتقى) ، والسائر بمعنى الباقي (٤) سجيس الليالي امتدادها ، قال ابن فارس في كتابه الاتباع والمزاوجة : ولا أفعله سجيس عجيس [illegible] بدون الدهر انتهى ، وقال الاصمعي : لا آتيك سجيس عجيس أي الدهر وسجيسه آخره ومنه قيل الماء الكدر سجيس لانه آخر ما يبقى والعجيس تأكيد وهو في معنى الآخر وروى أبو عمرو سديس عجيس وهو كما قيل للدهر الازلم الجذع ؛ المبسل والجرائر : الجرائم .

قتلتُ (حراماً) مهدياً بملبدٍ　　ببطن منًى وسطَ الحجيج المصوِّتِ

فرصد له أسيد بن جابر فأمسكه مع ابن أخيه . وقيل فى سبب قتل الشنفرى غير هذا وهو مسطور فى شرح المفضليات والأغانى . ومنهم :

الحرث بن عباد الربعى

قال أبو رياش فى شرح الحماسة : كان الحرث بن عباد بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين . وكان اعتزل حرب بنى وائل وتنحى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه وحلّ وتر قوسه ونزع سِنانَ رمحه ولم يزل معتزلاً حتى إذا كان فى آخر وقائعهم خرج ابن أخيه بجير بن عمرو بن عباد فى أثر إبل له ندّت[١] يطلبها فعرض له مهلهل فى جماعة يطلبون غرة بكر بن وائل فقال لمهلهل امرؤ القيس بن أبان بن كعب بن زهير بن جشم (وكان من أشراف بنى تغلب . وكان على مقدمتهم زمناً طويلا) : لا تفعل فوالله لئن قتلته ليقتلن منكم كبش لا يسأل عن خاله من هو وإياك أن تحقر البغى فإن عاقبته وخيمة وقد اعتزلنا عمه وأبوه وأهل بيته وقومه فأبى مهلهل إلا قتله فطعنه بالرمح وقتله وقال : بُؤْ بِشِسْع[٢] نعل كليب (يقال أبأت فلانا بفلان فباء به إذا قتله به ولا يكاد يستعمل هذا إلا والثانى كفء للأول) فبلغ فعل مهلهل عم بجير وكان من أحلم أهل زمانه وأشدهم بأساً . فقال الحرث نعم القتيلُ قتيل أصلح بين ابنَىْ وائلٍ . فقيل له : إنما قتله بشسع نعل كليب فلم يقبل ذلك . وأرسل الحرث إلى مهلهل : إن كنت قتلت بجيراً بكليب وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسى بذلك فأرسل إليه مهلهل : إنما قتلته بشسع نعل كليب فغضب الحرث ودعا بفرسه وكانت تسمى (النعامة) فجزّ ناصيتها وهلَبَ[٣] ذَنَبَها وهو أول من فعل ذلك بالخيل وقال : —

---

(١) ند البعير : نفر وذهب على وجهه شاردا　(٢) قبال النعل .

(٣) هلب ذنب الفرس : جزه .

قَرِّبا مربطَ (النعامة) منى لَقِحَتْ حربُ وائلٍ عن حِيال
لا بجيرٌ أغنى قتيلا ولا ره طُ كليب تزاجروا عن ضلالِ
لم أكُنْ من جُناتها عَلِمَ اللّـ ـهُ وإنى لجرها اليومَ صالى
قرِّبا مربط (النعامة) منى إنَّ قتلَ الغلامِ بالشِسْع غالى

ولقحت حملت والحيال أن يضرب الفحل الناقة فلا تَحمل وهذا مثل ضربه لأن الناقة إذا حالت وضربها الفحل كان أسرع للقاحها وإنما يعظم أمر الحرب لما تولد منها من الأمور التى لم تسكن تحتسب) ثم ارتحل الحرث مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل وعليهم يومئذ الحرث بن همام بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة فقال الحرث بن عباد له : إن القوم مستقلّون قومك وذلك زادهم جرآءة عليكم فقاتلهم بالنساء ! قال له الحرث بن همام : وكيف قتال النساء ؟ قال : قلد كلّ امرأة إداوَةً من ماء وأَعْطها هراوةً واجعل جمعهن من ورائكم فإن ذلكم يزيدكم اجتهاداً وعلموا بعلامات يعرفنها فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته وإذا مرّت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه فأطاعوه . وحلقت بنو بكر يومئذ رؤسها استبسالا للموت وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم واقتتل الفرسان قتالا شديداً وانهزمت بنو تغلب ولحقت بالظعن بقية يومها وليلتها واتبعهم سرعان[1] بكر بن وائل وتخلف الحرث بن عبادة . فقال لسعد بن مالك القائل :

يا بؤسَ للحربِ التى وضعت أراهِطَ فاستراحوا[2]

أتراني ممن وضعته ؟ قال : لا ، ولكن لا محبأ لعطر بعد عروس . ومعناه إنه لم تنصر قومك الآن فلمن تدخر نصرك . ومنهم :

---

(١) سرعان الناس محركة : أوائلهم ويسكن (٢) قوله يابؤس الحرب ، اللام فيه لتأكيد الاضافة أى يابؤس الحرب ووضعت تركت ، والاراهط : جمع رهط : الجماعة من الناس والمعنى أسفا على داهية الحرب التى تركها أراهط فاستراحوا من شدائدها المورثة للشدائد التى بها نيل المكارم وهذا البيت مطلع قصيدة سعد بن مالك بن ثعلبة جد طرفة بن العبد ، وهى قوله بعد البيت :

سعد بن مالك

وجدّه ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل
قال الآمدى فى المؤتلف والمختلف : كان سعد هذا أحد ساداتِ بكر بن وائل وفرسانها
فى الجاهلية وكان شاعراً وله أشعار جياد فى كتاب بنى قيس بن ثعلبة . قال : وشاعر
آخر اسمه سعد بن مالك بن الأقيصر القريعىّ أحد بنى قريع بن سَلامان بن مفرج.
وكان فارساً شاعراً . ومنهم :

مهلهل بن ربيعة التغلبي

قال الآمدى اسمه امرؤ القيس بن ربيعة بن الحرث بن زهير بن جشم
ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غانم بن تغلب وهو الشاعر المشهور ويقال اسمه
عدىّ انتهى . وقال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : مهلهل بن ربيعة هو عدى بن
ربيعة وسمى مُهلهلاً لأنه هلهل الشعر أى أرقّه ، ويقال إنه أول من قصد القصيد ،
قال الفرزدق : « ومهلهل الشعراء ذاك الأول » وهو خال امرىء القيس

والحرب لا يبقى لجـاحمها التخيل والمراح
الا الفتى الصبار فى النـجدات والفرس الوقاح
والنثرة الحصداء والبيض المكلل والرماح
وتساقط الاوشاظ والذنبات اذ جهد الفضاح
والكر بعد الفر اذ كره التقدم والنطاح
كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح
فالهم بيضات الخدو د هناك لا النعم المراح
بئس الخلائف بعدنا أولاد يشكرو اللقاح
من صد عن نيرانها فانا ابن قيس لا براح
صبرا بنى قيس لها حتى تريحوا أو تراحوا
ان الموائل خوفها يعتاقه الاجل المتاح
هيهات حال الموت دو ن الفوت وانتضى السلاح
كيف الحياة اذا خلت منا الظواهر والبطاح
اين الاعزة والاسنة عند ذلك والسماح

ابن حجر صاحب المعلقة انتهى . والصحيح هذا و يدل له أنه ذكر اسمه فى شعره فقال :

ضربَتْ صدرَها إلىّ وقالت يا عدىُّ لقد وَقَتْكَ الأواقى[1]

ولم يقل أحد قبله عشرة أبيات وقال الغزل وعُنِيَ بالنسيب فى شعره و يقال سمى مهلهلا بقوله : « هلهلت أثأرُ مالـكا أو صنبلا[2] » قال ابن سلام : زعمت العرب أنه كان يتكثر و يدعى فى قوله بأكثر من فعله . وكان شعراء الجاهلية فى ربيعة أولهم المهلهل والمرقشان وسعيد بن مالك . والمهلهل أخو كليب الذى هاج بمقتله حرب البسوس وهى حرب بكر وتغلب ابنى وائل . وكان من خبرها ما حكاه ابن عبد ربه فى العقد الفريد والأصبهانى فى الأغانى وقد تداخل كلام كل منهما فى كلام الآخر ؛ قال أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب : لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب وهم عامر وربيعة وكليب وهو عامر ابن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحرث وهو قائد معد يوم البيداء حين تمذحجت مَذْحِج وسارت إلى تهامة وهى أول وقيعة كانت من تهامة واليمن . والثانى ربيعة بن الحرث بن مرة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن كعب وهو قائد معد يوم الميلان وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن . والثالث كليب بن ربيعة وهو الذى يقال فيه (أعز من كليب وائل) وقاد معداً كلها ففض جموع اليمن وهزمهم فاجتمعت عليه معد كلها وجعلوا له قَسْم المَلِك وتاجه

---

(١) وقتك : حفظتك ، والأواقى جمع واقية وهى مايقى الانسان ويحفظه من الاقدار السابقة أى لقد نجتك المقادير وحفظتك من القتل والمعنى ضربت هذه المرأة صدرها اشفاقا على من القتل كذا قال ابن سيده ، قال الفهرى: والصحيح ماقاله غيره من انها ضربت صدرها متعجبة من كيده وقوته وهو من فعل النساء وكان مهلهل قد أسر فى تلك الحروب فنكر أمره ولم يعلم بمكانه واخذ منهم ذمة وعهدا على أن لايقتلوه فلما رأته هذه وعلمت ماأخذ لنفسه من الذمة ضربت صدرها اليه متعجبة من كيده وفوزه ونجاته وقالت لقد وقتك الا واقى أى لقد نجاك الله من أمور عظام أشرفتك على الموت

(٢) اوله : « لما توغل فى الكراع هجينهم » ، هذه رواية القاموس ويقال ان الذى فى شعره توعر ، قوله مالكا صوب بعضهم رواية جابر بدل مالك ، والكراع : انف الحرة

وتحيته وطاعته فغبر بذلك حيناً من دهره ثم دخله زَهْوٌ شديد و بغى على قومه ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه وكان يحمى من المرعى مدى صوت كلب فيختص به و يشاركهم فى غيره و يجير على الدهر فلا تخفر ذمته[١] ويقول وحش أرض كذا فى جوارى فلا يهاج ولا يورد مع إبله أحد ولا توقد نار مع ناره حتى قالت العرب (أعز من كليب وائل). وكانت بنو جشم و بنو شيبان فى دار واحدة بتهامة وكان كليب قد تزوج بنت مرة بن ذهل ابن شيبان وأخوها جساس بن مرة وكانت لجساس خالة تسمى البسوس بنت منقذ التميمية جاورت ابن أختها جساساً وكان لها ناقة يقال لها (سراب) ولها تقول العرب (أشأم من سراب) وأشأم من البسوس . فمر إبل كليب بسراب وهى معقولة بفناء البسوس فلما رأت سراب الإبل خاخات عقالها وتبعت إبل كليب فاختلطت بها حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض ومعه قوس وكنانة ولما رآها أنكرها فرماها بسهم فى ضرعها فنفرت سراب وولت حتى بركت بفناء صاحبتها وضرعها يشخب[٢] دماً ولبناً فبرزت البسوس صارخة يدها على رأسها تصيح واذلّاه ! وأنشأت تقول :

لعمرىَ لو أصبحت فى دار منقذٍ   لما ضِيمَ سعدٌ وهو جار لأبياتى
ولكننى أصبحت فى دار غربةٍ   متى يَعْدُ فيها الذئب يَعْدُ على شاتى
فيا سعدُ لا تغرر بنفسك وارتحل   فإنك فى قوم عن الجارِ أمواتِ

فلما سمع جساس صوتها سكنها وقال : والله ليقتلن غداً جمل عظيم أعظم عقراً من ناقتك فبلغ كليباً فظن أنه أراد قتل عُلَيَّان وهو فحل كريم له فقال :

---

(١) يقال خفر بالعهد يخفر من باب ضرب اذا وفى به وخفرت الرجل حميته واجرته من طالبه ، وخفرت بالرجل أخفر من باب ضرب غدرت به ، واخفرته بالالف نقضت عهده

(٢) أى يجرى ويسيل

« هيهات دون عليّان خرط القتاد »[١] ثم انتجع الحى[٢] فمروا على نهر يقال له (شبيث) فنهاهم كليب عنه ثم على آخر يقال له (الأحص) فنهاهم عنه حتى نزلوا على السائب فمر جساس بكليب وهو على غدير الذنائب منفرداً فقال : طردت إبلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشاً . فقال كليب : ما منعناهم من ماء إلا ونحن له شاغلون . فقال له جساس : هذا كفعلك بناقة خالتى . قال : أوقد ذكرتها لو وجدتها فى غير إبل مرة لاستحللت تلك الإبل فعطف عليه جساس فطعنه فأزراه ووجد الموت . فقال : ياجساس اسقنى فقال « هيهات تجاوزت شبيثاً والأحص[٣] » وروى أن البسوس لما صرخت وأحمت جساساً ركب فرساً له وتبعه عمرو بن الحرث بن ذهل بن شيبان ومعه رمحه حتى دخلا على كليب الحمى فضرب به جساس فقصم صلبه وطعنه عمرو بن الحرث من خلفه فقطع قطَنَه[٤] فوقع كليب يفحص برجله فلما فرغ من قتله جاء إلى أهله وأخبرهم بأنه قتل كليباً ثم هرب وكان همام بن مرة أخا جساس وكان ينادم المهلهل أخا كليب وكان قد صادقه وآخاه وعاهده أن لا يكتم عنه شيئاً فجاءت أمة إليه فأسرت إليه قتل جساس كليباً فقال له مهلهل ما قالت لك ؟ فلم يخبره فذكره العهد فقال : أخبرت أن أخى قتل أخاك فقال أست أخيك أضيق من ذلك فسكت وأقبلا على شرابهما فجعل مهلهل يشرب شرب الآمن وهمام يشرب شرب الخائف فلم تلبث الخمر أن صرعت مهلهلا فانسل همام فأتى قومه بنى شيبان وقد قوّضوا الخيام وجمعوا الخيل والنعم ورحلوا حتى نزلوا بماء يقال له النِهِىّ ولما ظهر قتل كليب وأفاق

---

(١) من أمثال العرب فى الامر دونه مانع قولهم من دون ذلك خرط القتاد لأن شوك القتاد مانع من خرط ورقة وشوك القتاد مضروب به المثل فى الخشونة والشدة كما قال أبو تمام :

بنا خبر كأن القلب أمسى   يجر به على شوك القتاد

(٢) انتجع : طلب الكلأ فى موضعه (٣) شبيث، الاحص : موضع هناك ، وقدمر الجريب فى موضع يقال له دارة شبيث ، الاحص : موضوع هناك ، وقد مر ذكرهما فى الجزء الأول ومعناه ليس حين طلب الماء ، يضرب لمن يطلب شيئا فى غير وقته (٤) بالتحريك وهو مابين الوركين

مهلهل اجتمعت إليه وجوه قومه فاستعد لحرب بكر وترك النساء والغزَل وحرم القمار والشراب وأرسل إلى بنى شيبان وهو فى نادى قومه فقالت الرسل : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليباً بنابٍ[1] من الإبل فقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم ونحن نعرض عليكم أحد خلالٍ أربع لكم فيها مخرج ولنا مقنع . فقال مرة : ما هى ؟ قالوا : تحيي لنا كليباً أو تدفع إلينا جساساً قاتله نقتله به أو هماماً فإنه كفء له أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء من دمه . فقال : أما إحيائى كليباً فهذا ما لا يكون . وأما جساس فإنه غلام طعَن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أىّ البلاد احتوت عليه . وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومه فلن يسلموه إلىّ فأدفعَهَ إليكم ليقتل بجريرة غيره . وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكونَ أولَ قتيلٍ فيها فما أتعجل من الموت ولكن لكم عندى إحدى خصلتين ؛ أما إحداهما فهؤلاء بنىّ الباقون فعلقوا فى عنق من شئتم نسعة[2] وانطلقوا به إلى رحالكم فاذبحوه ذبح الخرُوف ، وإلا فألف ناقة سوداء المقلة أقوم لكم بها كفيلاً من بكر بن وائل فغضب القوم وقالوا قد أسأت فى الجواب وسمتنا اللبن من دم كليب ووقعت الحرب بينهم ولحقت زوجة كليب بأبيها وقومها ودعت تغلب النمر بن قاسط فانضمت إليها وصاروا يداً معهم على بكر ولحقت بهم عقيلة ن قاسط واعتزلت قبائل بكر ابن وائل وكرهوا مجامعة بنى شيبان ومساعدتهم على قتل إخوتهم وعظموا قتل جساس كليباً بناب من الإبل فظعنت لجيم عنهم وكفت يشكر عن نصرتهم وانقبض الحرث ابن عباد فى أهل بيته وهو أبو بجير وفارس النعامة قال أبو المنذر : أخبرنى خراش أن أول وقعة على ماء كانت بنو شيبان نازلة عليه ورئيس تغلب المهلهل ورئيس شيبان الحرث بن مرة فكانت الدائرة لتغلب وكانت الشوكة فى شيبان واستحر القتل فيهم إلا أنه لم يقتل فى ذلك اليوم أحد من بنى مرة ثم التقوا

---

(١) الناب : الناقة المسنة (٢) بالكسر سير منسوج

بالذنائب وهو أعظم وقعة كانت لهم فظفرت بنو تغلب وقتلت بكر مقتلة عظيمة . وفيها قتل شراحيل بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان وهو جد الحوفزان وهو جد معن بن زائدة ، والحوفزان هو الحرث بن شريك بن عمرو بن قيس ابن شراحيل قتله عتاب بن قيس بن زهير بن جشم وقتل الحرث بن مرة بن ذهل ابن شيبان قتله كعب بن زهير بن جشم وقتل من بنى ذهل بن ثعلبة عمرو بن مندوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة وقتل من بنى تيم الله جميل بن مالك بن تيم الله وعبد الله ابن مالك بن تيم الله وقتل من بنى قيس ابن ثعلبة وكان شيخاً كبيراً فهؤلاء من أصيب من رؤساء بكر يوم الذنائب ثم التقوا بواردات وعلى الناس رؤساؤهم الذين سمينا فظفرت بنو تغلب واستحر القتل فى بنى بكر ، فيومئذ قتل شعثم وعبد شمس ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة وسيار بن حارث بن سيار ، وفيه قتل همام بن مرة أخو جساس فمر به مهلهل مقتولا فقال له : والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز علىّ فقداً منك وقتله ناشرة . وكان همام رباه وكفله كما كان ربى حذيفة بن بدر قرواشاً فقتله يوم الهباءة ثم التقوا بعنيزة فظفرت بنو تغلب ثم كان بينهم معاودة ووقائع كثيرة كل ذلك الدائرة فيها لبنى تغلب على بنى بكر . وقال مهلهل يَصِفُ الأيام وبنعاها على بكر فى قصيدة طويلة أولها : —

أليلتَنا بذى حُسُم أنيرى إذا أنتِ انقضيت فلا تُحورى[1]

---

(١) قال أبو على (ذى حسم) : موضع ، وتحورى : ترجعى ، يقال ماله لاحار الى أهله أى لارجع البهم ويقال نعوذ بالله من الحور بعد الكور أى من النقصان بعد الزيادة والكور مأخوذ من كور العمامة كأنه رجع عما كان أحكمه من الخير وشده ومثل من أمثالهم « حور فى محارة » يضرب مثلا للرجل ينقص بعد الزيادة وقال ابو عبيدة الحور الهلكة ، وهاأنا ذاكر قصيدة المهلهل برمتها لما فيها من الفوائد التاريخية ولرقتها وجزالة تعبيرها وحسن اسلوبها قال بعد البيت المتقدم :

فان يك بالذنائب طال ليلى فقد ابكى من الليل القصير !
وانقذنى بياض الصبح منها لقد أنقذت من شر كبير
كأن كواكب الجوزاء عوذ معطفة على ربع كسير

وقال مهلهل لما أسرف فى القتل

أ كثرت قتلى بنى بكر بربهم   حتى بكيت وما يبكى لهم أحد
آليت بالله لا أرضى بقتلهم   حتى أبهرج بكراً أينما وجدوا

قال أبو حاتم : أبهرج أدعهم بهرجا لا يقتل فيهم قتيل ولا يؤخذ لهم دية ويقال المبهرج من الدراهم من هذا . وقال أيضاً : يالبكر أنشروا لى كليباً .(١)

فأن الجدى فى مثناة ربق   أسير أو بمنزلة الأسير
كان النجم اذ ولى سحيرا   نصال جلن فى يوم مطير
كواكبها زواحف لاغبات   كان سماءها بيدى مدير
كواكب ليلة طالت وغمت   فهذا الصبح راغمة فغورى
وتسألنى بديلة عن أبيها   ولم تعلم بديلة ماضميرى
فلو نبش المقابر عن كليب   فيخبر بالذنائب أى زير
بيوم الشعثمين لقر عينا   وكيف لقاء من تحت القبور
وانى قد تركت بواردات   بجيرا فى دم مثل العبير
ينوء بصدره والرمح فيه   ويخلجه خدب كالبعير
هتكت به بيوت بنى عباد   وبعض القتل اشفى للصدور
وهمام بن مرة قد تركنا   عليه القشعمين من النسور
على ان ليس عدلا من كليب   اذا طرد اليتيم عن الجزور
على ان ليس عدلا من كليب   اذا رجف العضاة من الدبور
على ان ليس عدلا من كليب   اذا ما ضيم جبران المجير
على ان ليس عدلا من كليب   اذا خيف المخوف من الثغور
على ان ليس عدلا من كليب   غداة بلابل الامر الكبير
على ان ليس عدلا من كليب   اذا برزت مخبأة الخدور
على ان ليس عدلا من كليب   اذا علنت نجيات الامور
فدى لبنى الشقيقة يوم جاؤا   كاسد الغاب لجت فى زئير
كأن رماحهم أشطان بئر   بعيد بين جاليها جرور
فلا وأبى جليلة ما قأنا   من النعم المؤبل من بعير
ولكنا نهكنا القوم ضربا   على الاثباج منهم والنحور
قتيل ما قتيل المرء عمرو   وجساس بن مرة ذو ضرير
تركنا الخيل عاكفة عليهم   كأن الخيل تدحض فى غدير
كأنا غدوة وبنى أبينا   بجنب عنيزة رحيا مدير
فلولا الريح أسمع أهل حجر   صليل البيض تفرع بالذكور

(١) تمامه « يالبكر أين أين الفرار » وقوله يالبكر بفتح اللام التى للتعجب أو التهديد وحينئذ لا حذف فى الكلام ويحتمل انها لام الاستغاثة والمستغاث له محذوف تقديره لكليب » وقوله انشروا بفتح الهمزة من أنشر الرباعى وهو عبارة عن احياء الموتى واخراجهم من قبورهم والفرار الهروب

الأبيات وله أشعار كثيرة فى رثاء أخيه كليب . ثم إن المهلهل أسرف فى القتل ولم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر أوقع . وكانت أكثر بكر قعدت عن نصرة بنى شيبان لقتلهم كليباً وكان الحرث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب وقال « لا ناقة لى فى هذا ولا جمل » فذهبت مثلاً فاجتمعت قبائل بكر إليه فقالت : قد فنى قومك فأرسل بجيراً ابن أخيه الى مهلهل وقال له : قل له إنى قد اعتزلت قومى لأنهم ظلموك وخليتك وإياهم وقد ادركت ثارك وقتلت قومك فأتى بجير إليه فقتله مهلهل كما تقدم شرحه . فبعد ذلك نهض الحرث للحرب فقاتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب وكان أول يوم شهده الحارث بن عباد يوم قضة وهو يوم تحلاق اللمم وفيه أسر الحارث بن عباد مهلهلا وهو لا يعرفه واسمه عدى بن ربيعة فقال له : دلنى عل عدى وأخلى عنك فقال له : عليك العهد بذلك إن دللتك عليه . قال : نعم . قال : فأنا عدى فجزّ ناصيته وتركه وقال فيه : —

لهفَ نفسى على عدىٍّ ولم أعـ رف عدياً إذ أمكنتنى اليدان

وفيه قتل عمرو وعامر التغلبيان قتلهما حجر بن ضبيعة . ثم إن مهلهلا فارق قومه ولم يزل مقيما فى أخواله بنى يشكر ضجراً من الحرب وأرسل الحارث بن عمرو بن معاوية الكندى وهو جد امرؤ القيس بن حجر فى الصلح بينهم والتمليك عليهم وقد كانوا قالوا : إن سفهاءنا غلبوا علينا وأكل القوى منا الضعيف فالرأى أن نملك علينا ملكا نعطيه البعير والشاة فيأخذ من القوى ويرد الظالم ولا يكون من بعض قبائلنا فيأباه الآخرون فلا تنقطع الحروب ،فأصلح بينهم وشغلهم بحرب اللخميين من بنى غسان ملوك الشام . وبقى مهلهل وحيداً عند أخواله الى أن مات . قيل : وجد ميتاً بين رجلى جمل هاج عليه وقيل بل مات أسيراً . وذلك أنه لما نزل اليمن نزل فى بنى جَنْب وجنب من مذحج فخطبوا إليه ابنته فقال لهم إنى طريد بينكم فمتى

أنكحتكم قالوا اقتسروه فأجبروه على تزويجها وساقوا إليه فى صداقها أدماً فقال :

أنكحها فقدها الأراقم فى جنبٍ وكان الحباء من أدم

من أبيات ثم انحدر فلقيه عوف بن مالك أبو أسماء صاحبة المرقش الأكبر فأسره فمات فى أسره : قال السكرى فى أشعار تغلب : أسر مهلهلا عوف بن مالك أحد بنى قيس بن ثعلبة ، أتوا عوف بن مالك أحد بنى قيس فقالوا : أرسل معنا مهلهلا فأرسله معهم فشرب فلما رجع جعل يتغنى بهجاء بكر بن وائل فسمعه عوف ابن مالك فغاظه فقال : لاجرم إن لله علىّ نذراً أن لايشرب عندى قطرة ماء ولا خمراً حتى يورد الخضير بمعجمتين مصغراً وهو بعير لعوف لا يرد الماء إلا سبعاً فقال له أناس من قومه : بئس ما حلفت فبعثوا الخيول فى طلب البعير فأتوا به بعد ثلاثة أيام ومات مهلهل عطشاً . وقيل بالقتل وكان السبب فى قتله أنه أسن وخرف وكان له عبدان يخدمانه فملاه وخرج بهما إلى سفر فبينما هو فى بعض الفلوات عزما على قتله فلما عرف ذلك كتب على قتب رحله وقيل أوصاهما :

من مبلغُ الحيين أن مهلهلا لله دركما ودر أبيكما

ثم قتلاه ورجعا إلى قومه فقالا مات وأنشداهم قوله . فقال بعض ولده (قيل هى ابنته) : إن مهلهلا لا يقول مثل هذا الشعر و إنما أراد : —

من مبلغ الحيين أن مهلهلا أمسى قتيلاً فى الفلاة مجدّلا (١)

لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يُقْتَلا

فضربوا العبدين حتى أقرا بقتله والله أعلم بحقيقة الحال . ومنهم :

---

(١) قوله مجدلا يقال جدله فانجدل وتجدل رماه وصرعه على الجدالة اى الأرض

معاذ بن صرم الخزاعى

كان فارس خزاعة فى وقته ، ومن خبره أن أمه كانت من عك[١] وكان يكثر زيارة أخواله فاستعارَ منهم فرساً وأتى قومه فقال له رجل يقال له جُحيش ابن سَوْدة وكان له عدواً . تسابقنى على أن من سبق صاحبه أخذ فرسه ، فسابقه فسبق معاذ وأخذ فرس جحيش وأراد أن يغيظه فطعن أيطل الفرس وهو الخاصرة بالسيف فسقط . فقال جحيش . لا أم لك قتلتَ فرساً خيراً منك ومن والديك فرفع معاذ السيف فضرب مفرقه فقتله . ثم لحق بأخواله و بلغ الحى ما صنع ، فركب أخ لجحيش وابن عم له فلحقاه فشد على أحدهما فطعنه فقتله . وشد على الآخر فضربه بالسيف فقتله وقال فى ذلك : —

قتلت جحيشاً بعدَ قتلِ جوادِهِ ... وكنتُ قديماً فى الحوادث ذافتكِ
قصدتُ لعمرٍو بعد بدرٍ بضربة ... فخرَّ صريعاً مثلَ عائرة النسك[٢]
لكى يعلمَ الأقوامُ أنىَ صارمٌ ... خزاعة أجدادى وأمى إلى عَكٍّ
فقد ذقت ياجحش بين سَوْدة ضربتى ... وجرّبتنى إن كنت من قبل فى شكٍّ
تركت جحيشاً ثاوياً ذانوائح ... خضيبَ دم جاراته حولَهُ تبكى
ترنّ عليه أمه بانتحابها ... وتقشر جلدَى محجريْها من الحك[٣]
ليرفع أقواماً حلولىَ فيهم ... ويزرى بقوم إن تركتهم تركى[٤]
وحصنى سراه الطِرْف والسيف معقلى ... وعطرى غبار الحرب لا عَبَق المسك[٥]

---

(١) قال الجوهرى : عك بن عدنان أخو معدو هو اليوم فى اليمن ، وهو بعينه قول الليث ومثله فى معارف ابن قتيبة وطبقات محمد بن سلام وهذا قول لائمة النسب وقيل غير ذلك مما يطول ذكره (٢) عائرة النسك : كان الرجل من العرب فى الجاهلية اذا بلغت ابله الفا عارعين بعير منها أراد بعائر النسك ألفا من الابل تعور عين واحد منهم (والنسك العبادة) كانهم كانوا يفعلون ذلك تعبدا (٣) رن يرن رنا صاح عند البكاء ، قال ابن الاعرابى : الرنة صوت فى فرح أو حزن ، والانتحاب : البكاء بصوت طويل ومد ، ومحجر العين ما دار بها (٤) ازرى بالشىء ازراء : تهاون به (٥) الحصر : المكان الذى لايقدر عليه لارتفاعه ، والسراة : الظهور ومنه الحديث

تتوق غداةَ الروع نفسى إلى الوغى كتوق القطا تسمو إلى الوشل الرِكِ (١)
ولست برعديدٍ إذا راع معضلٌ ولا فى نوادى القوم بالضيق المُسْك (٢)
وكم مَلِكٍ جدلتُهُ بمُهَنّدٍ وسابغةٍ بيضاء محكمة السَّكِّ (٣)

فأقام فى أخواله زماناً ، ثم إنه خرج مع بنى أخواله فى جماعة من فتيانهم يتصيدون فحمل معاذ على عَيْرٍ فلحقه ابن خال له يقال له الغضبان ، فقال خل عن العير فقال لا ولا نعمت عين . فقال له الغضبان أما والله لو كان فيك خير لما تركت قومك . فقال معاذ « زر غباً تزدد حباً » فأرسلها مثلا . ثم أتى قومه فراد أهل المقتول قتله . فقال لهم قومه : لا تقتلوا فارسكم وإن ظلم فقبلوا منه الدية . ويروى هذا المثل عن النبى صلى الله عليه وسلم وإليه أشار الشاعر:

إذا شئت أن تُقلى فزر متـواتراً وإن شئت أن تزداد حباً فزُرغبا

« وقال آخر »

عليك بأغباب الزيارة إنها إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلـكا
ألم تر أن القطر يُسأمُ دآئباً ويسأل بالأيدى إذا هـو أمسكا

ومنهم :

فمسح سراة البعير وذفراه ، والطرف : الكريم من الخيل العتيق قال الراغب وهو الذى يطرف من حسنه، والمعقل وزان مسجد : الملجأ ، والعبق : الرائحة الطيبة الذكية (١) تاقت نفسه الى الشيء اشتاقت ونازعت اليه ، والوغى : الجلبة والاصوات ومنه وغى الحرب وقال ابن جنى : الوعى بالمهملة الصوت والجلبة وبالمعجمة الحرب نفسها ، والوشل محركة الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة يقطر منه قليلا قليلا ولا يتصل قطره أو لا يكون ذلك الا من أعلى الجبل ، والركّ بالفتح ويكسر المطر القليل الضعيف أو هو فوق الدث .
(٢) الرعديد : الجبان يرعد عند القتال جبنا وراع أفزع ، والمعضل : الامر الشديد تضيق على الانسان به الحيل ، والنوادى جمع نادى وهو المجلس ما دام القوم مجتمعين فيه واذا تفرقوا عنه فليس بندى كما فى المحكم والصحاح وقيل غير ذلك وفى هذا رد على من زعم من لغويى العصر كابراهيم اليازجى ومن على شاكلته من كل ضيق العطن من ان النوادى غير مستعمل فى جمع النادى ، والمسك : العقل (٣) جدله : رماه وصرعه على الجدالة أى الارض، والمهند : السيف المطبوع من حديد الهند ، والسابغة : الدرع التامة الوافرة الطويلة ، والسك : الدرع الضيقة الحلق وفى العباب اللينة الحلق .

بشامة بن حزن النهشلي (١)

وهو من الفرسان الحائزين قصب السبق فى كل ميدان . وله وقائع كثيرة ، وهو القائل :

إنا محيوكِ يا سلمى فحيينا ... وإن سَقيتِ كرامَ الناس فاسقينا (٢)

وإنْ دعوتِ إلى جُلَّى ومكْرمَة ... يوماً سراة كرام النـاس فادعينا (٣)

إنا بنى نهشلٍ لا ندعى لأبٍ ... عنه ولا هو بالأبنـاء يشرينا (٤)

إن تُبتدر غايةٌ يوماً لمكرمةٍ ... تلقَ السوابقَ منا والمصلينا (٥)

وليس يهلك منا سيدٌ أبداً ... إلا افتلينا غلاماً سيداً فينا (٦)

نكفيه إنْ نحن متنا أن يسبَّ بنا ... وَهُوَ إذا ذكر الآباء يكفينا

إنا لنرخص يوم الرَّوْع أنفسنَا ... ولو نُسام بها فى الأمن أغلينا (٧)

بيضٌ مفارقنا تَغْلى مراجلنَا ... نأسو بأمـوالنا آثارَ أيدينا (٨)

إنا لمن معشر أفنى أوائلهم ... قول الـكماة ألا أين المحامونا ! (٩)

لو كان فى الألف منا واحد فدعوا ... « مَنْ فارسٌ » خالهم إياه يعنونا (١٠)

---

(١) قال البغدادى الظاهر انه اسلامى ولم أر له ترجمة فى كتب الانساب انتهى وفى القاموس وشرحه : وبشامة بن حزن النهشلى شاعر (٢) فحيينا من التحية بمعنى السلام وقيل معنى سقيت دعوت يعنى ان دعوت الكرام بالسقيا فادعى لنا أيضا (٣) الجلى تأنيث الأجل ، والسراة جمع سرى وهو الشريف والكريم يقول : ان اشدت بذكر خيار الناس بجليلة نابت أو مكرمة عرضت فاشيدى بذكرنا أيضا وهذا الكلام القصد منه الوصول الى بيان شرفه ولا سقى ثم ولا تحية (٤) بنى نهشل منصوب على الاختصاص ولو رفعه لقال انا بنو نهشل ومعنى لا ندعى لاب لا ننتسب لاب غير أبينا ، وقوله ولا هو بالاباء الخ معناه انه رضى بناكما نحن راضون به (٥) يقال ابتدرنا الغاية والى الغاية أى استبقنا اليها ، وقوله لمكرمة أى لاكتساب مكرمة والمصلى من اسماء خيل الحلبة وهى عشرة (٦) الافتلاء : الافتطام والاخذ عن الام (٧) يوم الروع يوم الحرب ، والالف فى اغلينا للاشباع (٨) بياض المفارق كناية عن نقاء العرض وانتفاء الذم والعيب ، وتغلى مراجلنا أى حروبنا ، ونأسو : نداوى ومعناه انهم أغنياء لا يطمع الناس فى مقاصتهم بل يكتفون منهم بأخذ الدية . (٩) الكماة جمع كام كما يقال غاز وغزاة وذلك من قولهم كمن نفسه فى السلاح اذا توارى فيه ، يقول انى من جماعة أفنتهم الاعانة والاغاثة والنجدة والاقدام فى الحروب (١٠) خالهم أى ظنهم معناه انهم لشدة بأسهم وقوة حماستهم لا يعترفون بشجاعة غيرهم .

إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم حدُّ الظباة وصلناها بأيدينا[١]
ولا تراهم وإن جلّت مصيبتُهم مع البكاة على من مات يبكونا
ونركب الكره أحياناً فيفرجه عنا الحِفاظ وأسيافٌ تواتينا[٢]

والفرسان كثيرون لا يستوعبهم مثل هـذا المقام . وقد ذكر أبو عبيدة فى كتاب (مقاتل الفرسان) شيئاً كثيراً من ذلك وهو كتاب جليل لم يسبق إليه فمن أراد الاستيفاء فعليه بذلك الكتاب . فإن فيه بغيتَه ، ويجد هناك ضالتَه ، والله ولى التوفيق .

الكلام على نيران العرب فى الجاهلية

قد أولع العرب بإيقاد النيران ينبهون بها على عوارض حدثت ، وحوادث عرضت ، وهى كثيرة .

منها (نار القرى) وهى نار توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل ، وتسمى أيضاً (نار الضيافة) وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر وربما يوقدونها بالمندلى الرطب (وهو عطر ينسب إلى مندل وهو بلد من بلاد الهند ونحوه مما يتبخر به) ليهتدى إليها العميان وأشعارهم ناطقة بذلك . وهذه النار عندهم أجل سائر النيران ، بسبب أنها تهدى إلى بيوتهم الضيفان ، وكانوا يتمدحون بها فى شعرهم . قال الأعشى : —

لعمرى لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوء نار فى يفاعٍ تُحَرَّقُ[٣]
تُشَبُّ لمقرورَيْنِ يصطليانهـا وبات على النار الندى والمحلّق[٤]

---

(١) الظباة جمع ظبة وهى حد السيف ، وقوله وصلناها بأيدينا هذا الكلام كناية عن علو همتهم فى الحرب وطول باعهم فيها (٢) الكره المكروه وركوبه كناية عن وقوعهم فيه وقصدهم اليه ، والحفاظ المحافظة والذب عن المحارم، وتواتينا : توافقنا . (٣) اليفاع مثل سلام ما ارتفع من الأرض . (٤) المقرور من أصابه القر بالضم البرد أو يختص بالشتاء وعنى بالمقرورين الندى الجود والمحلق، لقب عبدالعزى بن حنتم بن شداد ابن ربيعة بن عبدالله بن عبيد بن كلاب العامرى ، وضبطه صاحب اللسان كمحدث لأن حصانا له عضه فى خده وكانت العضة كالحلقة هذا قول أبى عبيدة ، أو أصابه سهم عزب فكوى بحلقة مقراض فبقى أثرها فى وجهه ، وهذا أحد من رفعه ما قيل فيه من الشعر

ومنها (نار المزدلفة) وهى التى توقد حتى يراها من دفع من عرفة وأول من أوقد النار بالمزدلفة قصى بن كلاب وهى على ما يقال باقية إلى اليوم .

ومنها (نار التحالف) كانوا إذا أرادوا الحلف أوقدوا ناراً وعقدوا حلفهم عندها ودعوا بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ، ويحل العقد ، وكانوا يطرحون فيها الملح والكبريت فإذا استشاطت قالوا للحالف « هذه النار تهددتك » فإن كان مبطلا نكل وإن كان بريئاً حلف ولهذا سموها أيضاً (نار المهوّل) وإنما خصوها لأنها لا ينتفع بها من بين أنواع الحيوان غير الإنسان .

ومنها (نار الغدر) كانوا إذا غدر الرجل بجاره أوقدوا النار بمنى أيام الحج على أحد الأخشبين[1] ثم صاحوا هذه غدرة فلان ليحذره الناس .

بعد الخمول وذلك أن الاعشى قدم مكة وتسامع الناس به وكانت المحلق امرأة عاقلة وقيل بل أم فقالت له : ان الاعشى قدم وهو رجل مفوه مجدود فى الشعر ما مدح أحدا الا رفعه ، ولاهجا أحدا الا وضعه ، وأنت رجل كما علمت فقير خامل الذكر ذو بنات وعندنا لقحة نعيش بها فلو سبقت الناس اليه فدعوته الى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشترى به شرابا يتعاطاه لرجوت لك حسن العافية فسبق اليه المحلق فانزله ونحر له ووجد المرأة قد خبزت خبزا وأخرجت نحيا فيه سمن وجاءت بوطب لبن فلما أكل الاعشى واصحابه وكان فى عصابة قيسية قدم اليه الشراب واشتوى اليه من كبد الناقة واطعمه من اطايبها فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه الكاس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس فى كلامه وذكر البنات فقال الاعشى كفيت أمرهن واصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ... وما بى من سقم وما بى معشق

ورأى المحلق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدرى أين يريد الاعشى بقوله الى ان سمع :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة ... كجابية الشيخ العراقى تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم ... مع القوم ولدان من النسل دردق
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة ... الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين بصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تحالفا ... باسحم داج عوض لا نتفرق
ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه ... كما زان متن الهندوانى رونق

فما أتم القصيدة الا والناس ينسلون الى المحلق يهنئونه والاشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه جريا يخطبون بناته لمكان شعر الاعشى فلم تمس واحدة منهن الا فى عصمة رجل أفضل من أبيها الف ضعف .

(١) الاخشبان جبلا مكة وهما أبو قبيس وقعيقعان ويقال بل هما أبو قبيس والاحمر وقال ابن وهب الاخشبان جبلا منى اللذان تحت العقبة وكل خشن غليظ من الجبال فهو اخشب .

ومنها (نار السلامة) وهى التى توقد للقادم من سفر سالماً غانماً .

ومنها (نار الطرد) كانوا يوقدونها خاف من يمضى ولا يشتهون رجوعه وكانوا يقولون فى الدعاء عليه « أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً أثره » .

ومنها (نار الأهبة[1]) للحرب كانوا إذا أرادوا حرباً وتوقعوا جيشاً أوقدوا ناراً على جبلهم ليبلغ الخبر فيأتونهم .

ومنها (نار الصيد) وهى نار توقد للظباء لتعشى إذا نظرت إليها ويطلب بها أيضاً بيض النعام .

ومنها (نار الأسد) وهى نار يوقدونها إذا خافوه وهو إذا رأى النار استهالها فشغلته عن السابلة . وقال بعضهم : إذا رأى الأسد النار حدث له فكر يصده عن إرادته والضفدع إذا رأى النار تحير وترك النقيق .

ومنها (نار السليم) توقد للملدوغ إذا سهر وللمجروح إذا نزف وللمضروب بالسياط ولمن عضه الكلب لئلا يناموا فيشتد بهم الأمر ويؤدى إلى الهلاك .

ومنها (نار الفداء) وذلك أن الملوك إذا سبوا القبيلة خرجت إليهم السادة للفداء فكرهوا أن يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن ، وفى الظلمة يخفى قدر ما يحبسون لأنفسهم من الصفىّ فيوقدون النار ليعرضن .

ومنها (نار الوسم) كانوا يقولون للرجل ما نارك ؟ على الاستخبار عن الإبل أى ما سمتك وما علامتك فى إبلك فيبينها لهم . وحكى أن بعض لصوص العرب قرب إبلا للبيع فى (سوق عكاظ) فقيل له : ما نارك ؟ وكان أغار عليها من كل وجه وإنما سئل عن ذلك لأنهم يعرفون ميسم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها . فقال :

تسألنى الباعةُ أين نارها إذ زعزعتها فسمت أبصارها[2]

---

(١) بالضم العدة واهبة الحرب عدتها (٢) الباعة جمع بائع ، والنار السمة والعرب تقول ما نار هذه الناقة ؟ أى ما سمتها سميت نارا لانها بالنار توسم ويروى اين دارها موضع اين نارها ، والزعزعة : الحركة الشديدة ؛

كلُّ نَجارِ إبلٍ نجارُها   وكل نارِ العالمين نارُها[١]

ويروى أن البيتين هكذا : —

تسألني الباعة ما نجارها   إذ زعْزعوها فسمت أبصارها

فكل دار لأناس دارها   وكل نار العالمين نارها

ومنها (نار الاستمطار) كانت العرب فى الجاهلية الأولى إذا احتبس عنهم المطر يجمعون البقر ويعقدون فى أذنابها وعراقيبها[٢] السلع[٣] والعُشْر[٤] ويصعدون بها فى الجبل الوعر ويشعلون فيها النار ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر وسيأتى الكلام على هذه النار عند البحث عن عوائدهم التى جَبَّهَا الإسلام .

وأما (نار الحرتين[٥]) فقد كانت فى بلاد عبس فإذا كان الليل فهى نار تسطع وفى النهار دخان يرتفع وربما بدر منها عنق فأحرق من مرّ بها فحفر لها خالد ابن سنان فدفنها فكانت معجزة له كذا فى الأوائل لإسمعيل الموصلى . وروى الكلبى أنه كان يخرج منها عنق مسيرة ثلاثة أيام لا يمر بشىء إلا أحرقه وأن خالد ابن سنان أخذ من كل بطن من بنى عبس رجلا فخرج بهم نحوها ومعه درَّة حتى انتهى إلى طرفها وقد خرج منها عنق كأنه عنق بعير فاطط بهم فقالوا هلكت

---

(١) النجار بالكسر والضم الاصل والحسب ويقال اللون ، وسما بصره : علا وقوله كل نجار ابل نجارها مثل فى المخلط قال الجوهرى أى فيه كل لون من الاخلاق ولا يثبت على رأى واحد نقله عن أبى عبيدة ونصه وليس له رأى يثبت عليه ومن أمثالهم (نجارها نارها) أى سمتها تدل على نجارها يعنى الابل (٢) جمع عرقوب بالضم وهو من الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها

(٣) محركة شجرمر ، قال أبو حنيفة الدينورى أخبرنى اعرابى من أهل الشراة ان السلع ينبت بقرب الشجرة ثم يتعلق بها فيرتقى فيها حبالا خضرا لا ورق لها ولكن قضبان تلتف على الغصون وتتشبك وله ثمر مثل عناقيد العنب صغار فاذاأينع اسود فتأكله القرود فقط ولا يأكله الانسان ولا السائمة، قال ولم اذقه وأحسبه مرا قال واذا قصف سال منه ماء لزج صاف له سعابيب

(٤) كصرد شجر فيه حراق مثل القطن لم يقتدح الناس فى أجود منه ويحشى فى المخاد لنعومته وقال ابو حنيفة العشر من العضاه وهو من كبار الشجر وله صمغ حلو وهو عريض الورق ينبت صعدا فى السماء .

(٥) هى التى ذكرها الشاعر بقوله :

ونار الحرتين لها زفير   يصم لهوله الرجل السميع

والله أشياخُ بنى عبس آخرَ الدهر . فقال خالد : كلا وجعل يضرب به بالدِرَّةِ ويقول : بدا بدا كل هدى الله يودى أنا عبد الله خالد بن سنان فضرب حتى رجع فجعل يتبعه والقوم يتبعونه كأنه ثعبان ينحك فى حجارة الحوة[1] حتى انتهى إلى قائب[2] فانساب[3] فيه فدخل خلفه طويلاً فقال ابن عم له يقال له عروة بن شبه لا أرى خالداً يخرج إليكم فخرج ينطف وهو يقول زعم ابن راعنة المعزى أنى لا أخرج فقيل لهم بنوا راعنة المعزى

وأما (نار السعالى) فهو شىء يقع للمتغرب والمتقفر قال أبو المضراب عبيد ابن أيوب :

وللهِ درُّ الغول أى رفيقة لصاحب دوّ خائف متقفر[4]
أرنَّت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالىّ نيراناً تبوخ وتزهر[5]

وأما (نار الُحباحب) فكل نار لا أصل لها مثل ما يقتدح من نعال الدواب وغيرها

وأما (نار البراعة) فهى طائر صغير إذا طار بالليل حسبته شهاباً وضربٌ من الفراش إذا طار بالليل حسبته شراراً . وأول من أورى نارها أبو حباحب ابن كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . فقالوا (نار أبى حباحب) ومن حديثه ما ذكر عن ابن الكلبى قال كان أبو حباحب رجلا من العرب فى سالف الدهر بخيلاً لا توقد له نارٌ بليل مخافة أن يقتبس منها فان أوقدها ثم أبصرها مستضىء أطفأها فضربت العرب به المثل فى البخل والخلف

---

(١) بالضم سواد الى الخضرة والحوة جانب الوادى (٢) هو حفر فى الارض (٣) أى مشى مسرعا وفى الحديث : ان رجلا شرب من سقاء فانسابت فى بطنه حية ، فنهى عن الشرب من فم السقاء ، أى دخلت وجرت مع جريان الماء (٤) الغول بالضم احد الغيلان وهو جنس من الجن والشياطين وهم سحرتهم كما فى حياة الحيوان ، وقال الجوهرى هو من السعالى والجمع اغوال وغيلان وكل ما اغتال الانسان فاهلكه فهو غول ، والدو : الفلاة الواسعة البعيدة الاطراف ، والمتقفر : المتطلب والمتتبع ، وفى حديث يحيى بن يعمر « ظهر قبلنا ناس يتقفرون العلم » أى يتطلبونه (٥) ارنت : صاحت ، واللحن : اللغة بلغة بنى كلاب وبه فسر قول عمر (رض) : تعلموا اللحن فى القرآن أى تعلموا كيف لغة العرب فيه الذين نزل القرآن بلغتهم كذا فى التاج وانشد هذا البيت وآخر قبله ، وباخت النار : سكنت وفترت ، وزهرت النار زهورا اضاءت .

فقالوا (أخلف من نار أبى حباحب) وقال ابن الشجرى فى أماليه : حباحب رجل كان لا ينتفع بماله لبخله فنسب إليه كل نار لا ينتفع بها فقيل لما تقدحه حوافر الخيل على الصفا نار الحباحب ، قال النابغة فى وصف السيوف : (ويوقدن بالصفاح نار الحباحب[1]) . وجعل الكميت اسمه كنية للضرورة فى قوله :

يرى الراؤن بالشفرات منها   كنار (أبى حباحب) والظبينا[2]

وقال القطامى :

ألا إنما نيران قيس إذا شتوا   لطارق ليل مثل نار الحباحب[3]

انتهى وهذا هو التحقيق لا ما ذكره الموصلى تبعاً للعسكرى فى أوائله قال ابن قتيبة فى أبيات المعانى فى نار التحالف : كانوا يحلفون بالنار ، وكانت لهم نار يقال أنها كانت بأشواف اليمن لها سدنة فإذا تفاقم الأمر بين القوم فحلف بها انقطع بينهم وكان اسمها (هولة) و (المهولة) ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه من الحلف بها ولها قيم يطرح فيها الملح والكبريت فإذا وقع فيها استشاطت وتنفضت فيقول « هذه النار قد تهددتك » فإن كان مريباً نكل[4] وإن كان بريئاً حلف قال الكميت :

هم خوفونا بالعمى هوّةَ الردى   كما شب نارَ الحالفين المهولُ[5]

وقال الكميت وذكر امرأة :

---

(١) الصفاح كرمان حجارة عراض دقاق الواحدة صفاحة (٢) الشفرات جمع شفرة وشفرة السيف : حده ، وظبة السيف : طرفه وأصلها ظبو والهاء عوض من الواو والجمع أظب فى أقل العدد مثل أدل وظبات وظبون بالواو والنون ومعنى البيت يرى الراؤن فى شفرات السيوف وحدها لمعانا وبريقا كنار هذا الطائر والظبينا معطوف على الشفرات ، وترك الشاعر صرف ابى حباحب لانه جعل حباحب اسما لمؤنث وروى وقود موضع كنار . و (منها) الضمير فيه للسيوف (٣) شتا الرجل بالبلد أقام به شتاء وشتا القوم أجدبوا فى الشتاء خاصة ، والطارق : الآتى بالليل وسمى لحاجته الى دق الباب وفى الحديث نهى المسافر أن يأتى أهله طروقا أى ليلا

(٤) نكص ورجع (٥)والهوة الوهدةالعميقة والحفرة البعيدة العقر، والردى: الهلاك ، وشب النار : أوقدها ، والمهول كمحدث المحلف وهو سادن النار الذى يطرح الملح فيها .

فقد صِرْتُ عمًّا لها بالمشيب ... زوالاً لديها هو الأزول[١]
كهولةِ ما أوقد المحلفون ... لدى الحالفين وما هولوا[٢]

وقال أوس[١] :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه ... كما صد عن نار المهول حالفُ

وقال أيضاً فى نار الأهبة : كانوا إذا أرادوا حرباً أو توقعوا جيشاً وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبل لتجتمع إليهم عشائرهم فإذا جدوا وأعجلوا أوقدوا نارين وقال الفرزدق :

ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا ... نارين أشرفنا على النيران

وكانوا يضربون المثل بنار الغضا فى الحرارة لأن الغضا من بين سائر العيدان لا يصلح إلا للوقود فكأنه خلق للنار لاغير قيل إن جمره يبقى أكثر من يوم

(ونار الحلفى) يضرب بها المثل فى سرعة الإيقاد والانطفاء .

(ونار العرفج) وتسمى (نار الزحف) وذلك لأن العرفج إذا التهبت فيه النار أسرعت وعظمت فمن كان يقرّ بها يزحف عنها . ثم لايلبث أن تنطفىء من ساعتها فيحتاج الذى زحف عنها إلى أن يرجع إليها من ساعته فلا يزال المصطلى بها كذلك ويضرب بها المثل فيمن لا يستقر على حال « ومن الاستعارات » فى النار (نار الشرف) و (نار المسرة) و (نار الحرب) وقد أولع الشعراء بوصفها فى أشعارهم قديماً وحديثاً .

صفة اقتداح العرب بالزند والزندة

لما ذكرنا نيران العرب ومذاهبهم فيها ناسب التنبيه على منشأ مادتها عندهم وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى فى كتاب النبات صفة الزند والزندة وكيفية الفتل فلابأس بإيراده هنا . قال : أفضل ما اتخذت منه الزناد شجرتا المرخ والعَفَار بفتح

---

(١) عن اللحيانى هو يزول فى الناس أى يكثر الحركة ولايستقر وزول ازول على المبالغة وقال أبو السمح الازول ان يأتيه أمر يمنعه الفرار (٢) الهولة : نار السدنة التى يحلفون عليها (٣) وهو ابن حجر يصف حمار وحش .

العين المهملة بعدها فاء فتكون الأنثى وهى الزندة السفلى مرخاً ويكون الذكر وهو الزند الأعلى عفاراً . أخبرنى بعض علماء الأعراب أن العفار شجر يشبه صغار شجر الغبيراء[1] منظره من بعيد كمنظره . وأما المرخ فقد رأيته ينبت قضباناً سمحة طوالا لا ورق لها . ولفضل هاتين الشجرتين فى سرعة الورى وكثرة النار سار قول العرب فيهما مثلا فقالوا : (فى كل الشجر نار . واستمجد المرخ والعفار) أى ذهبا بالمجد فكان الفضل لهما ولذلك قال الأعشى :

زنادك خير زناد الملو ك خالط فيهن مرخٌ عفارا

ويختار أن تكون الزندة من المرخ والزند من العفار . ومن فضيلة المرخ فى كثرة النار وسرعة الورى ماذكر أبو زياد الكلابى فإنه قال ليس فى الشجر كله أورى زناداً من المرخ قال وربما كان المرخ مجتمعاً ملتفا وهبت الريح فحك بعضه بعضاً فأورى فاحترق الوادى كله . ولم نر ذلك فى شىء من الشجر . ثم بعد أن ذكر الأشجار التى تتخذ منها الزناد قال : وصفة الزندة عود مربع فى طول الشبر أو أكثر وفى عرض أصبع أواشف وفى صفحاتها فُرَضٌ وهى نقر الواحدة منها فُرضة وتجمع فُراضاً أيضاً والزند الأعلى نحوها غير أنه مستدير وطرفه أرق من سائره

« فأما وصف الافتداح بها » فإن المقتدح إذا أراد أن يقتدح بالزناد وضع الزندة ذات الفراض بالأرض ووضع رجليه على طرفيها ثم وضع طرف الزند الأعلى فى فرضة من فراض الزنده وقد تقدم فهيأ فى الفرضة مجرى للنار إلى جهة الأرض بحز وقد حزه بالسكين فى جانب الفرضة ثم فتل الزند بكفه كما يفتل المثقب وقد ألقى فى الفرضة شيئاً من التراب يسيراً يبتغى بذلك الخشنة ليكون الزند أعمل فى الزندة وقد جعل إلى جانب الفرضة عند مفضى الحزّرية تأخذ فيها النار فإذا فتل الزند لم يلبث الدخان أن يظهر ثم يتبعه النار فتنحدر فى الحز وتأخذ فى الرية وتلك النار هى السقط . انتهى كلامه باختصار كثير من لب اللباب ، والله الموفق .

---

(١) قال المجد : الغبراء نبات كالغبيراء أو الغبراء ثمرته والغبيراء شجرته أو بالعكس .

الكلام على ملوك العرب فى الجاهلية
وما يناسب ذلك

كان للعرب فى الجاهلية ملوك وأقيال ، وسادات يتولون أمورهم فى سائر الأحوال ، و إنى ذاكر فى هذا المقام ، من ملوك النواحى ما لخصه العلماء الأعلام .

ملوك اليمن

قال ابن قتيبة وغيره : أول من حيي بتحية الملك (أبيت اللعن وأنعم صباحاً) يعرب بن قحطان فولد له يشجب وولد ليشجب سبأ . وقيل : إنه أول من سبي السبى من ولد قحطان واسمه عبد شمس وقيل عامر . وأول الملوك من ولده حمير بن سبأ ملك حتى مات هرماً ولم يزل الملك فى ولد حمير لا يعدو ملكهم اليمن حتى مضت قرون وصار الملك إلى الحرث الرائش و بينه و بين حمير خمسة عشر أباً فخرج من اليمن وغزا وجلب الأموال فراش الناس و بذلك سمى . وفى عصره مات لقمان صاحب النسور وهو لقمان الذى بعثته عاد فى وفدها إلى الحرم يستسقى لها فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بعرات سمر ، من أظبٍ عفرٍ[1] ، فى جبل وعر ، لا يمسها القطر ، أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر فاختار النسور . فكان آخر نسوره يسمى لبداً وقد ذكرته الشعراء قال النابغة :

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا   أخنى عليها الذى أخنى على لبد[2]

وسماه لبداً معتقداً فيه أنه أبد فلا يموت ولا يذهب و يزعمون أنه حين كبر قال له : انهض لبد ، فأنت نسر الأبد ! ولقمان هذا هو ممن آمن بهود عليه السلام وهلك قومه لكفرهم به فأهلكهم الله تعالى بالريح سبع ليال وثمانية أيام حسوما ،

---

(١) اظب جمع ظبى وعفر جمع أعفر وهو ما تعلو بياضه حمرة أو الذى فى سراته حمرة واقرابه بيض أو الابيض ليس بالشديد البياض .

(٢) يروى أمست خلاء وأمسى أهلها الخ ، وأخنى عليهم الدهر : أتى عليهم واهلكهم .

فلم تدع منهم أحداً . وسلم هود ومن آمن معه وأرسلت عليهم يوم الأربعاء فلم تدر الأربعاء وعلى الأرض منهم حى . وأما لقمان المذكور فى القرآن فهو غيره . وكان ملك الرائش مائة وخمساً وعشرين سنة وذكر نبينا صلى الله عليه وسلم : أنشد ابن قتيبة له .

وأحمد اسمه ياليت إنى أعمَّر بعـد مبعثه بعام

ثم أبرهة ذو المنار بن الرائش وكان ملـكه مائة وثلاثاً وثمانين سنة ثم أفريقيس ابن أبرهة وهو الذى بنى أفريقية وبه سميت وكان ملـكه مائة وستين سنة . ثم العبد بن أبرهة وهو ذو الإذعار سمى بذلك لقوم سباهم منـكرى الوجوه تزعم اليمن أنهم النسناس وكان ملـكه خمساً وعشرين سنة . ثم هدهاد بن شُرَحبيل بن عمرو ابن الرائش وهو أبو بلقيس ملك سنة واحدة . ثم بلقيس إلى أن أسلمت على يدى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثم ناشر بن عمرو بن يعفر بن شرحبيل وكان ملـكه خمساً وثمانين سنة . ثم شمر بن أفريقيس وهو الذى أخرب مدينة سمرقند وبه سميت شِمرُ كند ومعنى كندَ أخربها وهو الذى سمى يرعش لارتعاش كان به . وكان ملكه مائة وسبعاً وثلاثين سنة . ثم ابنه الأقرن بن شمر يرعش وكان ملـكه مائة وثلاثاً وستين سنة . ثم ابنه كليكرب ولم يغز حتى مات وكان ملـكه خمساً وثلاثين سنة . ثم ابنه تبع بن كليكرب وهو أبو كرب تبع الأوسط وكان يغزو بالنجوم ويعمل أعماله كلها بأحكامها . ويقال أنه آمن بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو القائل فيه :

شهدت على (أحـمـد) أنه رســول من الله بارى النسم[1]
ولو مدّ عمرى إلى عمره لـكنت وزيراً له وابنَ عم

ومن شعره :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً ملـكا تدين له الملوك وتحشد

(١) قوله بارىء أى خالق ، والنسم جمع نسمة وهى نفس الروح .

من بعده بِلقيس كانت عمتى ملـكتهم حتى أتاها الهدهد

وكان إيمانه قبل أن يبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بسبعمائة سنة وهو الذى غزا جَدِيساً وقتل اليمامة التى سميت جو اليمامة وقصتها شهيرة . . ثم عمرو ابن تبع أخو حسان وكان ملـكه ثلاثاً وستين سنة . ثم عبد كلال بن مثوب وكان على دين عيسى عليه السلام يسرّ إيمانه وكان ملـكه أربعاً وسبعين سنة . ثم تبع ابن حسان وهو الأصغر وكان الحرث بن عمرو بن حجر جد امرئ القيس ابن أخته وتبع هـذا هو الذى عقد الحلف بين ربيعة واليمن وهو الذى أدخل فى اليمن دين اليهود وكان ملـكه ثمـانى وسبعين سنة . ثم أخوه لأمه مرثد بن عبد كلال . وقيل مزيد وكان ملـكه إحدى وأربعين سنة . ثم ابنه وليعة بن مرثد ملك سبعاً وثلاثين سنة . ثم أبرهة بن الصباح ملك ثلاثا وسبعين سنة وكان يكرم معداً ويعلم أن الملك كائن فى ولد النضر بن كنانة . ثم حسان بن عمرو بن تبع بن كلى كرب ملك سبعاً وخمسين سنة ومدحه خالد بن جعفر بن كلاب لمـا شفعه فى أسارى من قومه . ثم ذو الشناتر . واسمه لخينعة ينوف ولم يكن من أهل بيت المملـكة لـكنه من أبناء المقاول قتله ذو نؤاس . وكان غلاماً من أبناء الملوك حسن الوجه له ذؤابتان أراده على نفسه فرماه بخنجر كان قد أعده له فقتله ورضيته حمير لأنفسها لمـا أراحها من ذى شناتر . وذو نؤاس صاحب الأخدود الذى ذكره الله تعالى وكان يهودياً فخد الأخدود لقوم من أهل نجران تنصروا على يَدَىْ رجل من قبل آل جفنة دعاهم إلى اليهودية فأبوا فحرقهم ثم ظهرت الحبشة على اليمن فحاربوا ذا نؤاس أشد حرب فلما أيقن بالهلاك اعترض بفرسه فـكان آخر العهد به . ثم قام بعده ذوجدن فهزمته الحبشة واقتحم البحر فهلك . وملك اليمن أبرهة الأشرم وهو الذى زحف إلى مكة بالفيل فهلك جيشه وابتلى بالآكلة فحمل إلى اليمن فهلك بها . وملك بعده ابنه يكسوم وساءت سيرته باليمن واستجاش عليه سيف بن ذى يزن كسرى فجيش له جيشاً عظيماً وقد مات يكسوم . وولى بعده مسروق أخوه

وهو أخو سيف لأمه فقتلت الحبشة وسبيت نساؤهم وأقام سيف ملكاً من قبل كسرى حتى غدره خدامه من الحبشة ولم يجتمع ملك اليمن لأحد بعده . ثم بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكشفت به الظلمة ، واهتدت بهديه الأمة ، واستقر الملك فى نصابه ، بعد الخلفاء الأربعة من أصحابه ، ممن وجبت طاعته ، وصحت بيعته ، كذا فى عمدة ابن رشيق ببعض زيادة . وفى لب اللباب بعد أن تكلم فى الأذواء : ومنهم الكلاع الأكبر وذو الكلاع الأصغر وأدرك الأصغر الإسلام كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم مع جرير بن عبد الله البجَلى فأسلم وأعتق يوم أسلم أربعة آلاف عبد وهاجر بقومه فى أيام أبى بكر رضى الله عنه إلى المدينة ثم سكنوا حمص (واشتقاق الكلاع بضم الكاف وفتحها من الكلع بالتحريك وهو شقاق ووسخ يكون فى القدم يقال منه كلعت رجله) ومنهم ذو عَشكلان (بفتح العين وسكون المثلثة وهو اسم مرتجل) . وذو ثعلبان بالضم (وهو ذكر الثعالب) وذو زهران وذو مكارب (أى ذو مفاصل شداد جمع مكرب كمكرم) وذو مناخ (بالضم) وكان نزل ببعلبك . وذو ظليم واسمه حوشب (وهو العظيم البطن والظليم ذكر النعام) وشهد ذو ظليم صفين مع معاوية انتهى المقصود من نقله . وقد رأيت كتاباً حافلا فى ملوك اليمن و بيان ما كانوا عليه وما وقع لهم من الوقائع والحوادث والله أعلم .

ملوك الشام من العرب الجاهلية

كان بالشام سليح وهم من غسان ويقال من قضاعة . أول ملوكهم النعمان ابن عمرو بن مالك ، ثم من بعده ابنه مالك ، ثم ابنه عمرو بن مالك إلى خروج مُزَيقياء وهو عمرو بن عامر من اليمن فى قومه من الأزد وسمى مزيقياء لأنه كان يمزق كل يوم حلة لا يعود إلى لبسها ثم يهبها وسمى عامر ماء السماء[1] لأنه كان

---

(١) ماء السماء لقب عامر بن حارثة الازدى وهو أبو عمرو مزيقياء الذى خرج من اليمن لما أحس بسيل العرم فسمى بذلك لانه كان اذا أجدب قومه مانهم — أى احتمل مؤنتهم أى قوتهم — حتى يأتيهم الخصب فقالوا هو ماء

يحتبى فى المحل فينوب عن الغيث بالرفد ثم ابن حارثة الغطريف ابن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن قاتل الجوع . ثم دراء بن الأزد ومعه رجل يقال له جذع بن سنان فنزلوا بلاد عَكّ فقتل جذع ملك بلاد عك . وافترقت الأزد والملك فيهم حينئذ ثعلبة بن عمرو بن عامر فانصرف عامله لحارب جرهم وأجلاهم عن مكة واستولوا عليها زماناً ثم أحدثوا إحداثاً . وجاء قصى بن كلاب فجمع معداً وبذلك سمى مجمعاً واستعان ملك الروم فأعانه وحارب الأزد فغلبهم واستولى على ملكه دونهم فلما رأت الأزد ضيق العيش بمكة ترحلت وانخزعت خزاعة[1] لولاية البيت وبذلك سميت فسار بعض الأزد إلى السواد فملكوا عليهم مالك بن فهم وهو أبو جذيمة الأبرش ، وسار قوم إلى يثرب وهم الأوس والخزرج وسار قوم إلى عمان ، وسار قوم إلى الشام وفيهم جذع بن سنان وأتاه عامل الملك فى خرج وجب عليه فدفع إليه سيفه رهناً ، فقال الرومى أدخله فى كذا من أم الآخر فغضب جذع وقنعه[2] به فقتله فقيل « خذ من جذع ما أعطاك » وسارت مثلا ، وولوا الشام ، فكان أولهم الحارث بن عمرو ، ومحرق سمى بذلك لأنه أول من حرق العرب فى بيوتها وهو الحارث الأكبر يكنى أبا شمر . ثم ابنه الحارث بن

السماء لانه خلف منه وقيل لولده بنو ماء السماء وهم ملوك الشام ، قال بعض الأنصار :

انا ابن مزيقيا عمرو وجدى أبوه عامر ماء السماء

وماء السماء أيضا لقب أم المنذر بن أمرئ القيس بن عمرو بن عدى بن ربيعة ابن نضر اللخمى وهى ابنة عوف بن جشم من النمر بن قاسط وسميت بذلك لجمالها وقيل لولدها بنو ماء السماء وهم ملوك العراق قال زهير :

ولازمت الملوك من آل نصر وبعدهم بنى ماء السماء

وفى حديث أبى هريرة أمكم هاجر يابنى ماء السماء يريد العرب لأنهم كانوا يتبعون قطر السماء فينزلون حيث كان

(١) خزاعة بلا لام حى من الازد سموا بذلك لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب فانتهوا الى مكة تخزعوا عن قومهم أى تخلفوا عنهم وأقاموا بمكة وفى الصحاح : لأن الازد لما خرجت من مكة لتتفرق فى البلاد تخلفت عنهم خزاعة واقامت بها . قال الشاعر :

فلما هبطنا بطن مر تخزعت خزاعة عنا فى حلول كراكر

(٢) قنع رأسه بالسيف : غشاه به ضربا

أبى شمر وهو الحارث الأعرج وأمه مارية ذات القرطين[1] وهى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية الكندى وأختها هند الهنود امرأة حجر آ كل المرار[2] الكندى . عن أبى عبيدة قال : كان أبو قيس بن رفاعة يَفِد سنة إلى النعمان اللخمى بالعراق وسنة إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى بالشام . وقال له يوماً وهو عنده : يا ابن رفاعة بلغنى عنك إنك تفضل النعمان على ؟ فقال : « وكيف أفضله عليك أبيت اللعن فوالله لقفاك أحسن من وجهه . ولأمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أجود من نداه ، ولقليلك أنفع من كثيره ، ولثمالك أغزر من غديره ، ولكرسيك أرفع من سريره ، ولجدولك أغمر من بحوره ، وليومك أفضل من شهوره . ولشهرك أبر من دهوره ، ولزندك أورى من زنده ، ولجيدك أغر من خده ، وأنك لمن غسان أرباب الملوك ، وأنه لمن لخم الكثيرى النوك ، فكيف أفضله عليك ؟ » وإلى الحارث الأعرج زحف المنذر الأكبر فانهزم جيشه وقتل هو ثم الحرث الأصغر . ثم الحرث الأعرج بن الحرث الأكبر . ومن ولد الحرث الأعرج عمرو بن الحرث وكان يقال له أبو شمر الأصغر . وله يقول النابغة الذبيانى :

علىَّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمة لوالده ليست بذات عقاربِ[3]

---

(١) القرط الشنف أو المعلق فى شحمة الاذن وفى المثل خذه ولو بقرطى مارية قال فى التاج : هى بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية الكندى أم الحارث بن أبى شمر الغسانى وهى أول عربية تقرطت وسار ذكر قرطيها فى العرب وكانا نفيسى القيمة قيل أنهما قوما بأربعين ألف دينار وقيل كانت فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما وقيل هى امرأة من اليمن أهدت قرطيها الى البيت يضرب فى الترغيب فى الشىء وايجاب الحرص عليه أى لايفوتنك على حال وان كنت تحتاج فى احرازه الى بذل النفائس (٢) قال أبو عبيد أخبرنى ابن الكلبى أن حجرا انماسمى آكل المرار لأن ابنة كانت له سباها ملك من ملوك سليح يقال له ابن هبولة فقالت له ابنة حجر كأنك بأبى قد جاء كأنه جمل آكل المرار يعنى كاشرا عن انيابه فسمى بذلك وقيل غير ذلك ، والمرار بالضم شجر مر من أفضل العشب وأضخمه اذا أكلته الابل قلصت عنه مشافرها فبدت أسنانها واحدته مرارة (٣) قوله ليست بذات عقارب أى هينة غير ممنونة والعقارب المنن على التشبيه وعيش ذو عقارب اذا لم يكن سهلا وقيل فيه شر وخشونة قال الاعلم :

حتى اذا فقد الصبو ح يقول عيش ذو عقارب

والنعمان بن الحرث هو أخو الحرث الأصغر . وله يقول النابغة :

هذا غلامٌ حسنٌ وجهه مستقبل الخير سريع التمام

وللنعمان هـذا ثلاثة بنين عمرو وحجر والنعمان . ومن ولد الأعرج أيضاً المنذر والأبهم أبو جبلة ، وجبلة آخر ملوك غسان وكان طوله اثنى عشر شبراً وهو الذى تنصر [١] فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

ملوك الحيرة من العرب

الحيرة هى أرض فى العراق بلدة كانت قريبة من الكوفة . قال الهمدانى فى كتاب (جزيرة العرب) : سار تبع أبو كرب فى غزوته الثانية فلما أتى موضع الحيرة خلف هناك مالك بن فهم بن غنم بن دوس على أثقاله وتخلف معه من ثقل من أصحابه فى نحو اثنى عشر ألفاً وقال تحيروا هذا الموضع فسمى الموضع الحيرة (وهو من قولهم تحير الماء إذا اجتمع وزاد وتحير المكان بالماء إذا امتلأ) ، فمالك أول ملوك الحيرة وأبوهم وكانوا يملكون ما بين الحيرة والأنبار وهيت ونواحيها وعين التمر وأطراف البرارى الغمير والقطقطانة وحفية وكان مكان الحيرة أطيب البلاد وأرقه هواءً وأخفه ماء وأعذبه تربة وأصفاه جواً قد تعالى عن عمق الأرياف ، وانضع عن حزونة الغائط واتصل بالمزارع والجنان والمتاجر العظام لأنها كانت من ظهر البرية على مرفأ [٢] سفن البحر من الهند والصين وغيرهما انتهى . . قال ابن رشيق فى العمدة . وملك بعد مالك بن فهم ابنه جذيمة بن مالك وهو الأبرش والوضاح وكان ملكه ستين سنة . . ثم عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة اللخمى

---

(١) حدثنا شيخنا المؤلف انه عثر بعد تأليف هذا الكتاب وطبعه على نسخة مخطوطة قديمة من كتاب (ما اتحد لفظه واختلف معناه) لابن الشجرى ، فرأى فيه تكذيب قصة جبلة مع امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفيه أن جبلة ارتد من نفسه ، وهذا الكتاب ارسله صاحبه بواسطة الاستاذ الى بعض الوارقين فى مصر للطبع فانكره عامله الله بعذله ويقال أنه قد باعه لبعض الافرنج والطامة أعظم ! والكتاب نفيس جم الفوائد كبير المنفعة فريد فى بابه نادر الوجود (٢) يقال رفأ السفينة يرفؤها رفأ ادناها من الشط والموضع مرفأ بالفتح ويضم كمكرم واختاره الصاغانى .

وعمرو هذا هو ابن أخت جذيمة الأبرش وفيه قيل « شب عمرو عن الطوق (١) » ثم امرؤ القيس بن عمرو بن عدى . ويقال بل الحرث بن عمرو وأنه هو الذى كان يدعى محرقاً . ثم النعمان بن امرئ القيس وهو النعمان الأكبر الذى بنى الخورنق ، وكانت له خمس كتائب الرهائن والصنائع والوضائع والأشاهب ودوسر أما (الرهائن) فإنهم خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة ، ثم يجىء بدلهم خمسمائة أخرى و ينصرف أولئك إلى أحيائهم فكان الملك يغزو بهم و يوجههم فى أموره . وأما (الصنائع) فبنو قيس و بنو تيم اللات ابْنَىْ ثعلبة وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه . وأما (الوضائع) فإنهم كانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك الملوك بالحيرة نجدة لملوك العرب وكانوا أيضاً يقيمون سنة ثم يأتى بدلهم ألف رجل و ينصرف أولئك وأما (الأشاهب) فإخوة ملك العرب و بنو عمه ومن يتبعهم من أعوانهم سموا الأشاهب لأنهم كانوا بيض الوجوه . وأما (دوسر) فإنها كانت أخشن كتائبه وأشدها بطشاً ونكاية » وكانوا من كل قبائل العرب وأكثرهم من ربيعة سميت دوسراً اشتقاقاً من الدسر وهو الطعن بالثقل لثقل وطئتها قال الشاعر :

ضربتْ (دوسرُ) فيهم ضربةً ... أثبتت أوتادَ ملكٍ فاستقر (٢)

وكان ملك العرب عند رأس كل سنة وذلك أيام الربيع تأتيه وجوه العرب وأصحاب الرهائن وقد صير لهم أكلاً عنده وهم ذوو الآكال فيقيمون عنده شهراً ويأخذون آكالهم و يبدلون رهائنهم و ينصرفون إلى أحيائهم ؛ (والآكال سادة الأحياء الذين يأخذون المرباع (٣)) . ثم المنذر بن امرىء القيس وهو المنذر الأكبر ابن ماء السماء أبو النعمان الأكبر . ثم المنذر بن المنذر وهو الأصغر .

---

(١) يضرب مثلا للشىء يكبر عنه الانسان واياه عنى السرى بقوله :

تصاحى فاضحى بعد سلوته شبا ... وعاود عمرو طوقه بعد ماشبا

(٢) البيت للمثقب العبدى يمدح عمرو بن هند (٣) يكسر الميم ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية ثم صار خمسا فى الاسلام .

ثم أخوه عمرو بن المنذر وهو عمرو بن هند وسمى محرقا أيضاً[1] لانه حرق بنى تميم . وقيل بل حرق نخل اليمامة . ثم النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبيانى وهو آخر ملوك لخم . ثم ولى بعده إياس بن قبيصة الطائى ثمانية أشهر . واضطرب ملك فارس وضعف وكانت ملوك الحيرة من تحت أيديهم وأتى الله تعالى بالإسلام فعز أهله بالنبى عليه الصلاة والسلام .

قصة عمرو بن عدى اللخمى

أول ملوك الحيرة من لخم مع خبر عدى

ملك عمرو بن عدى الحيرة بعد خاله جذيمة مائة وثمان عشرة سنة وهو أول من ملك من ملوك لخم وكان مدة ملك لخم بالحيرة خمسمائة سنة وكان من حديث عدى أن جذيمةَ قال ذات يوم لندمائه : لقد ذكر لى غلام من لخم فى أخواله من بنى إياد له ظرف وأدب فلو بعثت إليه ووليته كأسى ، والقيام على رأسى ، لـكان الرأى فقالوا : الرأى مارآه الملك فليبعث إليه ففعل فلما قدم عليه قال : من أنت ؟ قال : أنا عدى بن نصر فولاه مجلسه فعشقته رقاش بنت مالك أخت

(١) كان عمرو بن هند شديد البأس وكان له أخ مسترضع فى بنى تميم فخرج يوما يتصيد فمر بابل لرجل من بنى تميم فرأى فيها ناقة حسنة فرماها فعقرها فجاء صاحبها فلما رآها معقورة وثب عليه فقتله ، فنذر عمرو بن هند أن يقتل من بنى تميم مائة بدلا منه فغزاهم يوم ادارة فسبى ما أصاب فى بلادهم وأقبل يقتلهم على الثنية وآلى ليقتلنهم حتى يبلغ الدم الى الارض وليحرقنهم فقيل له أيها الملك لترفعن السيف أوقد أفنيتهم ! فقال والله لا تركتهم أو تأتونى بمائة رجل من خيارهم فطلبوا فلم يوجد منهم الا تسعة وتسعون رجلا فلما جىء بهم أمر بحفر زبية فاحتفرت له ، ثم قال اضرموا نارا والقوا فيها الحطب فاججت نار عظيمة فقال القوا فيها رجلا رجلا وبقى واحد من نذره فبينما هم كذلك اذ هم برجل راكب قد طلع عليهم وكان من البراجم فأبصر الدخان ووجد قتار لحومهم (أى ريح لحومهم وعظامهم المحرقة) على بعد فظن أنه طعام يصنع للناس فاقبل نحوهم فلما بلغ ورأى ما رأى جزع فقال عمرو انظروا من الرجل فأخذ فأتى به اليه فقال من أنت ؟ فقال أبيت اللعن انا وافد البراجم ، فقال عمرو : (ان الشقى وافد البراجم) ، ثم أمر به فقذف فى النار فتم نذره ، والبراجمة من بنى تميم وفى ذلك يقول جرير يعير الفرزدق :

واخزاكم عمرو كما قد خزيتم   وادرك عمارا شقى البراجم

جذيمة فقالت له : إذا سقيت القوم فامزج لهم وعرق الملك (أى امزج له قليلا كالعرق) فإذا أخذت الخمر منه فاخطبنى إليه فإنه يزوجك فأشهد القوم إن فعل . ففعل الغلام وخطبها فزوجه وأشهد عليه وانصرف إليها فعرفها فقالت : عرس بأهلك . فلما أصبح غدا متضمخاً بالخَلوق [١] فقال له جَذيمة : ما هذه الآثار يا عدىّ ؟ قال : آثار العرس . قال : وأى عرس ؟ قال : عرس رَقاش . فنخر [٢] وأكب على الأرض ورفع عدىٌّ جراميزَه [٣] فأسرع جذيمة فى طلبه فلم يجده وقيل بل قتله و بعث إليها : —

حدثينى وأنت لا تكذبينى ... أبحرٌّ زنيتِ أم بهجين [٤]

أم بعبدٍ فأنت أهلٌ لعبد ... أم بدون فأنتِ أهلٌ لدونِ [٥]

فأجابته رقاش

أنتَ زوجتنى وما كنت أدرى ... وأتانى النســاء للتزيين

ذاك من شربك المدامة صرفاً ... وتماديك فى الصبا والمجُون [٦]

فنقلها جذَيمة إليه وحصنها فى قصره فاشتملت على حمل وولدت غلامًا فسمته عمراً حتى إذا ترعرع حلته وعطرته ثم أزارته خاله فأعجب به وألقيت عليه محبة منه ثم إن جذيمة نزل منزلاً وأمر الناس أن يجتنوا له الكمأة فكان بعضهم إذا وجد شيئاً منها يعجبه آثر به نفسه على جذيمة وكان عمرو بن عدى يأتيه بخير ما يجد فعندها يقول عمرو :

هذا جَناى وخيارُه فيه ... إذ كل جان يَدُهُ إلى فيه

ثم إن الجن استهوته فطلبه جذيمة فلم يسمع له خبراً فكف عنه ثم أقبل رجلان

---

(١) التضمخ لطخ الجسد بالطيب حتى كانه يقطر ، والخلوق على وزن صبور ضرب من الطيب (٢) أى مد الصوت والنفس فى خياشيمه .

(٣) أى نكص وفر (٤) رواية القاموس : (حدثينى وأنت غير كذوب) . والهجين : اللئيم (٥) عبد والد من أمة أو من أبوه خير من أمه ، والدون : الخسيس (٦) المدامة : الخمرة ، وصرفا أى لم تمزج ، والمجون : الهزل .

من بنى القين يقال لأحدهما مالك وللآخر عقيل ابنا فالج ويروى فارح [١] — من من الشام وهما يريدان الملك بهدية فنزلا على ماء ومعهما قينة يقال لها أم عمرو فنصبت لها قدراً وهيأت لهما طعاماً فبينما هما يأكلان إذ أقبل رجل أشعث الرأس قد طالت أظفاره وساءت حاله ومدَّ يده فناولته القينة طعاماً فأكله، ثم مدَّ يده فقالت القينة أعطى العبد كراعاً فطلب ذراعاً فأرسلتها مثلا . ثم ناولت صاحبيها من شرابهما وأوكت سقاءها . فقال عمرو بن عدى :

صددت الكأسَ عنا أمَّ عمرو   وكان الكأسُ مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة أمَّ عمرٍو   بصاحبك الذى لا تُصبحينا [٢]

ويروى هذا الشعر لعمرو بن كلثوم التغلبي . ويقال إن عمرو بن كلثوم أدخله فى معلقته فقال له الرجلان : من أنت ؟ قال أنا عمرو بن عدى فقاما إليه وسلما عليه وقلما أظفاره وقصرا من شعره وألبساه من طرائف ثيابهما وقالا : ما كنا نهدى إلى الملك هدية هى أنفس عنده ولا هو عليها أحسن عطاء من ابن أخته قد رده الله عليه فلما وقفا بباب الملك بشراه فسرَّ به وصرفه إلى أمه وقال : لكما حكمكما . فقالا : حكمنا منادمتك ما بقيت وبقينا . قال : ذلك لكما . فهما ندمانا جذيمة المعروفان وإياهما عنى متمم بن نويرة بقوله فى مرثيته لأخيه مالك بن نويرة :

وكنا كندمانَىْ جذيمةَ حقبةً   من الدهر حتى قيل ان يتصدّعا [٣]

---

(١) فى القاموس ابنا فارج (بالراء والجيم) قال الشارح كذا فى العباب ويقال ابنا فالج أيضا باللام كما فى شرح الدريدية لابن هشام اللخمى

(٢) قوله صددت المشهور صبنت أى صرفت وصبحت فلانا أى ناولته صبوحا من لبن أو خمر ، وقد زعم بعض الرواة أن هذين البيتين لعمرو بن معد يكرب وأخذهما عمرو بن كلثوم فى معلقته (٣) الحقبة من الدهر مدة لا وقت لها ، ويضرب المثل بمالك وعقيل لطول ما نادماه كما يضرب باجتماع الفرقدين، والبيتان من قصيدته المشهورة المتخيرة فى المراثى ونذكر بعضا منها فمن ذلك قوله :

أقول وقد طار السنا فى ربابه   وغيث يسح الماء حتى تريعا
سقى الله ارضا حلها قبر مالك   ذهاب الغوادى المدجنات فأمرعا
وآثر سيل الواديين بديمة   ترشح وسميا من النبت خرءعا
تحيته منى وان كان نائيا   واضحى ترابا فوقه الارض بلقعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكاً   لطول اجتماعٍ لم نبِتْ ليلةً معا

وقال أبو خراش الهذلى يرثى أخاه عروة :

ألم تعلمى أن قد تفرق قبلنا   نديما صفاء مالك وعقيل

وروى أن جذيمة كان لا ينادم أحداً كبراً وزهواً وكان يقول : أنا أعظم من أن أنادم إلا الفرقدين فكان يشرب كأساً و يصب لكل واحد منهما كأساً فلما أتى مالك وعقيل نادماه أربعين سنةً ما أعادا عليه حديثاً ثم إن أم عمرو جعلت فى عنقه طوقاً من ذهب لنذر كان عليها ثم أمرته بزيارة خاله فلما رأى لحيته والطوق فى عنقه قال « شب عمرو عن الطوق » فذهبت مثلاً وأقام عمرو مع خاله جذيمة قد حمل عنه عامة أمره إلى أن قتل .

فما وجد اظآر ثلاث روائم   واين مجرا من حوار ومصرعا
يذكرن ذا البث الحزين ببثه   اذا حنت الاولى سجعن لها معا
بأوجع منى يوم فارقت مالكا   ونادى به الناعى الرفيع فاسمعا

وفيها :

وكنا كندمانى جزيمة الخ البيتين

وعشنا بخير فى الحياة وقبلنا   أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فان تكن الايام فرقن بيننا   فقد بان محمودا أخى يوم ودعا
تقول ابنة العمرى مالك بعد ما   أراك حديثا ناعم البال أفرعا
فقلت لها: طول الاسى اذ سألتنى   ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا
وفقد بنى ام تفانوا فلم أكن   خلافهم ان استكين واضرعا
ولست اذا ما الدهر أحدث نكبة   ورزءا بزوار القرائب أخضعا
ولا فرح ان كنت يوما بغبطة   ولا جزع ان ناب دهر فأوجعا
ولكننى امضى على ذاك مقدما   اذا بعض من لاقى الخطوب تكعكعا
فعمرك الا تسمعينى ملامة   ولا تنكئى قرح الفؤاد فييجعا
وقصرك انى قد شهدت فلم أجد   بكفى عنه المنية مدفعا
فلو ان ما ألقى أصاب متالعا   أو الركن من سلمى اذا لتضعضعا

وفيها :

لقد كفن المنهال تحت ردائه   فتى غير مبطان العشية أروعا
ولا برم تهدى النساء لعرسه   اذا القشع من برد الشتاء تقعقعا
لبيبا أعان اللب منه سماحة   خصيبا اذا ما رائد الجدب أوضعا
تراه كنصل السيف يهتز للندى   اذا لم تجد عند امرىء السوء مطمعا
اذا ابتدر القوم القداح واوقدت   لهم نار ايسار كفى من تضجعا
بمثنى الايادى ثم لم تلف مالكا   على الفرث يحمى اللحم ان يتمزعا

قصة قصير مع الزباء وخبر قتل جذيمة

كان جذيمة من أفضل الملوك رأيا وأبعدهم مغاراً وأشدهم نكاية . وهو أول من استجمع له الملك بأرض العراق كامر . وكانت منازله مابين الأنبار و بقة وهيت وعين التمر وأطراف البر والقُطقُطانة والحيرة فقصد فى جموعه عمر و بن الظرب بن حسان ابن أذينة بن السميدع بن هو بر العاملى من عاملة العماليق فجمع عمر و جموعه ولقيه فقتله جذيمة وفض جموعه فانفلوا وملكوا بعده عليهم ابنته الزباء . وكانت من أحزم النساء ما رُئِىَ فى نساء زمانها أجملَ منها ، وكانت كبيرة الهمة فخافت أن يغزوها ملوك العرب فاتخذت لنفسها نفقاً[1] فى حصن كان لها على شاطىء الفرات وسكرت الفرات فى وقت قلة الماء و بنت فى بطنه أزجا[2] من الآجر[3] والكلس[4] متصلا بذلك النفَق وجعلت نفقاً آخر فى البرية متصلا بمدينة أختها ثم أجرت الماء عليه فكانت إذا خافت عدوًّا دخلت النفق . فلما استجمع لها أمرها أرادت أن تغزو جذيمة ثائرة بأبيها فقالت لها أختها . وكانت ذات رأى وحزم : الرأىُ ابعثى إليه فأعلميه أنك قد رغبت فى أن تتزوجيه وتجمعى ملكك إلى ملكه وسليه أن يجيبك فإن اغتر ظفرت به بلا مخاطرة . فكتبت إليه بذلك فاستخفه الطمع وشاور أصحابه فكلٌّ صوب رأيه فى قصدها و إجابتها إلا (قصير بن سعد بن عمرو بن جذيمة بن قيس ابن هلال بن نمارة بن لخم) فقال : « هذا الرأى فاتر ، وغدر حاضر ، فإن كانت صادقة فلتُقبل إليك و إلاَّ فلا تمالكها من نفسك » فلم يوافق جذيمة قوله و رحل إليها ، فلما

---

(١) محركة سرب فى الأرض له مخلص الى مكان آخر ومنه قوله تعالى فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء (٢) فى القاموس الازج محركة ضرب من الأبنية وفى الصحاح والمصباح واللسان : الازج بيت يبنى طولا ويقال له بالفارسية أو سنان (٣) هو اللبن بكسر الباء اذا طبخ ومد الهمزة والتشديد أشهر من التخفيف الواحدة آجرة وهو معرب

(٤) بالكسر النورة وأخلاطها قال عدى بن زيد العبادى :

شاده مرمرا وجلله كلسا فللطير فى ذراه وكور

دخل عليها أمرت بقطع رواهشه[١] ونزف دمه[٢] إلى أن مات فخرج قصير إلى عمرو ابن عدى بن أخت جذيمة ، فقال : هل لك فى أن أصرف الجنود إليك على أن تطلب بدم خالك ، فجعل ذلك له فأتى القادة والأعلام فقال : أنتم القادة والرؤساء وعندنا الأموال والكنوز فانصرف إليه منهم بشر كثير وملكوا عمرو بن عدىّ فقال قصير : انظر ما وعدتنى به فى الزباء . قال : وكيف وهى (امنع من عُقاب الجو[٣]) فقال إذا أبيتَ فإنى جادعٌ أنفى وأذنى ومحتال لقتلها فأعنّى وخَلاكَ ذمّ . فقال له عمرو : أنت أبصر فجدع قصير أنفه ثم انطلق حتى دخل على الزباء . فقال : أنا قصير لا ورب البشر ما كان على ظهر الأرض أحد كان أنصح لجذيمة منى ولا أغش لك حتى جدع عمرو بن عدىّ أنفى وأذنى فعرفت أنى لم أكن مع أحد أثقل عليه منك . فقالت : أى قصير نقبل ذلك منك ونصرفك فى بضاعتنا فأعطته مالا للتجارة فأتى بيت مال الحيرة فأخذ مما فيه بأمر عمرو ابن عدى ماظن أنه يرضيها وانصرف إليها به ، فلما رأت ماجاء به فرحت به وزادته ولم يزل بها حتى آنست به ، فقال لها يوماً إنه ليس من ملكة ولا ملك إلا وينبغى لها أن تتخذ نفقاً تهرب إليه عند حدوث حادثة . فقالت : إنى قد فعلت ذلك تحت سريرى هذا يخرج إلى نفق تحت سرير أختى وأرته إياه فأظهر سروراً بذلك وخرج فى تجارته كما كان يفعل وعرف عمرو بن عدىّ ما فعله فركب عمرو فى ألفىْ دارع على ألف بعير فى جُوالق حتى إذا صاروا إليها تقدم قصير ودخل على الزباء ، فقال : اصعدى حائط مدينتك فانظرى إلى مالك فإنى قد جئت بمال صامت[٤] وقد كانت أمِنَتْه فلم تكن تتهمه . فلما نظرت إلى ثقل مشى الجمال قالت وقيل إنه مصنوع منسوب إليها :

---

(١) هى عروق ظواهر الكف (٢) اى سال دمه حتى افرط (٣) مثل يضرب فى الرفعة والمنعة ويقال ان أول من تكلم به هو عمرو بن عدى (٤) الصامت من المال الذهب والفضة والناطق منه الحيوان من الابل والغنم .

ما للجمال مشيها وئيداً أجندلاً يحملن أم حديداً[١]

الأبيات المشهورة . فلما دخلت الإبل خرجوا من الجوالق فثاروا بأهل المدينة ضرباً بالسيف ودخلوا عليها قصرها فهربت تريد السرب فوجدت قصيراً قائماً عنده بالسيف فانصرفت راجعة واستقبلها عمرو بن عدى فضربها وقيل بل مصّت خاتمها ، وقالت « بيدى لا بيد عمرو » وخربت المدينة وسبيت الذرارى وغنم عمرو كل شيء كان لها ولأبيها وأختها ، والله مالك الأمر كله[٢] .

---

(١) مشى مشيا وئيدا أى على تؤدة ، والجندل ما يقله الرجل من الحجارة وقيل هو الحجر كله (٢) قلت : وقد ذكر عدى بن زيد العبادى غدر الزباء بجذيمة الابرش فى قصيدة طويلة فاحببت أن أورد منها ما يناسب المقام، قال:

الا يا أيها المثرى المرجى … الم تسمع بخطب الأولينا
دعا (بالبقة) الامراء يوما … (جذيمة) ينتحى عصبا ثبينا
فطاوع أمرهم وعصى (قصيرا) … وكان يقول لو تبع اليقينا
ودست فى صحيفتها اليه … ليملك بضعها ولأن تدينا
ففاجأها وقد جمعت فيوجا … على أبواب حصن مصلتينا
فاردته ورغب النفس يردى … ويبدى للفتى الحين المبينا
وحدثت (العصا) الانباء عنه … ولم أر مثل فارسها هجينا
وقددت الاديم لراهشيه … والفى قولها كذبا ومينا
ومن حذر الملاوم والمخازى … وهن المندبات لمن منينا
أطف لانفه الموسى قصير … ليجدعه وكان به ضنينا
فاهواه لمارنه فاضحى … طلاب الوتر مجدوعا مشبنا
وصادفت امرءا لم تخش منه … غوائله وما أمنت أمينا
فلما ارتد منها ارتد صبا … يجر المال والصدر الضغينا
اتتها العيس تحمل مادهاها … وقنع فى المسوح الدارعينا
ودس لها على الانفاق (عمرا) … بشكته وما خشيت كمينا
فجللها قديم الاثر عضبا … يصك به الحواجب والجبينا
فأضحت من خزائنها كأن لم … تكن (زباء) حاملة جنينا
وابرزها الحوادث والمنايا … وأى معمر لا يبتلينا
اذا أمهلن ذا جد عظيم … عطفن له ولو فرطن حينا
ولم أجد الفتى يلهو بشيء … ولو اثرى ولو ولد البنينا

ألقاب الملوك الدائرة بين العرب

وما يناسب ذلك

كانت العرب تسمى (قيصر) لمن ملك الشام مع الجزيرة من الروم قال المسعودى فى كتابه مروج الذهب : وتفسير (قيصر) أى شق عنـه وذلك أن أغستس الذى هو الثانى من ملوكهم ماتت أمه وهى حامل به فشق بطنها فـكان هذا الملك يفتخر فى وقته بأن النساء لم تلده وكذلك من حدث بعده من ملوك الروم انتهى . وتسمى من ملك الفرس (بكسرى) و (النجاشى) لمن ملك الحبشة و (المقوقس) لمن ملك الاسكندرية . و (فرعون) لمن ملك مِصْرَ كافراً . و (بطليموس) لمن ملك الهند . ولهم أعلام أجناس غير ذلك ذكرها الحافظ عماد الدين المعروف بابن كثير الدمشقى فى تاريخه المسمى بالبداية والنهاية . وأذواء اليمن بعضهم ملوك و بعضهم أقيال والقيل دون الملك . قال فى الصحاح : والقيل ملك من ملوك حمير دون الملك الأعظم والمرأة قيلة وأصله قيل بالتشديد كأنه الذى له قول أى ينفذ قوله والجمع أقوال وأقيال أيضاً ومن جمعه على أقيال لم يجعل الواحد منه مشدداً والمقول بالـكسر القيل أيضاً بلغة أهل اليمن والجمع المقاول . وفى القاموس : القيل الملك أو من ملوك حمير يقول ما شاء فينفذ كالقيل أو هو دون الملك الأعلى ، وفيه أيضاً أن التبابعة ملوك اليمن الواحد كسكر ولا يسمى به إلا إذا كانت له حمير وحضرموت . وفى كتاب أسرار اللغة : أرداف الملوك فى الجاهلية الوزراء فى الإسلام والردافة كالوزارة قال لبيد :

وشهدت أندية الأفاقة عالياً   كعبى وأرداف الملوك شهود

والأقيال لحمير كالبطاريق للروم والقواد للعرب انتهى . وفى لب اللباب : الردف بكسر فسكون هو الذى يجلس على يمين الملك فإذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس و إذا غزا الملك قعد الردف فى موضعه وكان خليفته على النـاس

حتى ينصرف وإذا عادت كتيبة الملك أخذ الردف ربع الغنيمة ، وكان لهم « عرفاء » والعريف عندهم القيم بأمر القبيلة والمحلة يلى أمرهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم ، وهو الذى عناه طريف بقوله :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة　　بعثوا إلىّ عريفهم يتوسم (١)

---

(١) كانت فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا تقنعوا حتى لا يعرفوا ، وذكر عن طريف بن تميم العنبرى هذا انه كان لا يتقنع كما يتقنعون فوافى عكاظ سنة وقد حشدت بكر بن وائل وكان طريف قبل ذلك قد قتل شراحيل الشيبانى فقال حصيصة بن شراحيل أرونى طريفا فاروه اياه فجعل كلما مر به طريف تأمله ونظر اليه حتى فطن له طريف فقال له : مالك تنظر الى مرة بعد مرة ؟ فقال : اتوسمك لاعرفك فلله على لئن لقيتك فى حرب لاقتلنك أو لتقتلنى فقال طريف عند ذلك :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة　　بعثوا الى عريفهم يتوسم ؟
فتوسمونى اننى انا ذالكم　　شاكى السلاح فى الحوادث معلم
تحتى الاغر وفوق جلدى نثرة　　زغف ترد السيف وهو مثلم
حولى أسيد والهجيم ومازن　　واذا حللت فحول بيتى خضم

ثم ان بنى عائذة خلفاء بنى ربيعة من ذهل بن شيبان خرج منها رجلان يصيدان فعرض لهما رجل من بنى شيبان فذعر عليهما صيدهما فوثبا عليه فقتلاه فثارت بنو مرة بن ذهل بن شيبان يريدون قتلهما فأبت بنو ربيعة عليهم ذلك فقال هانىء بن مسعود وهو رئيسهم : يابنى ربيعة ان اخوانكم قد أرادوا ظلمكم فانحازوا عنهم ففار قومهم فساروا حتى نزلوا بمنابض ماء لهم فأبق عبد لرجل من بنى ربيعة وسار الى بلاد تميم فأخبرهم أن حيا جريدا من بنى بكر بن وائل نزل على منابض وهم بنو ربيعة والحى الجريد المنتقى من قومه فقال طريف : هؤلاء ثارى ياآل تميم انما هم أكلة رأس وأقبل فى بنى عمرو بن تميم فانذرت بهم بنو ربيعة فانحاز بهم هانىء بن مسعود رئيسهم الى علم منابض وأقاموا عليه وسرحوا بالأموال والسرح وصحبتهم تميم فقال لهم طريف : افزعوا من هؤلاء الاكلب يصف لكم ماوراءهم ، فقال له بعض رؤساء قومه: اتقاتل أكلبا أحرزوا أنفسهم وتترك اموالهم ماهذا برأى ! وأبو اعليه ، وقال هانىء لأصحابه لايقاتل رجل منكم فلحقت تميم بالنعم والعيال فأغاروا عليهما فلما ملأوا أيديهم من الغنيمة قال هانىء لأصحابه: احملوا عليهم فهزموهم وقتل يومئذ طريف بن العنبرى قتله حصيصة الشيبانى ابن شراحيل وقال فى ذلك :

ولقد دعوت طريف دعوة جاهل　　سفها وأنت بمعلم قد تعلم
واتيت حيا فى الحروب محلهم　　والجيش باسم ابيهم يستهزم
فوجدت قوما يمنعون ذمارهم　　بسلا اذا هاب الفوارس اقدموا
واذا دعوا ببنى ربيعة شمروا　　بكتائب دور السماء تلملم
حشدوا عليك وعجلوا بقراهم　　وحموا ذمار ابيهم ان يشتموا
سلبوك درعك والأغر كليهما　　وبنو أسيد اسلموك وخضم

يريد أن له على كل قبيلة جنايةً فإذا وردوا عكاظ طلبه الكافل بأمرهم وهذا مدح فى العرب للجرىء منهم . وقيل إنما بعثوا إليه لأنه لا يتم إظهار مفاخرهم إلا بحضرته لأنه الرئيس على كل شريف ، والقاضى على كل مجد منيف ، وقد جاء ذكرالعريف فى حديث رواه أبو داود فى سننه قال حدثنا مسدد حدثنا بشر بن الفضل حدثنا غالب بن القطان عن رجل عن أبيه عن جده : أنهم كانوا على منهل من المناهل فلما بلغهم الإسلام جعل صاحب الماء لقومه مائةً من الإبل على أن يسلموا فأسلموا وقسم الإبل بينهم و بدا له أن يرتجعها منهم فأرسل ابنه إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له ائت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقل له أبى شيخ كبير وهو عريف الماء وأنه يسألك أن تجعل لى العرافة بعده فأتاه فقال إن أبى يقرئك السلام . فقال : عليك وعلى أبيك السلام . فقال : إن أبى جعل لقومه مائة من الإبل على أن يسلموا فأسلموا وحسن إسلامهم ثم بدا له أن يرتجعها منهم أفهو أحق بها أم هم ؟ قال : إن بدا له أن يسلمها إليهم فليسلمها و إن بدا له أن يرتجعها منهم فهو أحق بها منهم فإن أسلموا فلهم إسلامهم و إن لم يسلموا قوتلوا على الإسلام . فقال . إن أبى شيخ كبير وهو عريف الماء وأنه يسألك أن تجعل لى العرافة بعده فقال إن العرافة حق ولا بد للناس من عرفاء ولكن العرفاء فى النار.قوله العرافة حق يريد أن فيها مصلحةً للناس ورفقاً فى الأمور ألا ترى أنه قال ولا بد للناس من عرفاء . وقوله العرفاء فى النار معناه التحذير من التعرض للرئاسة والتأمر على الناس لما فى ذلك من المحنة والفتنة وأنه إذا لم يقم بحقه ولم يؤد الأمانة فيه أثم واستحق من الله سبحانه العقوبة وخيف عليه دخول النار « وأما الرائد » فهو الذى كان يتقدم القوم لطلب الماء والكلأ للنزول عليه . وكان لكل قبيلة من العرب رائد له بصر وخبرة بحال الأراضى والمياه وغير ذلك . قال الشاعر :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها فكل حتف امرىءٍ يجرى بمقدار

أى أقيموا نقاتل فإن موت كل نفس يجرى بقدر الله تعالى لا الجبن ينجيه ولا الإقدام يرديه .

شروط السؤدد عند العرب

قال الجاحظ فى كتاب شرائع المروة : كانت العرب تسود على أشياء أما مضر فتسود ذا رأيها ، وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب ، وكان أهل الجاهلية لا يسوّدون الامن تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وصار فى الإسلام سبعاً . وقيل لقيس بن عاصم : بِمَ سُدْتَ قومك ؟ قال ببذل الندى وكفّ الأذى ونصرة المولى ، وتعجيل القِرَى . وقد يسود الرجل بالعقل والعفة والأدب والعلم . قال بعضهم : السؤدد اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة . وروى عن أبى بكر قال أخبرنى الرياحى عن العتبىّ عن رجل من الأنصار من أهل المدينة قال قال معاوية لعَرابة بن أوْس بن حارثة الأنصارى : بأى شىء سدت قومك يا عرابة ؟ قال أخبرك يا معاوية بأنى كنت لهم كما قال حاتم . قال . وكيف ؟ قال فأنشده :

فأصبحت فى أمر العشيرة كلها كذى الحلم يرضى مايقول و يعرف
وذلك أنى لا أعادى سراتهم ولا عن أخى حراتهم أتنكف[1]
وإنى لأعطى سائلى ولربما أكاف ما لا أستطيع فأكلف
وإنى لمذموم إذا قيل حاتم نبا نبوةً أنّ الكريم يعنف

وإنى — والله — لأعفو عن سفيههم ، وأحلم عن جاهلهم ، وأسعى فى حوائجهم وأعطى سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلى ، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل

---

(١) السراة الاشراف ، ونكف عنه : انف منه وامتنع ، ورواية البيت فى ديوان حاتم المطبوع فى لندن سنة ١٨٧٢ م :

وانى أرمى بالعداوة أهلها وانى بالاعداء لاتنكف (فليحقق)

مني ، ومن قصر عن فعلي فأنا خير منه . فقال معاوية : لقد صدق الشماخ إذ يقول فيك :

رأيت عَرَابة الأوسيّ يسمو ... إلى الخيرات منقطعَ القرين

إذا ما راية رُفعتْ لمجدٍ ... تلقاها عَرابةُ باليمين[1]

وقال الأصمعي : ذكر أبو عمرو بن العلاء عيوبَ جميع السادة وما كان فيهم من الخلال المذمومة إلى أن قال : ما رأيت شيئاً يمنع من السؤدد إلا قد رأيناه في سيدٍ ، وجدنا الحداثة تمنع السؤدد وساد أبو جهل بن هشام وما طر شاربه ودخل دار الندوة[2] وما استوت لحيته . ووجدنا البخل يمنع السؤدد ، وكان أبو سفيان بخيلا عاهراً . وكان عامر بن الطفيل بخيلا قاهراً وكان سيداً والظلم يمنع من السؤدد، وكان كليب بن وائل ظالماً وكان سيد ربيعة ، وكان حذيفة بن بدر ظالماً وكان سيد غطفان والحمق يمنع السؤدد ، وكان عيينة بن حصن أحمق وكان سيداً وقلة العدد تمنع السؤدد ، وكان شبل بن معبد سيداً ولم يكن بالبصرة من عشيرته رجلان والفقر يمنع السؤدد . وكان عتبة بن ربيعة مملقاً[3] وكان سيداً . وينبغي أن الذي يسوده قومه لا يسودونه إلا لشيء من الخصال الجميلة والأمور المحمودة رآها قومه فيه فسودوه لأجلها والله الموفق .

---

(١) ذكر المبرد وابن قتيبة ومحمد بن سعد أن الشماخ خرج يريد المدينة فلقيه عرابة بن أوس فسأله عما أقدمه المدينة فقال : أردت أن أمتار لاهلي وكان معه بعيران فأوقرهما عرابة تمرا وبرا وكساه وأكرمه فخرج من المدينةوامتدحه بالقصيدة التي يقول فيها :

رأيت عرابة الاوسي يسمو الخ ...

(٢) هي بمكة معروفة بناها قصي بن كلاب لانهم كانوا يندون فيها أي يجتمعون المشاورة كما في الصحاح وقال ابن الكلبي وهي أول دار بنيت بمكة بناها قصي ليصلح فيها بين قريش ثم صارت لمشاورتهم وعقد الالوية في حروبهم ، وكانت الجارية اذا حاضت أدخلت دار الندوة ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف درعها ثم درعها اياه وانقلب بها أهلها فحجبوها ولا يعذر غلام أي يختن الا فيها وكانت مخصوصة بولد عبد الدار أيضا (٣) من الاملاق وهو الفقر

بيوتات العرب

إعلم أن كل أحد يدعى لنفسه سابقة ويمت[1] بفضيلة غير أن الصحيح ما اتفق عليه العلماء وتداولته الرواة . قال ابن الكلبي : كان أبى يقول : « العدد من تميم فى بنى سعد ، والبيت فى بنى دارم والفرسان فى يربوع والبيت من قيس فى غطفان ثم فى بنى فزارة والعدد فى بنى عامر والفرسان فى بنى سُليم والعدد من ربيعة ، والبيت والفرسان فى شيبان » قال ابن سلام الجمحى : كان يقال « إذا كنت من تميم ففاخر بحنظلة وكاثر بسعد وحارب بعمرو . وإذا كنت من قيس ففاخر بغطفان وكاثر بهوازن وحارب بسليم . وإذا كنت من بكر ففاخر بشيبان وكاثر بشيبان وحارب بشيبان » . قال أبو عبيدة : ليس فى العرب أربعة إخوة أنجب ولا أعد ولا أكثر فرساناً من بنى ثعلبة بن عكابة . وكان يقال له الأغر والحصن وبنوه شيبان وذهل وقيس وتيم الله . قال : وفارس غطفان الربيع بن زياد العبسى وفاتكها الحارث بن ظالم وحكمها هرم بن قطبة وجوادها هرم بن سنان المرى وشاعرها النابغة الذبيانى . وفارس بنى تميم عتيبة بن الحرث بن شهاب أحد بنى يربوع . وفارس عمرو بن تميم طريف بن تميم العنبرى . وفارس دارم عمرو ابن عمرو بن عدس . وفارس سعد فدكى بن المنقرى . وفارس الرباب زيد الفوارس ابن حصين الضبى . وفارس قيس عامر بن الطفيل . وفارس ربيعة بسطام بن قيس . قال أبو عبيدة : بيوتات العرب ثلاثة : فبيت قيس فى الجاهلية بنو فزارة ومركزه بنو بدر . وبيت ربيعة بنو شيبان ومركزه ذو الجدين . وبيت تميم بنو عبد الله بن دارم ومركزه بنو زرارة . وقال أبو عمرو بن العلاء : بيت بنى سعد اليوم آل الزبرقان بن بدر من بنى بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد . وبيت بنى ضبة بنو ضرار بن عمرو الرديم . وبيت بنى عدى بن عبد مناة آل شهاب من

(١) المت التوسل والتوصل بقرابة أو حرمة أو غير ذلك

بنى ملـكان . و بيت التيم آل النعمان بن جساس . قال الجمحى : فارس اليمن فى بنى ز بيد عمر و بن معديكرب . وشاعرها امرؤ القيس و بيتها فى كندة الأشعث بن قيس لايختلف فى هذا و إنمـا اختلف فى نزار . قال : وأما الشرف ما كان قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واتصل فى الإسلام . وقال أبو إياس البصرى : كان بيت قيس فى آل عمر و بن الظرب العدوانى . ثم فى غنىّ فى آل عمر و بن يربوع ثم تحول إلى بنى بدر لجاء الإسلام وهو فيهم . وقال الأخفش : على بن سليمان فرعا قريش هاشم وعبـد شمس . وفرعا غطفان بدر بن عمر و بن لوذان وسيار بن عمر و بن جابر . وفرعا حنظلة ر باح وثعلبة ابنـا يربوع . وفرعا ر بيعة بن عامر بن صعصعة جعفر وأبو بكر ابنا كلاب . وفرعا قضاعة عذرة والحرث بن سعد ، قاله ابن رشيق فى العمدة . ومن كان له شرف فى الجاهلية لم يغيره الإسلام وعلى ذلك ورد الحـديث : الناس معادن خيارهم فى الجـاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فَقُهوا . و وجه التشبيه أن المعدِن لمـا كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صـفته فـكذلك صفة الشرف لاتتغير فى ذاتها بل من كان شريفاً فى الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس فإن أسلم استمر شرفه ، وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين فى الجاهلية . وأما قوله إذا فَقُهوا ففيه إشـارة إلى أن الشرف الإسـلامى لايتم إلا بالتفقه فى الدين ، وعلى هذا فتنقسم الناس أر بعة أقسام مع مايقابلها . الأول شريف فى الجاهلية أسلم وتفقه و يقابله مشروف فى الجاهلية لم يسلم ولم يتفقه الثانى شريف فى الجاهلية أسلم ولم يتفقه و يقابلة مشروف فى الجاهلية لم يسلم وتفقه . الثالث شريف فى الجاهلية لم يسلم ولم يتفقه و يقابله مشروف فى الجاهلية أسلم ثم تفقه . الرابع شريف فى الجاهلية لم يسلم وتفقه و يقابله مشروف فى الجاهلية أسلم ولم يتفقه فأرفع الأقسام من شرف فى الجاهلية ثم أسلم وتفقه و يليه من كان مشروفاً ثم أسلم وتفقه ، و يليه من كان شريفا فى الجاهلية ثم أسلم ولم يتفقه ، و يليه من كان مشروفا ثم أسـلم ولم يتفقه . وأما من لم يُسلم فلا اعتبار به سواء كان شريفا أو مشروفا وسواء تفقه أو

لم يتفقه . والمراد بالخيار والشرف وغير ذلك من كان متصفاً بمحاسن الأخلاق كالكرم والعفة والحلم وغيرها متوقياً لمساويها كالبخل والفجور والظلم وغيرها .

أول من سن الجوائز من ملوك العرب

قال أبو جعفر النحاس : أصل الجائزة أن يعطى الرجل ما يجيزه ليذهب إلى وجهه وكان الرجل إذا ورد ماء قال لقيمه : أجزنى ! أى أعطنى ماء حتى أذهب لوجهتى وأجوز عنك ثم كثر حتى جعلت الجائزة عطية . قال الراجز :

يا قيِّمَ المـاء فدتك نفسى أحسنْ جوازى وأقل حبسى

وقال ابن قتيبة : أصل الجائزة والجوائز أن قطن بن عوف[1] بن أصرم من بنى هلال بن عامر بن صعصعة أحد رؤساء العرب ولى فارس لعبد الله بن عامر فمر به الأحنف بن قيس فى جيشه غازياً إلى خراسان فوقف لهم على قنطرة الكر فجعل ينسب الرجل فيعطيه على قدر حسبه فكان يعطيهم مائة مائة فلما كثروا عليه قال أجيزوهم فأجيزوا فهو أول من سن الجوائز . قال الشاعر :

فدًى للأكرمين بنى هلال على علَّاتهم عمى وخالى

همُ سنوا الجوائزَ فى معدٍّ فصارت سنةً أخرى الليالى

وكان كثيراً ما تكون الجائزة بالبدرة وهى عشرة آلاف درهم سميت بذلك لوفورها . قال بعضهم : ومنه سمى القمر ليلة أربع عشرة بدراً لتمامه وامتلائه من النور . ويقال : بل لمبادرته الشمس . وقيل : بل البدرة جلد السخلة إذا فطمت أو الجذع من المعز يملأ مالًا فسمى المال بدرة باسم الوعاء مجازاً . والصلة ما أخذه الرجل من السلطان أو ما يتصل به ثم كثر ذلك حتى قيل لهبة الملك صلة . والله أعلم .

---

(١) وفى عمدة ابن رشيق (ج ٢ ص ٢٤٢) : عبد عوف

دراهم العرب فى الجاهلية

اعلم أن الدراهم كانت فى الجاهلية على نوعين مختلفين بغليَّة وطبرية نوع عليه نقش فارس ، والآخر نقش الروم . فالبغلية نسبة إلى ملك يقال له رأس البغل وهى السود ، كل درهم منها ثمانية دوانيق والطبرية نسبة إلى طبرية الشام وزن كل درهم منها أربعة دوانيق وهى العُتق وفى هذا المقام تفصيل ذكره الإمام الماوردى فى الأحكام السلطانية وكذا غيره من العلماء الأعلام .

تحية ملوك العرب فى الجاهلية

وما يناسب ذلك

إعلم أن عادة الناس الجارية بينهم أن يحيي بعضهم بعضاً عند لقائه وكل طائفة لهم فى تحيتهم ألفاظ وأمور اصطلحوا عليها ، فكان العرب يقولون فى تحيتهم بينهم فى الجاهلية « أنعم صباحاً وأنعموا صباحاً » فيأتون بلفظ أنعموا من النَعمة بفتح النون وهى طيب العيش والحياة ويصلونها بقولهم (صباحاً) لأن الصباح أول النهار فإذا حصلت فيه النعمة استصحب حكمها واستمرت اليوم كله فخصوها بأوله إيذاناً بتعجيلها وعدم تأخرها إلى أن يتعالى النهار . وكذلك يقولون « أنعموا مساء » . فإن الزمان هو صباح ومساء . فالصباح من أول النهار إلى ما بعد انتصافه والمساء من بعد انتصافه إلى الليل . ولهذا يقول الناس « صبحت الله بخير ومساك الله بخير » فهذا هو معنى « أنعم صباحاً ومساء » إلا أن فيه ذكرَ الله . وفى اللب عند شرح قوله :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى وهل يَعِمَنْ من كان فى العصر الخالى

قوله « عم صباحاً » هذه الكلمة تحية عند العرب يقال « عم صباحاً وعم مساء وعم ظلاماً » والصباح من نصف الليل الثانى إلى الزوال . والمساء من الزوال

إلى نصف الليل الأول . قال ابن السيد فى شرح شواهد أدب الـكاتب : يقال وعم يَعِمُ كوعد يعدو ومق يمق ، وذهب قوم إلى أن يعم محذوف من ينعم وأجازوا عم صباحاً بفتح العين وكسرها كما يقال أنعم صباحاً وأنعم ، وزعموا أن بعض العرب أنشأ « ألا عَمْ صباحاً أيها الطال البالى » بفتح العين . وحكى يونس أن أبا عمرو بن العلاء سئل عن قول عنترة (وعمى صباحاً دارَ عبلة واسلمى)[1] فقال هو من نعم المطر إذا كثر ونعم البحر إذا كثر زبده كأنه يدعو لها بالسقيا وكثرة الخير وقال الأصمعى والفراء : إنما هو دعاء بالنعيم والأهل وهو المعروف وما حكاه يونس نادر غريب انتهى « وكان الفرس » يقولون فى تحيتهم « هزار صال بِمانى » أى تعيش ألف سنة . وكل أمة لهم تحية من هذا الجنس أو ما أشبهه ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئآت خاصة عنـد دخولهم عليهم كالسجود ونحوه ، وألفاظ خاصة يتميز بها تحية الملك من تحية السُوقة ، كما كان العرب فى الجاهلية يخصون ملوكهم عند التحية بقولهم « أبيت اللعن » أى أبيت أن تأتى من الأخلاق المذمومة ما تلعن عليه وكانت هذه تحية ملوكَ لخم وجذام ، وكانت منازلهم الحيرة وما يليها . وتحية ملوك غسان « يا خير الفتيان » وكانت منازلهم الشام وتحية بعض القبائل « أسلم كثيراً » وحكى ثعلب عن الفراء أن المشيخة كانوا يضيفون أبيت إلى اللعن على الغلط لأنه إذا أضافه خرج ذماً فيقول أبيت اللعن كأنه شبهوه بالإضافة على الغلط وقال : أراد بيت اللعن أى يأمن هو بيت اللعن والقول هو الأول . والمقصود من كل التحايا الحياة ونعيمها ودوامها ولهذا سميت تحية وهى تفعلة من الحياة ليلزمه من الـكرامة لـكن أدغم المِثْلان فصار تحية . وقد شرع الملك القدوس السلام تبارك وتعالى لأهل الإسلام تحية بينهم « سلام عليكم » . وكانت أولى من جميع تحيات الأمم التى منها ما هو محال

---

(١) صدره : (يادار عبلة بالجوآء تكلمى) والجواء بلد فى نجد والبيت من معلقته الشهيرة

وكذب نحو قولهم « تعيش ألف سنة » وما هو قاصر المعنى مثل « أنعم صباحاً » ومنها مالا ينبغى إلا الله مثل السجود . فكانت التحية بالسلام أولى من ذلك كله لتضمنها السلامة التى لا حياة ولا فلاح إلا بها فهى الأصل المقدم على كل شىء ومقصود العبد من الحياة إنما يحصل بشيئين بسلامته من الشر وحصول الخير كله . والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير وهى الأصل ولهذا إنما يهتم الإنسان بل كل حيوان بسلامته أولا ثم غنيمته ثانياً . على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير فإنه لوفاته حصل له الهلاك والعطب والنقص والضعف . ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة فتضمنت السلامة نجاته من كل شر وفوزه بالخير فانتظمت الأصلين اللذين لا تتم الحياة إلا بهما مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له وحذف التاء منها لما ذكرنا من إرادة الجنس لا السلامة الواحدة . ولما كانت دار السلامة من كل عيب وشر وآفة بل قد سلمت من كل ما ينغص العيش والحياة كانت تحية أهلها فيها سلام والرب يحييهم فيها بالسلام والملائكة يدخلون عليهم من كل باب « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

أديان العرب قبل الإسلام

إعلم أن العرب من عدنان وقحطان كانوا قبل ظهور عمرو بن لحىّ الخزاعى فيهم على بصيرة من أمرهم يتعبدون بشريعة خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقد تلقوها من ولده نبى الله تعالى إسماعيل عليه السلام وهى الحنيفية التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم فكانوا يعتقدون أن الله تعالى واحد لا شريك له ولا وزير ، ولا معين ولا ظهير . موصوف بصفات الكمال من الحياة والقدرة والإرادة والعلم والسمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات التى أثبتها لنفسه فى كتبه وجاءت على لسان رسله سالكين الطريق المستقيم فهو

موصوف بما وصف به نفسه كما يليق بجلال قدسه وأن ذاته لا تشبه الذوات كما أن صفاته لا تضاهى الصفات ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأنه تبارك وتعالى منزه عن كل مالا يليق به من صفات الأجسام وحوادث الأعيان والأجرام وأنه المتفرد بملك الضرّ والنفع والعطاء والمنع وغير ذلك من خواص الألوهية التى لا يملكها إلا الإلٰه ، عالمين أن لا معبودَ بحق فى الوجود سواه فهو الإلٰه الواحد الملتجأ فى جميع الأمور إليه ، المتوكل فى كل الشؤون عليه ، يستحيل وصفه بالظلم إذ هو المالك المقسط العدل ولا يجب عليه شيء بل هو المتفضل على خلقه وله الفضل تعالى عن كل شبيه ومعارض عالٍ على عرشه دانٍ بعلمه من خلقه أحاط علمه بالأمور ، وأنفذ فى خلقه سابق المقدور ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛ فالخلق عاملون بسابق علمه لا يملكون لأنفسهم من الطاعة نفعاً ، ولا يجدون إلى صرف المعصية عنها دفعاً ، خلق الخلق بمشيئته من غير حاجة كانت به ولم يزالوا يترددون من قدر إلى قدر ، وأمره سبحانه نافذ فيهم فلا ينجيهم حذر ، والناس بآجالهم ميتون ، و بعد الضغطة فى القبور مسؤولون ، و بعد البلاء منشورون ويوم القيامة إلى ربهم يحشرون ، وكما بدأهم له من شقاء وسعادة يومئذ يعودون وقد آمنوا بكل ما أنزل على نبيهم عليه الصلاة والسلام ، من أصول وفروع وأحكام ، وكانوا يصلون و يصومون ، و يحجون و يزكون و يصلون الأرحام ، و يعينون على نوائب الحق و يكرمون الأضياف كل الإكرام ، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة ، والأعمال المرضية السديدة فلما طال الأمد و بعدوا عن زمن النبوة كثر فيهم الجهل وقلت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم من الهدى والدين المبين وجروا على شهوات أنفسهم واتبعوا كل ناعق وراجت عليهم الآراء الفاسدة ، والمذاهب الخبيثة الكاسدة ، حتى افترقت كلمتهم كل الافتراق سيما بعد أن ظهر فيهم الخزاعى وشرع لهم من الدين مالم يأذن به الله مما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، فهناك انقسمت العرب فى التعبد إلى أقسام ، وافترقوا إلى أصناف حسبما أدت بهم الوساوس والأوهام .

الموحدون من العرب

وهم من استبصر ببصيرته فاعترف بوجود الله وتوحيده ، ولم يدرك دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بل بقى على أصل فطرته ونظر بعين بصيرته فلم يغير ولم يبدل وهم البقايا ممن كان على عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ملتزمين ما كانوا عليه من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة [١] والوقوف على عرفة وهدى البدن [٢] والإهلال [٣] بالحج والعمرة وغير ذلك وهؤلاء افترقوا فمنهم من بقى على أصل التوحيد وما استفاض من إفراد الله تعالى فى عبادته التى تضافرت على الإرسال به جميع الرسل . ومنهم من اتبع من بقيت شريعته ولم تنسخ ملته كعيسى بن مريم عليه السلام . وهذا الصنف نزر يسير لم يكونوا إلا عدداً معلوماً فى كل عصر إلى زمن البعثة المحمدية .

---

(١) هى الحج الاصغر مأخوذة من الاعتمار وهو الزيارة ، والتفصيل فى الكتب الفقهية (٢) جمع بدنة قالوا هى ناقة أو بقرة وزاد الازهرى أو بعير ذكر قال ولا تقع البدنة على الشاة وقال بعض الأئمة البدنة هى الابل الخاصة ويدل عليه قوله تعالى فاذا وجبت جنوبها سميت بذلك لعظم بدنها وانما الحقت البقرة بالابل بالسنة وهو قوله صلى الله عليه وسلم : تجزى البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ففرق الحديث بينهما بالعطف اذ لو كانت البدنة فى الوضع تطلق على البقرة لما ساغ عطفها لأن المعطوف غير المعطوف عليه وفى الحديث مايدل عليه قال اشتركنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج والعمرة سبعة منا فى بدنة فقال رجل لجابر أنشترك فى البقرة مانشترك فى الجزور فقال ماهى الا من البدن والمعنى فى الحكم اذ لو كانت البقرة من جنس البدن لما جهلها أهل اللسان ولفهمت عند الانطلاق أيضا (٣) أهل الملبى رفع صوته بالتلبية وأهل المحرم بالحج اذا لبى ورفع صوته ، وقال الليث : المهل يهل بالاحرام اذا أوجب الحرم على نفسه تقول أهل بحجة أو بعمرة فى معنى أحرم بها وانما قيل للاحرام اهلال لرفع صوته بالتلبية وأصل الاهلال رفع الصوت وقال الراجز :

يهل بالفرقد ركبانهـــا   كما يهل الراكب المعتمر

عبدة الأصنام

وهم الذين أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك[١] والمشاعر[٢] وأحلو وحرموا وهم الدهماء من العرب وإقرارهم بالخالق هو الذى يسمى توحيد الربوبية . وهو الذى أقرت به الكفار جميعهم ولم يخالف أحد منهم فى هذا الأصل إلا الثّنَوية وبعض المجوس . وسيأتى الكلام على ما قالوه فيما يناسب من الأصناف . وأما غيرهما من سائر فرق الكفر والشرك فقد اتفقوا على أن خالق العالم ورازقهم ومدبر أمرهم ونافعهم وضارهم ومجيرهم واحد لا رب ولا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا نافع ولا ضار ولا مجير غيره . كما قال سبحانه وتعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله » « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » «قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله » « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّنْ يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله » . وكانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه لكن بطرق مختلفة . فرقة قالت : ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه تعالى كما قال حكاية عنهم « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . وفرقة قالت الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناماً على هيئة الملائكة ليقربونا إلى الله . وفرقة قالت جعلنا الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة فى عبادته . وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطاناً موكلاً بأمر الله فمن عبد الصنم

---

(١) جمع منسك بفتح السين وكسرها يكون زمانا ومصدرا ويكون اسم المكان الذى تذبح فيه النسيكة وهى الذبيحة وزنا ومعنى وفى التنزيل « ولكل أمة جعلنا منسكا » بالفتح والكسر فى السبعة ومناسك الحج عباداته وقيل مواضع العبادات ومن فعل كذا فعليه نسك أى دم يريقه (٢) مواضع المناسك

حق عبادته قضى الشيطانُ حوائجـه بأمر الله . و إلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله وهذا الصنف هم الذين أخبر عنهم التنزيل فى قوله سبحانه « وقالوا ما لهـذا الرسول يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تـكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » فرد عليهم سبحانه بقوله « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليـأكلون الطعام و يمشون فى الأسواق » . وشبهات العرب كانت مقصورة على إنكار البعث وجحد إرسال الرسل . فعلى الأول قالوا « ءإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ءإنّا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » إلى غير ذلك من الآيات وذكروا ذلك فى أشعارهم . قال قائلهم :

حياةٌ ثم موت ثم نشر   حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عمرو[1]

وقال شداد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك يرثى كفار قريش يوم بدر لما قتلوا وألقاهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى القَليب (وهى البئر التى لم تطو[2])

وماذا بالقَليبِ قليبِ بَدْرٍ   من الشِّيزى تزين بالسنام

وماذا بالقليب قليب بدر   من القَينات والشَّرْب الكرام

تحيينا السلامة أم بكر   فهل لى بعد قومى من سلام

يحدثنا الرسول بأن سنحيا   وكيفَ حياةُ أصداء وهامِ

والشيزى بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها زاى مقصور ؛ وهو شجر

(١) النشر احياء الميت ، وخرافة : رجل من بنى عذرة استهوته الجن فلما خلت عنه رجع الى قومه وجعل يحدثهم بالاعاجيب التى رآها فكذبوه فكانت العرب اذا سمعت حـديثا لا أصل له قالت حديث خرافة ثم كثر هـذا فى كلامهم حتى قيل للاباطيل والترهات خرافات ، وخرافة كثمامة ولا يدخله الألف واللام لأنه معرفة أى ان تريد به الخرافات الموضوعة من حديث الليل ، ونسب بعضهم هذا البيت لابن الزبعرى (٢) أى لم تبن قال الشاعر :

فان الماء ماء أبى وجـدى   وبئرى ذو حفرت وذو طويت

أى الذى حفرته وبنيته بالحجارة

يتخذ منه الجفان . والقصاع : الخشب التى يعمل فيها الثريد . وقال الأصمعى : هى من شجر الجوز تسودّ بالدسم . والشيزى جمع شيز والشيز يغلظ حتى ينحت منه فأراد بالشيزى مايتخذ منها ، وبالجفنة صاحبها كأنه قال : ماذا بالقليب من أصحاب الجفان الملأى بلحوم أسنمة الإبل وكانوا يطلقون على الرجل المِطْعام جفنة لكثرة إطعامه الناس فيها . وأغرب الداودى فقال الشيزى الجمال . قال : لأن الإبل إذا سمنت تعظم أسنمتها ويعظم جمالها ، وغلطه ابن التين . قال : وإنما أراد أن الجفنة من الثريد تزين بقطع اللحم من السنام . والقينات : جمع قينة بفتح القاف وسكون التحتانية بعدها نون هى المغنية وتطلق أيضاً على الأمة مطلقا . والشرب بفتح الشين المعجمة وسكون الراء : جمع شارب والمراد بهم الندامى وأصداء : جمع صدى ، وهو ذكر البوم . وهام جمع هامة وهو الصدى أيضا وهو عطف تفسيرى . وقيل الصدى الطائر الذى يطير بالليل . والهامة جمجمة الرأس وهى التى يخرج منها الصدى بزعمهم . وأراد الشاعر إنكار البعث بهذا الكلام كأنه يقول إذا صار الإنسان كهذا الطائر كيف يصير مرة أخرى إنسانا وقال أهل اللغة : كان أهل الجاهلية يزعمون أن روح القتيل الذى لايدرك بثأره تصير هامة فتزقو وتقول اسقونى اسقونى . وإذا أدرك بثأره طارت فذهبت . قال الشاعر :

يا عمرو إن لاتذر شتمى ومنقصتى … أضربْك حتى تقولَ الهامة اسقونى !

ويروى أنه إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه فانتصب طيراً هامة فرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة . ولايخفى أن هذا نوع من القول بالتناسخ المبرهن على بطلانه وقد ورد لا هامة ولا طيرة ولا عدوى ولا صفر . وأما على الثانى فكان إنكارهم لبعث الرسل فى الصورة البشرية أشد وإصرارهم على ذلك أبلغ وأخبر عنهم التنزيل بقوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » إلى غير ذلك من الآيات . فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتى ملك من السماء وقالوا لولا أنزل عليه

ملاك ، ومن كان لا يعترف بهم كان يقول الشفيع والوسيلة منا إلى الله تعالى هى الأصنام المنصوبة . أما الأمر والشريعة من الله إلينا فهو المنكر فيعبدون الأصنام التى هى الوسائل بزعمهم وكثير من الآيات القرآنية ترد عليهم أتم رد ، ومحل ذلك كتب التفسير ونحوها .

ذكر شىء من أخبار الأصنام وسبب اتخاذ العرب لها وكيف أزالها النبى صلى الله عليه وسلم

قال أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى فى كتاب الأصنام : حدثنى أبى وغيره أن إسماعيل بن إبراهيم صلى الله تعالى عليهما وسلم لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان فيها من العماليق فضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً فتفسحوا فى البلاد والتماس المعاش وكان الذى سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صبابة بها وحباً وهم على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم كقوم نوح وفيهم بقايا على دين أبيهم إسماعيل مع إدخالهم فيه ما ليس منه . فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامى[1] عمرو بن ربيعة وهو لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى وهو أبو خزاعة . وكان الحرث هو الذى يلى أمر الكعبة فلما بلغ عمرو بن لحى نازعه فى الولاية وقاتل جرهما ببنى إسماعيل ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت[2] ثم إنه مرض

---

(١) راجع بحث السائبة والوصيلة والبحيرة والحامى فى أوائل الجزء الثالث

(٢) سدانته وتولى حفظه وفى الحديث قالت بنو قصى فينا الحجابة ، والمفاتيح تكون بأيديهم

مرضاً شديداً فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حَمّة (١) إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرىء ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستقي بها المطر ونستنصر بها على العدو فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها إلى مكة ونصبها حول الكعبة ! وحدث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس (٢) أن إسافاً رجل من جرهم يقال له إساف بن يعلى ونائلة بنت زيد من جرهم ، وكان يتعشقها في أرض اليمن فأقبلوا حجاجاً فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ففجر بها في البيت فمسخا فوجدوهما مسيخين فوضعوهما موضعهما فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت من العرب . وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم سموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين إسماعيل هذيل بن مدركة اتخذوا « سُواعاً (٣) » فكان لهم (برهاط) من أرض ينبع وكانت سدنته بني لحيان يعبده من يليه من مضر . وفي ذلك يقول رجل من العرب :

تراهم عند قبلتهم عكوفاً كما عكفت (هذيلُ) على سُواع (٤)

واتخذ مذحج وأهل جرش « يغوث » وكان بأكمة اليمن بيد أنعم بن عمرو المرادي واتخذت خيوان « يعوق » فكان بقرية يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين ، تعبده همدان ومن والاها من اليمن . واتخذت حمير « نسراً » فعبدوه بأرض يقال لها بلخع وكان بيد رجل من ذي رعين يقال له معد يكرب تعبده حمير ومن والاها فلم يزالوا يعبدونه حتى هودهم ذو نؤاس ، ولم أسمع حميراً سمت به أحداً ولم أسمع له ذكراً في أشعارها ولا أشعار العرب . وأظن ذلك كان

---

(١) بالفتح وتشديد الميم : كل عين فيها ماء حار ينبع يستشفى به الاعلاء

(٢) أبو صالح لم ير ابن عباس ، قالوا : واوهى الطرق عن ابن عباس طريقة الكلبي عن أبي صالح فان انضمت اليه رواية محمد بن مروان السدى الصغير فذلك سلسلة الكذب (٣) بالضم في قوله تعالى (لا تذرن ودا ولا سواعا) والفتح لغة فيه وبه قرأ الخليل (٤) يروى قيلهم بدل قبلتهم كما في التاج وبعده :

يظل جنابه برهاط صرعى عتائر من ذخائر كل راع

لانتقال حمير أيام تبع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية . وكان لحمير أيضاً بيت بصنعاء يقال له « رئام » بهمزة بعد الراء المكسورة يعظمونه ويتقربون عنده بالذبائح وكانوا فيما يذكرون يكلمون منه : فلما انصرف تبع من مسيره الذى سار فيه من العراق قدم معه الحبران اللذان صحباه من المدينة فأمراه بهدم رئام وتهود تبع وأهل اليمن فمن ثم لم أسمع بذكر رئام ولا نسر فى شىء من الأشعار ولا الأسماء ولم تحفظ العرب من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام . قال أبو المنذر : ولم أسمع فى رئام وحده شعراً وقد سمعت فى البقية . هذه الخمسة الأصنام التى كان يعبدها قوم نوح وذكرها الله تعالى فى كتابه بقوله (ولا تذرنّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) فلما صنع عمرو بن لحى دانت العرب للأصنام ، فكان أقدمها مناة [1] وسمت العرب عبد مناة وزيد مناة وكان منصوباً على ساحل البحر بناحية (المشلل) بقديد بين المدينة ومكة . وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله وكان أشد الناس إعظاماً له الأوس والخزرج . وكان أولاد معد على بقية من دين إسماعيل . وكانت ربيعة ومضر على بقية من دينه ومناة هى التى ذكرها الله تعالى بقوله (ومناة الثالثة الأخرى) وكانت هذيل وخُزاعة وجميع العرب تعظمها إلى أن خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة سنة ثمان من الهجرة وهو عام الفتح فلما سار من المدينة أربع ليال أو خمس ليال بعث علياً فهدمها وأخذ ما كان لها فأقبل به إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكان فيما أخذ سيفان كان الحارث ابن أبى شمر ملك غسان أهداهما : أحدهما اسمه (مخذم) والآخر (رسوب) فوهبهما لعلى فيقال أن ذا الفقار سيف على

---

(١) وزنه فعلة من منيت الدم رغيره اذا صببته لان الدماء كانت تمنى عنده تقربا اليه ومنه سميت الاصنام الدمى وفى الحديث لا والدمى لاأرى بما تقول بأسا وكذلك مناة الطاغية التى كانوا يهلون اليها بقديد والحظ من هذا المطلع مافى قوله تعالى « ومناة الثالثة الاخرى » من الفائدة جعلها ثالثة للات والعزى واخرى بالاضافة الى مناة التى كان يعبدها عمرو بن الجموح وغيره من قومه فهما مناتان واحداهما عن الاخرى بالاضافة الى صاحبها

أحدها و يقال إن علياً وجدها فى (الفَلْس) صنم لطىء حين بعثه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهدمه . ثم اتخذوا اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة وكان يهودى يَلتُّ عندها السويق[1] وكان سَدَنتها من ثقيف وكانوا بنَوْا عليها بناء وكانت قريش وسائر العرب تعظمها وسمت زيد اللات وتيم اللات . وكانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار[2] ثم اتخذوا العزى وسمى بها عبد العزى بن كعب وكان الذى اتخذها ظالم بن أسعد وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المُصْعِد إلى العراق من مكة فوق ذات عِرق بتسعه أميال فبنى عليها بيتاً وكانوا يسمعون فيـــه الصوت وكان أعظم الأصنام عند قريش وكانت تطوف بالـكعبة وتقول « واللات والعزىٰ ومناة الثالثة الأخرى فانهن الغرانيق العُلى[3] وإن شفاعتهن لترتجى » وكانوا يقولون « بنات الله » تعالى

(١) لت الرجل السويق لتا من باب قتل بله بشىء من الماء وهو أخف من البس ، والسويق ما يعمل من الحنطة والشعير معروف (٢) روى بعض من الف فى السير أن المغيرة قال لأبى سفيان : ألا أضحكك من ثقيف فقـــال بلى فأخذ المعول وضرب به اللات ضربة ثم صاح وخر على وجهه فارتجت الطائف بالصياح سرورا بأن اللات قد صرعت المغيرة واقبـــلوا يقولون « كيف رأيتها يا مغيرة دونكها ان استطعت الم تعلم انها تهلك من عاداها ويحكم الا ترون ما تصنع » فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم ياخبثاء والله ما قصدت الا الهزء بكم ثم أقبل على هدمها حتى أستأصلها وأقبلت عجائز ثقيف تبكى حولها وتقول (اسلمها الرضاع أذكر هو المصاع) أى أسلمها اللئام حـــين كرهوا القتال ورويت فى ذلك روايات أخـــرى ، فاذا أحببت الوقوف عليها فعليـــك بالسـير

(٣) هى الاصنام وهى فى الاصل الذكور من طير الماء وقال ابن الانبارى : الغرانيق الذكور من الطير واحدها غرنوق وغرنيق قال أبو خـــيرة سمى به لبياضه وقيل هو الكركى شبهت الاصنام التى تعــلو وترفع فى السماء على زعمهم .. واعلم أن حديث الغـــرانيق الذى صار مشهورا عند المتأخـــرين لوجوده فى أكثر كتب التفسير التى تتناولها الايدى ، هو من مفتريات الاعاجم ومختلقات الملبسين المفسدين ولو صح لكان أكبر شبهة على الدين فكن على حذر ــ وقد ينفع الحذر ــ مما تراه فى كتب الاعاجم واياك والتقليـــد الاعمى فانه رأس البلاء ، وأصـــل كل داء ، وأحسن من تكلم على هذا البحث هـــو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده (رض) فانه نفى الشك والارتياب وأتى بالحكمة وفصل الخطاب فعليـــك به ولا تسمع قول عمرو وزيد ففى جوف الفرا أكل الصيد .

الله عن ذلك علواً كبيراً . وهن يشفعن إليه فلما بعث الله رسوله أنزل عليه (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى[١]) وحمت لها قريش شعباً[٢] من وادى حُراض[٣] يقال له سُقام[٤] يضاهون به حرم الكعبة وكان لها منحر ينحرون فيه هداياها يقال له الغبغب وكانت قريش تخصها بالإعظام فلذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل وكان قد تأله فى الجاهلية وترك عبادة الأصنام .

تركتُ اللات والعزى جميعاً　　كذلك يفعل الجلد والصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها　　ولا صَنَمَىْ بنى غنم أزورُ

ولا هبلاً أزور وكان ربًّا　　لنا فى الدهر إذ حلمى صغير

وكان سدنة العزى بنى شيبان من بنى سُليم وكان آخر من سدنها دبية[٥] فلم تزل كذلك حتى بعث الله نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فعاب الأصنام ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها فاشتد ذلك على قريش فلما كان يوم الفتح دعا خالد بن الوليد فقال انطلق إلى شجرة بطن نخلة فاعضدها[٦] فانطلق فقتل دبية وحدثنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس . قال : كانت العزى شيطانة تأتى ثلاث سمرات[٧] ببطن نخلة ، فلما بعث النبى خالد بن الوليد قال له ائتِ بطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء إليه عليه الصلاة والسلام فقال هل رأيت شيئاً قال لا . قال فاعضد الثانية فعضدها ثم أتى النبى

---

(١) أى جائرة (٢) الطريق فى الجبل (٣) كغراب موضع قرب مكة بين المشاش والغمير فوق ذات عرق الى البستان قيل كانت به العزى وقيل بالنخلة الشامية وقد جاء ذكره فى الحديث ، قال الفضل بن العباس اللهبى :

وقد كانت وللايام صرف　　تدمن من مرابعها حراضا

كذا فى القاموس وشرحه التاج (٤) بالضم وقد بفتح (٥) كسمية وهو دبية بن حرمس السلمى (٦) عضد الشجرة عضدا من باب ضرب قطعها وفى حديث تحريم المدينة نهى أن يعضد شجرها أى يقطع (٧) السمر بضم الميم : شجر صغار الورق قصار الشوك وله برمة صفراء يا كلها الناس وليس فى العضاه شيء أجود خشبا من السمر ينقل الى القرى . فتغمى به البيوت واحدتها سمرة بهاء

صلى الله تعالى عليه وسلم فقال هل رأيت شيئاً قال لا . قال فاعضد الثالثة فأتاها فإذا هو بخنّاسة نافشة شعرها واضعة ثديها على عاتقها تصرف بأنيابها[١] وخلفها دبيّة السلمى ، فلما نظر إلى خالد قال :

فياعزُّ شدّى شدةً لا تــكذّبى على خالدٍ ألقى الخمارَ وشمرى

فإنك إن لا تقتلى اليوم خالداً تبوئى بذل عاجلًا وتُنصّرى

« فقال خالد رضى الله تعالى عنه »

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هى حُمَمة[٢] ، ثم عضد الشجرة وقتل دبيّة ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره . فقال : (تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب)
قال أبو المنذر : ولم تــكن قريش ومن بمكة يعظمون شيئاً من الأصنام إعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة . فأما العزى فــكانت تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية وكانت ثقيف تخص اللات . وكانت الأوس والخزرج تخص مناة وكلهم كان معظماً للعزى ولم يكونوا يرون فى الخمسة الأصنام التى رفعها عمرو بن لحى كرأيهم فى هذه . وكانت لقريش أصنام فى جوف الـكعبة وحولها وكان أعظمها (هُبَل) عندهم وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من الذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة وكان يقال لها هبل خزيمة . وكان قدامه سبعة أقداح مكتوب فى أولها صريح والآخر ملصق ، فإذا شكوا فى مولود أهدوا له هدية ثم ضربوا بالقداح فإن خرج صريح ألحقوه وإن كان ملصقاً رفعوه ، وقدحاً على الميت وقدحاً على النكاح وثلاثة لم تفسر لى فإذا اختصموا فى أمر أو أرادوا سفراً أو عملا أتوه فاستقسموا بالقداح عنده فما خرج عملوا به وانتهوا إليه . وكان لهم (أساف) و (نائلة) لما مسخا حجرين وضعا عند الـكعبة ليتعظ الناس

---

(١) صرف الانسان والبعير نابه وبنا به يصرف صريفا حرفه فسمعت له صوتا

(٢) وزان رطبة ما أحرق من خشب ونحوه والجمع بحذف الهاء

بهما فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم ، فنقلت قريش الذى كان بلصق الكعبة إلى الآخر وكانوا ينحرون ويذبحون عندهما . فلما ظهر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم فتح مكة دخل المسجد والأصنام منصوبة حول الكعبة فجعل يطعن بِسِيَةِ قوسه[1] في عيونها ووجوهها ويقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » ثم أمر بها فكفئت على وجوهها ثم أخرجت من المسجد فحرقت . فقال في ذلك راشد بن عبد الله السلمى :

قالت : هلمّ إلى الحديث فقلت : لا ... يأبى الآله عليك والإسلامُ

أو ما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح حين تكسر الأصنام ؟

لرأيت نور الله أضحى ساطعاً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

وكان لهم أيضاً « مناف » وسمت به عبد مناف ولا أدرى أين كان ولا من نصبه ولم تكن الحيّض من النساء تدنو من أصنامهم ولا تمسح بها إنما كانت تقف ناحيةً منها وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به فلما بعث الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وأتاهم بتوحيد الله وعبادته قالوا : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب » يعنون الأصنام واشتهرت العرب في عبادتها فنهم من اتخذ بيتاً . ومنهم من اتخذ صنماً ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم (الدوار) . فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل الثلاث أثافي لقدره وإذا ارتحل غيره فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها وهم على ذلك

(١) سية القوس خفيفة الياء ولامها محذوفة وترد في النسبة فيقال سيوى والهاء عرض عنها ، طرفها المنحنى .

عارفون بفضل الكعبة عليها . وكانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن ، وفيهم نزلت (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) وكان من تلك الأصنام « ذو الخلصة[١] » وكان مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة على مسيرة سبع ليال من مكة وكانت تعظمه وتهدى له خثعم ودوس وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة . قال رجل منهم :

لو كنت ياذا الخلص الموتور مثلى وكان شيخُك المقبورا

لم تنهَ عن قتل العداة زورا[٢]

وكان أبوه قُتِلَ فأراد الطلب بثأره فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالأزلام فخرج السهم بنهيه عن ذلك فقال هذه الأبيات . ومن الناس من ينحلها امرأ القيس بن حجر الكندى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لجرير ألا تكفينى ذا الخلصة فسار اليه بمائة وخمسين راكباً من أحمس[٣] فقاتله خثعم وباهلة

---

(١) قال السهيلى : هو بيت دوس والخلص فى اللغة نبات طيب الريح يتعلق بالشجر له حب كعنب الثعلب وجمع الخلصة خلص قال ووقع فى كتاب أبى الفرج أن امرأ القيس بن حجر حين وترته بنو أسد بقتل أبيه استقسم عند ذى الخلصة بثلاثة أزلام وهى الزاجر والآمر والمريض فخرج له الزاجر فسب الصنم ورماه بالحجارة وقال له أعضض ببظر أمك وقال : (لو كنت ياذاالخلص الموتورا) الى آخره ولم يستقسم أحد عند ذى الخلصة بعد حتى جاء الاسلام وموضعه اليوم مسجد جامع لبلدة يقال لها العبلات من أرض خشعم ذكره المبرد من أبى عبيدة انتهى وذوالخلصة محركة ويقال بضمتين وحكى ابن دريد فتح الاول واسكان الثانى وضبطه بعضهم بفتح أوله وضم ثانيه والأول الاشهر عند المحدثين (٢) نصب زورا على الحال من المصدر الذى هو النهى أراد نهيا زورا وانتصاب المصدر على هذه الصورة انما هو حال أو مفعول مطلق فاذا حذفت المصدر واقمت الصفة مقامه لم تكن الا حالا والدليل على ذلك انك تقول ساروا شديدا وساروا رويدا فان رددته الى ما لم يسم فاعله لم يجز رفعه لانه حال ولو لفظت بالمصادر فقلت ساروا سيرا رويدا لجاز أن تقول فيما لم يسم فاعله سير عليه سير رويد هذا كله معنى قول سيبويه فدل على أن حكمه اذا لفظ به غير حكمه اذا حذف والسر فى ذلك أن الصفة لا تقوم مقام المفعول اذا حذف لا تقول كلمت شديدا ولا ضربت طويلا يقبح ذلك اذا كانت الصفة عامة والحال ليست كذلك لانها تجرى مجرى الظرف وان كانت صفة فموصوفها معها وهو الاسم الذى هى حال له ومن هذا الباب قوله تعالى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا » ، والموتور من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ، والعداة جمع عدو (٣) فى القاموس وشرحه : بنوا حمس بطن من ضبيعة كما فى العباب وبطن آخر من بجيلة وهو ابن الغوث بن انمار

فظفر بهم وهدم بيت ذى الخلصة وأضرموا فيه النار وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة . وكان لمالك ومِلْكان ابنىْ كنانة بساحل جدة صنم يقال له « سعد » وكان صخرة طويلة فأقبل رجل من بنى ملكان بإبل له مؤبلة[1] ليقفها عليه ابتغاء بركته فيما يزعم فلما أدناها منه ورأته وكان يهراق[2] عليه الدماء نفرت منه فذهبت فى كل وجه فغضب ربها فتناول حجراً فرماه به وقال (لا بارك الله فيك إلهاً انفرت على إبلى) ثم خرج فى طلبها حتى جمعها . ثم انصرف وهو يقول :

أتينا إلى (سعد) ليجمع شملنا ... فشتتنا (سعد) فلا نحن من سعد
وهل (سعد) إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يدعو لغى ولا رشد[3]

وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بنى سلمة وشريفاً من أشرافهم وكان قد اتخذ فى داره صنما من خشب يقال له « مناة » أيضاً فلما أسلم فتيان بنى سلمة معاذ بن جبل وابنه ومعاذ بن عمرو وغيرهم ممن أسلم وشهد العقبة كانوا يدلجون[4] بالليل على صنم عمرو فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة وفيها عذرات[5] الناس منكساً على رأسه فاذا أصبح عمرو قال (ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟) قال ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه . ثم قال : والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزيته فاذا أمسى ونام غدوا ففعلوا بصنمه مثل ذلك فيغدوا يلتمسه فيجد به مثل ما كان من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له (والله إنى لا أعلم من يصنع بك ما ترى فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك) فلما أمسى ونام غدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر من عذر الناس فغدا عمرو فلم يجده فى مكانه الذى كان به فخرج

---

(١) كمعظمة اتخذت القنية (٢) أى يصب (٣) التنوفة : المفازة والقفر من الارض وقيل الارض الواسعة البعيدة ما بين الاطراف أو الفلاة التى لا ماء فيها ولا انيس وان معيشة والجمع تنائف

(٤) يقال أدلج ادلاجا مثل أكرم اكراما سار الليل كله فهو مدلج فان خرج آخر الليل فقد أدلج بالتشديد (٥) أى خرؤهم وغائطهم .

يتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت فلما رآه أبصر شأنه وكلم من أسلم من قومه فأسلم وحسن إسلامه . فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصره من أمره و يشكر الله تعالى إذ أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة .

والله لو كنت إلَهاً لم تكن ... أنت وكلب وسطَ بئرٍ فى قرن (١)

أُفٍّ لملقاك آله مستدن ... الآن فتشناك عن سوء الغبن (٢)

الحمد لله العلى ذى المنن ... الواهب الرزاق ديان الدين (٣)

هو الذى أنقذنى من قبل أنْ ... أكون فى ظلمة قبر مرتهن

وكان لدوس ثم لبنى منهب بن دوس صنم يقال له « ذو الكفين » فلما أسلموا بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الطفيل بن عمرو الدوسى فحرقه وهو يقول :

ياذا الكفين لست من عبادكا ... ميلادنا أكبر من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

وكان لبنى الحرث بن يشكر من الأزد صنم يقال له « ذو الشرى » وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطَفَان صنم فى مشارف الشام يقال له « الأقيصر »

---

(١) القرن : الحبل ، وفى الحديث : الحياء والايمان فى قرن أى مجموعان فى حبل (٢) أف : كلمة تضجر ، ومستدن : من السدانة وهى خدمة البيت وتعظيمه ، والغبن فى الرأى يقال غبن رأيه كما يقال سفه نفسه فنصبوا لان المعنى خسر نفسه وأو بقها وأفسد رأيه ونحو هذا (٣) قوله ديان الدين : جمع دينة وهى العادة ويقال لها دين أيضا قال ابن الطثرية واسمه يزيد :

أرى سبعة يسعون للوصل كلهم ... له عند ليلى (دينة) يستدينها

فألقيت سهمى بينهم حين اوحشوا ... فما صار لى فى القسم الا ثمينها

ويجوز أن يكون أراد بالدين الاديان أى هو ديان أهل الاديان ولكن جمعها على (الدين) لانها ملل ونحل كما قالوا فى جمع الحرة حرائر لانهن فى معنى الكرائم والعقائل وكذلك مرائر الشجر وأن كانت الواحدة مرة ولكنها فى معنى فعيلة لانها عسيرة فى الذوق وشديدة على الاكل وكريهة اليه ... ويروى بعد الابيات هذا الشطر :

بأحمد المهدى النبى المرتهن

وكان لمزينة صنم يقال له « نهم » وبه سمت عبد نهم . وكان سادنه خُزاعى بن عبد نهم من مزينة فلما سمع بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثار إلى الصنم فكسره وأنشأ يقول :

ذهبت إلى (نهْم) لأذبح عنده   عتيرة نسك كالذى كنتُ أفعل [(١)]

فقلت لنفسى حين راجعت عقلها :   أهذا إله أبكمٌ ليس يعقل ؟

أبيت ! فدينى اليوم دين (محمد)   إله السماء الماجد المتفضل

ثم لحق النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأسلم وضمن إسلام قومه مزينة وكان لأزد السَّراة صنم يقال له « عائم » بالهمزة وكان لعنزة صنم يقال له « سُعَيْر » فخرج ابن أبى خلّاس الكلبى على ناقته فمرت به وقد عترت عنده عتيرة فنفرت ناقته منه . فأنشأ يقول :

نَفرتْ قَلوصى من عتائر صرعت   حولَ (السُعَير) يزوره ابنا يَقْدُم [(٢)]

وجموعَ يذكُرَ مهطعين جنابةً   ما إن يحير إليهم بتكلم [(٣)]

قال أبو المنذر يقدم ويذكر ابنا عَنَزَة فرأى بنى هؤلاء يطوفون حول السعير .

وكان لبكر بن وائل صنم يقال له « عوض » قال قائلهم :

حلفت بمائراتٍ حول (عوض)   وأنصابٍ تركن لدى (السُعَيْر)

فقد حلف بالدماء المائرات أى الجاريات على وجه الأرض حول عوض .

ومن عادة المشركين أنهم كانوا يذبحون ذبائح لأصنامهم فلولا أن (عوضاً) صنم لما ذبح له شيء ولما حلف بالدماء التى حوله تعظيما له ويدل على كونه صنما ذكره مع (السُعَيْر) وهو بالتصغير . والبيت قائله رُشَيْد بن رُمَيْض (بالتصغير فيهما) العنزى . وبعده :

---

(١) العتيرة : شاة كانوا يذبحونها فى رجب لاصنامهم فنهى الشارع صلى الله عليه وسلم بقوله : (لافرع ولا عتيرة) والجمع عتائر ، والنسك : التطوع بقربة (٢) القلوص كصبور : الناقة الشابة ، والصرع : الطرح على الأرض (٣) أهطع : مدعنقه وصوب رأسه كاستهطع ، وكمحسن من ينظر فى ذل وخضوع لا يقلع فى بصره

أجوب الأرض دهراً إثر عمرٍو ولا يلفى بساحته بعيرى

وكان لِخَوْلان صنم يقال له « عُمْيانس » يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه و بين الله تعالى بزعمهم فما دخل فى حق الله تعالى من حق عميانس ردوه عليه وما دخل فى حق الصنم من حق الله الذى سموه له تركوه . وفيهم نزل فيما بلغنا (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) وكان لجديلة طيّء صنم يقال له «اليعبوب» وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد فتبدلوا اليعبوب بعده قال عبيد :

فتبدلوا (اليعبوبَ) بعد إلههم صنما فقروا يا (جديل) وأعذبوا

أى لا تأكلوا على ذلك ولا تشربوا . وكان للأزد فى الجاهلية ومن جاورهم من طيء وقضاعة صنم يقال له « باجَر » بالموحدة و بالجيم المفتوحة وربما كسرت وكانوا يعبدونه إلى غير ذلك مما يطول . وعن أبى رجاء العطاردى قال : لما بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فسمعنا به لحقنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار قال : وكنا نعبد الحجر فى الجاهلية فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به . وقال أيضاً : كنا نعمد إلى الرمل فنجمّعه ونحلب عليه فنعبده وكنا نعمد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نلقيه . وعن أبى عثمان النهدى يقول : كنا فى الجاهلية نعبد حجراً فسمعنا منادياً ينادى : يا أهل الرجال إن ربكم قد هلك فالتمسوا رباً ! قال : فخرجنا كلّ صعب وذلول فبينا نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادى : إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه ! و إذا حجر فنحرنا عليه الجزور .

ولما فتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنما فجعل يطعن بسية قوسه فى وجوهها وعيونها و يقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) وهى تتساقط على رؤوسها ثم أمر بها فأخرجت

من المسجد وحرقت . وكان لبنى الحرث كعبة بنجران يعظمونها وكان أبرهة الأشرم بنى بيتاً بصنعاء سماها (القَليس) بفتح القاف وكسر اللام وضبطه صاحب القاموس بضم القاف وفتح اللام المشددة بناها بالرخام وجيد الخشب المذهب وكتب إلى ملك الحبشة : إنى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد ولست تاركاً العربَ حتى أصرف حجهم عن الكعبة . فبلغ ذلك بعض نَسَأة الشهور فبعث رجلين من قومه وأمرهما أن يخرجا حتى يتغوطا فيها ففعلا فلما بلغه ذلك غضب وخرج بالفيل والحبشة فكان من أمره ما أسلفناه فى أوائل الجزء الأول من هذا الكتاب . وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب ، وتهدى لها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كما تطوف بالكعبة وتنحر عندها كما تنحر عند الكعبة . قال أبو المنذر : المعمول من خشب أو ذهب أو فضة صورة إنسان فهو صنم وإذا كان من حجارة فهو وثن . هذا ملخص ما ذكره من الأصنام ولأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ كتاب الأصنام أيضا وقد أبدع فيه . وفى تاريخ مكة للإمام الأزرقى تفصيل كيفية عبادة العرب لها على أتم وجه . وكتب السير لا تخلو عن شىء من ذلك .

أسباب أخر لعبادة الأصنام

قال ابن القيم فى كتابه (إغاثة اللهفان) : وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة ، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما يروى عن هشام عن أبيه ، أنه قال : كان ود وسُواع ويغوث ويعوق ونسر قوماً صالحين فماتوا فى شهر فجزع عليهم ذوو أقاربهم فقال رجل من بنى قابيل : يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم غير أنى لا أقدر أن

أجعل فيها أرواحاً ؟ قالوا : نعم ! فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه و يسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الأول وكانت عملت على عهد برد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث ابن آدم . ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشدّ من تعظيم القرن الأول . ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا : ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله ! فعبدوهم وعظموا أمرهم واشتد كفرهم فبعث الله إليهم (إدريس) فدعاهم فكذبوه فرفعه الله مكاناً عليًّا ولم يزل أمرهم يشتد فيما قال الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس حتى أدرك نوح فبعثه الله نبياً وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة فدعاهم إلى الله فى نبوته عشرين ومائة سنة فعصوه وكذبوه فأمره الله أن يصنع الفلك ففرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة وغرق من غرق ومكث بعد ذلك ثلاث مائة وخمسين سنة فكان بين آدم ونوح ألفا سنة ومائتا سنة فأهبط الماء هذه الأصنام من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض (جدة) فلما نضب الماء بقيت على الشط ونسفت الريح عليها حتى وارتها .

قلت : ظاهر القرآن يدل على خلاف هذا وأن نوحاً لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وأن الله أهلكهم بالغرق بعد أن لبث فيهم هذه المدة . . قال الكلبي : وكان عمرو بن لحى كاهناً وله رِئى [1] من الجن فقال (عجل السير والظعن من تهامة ، بالسعد والسلامة ، ائت جدة ، تجد أصناماً معدة . فأوردها تهامة ولا تَهب ، ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب) فأتى نهر جدة فاستثارها فحملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة فأجابه عوف بن عذرة ابن زيد اللات فدفع إليه وداً فحمله فكان بوادى القرى بدومة الجندل وسمى ابنه عبدود فهو أول من سمى به وجعل عوف ابنه عامراً سادناً فلم يزل بنوه

(١) على وزن غنى ويكسر : جنى يتعرض للرجل يريه كهانة أو طبا وفى حديث قال لسواد بن قارب : أنت الذى أتاك رئيك بظهور رسول الله ، قال : نعم

مسدنين حتى جاء الله بالإسلام . قال الكلبي : فحدثني مالك بن حارثة أنه رأى ودًّا قول وكان أبي يبعثني باللبن إليه فيقول (أسقه إلهك) فأشربه . قال : ثم رأيت خالد بن الوليد كسره فجعله جذاذاً [١] . وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث خالد بن الوليد لهدمه فحالت بينه وبين هدمه بنو عذرة وبنو عامر فقاتلهم فقتلهم وهده وكسره . قال الكلبي : فقلت لمالك بن حارثة « صف لي ودًّا حتى كأني أنظر إليه » قال : كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زبر (أي نقش) عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وقصعة فيها نبل يعني جعبة . . وأجابت عمراً المذكور كثير من القبائل وقد ذكرنا قريباً ما يغني عن الإعادة . ولهذا لعن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتخذين على القبور المساجد والسرج ونهى عن الصلاة إلى القبور وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيداً وقال : اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل [٢] فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله إما جهلًا وإما عناداً لأهل التوحيد ولم يضرهم ذلك شيئاً . وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين وأما خواصهم فإنهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم وجعلوا لها بيوتاً وسدنة وحجاباً وحجًّا وقرباناً ولم تزل هذه في الدنيا قديماً وحديثاً فمنها بيت على رأس جبل بأصبهان كان به أصنام أخرجها

---

(١) أي فتاتا ، ومنه قيل للسويق الجذيذ ، ويقال : جذ الله دابرهم أي استأصلهم (٢) ليعتبر المسلمون في اقطار الأرض بكلام نبيهم الاعظم ! فاين هو من عنايتهم اليوم بتشييد القباب على القبور ؟ واين هو من تعظيمهم الموتى تعظيما يأباه العقل والشرع ؟ واين هو من السجود على أعتاب المشاهد والتبرك بالاحجار ؟ واين هو من سوق الهدايا والقرابين الى مشاهد الاولياء ؟ فما هذا الضلال المبين وما هذا المروق من الدين ؟ فهل أبيتم أيها المسلمون الاخلاف أوامر نبيكم فضارعتم أهل الجاهلية عباد اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى أم أضلكم أحباركم أحبار السوء فانتم على آثارهم مهتدون ؟

لا يعجبنك ماترى من قبة ضربوا على موتاهم وطراف
هجموا على الحق المبين بباطل وعلى سبيل القصد بالاسراف

بعض ملوك المجوس وجعله بيت نار . ومنها بيت ثان وثالث ورابع بصنعاء بناه بعض المشركين على اسم الزهرة فخربه عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه . ومنها بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمس بمدينة فرغانة فخربه المعتصم . وأشد الأمم فى هذا النوع من الشرك الهند قال يحيى بن بشر : إن شريعة الهند وضعها لهم رجل يقال له (برهمن) ووضع لهم أصناماً وجعل أعظم بيوتها بيتاً بمدينة من مدائن السند وجعل فيه صنمهم الأعظم وزعم أنه بصورة الهيولى الأكبر وفتحت هذه المدينة فى أيام الحجاج واسمها الملتان فأراد المسلمون قلع الصنم فقيل (إن تركتموه ولم تقلعوه جعلنا لكم ثلث ما يجتمع له من المال) فأمر عبد الملك بن مروان أن يتركه ، فالهند تحج إليه من نحو ألفى فرسخ ولا بد لمن يحجه أن يحمل معه من النقد ما يمكنه من مائة إلى عشرة آلاف لا يكون أقل من هذا ولا أكثر فيلقيه فى صندوق هناك عظيم ويطوف بالصنم فإذا ذهبوا ورجعوا إلى بلادهم قسم ذلك المال فثلثه للمسلمين وثلثه لعمارة المدينة وحصونها وثلثه لسدنة الصنم ومصالحه ، وأصل هذا المذهب من مشركى الصابئة وهم قوم إبراهيم الذين ناظرهم فى بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه وآلهتهم بيده فطلبوا تحريقه وهو مذهب قديم فى العالم وأهله طوائف شتى .

فمنهم عباد الشمس

زعموا أنها ملك من الملائكة لها نفس وعقل وهى أصل نور القمر والكواكب وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها وهى عند ملك الفلك فتستحق التعظيم والسجود والدعاء . ومن شريعتهم فى عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهر على لون النار وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلون فيه لها ثلاث كرات فى اليوم ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون

به . وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها و إذا غربت و إذا توسطت الفلك ولهذا يقارنها الشيطان فى هذه الأوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له ولهذا نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن تحرى الصلاة فى هـذه الأوقات قطعاً لمشابهة الـكفار ظاهراً وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام .

وطائفة أخرى اتخذت القمر صنما

وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة و إليه تدبير هذا العالم السفلى ومن شريعة عبادتهم أنهم اتخذوا له صنما على شـكل عجل و بيد الصنم جوهرة يعبدونه و يسجدون له و يصومون له أياماً معلومة من كل شهر ثم يأتون إليه بالطعام والشراب والفرح والسرور . فإذا فرغوا من الأكل أخذوا فى الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه . ومنهم من يعبد أصناماً اتخذوها على صورة الـكواكب وروحانيتها بزعمهم و بنوا لها هياكل ومتعبدات لـكل كوكب منها هيكل يخصه وصنم يخصه وعبادة تخصه ومتى أردت الوقوف على هـذا فانظر فى كتاب « السر المـكتوم فى مخاطبة النجوم » المنسوب إلى ابن خطيب الرى تعرف سر عبادة الأصنام وكيفية تلك العبادة وشرائطها . وكل هؤلاء مرجعهم إلى عبادة الأصنام فإنهم لا تستمر لهم طريقة إلا بشخص خاص على شـكل خاص ينظرون إليه و يعكفون عليه . ومن ههنا اتخذ أصحاب الروحانيات والـكواكب أصناماً زعموا أنها على صورتها فوضع الصنم إنما كان فى الأصل على شـكل معبود غائب فجعل الصنم على شـكله وهيئته وصورته ليكون نائباً منابه وقائماً مقامه ، و إلا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجراً بيده ثم يعتقد أنه إلٰهه ومعبوده .

(ومن أسباب عبادة الأصنام) أيضا أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم وهم لا يشاهدون الشياطين فجهلتهم وسقطتهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتـكلم المخاطب وعقلاؤهم يقولون : إن

تلك روحانية الأصنام و بعضهم يقول : إنها الملائكة و بعضهم يقول : إنها العقول المجردة و بعضهم يقول : هى روحانيات الأجرام العلوية وكثير منهم لايسأل عما عهد بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلهًا ولايسأل عما وراء ذلك . وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان ولم يتخلص إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم وعبادتها فى الأرض من قبل نوح كما تقدم وهيا كلها و وقوفها وسدنتها وحجابها والكتب المصنفة فى شرائع عبادتها طبق الأرض . قال إمام الحنفاء صلى الله تعالى عليه وسلم (واجنبنى و بنىّ أن نعبد الأصنام ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس) . والأمم التى أهلكها الله بأنواع الهلاك كلهم كانوا يعبدون الأصنام كما قص الله تعالى ذلك عنهم فى القرآن وأنجى الرسل وأتباعهم من الموحدين و يكفى فى معرفة كثرتهم وأنهم أكثر أهل الأرض ما صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون . وقد قال الله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) وقال (و إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) . وقال (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . وقال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد و إن وجدنا أكثرهم لفاسقين) ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل النفوس وأموالهم وأبنائهم ، فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم وما يزيدهم ذلك إلا حباً لها وتعظيما ويوصى بعضهم بعضاً بالصبر عليها وتحمل أنواع المكاره فى نصرتها وعبادتها وهم يسمعون أخبار الأمم التى فتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل العقوبات ولايثنيهم ذلك عن عبادتها . ففتنة الأصنام أشد من فتنة عشق الصور وفتنة الفجور بها . والعاشق لايثنيه عن مراده خشية عقوبة فى الدنيا والآخرة وهو يشاهد ما يحل بأصحاب ذلك من الآلام والعقوبات والضرب والحبس والنكال والفقر غير ما أعد الله تعالى له فى الآخرة وفى البرزخ ولا يزيده ذلك إلا إقداماً وحرصاً على الوصول والظفر بحاجته . فهكذا الفتنة بعبادة الأصنام وأشد فإن تأله القلوب بها أعظم من تألهها للصور التى

يراد منها الفاحشة بكثير . والقرآن بل وسائر الكتب الإلهية من أولها إلى آخرها مصرحة ببطلان هذا الدين وكفر أهله وأنهم أعداء الله تعالى و رسله وأنهم أولياء الشيطان وعباده وأنهم هم أهل النار الذين لا يخرجون منها وهم الذين حلت بهم المثلات[1] . ونزلت بهم العقوبات . وأن الله سبحانه برىء منهم هو وجميع رسله وملائكته وأنه سبحانه لا يغفر لهم ولا يقبل لهم عملا . وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف وقد أباح الله لرسوله وأتباعه من الحنفاء دماء هؤلاء وأموالهم ونساءهم وأبناءهم وأمرهم بتطهير الأرض منهم حيث وجدوا وذمهم بسائر أنواع الذم وتوعدهم بأعظم أنواع العقوبة فهؤلاء فى شق و رسل الله فى شق . (ومن أسباب عبادة الأصنام) الغلو فى المخلوق و إعطاؤه فوق منزلته حتى جعلوا فيه حظًّا من الإلهية وشبهوه بالله سبحانه وهذا هو التشبيه الواقع فى الأمم الذى أبطله الله سبحانه و بعث رسله وأنزل كتبه فإنكاره الرد على أهله فهو سبحانه ينفى و ينهى أن يجعل غيره مثلا له وندًّا له وشبهاً له لا أن يشبه هو بغيره إذ ليس فى الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مِثْلا لشىء من مخلوقاته فجعلت المخلوق أصلا وشبهت به الخالق . فهذا لا يعرف فى طائفة من طوائف بنى آدم و إنما الأول هو المعروف فى طوائف أهل الشرك غَلَوْا فيمن يعظمونه و يحبونه حتى شبهوه بالخالق وأعطوه خصائص الإلهية بل صرحوا أنه الإله وأنكروا جعل الآلهة إلها واحداً وقالوا (اصبروا على آلهتكم) وصرحوا بأنه إلٰه معبود يرجى و يخاف و يعظم و يسجد له و يحلف باسمه وتقرب له القرابين إلى غير ذلك من خصائص العبادة التى لا تنبغى إلا لله فكل مشرك فهو مشبه لإلٰهه ومعبوده بالله سبحانه و إن لم يشبهه به من كل وجه حتى إن الذين وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب كقولهم : إن الله فقير وإن يد الله مغلولة وإنه استراح لما فرغ من خلق العالم والذين جعلوا له ولداً وصاحبة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلا ثم يشبهون به الخالق

(١) المثلات : العقوبات واحدها مثلة ، ويقال المثلات : الاشياء والآمثال مما يعتبر به

تعالى بل وصفوه بهذه الأشياء استقلالاً لا قصد أن يكون غيره أصلاً فيها وهو مشبه به . ولهذا كان وصفه سبحانه بهذه الأمور من أبطل الباطل لكونها فى نفسها نقائص وعيوباً ليس جهة البطلان فى اتصافه بها هو التشبيه والتمثيل فلا يتوقف فى نفيها عنه على ثبوت انتفاء التشبيه كما يفعله بعض أهل الكلام الباطل حيث صرحوا بأنه لا يقوم دليل عقلى على انتفاء النقائص والعيوب عنه وإنما تنفى عنه لاستلزامها التشبيه والتمثيل .

وأطال الكلام ابن القيم فى هذا المقام إلى أن قال : والمقصود أنه لم يكن فى الأمم من مثله بخلقه وجعل المخلوق أصلا ثم شبهه به . وإنما كان التمثيل والتشبيه فى الأمم حيث شبهوا أوثانهم ومعبوديهم به فى الإلهية وهذا التشبيه هو أصل عبادة الأصنام والقرآن مملوء من إبطال أن يكون فى المخلوقات من يشبه الرب تعالى أو يماثله فهذا هو الذى قصد بالقرآن إبطالاً لما عليه المشركون والمشبهون العادلون بالله غيرَه قال تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » . وقال « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله » فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلاً للخالق والند الشِبْه يقال فلان ند فلان وند نده أى شبهه ومثله . ومنه قول حسان :

أتهجوه ولست له بِنِد ... فشركما لخيركما الفداء (١)

وقال جرير :

أينما تجعلون إلىَّ نداً ... وما تَيْمٌ لذى حسب نديد

ثم قال بعد كلام : فتبين أن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق فى

(١) الاستفهام للانكار ، أى ماكان ينبغى لك أن تهجوه ولست من اكفائه ونظرائه فلم تنصفه ، وقوله فشركما لخيركما الفداء مع علمه أن رسول الله (ص) خيرهما بلا ريبة — جار على أسلوب الكلام المنصف وهو أن ينصف المتكلم من نفسه أو ممن يتكلم من جهته فيضطرب السامع الى الاذعان له ولا يجد سبيلا لانكاره والمنازعة فيه. نحو (وانا أو اياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين فان من المعلوم أن المتكلم ومن معه على هدى وان المخاطبين فى ضلال وانما ابهم الامر بين الفريقين ليكون أدعى المخاطب الى الاذعان للحق وترك العناد حيث يرى المتكلم ساوى بينه وبين نفسه وانصفه

العبادة والتعظيم والخضوع والحلف به والنذر له والسجود له والعكوف عند بيته وحلق الرأس له والاستغاثة به والتشريك بينه و بين الله تعالى فى قولهم ليس إلا الله وأنت وأنا متكل على الله وعليك وأنا فى حسب الله وحسبك وما شاء الله وشئت وهذا لله ولك وأمثال ذلك فهؤلاء هم المشبهة ، فمن تدبر هذا الفصل حق التدبر تبين له كيف وقعت الفتنة فى الأرض بعبادة الأصنام وتبين له سر القرآن فى الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة والله سبحانه الهادى إلى سواء الطريق .

وصنف من العرب دهريون

وهؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم (ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) وهؤلاء فرقتان . فرقة قالت « إن الخالق سبحانه خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة دارت عليه فأحرقته ولم يقدر على ضبطها و إمساك حركتها » وفرقة قالت « إن الأشياء ليس لها أول ألبتة و إنما تخرج من القوة إلى الفعل فاذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل تكونت الأشياء مركباتها و بسائطها من ذاتها لا من شيء آخر » وقالوا « إن العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلاً يبطل و يضمحل إلا وهو يبطل و يضمحل مع فعله وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التى فيه » وهؤلاء هم المعطلة حقاً . وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى عند الكلام على الدهرية ما حاصله : وهم قوم أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا الطبع المحيي والدهر المفنى وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد بقوله تعالى : « مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ » إشارة إلى الطبائع المحسوسة فى العالم السفلى وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللهافالجامع هوالطبع والمهلك هو الدهر . وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . فاستدل عليهم بضروريات فكرية فقال عز وجل : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ . يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ » . فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق فإنه قادر على الكمال إبداء و إعادة . وقال سبحانه « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ[1] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وقال عز اسمه « أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » . وفى كتاب (مفتاح دار السعادة) رداً لقول من يقول بالطبيعة : وكأنى بك أيها المسكين تقول هذه المكونات كلها من فعل الطبيعة وفى الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله أن يهديك لسألت نفسك بنفسك وقلت أخبريني عن هذه الطبيعة أهى ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة أم ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمتبوع تابعة له محمولة فيه ؟ فإن قالت لك هى ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة فقل لها هذا هو الخالق البارىء المصور فلم تسميه طبيعة فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله ودخلت فى جملة العقلاء السعداء فإن هذا الذى وصفت به الطبيعة صفته تعالى . و إن قالت لك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلا وقد شوهد من آثارها ما شوهد فقل لها هذا مالا يصدقه ذو عقل سليم كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التى تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا فعل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذه إلا دخول فى سلك المجانين والمبرسمين[2] ، ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما ادعيت فمعلوم أن هذه الصفة

---

(١) أى بالية ، يقال : رم العظم اذا بلى (٢) البرسام علة يهذى فيها ، وهو =

ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها فمن ربها ومبدعها وخالقها ؟ مَنْ طبعها وجعلها تفعل ذلك ؟ فهى إذاً من أدل الدليل على باريها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجدك تعطيلك رب العالم وجحدك لصفاته وأفعاله إلا لمخالفتك لموجب العقل والفطرة ولو حكمناك إلى الطبيعة لأريناك أنك خارج عن موجبها فلا أنك مع موجب العقل ولا الفطرة ولا الطبيعة ولا الإنسانية أصلا وكفى بذلك جهلا وضلالا . فإن رجعت إلى العقل وقلت لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم ولا تدبير متقن محكم إلا من صانع قادر مختار مدبّر عليم بما يدبر قادر عليه لا يعجزه ولا يصعب عليه ولا يؤوده . قيل لك : فقد أقررت — ويحك — بالخلاق العظيم الذى لا إله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة أوعقلا فعالا أو موجباً بذاته وقل هـذا هو الخالق البارىء المصور رب العالمين وقيوم السموات والأرضين رب المشارق والمغارب الذى أحسن كل شىء خلقه وأتقن ما صنع فما لك جحدت أسماءه وصفاته بل وذاته وأضفت صنعه إلى غيره وخلقه إلى سواه مع أنك مضطر إلى الإقرار به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليـه ولا بد فالحمـد لله رب العالمين انتهى . وللآمدى كلام لطيف مع القائلين بالطبيعة فى كتابه (أبكار الأفـكار) فارجع اليه . ولولا أن هذا الداء قد سرى فى أكثر أقطار الارض لما تعرضنا لرده فإن ذلك ليس من موضوع الـكتاب . ومن قال بالدهر أثبت له صفات الـكمال كالعلم والقدرة وغير ذلك قال قائلهم[(١)] :

مَنَعَ البقاء تقلب الشمس ... وطلوعُها من حيث لا تُمسى

وطلوعُها حمراء صافيةً ... وغروبُها صفراءَ كالورس[(٢)]

تجرى على كَبِدِ السماء كما ... يجرى حِمام الموت فى النفس[(٣)]

ورم حار يعرض الحجاب الذى بين الكبد والامعاء ثم يتصل الى الدماغ ، وقد برسم الرجل فهـو مبرسم وكأنه مركب من (بر) و (سام) وبر بالفارسـية الصدر وسام هو الموت نقله الازهرى

(١) أى لا يثقله ولا يشق عليه (٢) قيل : القائل تبع الاقرن، وقال القالى: هو روح بن رياح ، وقيل غيرهما (٣) الورس : نبت اصفر يزرع باليمن ويصبغ به . وقيل : صنف من الكركم . وقيل يشبهه (٤) حمام الموت : قضاء الموت وقـدره

أليومَ أعلم مايجىء به ومضى بفصلِ قضائهِ أمسِ[1]

و بمقتضى ماتقرر أنه لافرق بين القـائلين بالدهر والطبيعيين ، و بعضهم يفرق ففى (شرح المقاصد) للسعد التفتازانى فى تفصيل فرق الـكفار : قد ظهر أن الكافر اسم لمن لا إيمان له فإن أظهر الإيمان خُصّ باسم المنافق و إن طرأ كفر بعد الإسلام خص باسم المرتد لرجوعه عن الإسـلام فإن قال بإلهين أو أكثر خص باسم المشرك لإثباته الشركة فى الألوهية و إن كان متديناً ببعض الأديان والـكتب المنسوخة خص بالـكتابى كاليهودى والنصرانى و إن كان يقول بقدم الدهر و إسـناد الحوادث إليه خص باسم الدَّهْرىّ و إن كان لايثبت البارى سـبحانه خص باسم المعطل و إن كان مع اعترافه بنبوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم و إظهار عقائد الإسـلام يبطن عقائد هى كفر بالاتفاق خُصّ باسم الزنديق وهو فى الأصل منسوب إلى (زند) اسم كتاب أظهره (مزدك) فى أيام (قباد) وزعم أنه تأمل كتاب المجوس الذى جاء به (زرادشت) الذى يزعمون أنه نبيهم انتهى . وهو اصـطلاح جديد ولا مشاحة فيه .

وصنف من العرب يصبو إلى الصابئة

وهم من يعتقد فى الأنواء[2] اعتقـاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنَوْء من الأنواء و يقول مطرنا بنوء كذا وسيجىء تفصيل ذلك عند الـكلام على علومهم . والصابئة أمة كبيرة من الأمم الـكبار ، وقد اختلف الناس فيهم اختلافاً كثيراً بحسب ماوصل إليهم من معرفة دينهم وهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر . قال تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى

(١) اليوم : منصوب على الظرفية بفى مقدرة وهو متعلق بأعلم وهو على تقدير لا اعلم وامس فاعل مضى محله رفع وهذا مذهب الحجازيين لتضمنه معنى لام التعريف والكسرة فيه لالتقاء الساكنين ولبنائه عندهم شروط ليس هذا محل ذكرها ، والبيت من شواهد النحو (٢) جمع نؤ وهو النجم مال للغروب ، أو سقوط النجم فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته فى الشرق

وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون » فذكرهم فى الأمم الأربع الذين تنقسم كل أمة منهم إلى ناجٍ وهالك . وذكرهم أيضاً فى الأمم الست الذين انقسمت جملتهم إلى ناجٍ وهالك كما فى قوله تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فذكر الأمتين اللتين لا كتاب لهم ولا ينقسمون إلى شقى وسعيد وهم المجوس المشركون فى آية الفصل ولم يذكرهم فى آية الوعد بالجنة وذكر الصائبين فيهما ، فعلم أن فيهم الشقى والسعيد وهؤلاء كانوا قوم إبراهيم الخليل عليه السلام وهم أهل دعوته وكانوا بحران فهى دار الصابئة وكانوا قسمين صابئة حنفاء وصابئة مشركين . والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ويصورونها فى هيا كلهم . ولتلك الكواكب عندهم هيا كل مخصوصة وهى المتعبدات الكبار كالكنائس للنصارى والبِيَع لليهود ، فلهم هيكل كبير للشمس ، وهيكل للقمر وهيكل للزهرة ، وهيكل المشترى ، وهيكل للمريخ ، وهيكل لعُطارد ، وهيكل لزحل ، وهيكل للعلة الأولى ولهذه الكواكب عندهم عبادات ودعوات مخصوصة ويصورونها فى تلك الهيا كل ويتخذون لها أصناماً تخصها ويقربون لها القرابين ولها صلوات خمس فى اليوم والليلة نحو صلوات المسلمين .

وطوائف منهم يصومون شهر رمضان ويستقبلون فى صلواتهم الكعبة ويعظمون مكة ويرون الحج إليها ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير ويحرمون من القرابات فى النكاح ما يحرم المسلمون وعلى هذا المذهب كان جماعة من أعيان الدولة ببغداد منهم هلال بن المحسن الصابئ صاحب الديوان الإنشائى وصاحب الرسائل المشهورة وكان يصوم مع المسلمين ويعبد معهم ويزكى ويحرم المحرمات وكان الناس يعجبون من موافقته للمسلمين وليس على دينهم . « وأصل دين هؤلاء » فيما زعموا أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ومذاهبهم ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً

وعملا ولهذا سموا صابئة أى خارجين فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيله إلا ما رأوه فيه من الحق . وكانت كفار قريش تسمى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صابئاً والصحابة الصباة يقال صبأ الرجل بالهمز إذا خرج من شىء إلى شىء وصبا يصبوا إذا مال ومنه قوله تعالى : « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ » أى أميل . والمهموز والمعتل يشتركان فالمهموز ميل عن الشىء والمعتل ميل إليه . واسم الفاعل من المهموز صابئ بوزن قارئ ومن المعتل صاب بوزن قاض وجمع الأول صابئون كقارئون والثانى صابون كقاضون وقد قرئ بهما . والمقصود أن هذه الأمة قد شاركت جميع الأمم وفارقتهم . والحنفاء منهم شاركوا أهل الإسلام فى الحنيفية والمشركون شاركوا عباد الأصنام ورأوا أنهم على صواب وأكثر هذه الأمة فلاسفة والفلاسفة يأخذون بزعمهم بمحاسن ما دلت عليه العقول ، وعقلاؤهم يوجبون اتباع الأنبياء وشرائعهم وبعضهم لا يوجب ذلك ولا يحرمه وسفهاؤهم وسفلتهم يمنعون ذلك ولهذا لم يكن هؤلاء ولا الصابئة من الأمم المستقلة التى لها كتاب ونبى وإن كانوا من أهل دعوة الرسل فما من أمة إلا وقد أقام الله سبحانه عليها حجة وقطع عنه حجتها لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وتكون حجته عليهم . والمقصود أن الصابئة فرق : فصابئة حنفاء ، وصابئة مشركون ، وصابئة فلاسفة ، وصابئة يأخذون بمحاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تقيد بملة ولا نحلة ، ثم منهم من يقر بالنبوات جملة ويتوقف فى التفصيل ، ومنهم من يقر بها جملة وتفصيلا ، ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلا وهم يقرون أن للعالم صانعاً فاطراً حكيما مقدساً عن العيوب والنقائص . ثم قال المشركون منهم « ولا سبيل لنا إلى الوصول إلى جلاله إلا بالوسائط فالواجب علينا أن نتقرب إليه بتوسطات الروحانيات القريبة منه » وهم الروحانيون والمقربون المقدسون عن المواد الجسمانية وعن القوى الجسدانية ، بل قد جبلوا على الطهارة فنحن نتقرب إليهم ونتقرب

بهم إليه فهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عنـــد رب الأرباب و إله الآلهة فما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشهوات الطبيعية ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الغضبية حتى تحصل المناسـبة بيننا و بين الروحانيات وتتصل أرواحنا بهم فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ونعرض أحوالنا عليهم ونصبو فى جميع أمورنا إليهم فيشفعون لنا إلى إلٰهنا و إلٰههم ، وهـذا التطهير والتهذيب لا يحصل إلا باستعداد من جهة الروحانيات وذلك بالتضرع والابتهال بالدعوات من الصلوات والزكوات وذبح القرابين والبخورات والعزائم ، فحينئذ يحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة الرسل بأن نأخذ من المعْدِن الذى أخذت منه الرسل فيكون حكمنا وحكمهم واحداً ونحن و إياهم بمنزلة واحدة قالوا : « والأنبياء أمثالنا فى النوع وشركاؤنا فى المادة وأشـكالنا فى الصورة يأكلون مما نأكل و يشربون مما نشرب وما هم إلا بشر مثلنا يريدون أن يتفضلوا علينا » . فهؤلاء كفروا بالأصلين اللذين جاءت بهما جميع الرســل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم . أحدهما عبادة الله وحده لا شريك له والـكفر بما يعبد من دونه من إله ، والثانى الإيمان برسله وما جاءوا به من عند الله تصديقاً وإقراراً وانقياداً وامتثالا . وليس هذا مختصاً بمشركى الصابئة كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم لـكن شرك الصابئة كان من جهة الـكواكب والعلويات . ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه فى بطلان إلٰهيّتها بما حكاه سبحانه فى سورة الأنعام أحسنَ مناظرة وأبينَها ظهرت فيها حجته ودحضت فيها حجتهم ، فقال بعد أن بين بطلان إلٰهية الـكواكب والقمر والشمس بأفولها وأن الإلٰهَ لا يليق به أن يغيب و يأفل لا يكون إلا شاهداً غير غائب — كما لا يكون إلا غالباً قاهراً غير مغلوب ولا مقهور ، نافعاً لعابده يملك لعابده الضر والنفع فيسمع كلامه و يرى مكانه و يهديه و يرشده و يدفع عنه كل ما يضره و يؤذيه ، وذلك ليس إلا الله وحده فـكل معبود سواه باطل فلما رأى إمام الحنفاء أن الشمس والقمر والـكواكب ليست بهذه المثابة

صعد منها إلى خالقها وفاطرها ومبدعها فقال : « إِنِّي وَجَّهْتُ وجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض » . وفى ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومجالها التى هى مفتقرة إليها ولا قوام لها إلا بها فهى محتاجة إلى محل تقوم به وفاطر يخلقها و يدبرها و يربّها والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون إلهاً فحاجَّهُ قومه فى الله ومن حاج فى عبادة الله فحجته داحضة فقال إبراهيم : « أَتُحَاجُّونِّي فِي ٱللهِ وَقَدْ هَدَانِي » وهذا من أحسن الكلام أى أتريدون أن تصرفونى عن الإقرار بربى وتوحيده وعن عبادته وحده وتشككونى فيه وقد أرشدنى و بين لى الحق حتى استبان لى كالعيان و بين لى بطلان الشرك وسوء عاقبته وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة وأن عبادتها توجب لعابدها غاية الضرر فى الدنيا والآخرة فكيف تريدون منى أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به وقد هدانى إلى الحق وسبيل الرشاد فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم ومن العمى إلى الإبصار ، ومجادلتكم إياى فى الإلٰهِ الحق الذى كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء كما يخوف المشرك الموحد بإلٰهه الذى يألهه مع الله أن يناله بسوء . فقال الخليل : « وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ » فإن آلهتهم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها . ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده وأنه هو الذى يخاف و يرجى فقال : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً » والمعنى لا أخاف آلهتكم فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة لكن إن شاء ربى شيئاً نابنى وأصابنى لاآلهتكم التى لا تشاء ولا تعلم شيئاً وربى له المشيئة النافذة قد وسع كل شيء علماً ، فمن أولى بأن يخاف و يعبد هو سبحانه : أم هى ؟ ثم قال : « أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ » فتعلمون بطلان ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيئاً بمن له المشيئة التامة والعلم التام . ثم قال : « وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً » وهذا من أحسن قلب الحجة وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله و بطلان مذهبه فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل الله عليهم

سلطاناً بعبادتها وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها ومع هذا فلا تخافون شركـكم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى فأىّ الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف فريق الموحدين أم فريق المشركين ؟ فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل الذى لا حكم أصح منه فقال : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ (أى بشرك) أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة وقالوا : يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ! فقال : « إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم » فحكم سبحانه للموحدين بالهدى والأمن وللمشركين بضد ذلك وهو الضلال والخوف ثم قال : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » قال أبو محمد بن حزم : وكان الذى ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الأرض والغالب على الدنيا إلى أن أحدثوا الحوادث وبدلوا شرائعه فبعث الله إليهم إبراهيم خليله بدين الإسلام الذى نحن عليه اليوم وتصحيح ما أفسدوه وبالحنيفية السمحة التى أتانا بها محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عند الله وكانوا فى ذلك الزمان وبعده الحنفاء . قلت : هم قسمان صابئة مشركون وصابئة حنفاء وبينهم مناظرات وقد حكى الشهرستانى بعض مناظراتهم ، والله ولى الهداية والتوفيق .

وصنف من العرب زنادقة

وهم طائفة من قريش . قال ابن قتيبة فى (كتاب المعارف) عند الكلام على أديان العرب فى الجاهلية : وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة . وفى القاموس : الزنديق بالكسر من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان أو هو معرب زن دين أى دين المرأة والاسم الزندقة . وقد ألف ابن الكمال رسالة فى بيان معنى هذا اللفظ قال فيها : وأما الذى ذهب إليه صاحب القاموس من أنه معرب زن دين فلا وجه

له كما لا يخفى و (زند) اسم كتاب أظهره (مزدك) رئيس الفرقة المزدكية من الفرق الثنوية فى زمن كسرى بن أنو شروان والمزدكية غير المانوية أصحاب مانى الحكيم[1] الذى ظهر فى زمن سابور بعد بعث عيسى عليه الصلاة والسلام . ثم قال بعد كلام طويل ، قال فى الصحاح : الزنديق من الثنوية وهو معرب والجمع الزنادقة والهاء عوض عن الياء المحذوفة وأصله الزناديق والاسم الزندقة أو نافيا للصانع الحكيم قائلا لو كان له وجود لما كان الأمر كذا . والذى يظهر لى أن مراد ابن قتيبة من الزندقة التى نسبها الى بعض العرب اعتقاد الثنوية أو القائل بالنور والظلمة بمقتضى قوله أخذوها من الحيرة فإنها كما أسلفنا فى الكلام على ملوك الحيرة من بلاد الفرس وان كان سكنتها وملوكها من العرب المتدينين بدين الفرس أو دين المسيح ولو كان مراده من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية لم يكن لأخذها من الحيرة وجه فإن كثيراً من قبائل العرب كانوا كذلك فتعين أن مراده ما ذكرنا فلا بد من بيان ما كان عليه الثنوية والقائلين بالنور والظلمة ليتبين المقصود .

بيان معتقدات الثنوية

وهم طائفة قالوا : الصانع اثنان ففاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا قويين حساسين مدركين سميعين بصيرين وهما مختلفان فى النفس والصورة متضادان فى الفعل والتدبير فالنور فاضل حسن نقى طيب الريح حسن المنظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نفاعة منها الخيرات والمسرات والصلاح وليس فيها شىء من الضرر ، والظلمة على ضد ذلك من الكدر والنقص ونتن الريح وقبح المنظر ونفسها نفس شريرة بخيلة سفيهة منتنة مضرة منها الشر

(١) هو رجل يقول : الخير من النهار والشر من الليل ، وانتحل هذاالمذهب وقد رد عليه المتنبى فقال :

وكم لظلام الليل عندى من يد ... تخبر ان المانوية تكذب
وقاك ردى الاعداء تسرى اليهم ... وزارك فيه ذو الدلال المحجب

والفساد ، ثم اختلفوا فقالت فرقة منهم : إن النور لم يزل فوق الظلمة . وقالت فرقة : بل كل واحد منهما إلى جانب الآخر . وقالت فرقة : النور لم يزل مرتفعاً فى ناحية الشمال والظلمة منحطة فى الجنوب ولم يزل كل واحد منهما مبايناً لصاحبه وزعموا أن لكل واحد منهما أربعة أبدان وخامس هو الروح ، فأبدان النور الأربعة الماء والنور والريح والماء وروحه السَّيْح ولم يزل متحركا فى هذه الأبدان ، وأبدان الظلمة الأربعة الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان وسموا أبدان النور ملائكة وسموا أبدان الظلمة شياطين وعفاريت وبعضهم يقول : الظلمة تولد شياطين ، والنور يولد ملائكة ، والنور لا يقدر على الشر ولا يجىء منه والظلمة لا تقدر على الخير ولا يجىء منها . ولهم مذاهب سخيفة جداً وفرض عليهم صوم سبع العمر وأن لا يؤذى أحد منهم ذا روح ألبتة ومن شريعتهم أن لا يدخروا إلا قوت يوم وتجنب الكذب والبخل والسحر وعبادة الأوثان والزنى والسرقة ، واختلفوا هل الظلمة قديمة أو حادثة فقالت فرقة منهم : هى قديمة لم تزل مع النور ، وقالت فرقة : بل النور هو القديم ولكنه فكر فكرة ردية حدثت منها الظلمة . فدار مذهبهم على أصلين من أبطل الباطل . أحدهما : أن شر الموجودات وأخبثها وأردأها كفء لخير الموجودات وضد له ومناوئ له يعارضه ويضاده ويناقضه دائماً ولا يستطيع دفعه وهذا أعظم من شرك عباد الأصنام الذين عبدوها لتقربهم إلى الله فإنهم جعلوها مملوكة له مربوبة مخلوقة كما كانوا يقولون فى تلبيتهم « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك » الأصل الثانى أنهم نزهوا النور أن يصدر منه شر ثم جعلوه منبع الشر كله وأصله ومولده وأثبتوا إلهين وربين وخالقين فجمعوا بين الكفر بالله وأسمائه وصفاته ورسله وأنبيائه وملائكته وشرائعه وأشركوا به أعظم الشرك . وحكى أرباب المقالات عنهم أن قوماً منهم يقال لهم (الديصانية) زعموا أن طينة العالم كانت طيبة حسنة ؛ وكانت تحاكى جسم النور الذى هو البارئ عندهم زماناً فتأذى بها فلما طال ذلك

عليه قصد تنحيتها عنه فتحول فيها واختلط بها فتركب من بينهما هـذا العالم المشتمل على الظلمة والنور فما كان من جهة الصلاح فمن النور وما كان من جهة الفساد فمن الظلمة . قال : وهؤلاء يغتالون الناس ويخنقونهم ويزعمون أنهم يحسنون إليهم بذلك وأنهم يخلصون الروح النورانية من الجسد المظلم . وقال بعضهم : إن البارئ سبحانه لما طالت وحدته استوحش ففكر فكرة سوء فتجسمت فكرته فاستحالت ظلمة فحدث منها إبليس فرام البارئ إبعاده عن نفسه فلم يستطع فتحرز منه بخلق الجنود والخيرات فشرع إبليس فى خلق الشر ، وأصل عقد مذهبهم الذى عليه خواصهم إثبات القدماء الخمسة البارئ . والزمان . والخلاء . والهيولى[1] وإبليس . فالبارئ خالق الخيرات . وإبليس خالق الشرور ، وكان (محمد ابن زكريا الرازى) على هذا المذهب لكنه لم يثبت إبليس فجعل مكانه النفس وقال بقدم الخمسة مع رشحة به من مذاهب الصابئة والدهرية والفلاسفة والبراهمة فكان قد أخذ من كل دين شرّ ما فيه ، وصنف كتاباً فى إبطال النبوّات ورسالة فى إبطال المعاد فركب مذهباً مجموعاً من زنادقة العالم وقال أنا أقول إن البارئ والنفس والهيولى والزمان والمكان قدماء وإن العالم محدث . قيل له : فما العلة فى إحداثه ؟ قال : إن النفس اشتهت أن تتخيل فى هذا العالم وحركتها الشهوة لذلك ولم تعلم ما يلحقها من الوبال إذا انحلت فيه فاضطربت وحركت الهيولى حركات مشوشة مضطربة على غير نظام وعجزت عما أرادت فأعانها البارئ على إحداث العالم وحملها على النظام والاعتدال . وعلم أنها إذا ذاقت وبال ما اكتسبته عادت إلى عالمها وسكن اضطرابها وزالت شهواتها واستراحت فأحدثت هذا العالم بمعاونة البارى لها . قال : ولولا ذلك لما قدرت على إحداث هـذا العالم ولولا هذه العلة لما حدث هذا العالم ! نسأله سبحانه العصمة من الخذلان .

---

(١) هى فى كلام المتكلمين أصل الشيء قال فى المزهر : فان يكن (أى لفظ الهيولى) من كلام العرب فهو صحيح فى الاشتقاق ووزنه فعولى، وقيل هو مخفف هيئة أولى . والصواب انه لفظ يونانى بمعنى الأصل والمادة . وفى الاصطلاح =

وصنف من العرب عبدوا الملائكة

وهم أفراد من العرب قد رد الله تعالى عليهم بقوله « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » وقال تعالى : « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ : ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً[1] فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً » وقد تكلم المفسرون على هذه الآيات بما لا يسعنا إيراده فمن أرادها فليرجع إلى كتب التفاسير .

ومنهم صنف عبدوا الجن

وهم شرذمة قليلون من أهل البوادى قد حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً » أى كبراً وعتواً أو غيا بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم . فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال : (أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه) وقال تعالى : « بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » وقال تعالى : « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » وقال تعالى « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » يعنى قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم . قال ابن عباس ومجاهد والحسن

= جوهر فى الجسم قابل لما يعرض له من الاتصال والانفصال محل للصورتين النوعية والجسمية

(١) البور : الهلاك

وغيرهم : أضللتم منهم كثيراً فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم (رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ) يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر فاستمتاع الجن بالإنس طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به من الكفر والفسوق والعصيان فإن هذا أكثر أغراض الجن من الإنس فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مناهم واستمتاع الإنس بالجن أنهم أعانوهم على معصية الله والشرك به بكل مايقدرون عليه من التحسين والتزيين والدعاء وقضاء كثير من حوائجهم واستخدامهم بالسحر والعزائم وغيرها فإطاعتهم الإنس فيما يرضيهم من الشرك والفواحش والفجور وإطاعتهم الجن فيما يرضيهم من التأثيرات والإخبار ببعض المغيبات فتمتع كل من الفريقين بالآخر . وفى كتاب (اكام المرجان فى أحكام الجان) حدثنا الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الأعمش عن ابراهيم عن أبى معمر قال قال عبد الله بن مسعود : كان نفر من الإنس يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن واستمسك هؤلاء بعبادتهم فأنزل الله تعالى : (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) وفى رواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال : نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون والإنس كانوا يعبدونهم ولا يشعرون .

وصنف منهم عبدوا النار

وهم أشتات من العرب وكأن ذلك سرى إليهم من الفرس والمجوس وقد قيل إن عبادة النار كانت فى الأرض من عهد قابيل كما ذكره أبو جعفر بن جرير أنه لما قتل قابيل هابيل وهرب من أبيه آدم أتاه إبليس فقال له : إن هابيل إنما قبل قربانه وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها فانصب أنت ناراً تكون لك ولعقبك فبنى بيت نار فهو أول من نصب النار وعبدها وسرى هذا المذهب فى المجوس فبنوا لها بيوتاً كثيرة واتخذوا الوقوف والسدنة والحجاب فلا يدعونها

لمحمد لحظة واحدة فاتخذ لها (أفريدون) بيتاً (بطوس) وآخر (ببخارى) ، واتخذ لها (بهمن) بيتاً (بسجستان) واتخذ لها (أبو قتادة) بيتاً (بناحية بخارى) واتخذت لها بيوت كثيرة . وعباد النار يفضلونها على التراب و يعظمونها و يصو بون رأى إبليس وقد رمى بشار بن برد[1] بهذا المذهب لقوله فى قصيدته :

الأرضُ سافلةٌ سوداء مظلمةٌ والنار معبودةٌ مذ كانت النارُ

و يقولون : إنها أوسع العناصر خيراً وأعظمها جرماً وأوسعها مكاناً وأشرفها جوهراً وألطفها جسما ولا كونَ فى العالم إلا بها ولا نموّ ولا انعقاد إلا بممازجتها . ومن عبادتهم لها أن يحفروا لها أخدوداً مربعاً فى الأرض و يطوفون به . وهم أصناف مختلفة « فمنهم » من يحرم إلقاء النفوس فيها واحتراق الأبدان بها وهم أكثر المجوس « وطائفة أخرى » منهم تبلغ بهم عبادتهم لها أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها وهؤلاء أكثر ملوك الهند وأتباعهم ولهم سنة معروفة فى تقريب نفوسهم وإلقائهم فيها فيعمد الرجل الذى يريد أن يفعل ذلك بنفسه أو بولده أو حليلته فيجمله و يلبسه أحسن اللباس وأفخر الحلىّ و يركب أعلى المراكب وحوله المعازف والطبول والبوقات فيزف إلى النار أعظم من زفافه ليلة عرسه حتى إذا ما قابلها ووقف عليها وهى تأجج طرح نفسه فيها فضج الحاضرون صيحة واحدة بالدعاء له وغبطه على ما فعل فلم يلبث إلا يسيراً حتى يأتيهم الشيطان فى صورته وهيئته وشكله لا ينكرون منه شيئاً فيأمرهم بأمره و يوصيهم بالتمسك بهذا الدين و يخبرهم أنه صار إلى الجنة ورياض وأنهار وأنه لم يتألم بمس النار له فلا يهولنهم ذلك ولا يمنعنهم أن يفعلوا مثله « ومنهم » زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين

---

(١) هو الشاعر العربى الشهير ، محله فى الشعر وتقدمه طبقات المحدثين فيه باجماع الرواة ورئاسته عليهم من غير اختلاف فى ذلك — يغنى عن وصفه وهو من شعراء مخضرمى الدولتين الاموية والعباسية ، ولد أعمى فما نظر الى الدنيا قط وكان يشبه الأشياء فى شعره بعضها ببعض فيأتى بما لا يقدر البصراء ان يأتوا بمثله ... قال الجاحظ : كان بشار يدين بالرجعة ويكفر جميع الامم ويصوب رأى ابليس عليه اللعنة فى تقديم عنصر النار على الطين وذكر ذلك فى شعره فقال :

الارض سافلة سوداء مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار

عاكفين عليها . ومن سننهم الحث على الأخلاق الجميلة كالصدق والوفاء وأداء الأمانة والعفة والعدل وترك أضدادها ولهؤلاء شرائع فى عبادتها ونواميس وأوضاع لا يخلون بها « ومن عجائب العقول وتناقضها » فإن طائفة أخرى تعبد الماء من دون الله وتسمى (الحلبانية) وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء وبه كل ولادة ونموّ ونشوء وطهارة وعمارة وما من عمل فى الدنيا إلا يحتاج إلى الماء ، ومن شريعتهم فى عبادته أن الرجل منهم إذا أراد عبادته تجرد وستر عورته ثم دخل فيه حتى يصير إلى وسطه فيقيم هناك ساعتين أو أكثر بقدر ما أمكنه ويكون معه ما يمكنه أخذه من الرياحين فيقطعها صغاراً فيلقيها فيه شيئاً فشيئاً وهو يسبحه ويمجده فإذا أراد الانصراف حرك الماء بيده ثم أخذ منه فيضعه على رأسه وجسده ثم يسجد وينصرف قال ابن قتيبة فى (كتاب المعارف) وكانت المجوسية فى تميم منهم زرارة ابن عدس التميمى وابنه حاجب بن زرارة وكان تزوج ابنته ثم ندم . ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسياً انتهى . وما ذكر أن حاجب بن زرارة تزوج ابنته ليس من عوائد العرب ولا من مذاهبهم وقد سرى لحاجب هذا المنكر من المجوسية والعرب كانوا يتحرجون من نكاح المحارم على اختلافهم فى المذاهب والمشارب ، وهذا الذى ذكره ابن قتيبة ذكره غيره أيضاً ، قال الإمام الماوردى فى (أعلام النبوة) حكى أن حاجب بن زرارة وهو سيد بنى تميم نكح بنته وأولدها وقد كان سماها (دخشوس) باسم بنت كسرى وقال فيها حين نكحها مرتجزاً .

يا ليتَ شعرى عنك دختنوسُ إذا أتاها الخبر المرموسُ [1]
أتسحب الذيلين أم تميس لا بل تميس إنها عروس [2]

(١) الخبر المرموس : المكتوم (٢) تسحب : تجر ، وتميس : تتبختر ، وقد نسب هذين البيتين الزمخشرى فى الأساس والزبيدى فى التاج والاصبهانى فى الاغانى الى لقيط بن زرارة ، قال الاصبهانى (الاغانى ج ١٠ ص ٣٨) : =

وهـذا فى قريش من الفواحش انتهى . وترجمة زرارة وابنه الأقرع بن حابس وأبى الأسود مذكورة فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصبهانى وكتاب لب لباب لسان العرب . والأقرع بن حابس أسـلم وكان من الصحابة . قال ابن حجر فى (الإصابة) هو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمى المجاشعى الدارمى قال ابن إسحق : وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف وهو من المؤلفـة قلوبهم وقد حسن إسلامه . وقال الزبير فى (النسب) كان الأقرع حكما فى الجاهلية وفيه يقول جرير . وقيل غيره لما تنافر إليه هو والفرافصة أو خالد بن أرطأة :

يا أقرعَ بن حابس يا أقرعُ ... إنك إن يصرع أخوكَ تصرعُ (١)

= دختنوس بنت لقيط بن زرارة وكانت تحت عمرو بن عدس ! وفى تـاج العروس (ج ٤ ص ١٤٧): دختنوس كعضرفوط بيت لقيط بن زرارة التميمى وهى معربة أصلها دخترنوش أى بنت الهنىء سماها باسم ابنة كسرى قلبت الشين سينا لما عربت قال لقيط :

ياليت شعرى اليوم دختنوس ... اذا اتاهـا الخبـر المرموس
اتحلق القـرون أم تميس ... لابل تميس انها عروس ...اهـ

وليس فى الأصول التى بأيدينا مايشعر بأنها ابنة حاجب وانه قال فيها هذين البيتين حين نكحها مرتجزا ! بل المشهور ان لقيطا قالهما يوم شعب جبلة عند موته ، وجعلت بنو عامر يضربونه وهو ميت فقالت دختنوس :

الا يالها الويلات ويلة من بكى ... لضرب بنى عبس (لقيطا) وقد قضى
لقد ضربوا وجها عليه مهابة ... وماتحمل الضيم الجنادل مزردى
فلو انكم كنتم غـداة لقيتم ... (لقيطا) ضربتم بالاسنة والقنا
غدرتم ولكن كنتم مثل خضب ... اضاءت لها القناص من جانب الشرا
فمـا ثأره فيكم ولـكن ثأره ... عليكم حريقا لايرام اذا سـما
فان تعقب الايام من فارس تكن ... (شريح) أردته الاسنة أو هوى
ليجزيكم بالقتـل قتلا مضعفا ... ومافى دماء الخمس يامال من بوا
ولو قتلتنا (غالب) كان قتلهـا ... علينا من العار المجدع للعلى
لقد صبرت للموت (كعب) وحافظت ... (كلاب) وما انتم هناك لمن رأى

(١) حرك مجزوم (أن) بالضم للضرورة الشعرية ، قال سيبويه رحمـه الله وقد تقول أن أيتنى آتيك أى أتيتك ان تأتينى ، قال زهير :

وان أتاه خيل يوم مسألة ... يقول لا غائب مالى ولا حرم

ولا يحسن ان تأتينى أتيك من قبل أن أذهى العاملة وقد جاء فى الشعر قال جرير : يا أقـرع بن حابس .. البيت . أى انـك تصرع ان يصرع =

قال ابن دريد : اسم الأقرع بن حابس فراس و إنما قيل له الأقرع لقرع كان برأسه وكان شريفاً فى الجاهلية والإسلام . وروى ابن شاهين أنه لما أصاب عيينة بن حصين بنى العنبر قدم وفدهم فذكر القصة وفيها فكلم الأقرع بن حابس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى السبى وكان بالمدينة قبل قدوم السبى وفى ذلك يقول الفرزدق يفخر بعمه الأقرع :

وعند رسول الله قام (ابن حابس) بخطة أسوار إلى المجد حازم
له أطلق الأسرى التى فى قيودها مغللة أعناقها فى الشكائم[1]

وصنف من العرب عبدوا الشمس

وهم عرب حمير قبل أن يتهودوا ومنهم قوم بلقيس صاحبة القصة مع سليمان عليه السلام وقد ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه العزيز فى قوله « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » . روى أن سليمان عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام به ما شاء ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً فوافى صنعاء ظهراً فأعجبته نزاهة أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء وكان الهدهد رائده لأنه يحسن طلب الماء فتفقده لذلك فلم يجده إذ حلق حين نزل سليمان فرأى هدهداً واقعاً فانحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له ثم رجع بعد العصر وحكى ما حكى . ولعل فى عجائب قدرة الله تعالى وما خص به من خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها و يستنكرها من ينكرها « إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ »

= اخوك الخ وقد خرج الرضى البيت على خلاف ما خرجه سيبويه فجعل تصرع جواب الشرط مع مبتدأ محذوف مع الفاء الرابطة والتقدير فانت تصرع والجملة الشرطية خبر (أن) وسيبويه جعل تصرع خبر أن وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله . وهذا الرجز لجرير ويقال : انه لعمرو بن الخثارم

(١) الشكائم جمع شكيمة وهى فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس التى فيها الفأس كما هو نص الجوهرى وفأس اللجام هى الحديدة القائمة فى اللجام اذا كان ذا عارضة وجد

يعنى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان . « وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ » قيل كان ثلاثين ذراعاً فى ثلاثين عرضاً وسمكاً أو ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر . « وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُون . اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم . قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . اذْهَبْ بِكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ . قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ » إلى آخر الآيات الواردة فى هذه القصة .

وقد آل الأمر بها إلى الإيمان كما يدل عليه قوله « وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ » أى وصدها عبادتها الشمس عن التقدم إلى الإسلام . « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ . قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ[1] فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً[2] وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا » روى أن سليمان أمر قبل قدومها فبنى قصراً صحنه من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره فى صدره فجلس عليه فلما أبصرته ظنت ماء راكداً فكشفت عن ساقيها « قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ[3] . قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وقد اختلف فى أنه تزوجها أو زوجها من ذى تبع ملك همدان . وتفصيل ما كان فى كتب التفسير والتواريخ وقد ذكرنا سابقاً سبب عبادة الشمس وما كان يزعمه فيها عبّادها وشريعتهم فى عبادتها فلا حاجة إلى الإعادة .

---

(١) القصر ، وكل بناء مشرف من قصر أو غيره فهو صرح (٢) اللجة : معظم البحر

(٣) ممرد : مملس ، والقوارير جمع قارورة وهى ماقر فيه الشراب أو يخص بالزجاج ، وقوارير من فضة : أى من زجاج فى بياض الفضة وصفاء الزجاج عند المؤولة من المفسرين

وصنف من العرب عبدوا الكواكب

وهم طائفة من تميم عبدوا (الدبران) من النجوم ومن زعمهم الكاذب أن (العيوق) عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهراً وهى نجوم صغار نحو عشرين نجماً فهو يتبعها أبداً خاطبا لها ولذلك سموا هذه النجوم (القلاص) وعليه قول الشاعر :

أما ابن طوقٍ فقد أوفى بذمته كما وفى (بقلاص النجم) حاديها [1]

و بعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدوا (الشعرى العبور) وأول من سن ذلك لهم أبو كبشة وجزء بن غالب جد وهب بن عبد مناف أبو آمنة أم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما بعث الرسول وخالف قريشاً وغيرهم من العرب فى عبادة الأوثان كانوا يسمونه ابن أبى كبشة لمخالفته لهم كمخالفة أبى كبشة لهم فى عبادة الشعرى وهى التى عناها الله تعالى بقوله : « وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى » وخصها بالذكر لعبادة من ذكرنا لها أو أن تخصيصها للإشعار بأن النبى عليه الصلاة و السلام و إن وافق أبا كبشة فى مخالفتهم خالفه أيضاً فى عبادتها . وفى الكواكب (شعرى الغميصاء) أيضاً ، أما العبور فإنها من نجوم الجوزاء وهى من النجوم التى فى العظم الأول وأصحاب الصور يرسمونها فى (السرطان) . و يسمى (كلب الجبار) وسميت (بالعبور) لأنها على ما حكاه أصحاب اللغة فى أكاذيب العرب وخرافاتها كانت و (الغميصاء) و (سهيل) مجتمعة ولذلك يقال للشعريان (أختا سهيل) فانحدر سهيل فصار يمانياً وتبعته العبور فعبرت (المجرة) وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت . والغمص فى العين نقص وضعف، والشعرى العبور أشد ضياء من الغميصاء . والغميصاء من نجوم الذراع المبسوطة و بينها و بين العبور المجرة

---

(١) حاديها هو الدبران ، قال ذو الرمة :

قلاص حداها راكب متعمم هجائن قد كادت عليه تفرق

وأصحاب الصور يعدونها فى صورة الكلب الأكبر وهى تقطع السماء عرضاً وليس غيرها من الكواكب كذلك . و بعض طيء عبدوا (الثريا) وهى عدة كواكب مجتمعة . و بعض قبائل ربيعة عبدوا (المرزم) كمنبر ، والمرزمان نجمان مع الشعريين والرزم بمعنى الجمع ورزم الشتاء رزمة برد و به سمى نوء المرزم . و يقال إن أحد المرزمان يتبع الشعرى العبور وأصحاب الصور يسمونه (كف الكلب) والآخر هو الكوكب الأخفى من كوكبى الذراع المبسوطة . والقمر عبدته كنانة وقد ذكرنا شرائعهم فى عبادة كل ذلك .

وصنف منهم على دين اليهود

كانت اليهودية فى حِمير بعد أن كان الغالب من المجوس وعبدة الشمس ونحو ذلك ، والسبب فى ذلك أن (تبع الأصغر) وهو تبع حسان بن تبع بن كليكرب بن تبع الأقرن وهو آخر التبابعة لما ملك وكان مهيباً — بعث ابن أخته الحرث بن عمرو بن حجر الكندى وهو جد أمرئ القيس الشاعر إلى معد وملكه عليهم وسار إلى الشام وملوكها غسان فأعطته المقادة واعتذروا من دخولهم إلى النصرانية وصاروا إلى ابن أخته الحارث بن عمرو وهو بالمشقر من ناحية هجر فأتاه قوم كانوا وقعوا إلى يثرب ممن خرج مع عمرو بن عامر مزيقاء وخالفوا اليهود بيثرب فشكوا اليهود وذكروا سوء مجاورتهم له ونقضهم الشرط الذى شرطوه لهم عند نزولهم ومَتّوا (١) إليه بالرحم فأحفظه (٢) ذلك فسار إليه يثرب ونزل فى سفح أُحُد (٣) و بعث إلى اليهود فقتل منهم ثلاثمائة وخمسين رجلا صبرا وأراد إخرابها فقام إليه رجل من اليهود قد أتت له مائتان وخمسون سنة فقال له : أيها الملك لا تقتل على الغضب ولا تقبل قول الزور وأمرك أعظم من أن يطير بك برق أو يسرع بك لجاج و إنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية . قال : ولم ؟

(١) المت : التوسل (٢) احفظه : اغضبه (٣) سفح الجبل : مثل وجهه وزنا ومعنى

قال : لأنها مهاجر نبي من ولد إسماعيل يخرج من عند هذه البنية(١) يعنى البيت الحرام فكف تبع عن ذلك ومضى يريد مكة ومعه هذا اليهودى ورجل آخر من اليهود عالم وهما الحبران فأتى مكة وكسا البيت وأطعم الناس وهو القائل :

فكسونا البيت الذى حرم اللـ ـه ملاء معظما وبروداً(٢)

ويقول قوم : إن قائل هذا هو تبع الأوسط . ثم رجع إلى اليمن ومعه الحبران وقد دان بدينهما وآمن بموسى وما نزل فى التوراة وبلغ ذلك أهل اليمن فاختلفوا عليه وامتنعوا من متابعته على دينه فحاكمهم إلى النار بأن دخلها الحبران وقوم منهم فأحرقتهم وسلم الحبران والتوراة فانقادوا له وتابعوه فبذلك دخلت اليهود اليمن و (تبّع) هذا هو الذى عقد الحلف بين اليمن وربيعة وكان ملكه ثمانى وسبعين سنة . وكانت اليهودية أيضاً فى بنى كنانة وكندة وبنى الحرث بن كعب . ولعلها سرت إليهم من مجاورة اليهود لهم فى يثرب وخيبر وغير ذلك .

وصنف منهم على دين النصارى

فقد كانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة وكأنهم تلقوا ذلك عن الروم فقد كان العرب يكثرون التردد إلى بلادهم للتجارة وقد اجتمع على النصرانية فى الحيرة قبائل شتى من العرب يقال لهم (العِباد) بكسر العين وتخفيف الباء منهم عدىّ بن زيد العبادى وسيأتى ذكره وخبره قريباً . وكان بنو تغلب أيضاً من نصارى العرب وكانت لهم شوكة وقوة يد وقد صالح عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى أيام خلافته على أن لا يغمسوا أحداً من أولادهم فى النصرانية

---

(١) البنية على فعلية الكعبة لشرفها اذ هى أشرف مبنى يقال : لاورب هذه البنية ما كان كذا وكذا ، وفى حديث البراء بن معرور : رأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر ، يريد الكعبة ، وكانت تدعى بنية ابراهيم عليه السلام لانه بناها وقد كثر قسمهم برب هذه البنية (٢) الملاء جمع ملآءة بالضم والمد هى الريطة ذات لفقين كلها نسج واحد وقطعة واحدة أو كل ثوب لين رقيق ، و (معظما) صوابه : (معضدا) كمعظم وهو ثوب له علم فى موضع العضد ، وقيل ثوب معضد مخطط على شكل العضد وقال اللحيانى هو الذى وشيه فى جوانبه ، وفى الاساس ثوب معضد : مضلع

و يضاعف عليهم الصدقة فإذا وجب على المسلم شيء فى ذلك فعلى النصرانى التغلبى مثله مرتين . ونساؤهم كرجالهم فى الصدقة فأما الصبيان فليس عليهم شيء وكذلك أرضوهم التى كانت بأيديهم يوم صولحوا فيؤخذ منهم ضعف ما يؤخذ من المسلم . وأما الصبي والمعتوه فيؤخذ ضعف الصدقة من أرضه ولا يؤخذ من ما شيته ولا شيء عليهم فى بقية أموالهم ورقيقهم . وكان أهل نجران أيضاً من نصارى العرب وقدم وفدهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم منهم السيد وهو الكبير والعاقب وهو الذى يكون بعده وصاحب رأيهم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أسلما . قالا : أسلمنا . قال : ما أسلمتما قالا : بلى قد أسلمنا قبلك قال : كذبتما يمنعكما من الإسلام ثلاث فيكما عبادتكما الصليب وأكلكم الخنزير وزعمكما أن لله ولداً ونزل : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون . فلما قرأها عليهم قالوا : ما نعرف ما تقول . ونزلت آية المباهلة وهى : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ(١) فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » . فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن الله تعالى قد أمرنى إن لم تقبلوا هذا أن أباهلكم. فقالوا : يا أبا القاسم بل نرجع فننظر فى أمرنا ثم نأتيك فخلا بعضهم ببعض وتصادقوا فيما بينهم . قال السيد للعاقب : قد والله علمتم أن الرجل نبي مرسل ولئن لاعنتموه لاستأصلكم ، وما لاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم فإن أنتم لن تتبعوه وأبيتم إلا إلف

(١) أى نتباهل فالافتعال هنا بمعنى المفاعلة وافتعل وتفاعل اخوان فى كثير من المواضع كاشتور وتشاور واجتور وتجاور والاصل فى البهلة بالضم والفتح فيه كما قيل اللعنة والدعاء بها ثم شاعت فى مطلق الدعاء كما يقال فلان يبتهل الى الله تعالى فى حاجته ، وقال الراغب بهل الشيء والبعير اهماله وتخليته ثم استعمل فى الاسترسال فى الدعاء سواء كان لعنا أو لا الا انه هنا يفسر باللعن لانه المراد الواقع كما يشير اليه قوله تعالى (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) أى فى أمر عيسى عليه السلام فانه معطوف على نبتهل مفسر للمراد منه أى نقول لعنة الله على الكاذبين أواللهم العن الكاذبين، انتهى من روح المعانى .

دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم . وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ومعه عليّ والحسن والحسين وفاطمة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إن أنا دعوت فأمنوا أنتم فأبوا أن يلاعنوه وصالحوه على الجزية وهى ألف حُلّة فى صَفَر وألف فى رجب ودراهم . وروى أنهم صالحوه على أن يعطوه فى كل عام ألفَىْ حلة ، وثلاثاً وثلاثين درعاً وثلاثة وثلاثين بعيراً وأربعاً وثلاثين فرساً وكتب لهم بذلك كتاباً وبعث إليهم عمرو بن حزم وكتب له حين بعثه إلى نجران : بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمان من الله ورسوله يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود عهد من محمد النبي لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمين آمره بتقوى الله فى أمره كله وأن يفعل ويفعل[1] ويأخذ من المغانم خمس الله جل ثناؤه وما كتب على المؤمنين فى الصدقة من الثمار . وأن نسخة كتاب النبي عليه الصلاة والسلام لهم التى هى فى أيديهم . بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأهل نجران إذ كان له عليهم حكمة فى كل ثمرة وفى كل صفراء وبيضاء ورقيق فافصل ذلك عليهم واترك ذلك كله لهم على ألفى حلة من حلل الأواقى فى كل رجب ألف حلة وفى كل صفر ألف حلة مع كل حلة أوقية من الفضة فما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقى فبالحساب وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب . وعلى نجران مؤنة رسلى ومبعثهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ولا تحبس رسلى فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرسا وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرة . وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمين على رسلى حتى يؤدوه إليهم ، ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليهم ربابة ولا دم

(١) العرب تقول « فعل به وفعل » أى أحسن اليه

جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم جزيتهم نسهمهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ومن أكل منهم ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر . وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير منقلبين بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب . وغيلان بن عمرو . ومالك بن عوف من بنى نصر . والأقرع بن حابس الحنظلى . والمغيرة بن شعبة ، وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبى بكر وكتب لهم بعد ذلك كل من الخلفاء الراشدين أيام خلافته مثل ذلك .

ذكر بعض من اشتهر أمره على دين من العرب فى الجاهلية

كان جمع من عقلاء العرب وحكمائها غير موافقين لعمرو بن لحى فيما ابتدع من الدين ولا متبعين ما شرع من عبادة الأصنام وغير ذلك من المنكرات ، بل كانوا مخالفين له فيما ذهب إليه من الزيغ والباطل الذى سَوَّلَتْهُ له نفسه ، وتعبدوا بما ترتضيه العقول وتظاهره الشرائع المقررة وهم أفراد من القبائل المتفرقة متفاوتون فى الطبقة والأحكام ونذكر بعض من وقفنا على حاله فى الكتب المعتبرة ، وما لا يُدْرك كله لا يترك كله ، ليكون الكتاب بمحلٍّ من نظر الأدباء والله الموفق لما يرضاه . منهم :

قس بن ساعدة الإيادي

و إياد بكسر الهمزة من معدّ بن عدنان . قال الذهبي : قس بن ساعدة أورده ابن شاهين وعبدان فى الصحابة وكذلك قال ابن حجر فى الإصابة ذكره أبو على ابن السكن وابن شاهين وعبدان المروزى وأبو موسى فى الصحابة . وصرح ابن السكن بأنه مات قبل البعثة . وفى سيرة ابن سيد الناس بسنده إلى ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : قَدِم الجارود بن عبد الله وكان سيداً فى قومه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فقال والذى بعثك بالحق لقد وجدت صفتك فى

الإنجيل ولقد بشر بك ابن البتول فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ، قال : فآمن الجارود وآمن من قومه كل سيد فسر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهم . وقال : يا جارود هل فى جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قساً قالوا كلنا نعرفه يا رسول الله وأنا من بين القوم كنت أقفو أثره كان من أوساط العرب فصيحاً عمر سبعمائة سنة أدرك من الحواريين سمعان فهو أول من تأله من العرب (أى تعبد) كأنى أنظر اليه يُقْسِمُ بالرب الذى هو له ، ليبلغن الكتاب أجله . وليوفِين كل عامل عمله . ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من جواه ادّكارُ وليالٍ خلا لهنَّ نهارُ

فى أبيات آخرها :

والذى قد ذَكرت دل على الله نفوساً لها هدى واعتبارُ

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : على رِسْلِكَ[(١)] يا جارود فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق[(٢)] وهو يتكلم بكلام ما أظن أنى أحفظه . فقال أبو بكر : يا رسول الله فإنى أحفظه كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال فى خطبته . أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آت . إن فى السماء لخبَرا . و إن فى الأرض لعِبَرا ، مهادٌ موضوع . وسقفٌ مرفوع ، ونجومٌ تمور ، و بحارٌ لن تغور ، ليلٌ داج ، وسماء ذات أبراج ، أقسم قُسٌّ قسما حتماً لئن كان فى الأرض رضى ليكونن بعده سخطاً ، و إن لله — عزّت قدرته — ديناً هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ ثم أنشد أبو بكر شعراً له كان يحفظه :

فى الذاهبينَ الأولــين من القرون لنا بصائِرْ

(١) بالكسر أى على هينتك (٢) الاورق : الذى لونه كلون الرماد

لما رأيت موارداً الموت ليس لها مصادر[١]
ورأيت قومى نحوها يسعى الأكابرُ والأصاغر
لا يرجع الماضى الىّ ولا من الباقين غابر[٢]
أيقنتُ أنى لا محا لةَ حيث صار القوم صائر[٣]

والذى فى كتاب المعمرين لأبى حاتم السجستانى : عاش قس بن ساعدة ثلاثمائة وثمانين سنة وقد أدرك نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وسَمِع النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ على عصا وأول من قال أما بعد ، وكان من حكماء العرب ، وهو أول من كتب إلى فلان ابن فلان . وقال المرزبانىّ : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة . وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين قسًّا وقومه قال : إن له ولقومه فضيلةً ليست لأحد من العرب لأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم روى كلامه وموقفه على جمله بِعُكاظ وموعظته وعجب من حسن كلامه وأظهر تصويبه . وهذا شرف تعجز منه الأمانى وتنقطع دونه الآمال . وإنما وفق الله تعالى ذلك لقس لاحتجاجه للتوحيد ولإظهاره الإخلاص وإيمانه بالبعث وَمِنْ ثمّ كان قس خطيبَ العرب قاطبةً . وفى نسبه خلاف فقيل : قس بن ساعدة بن حذافة بن زفر . وقيل : حذافة بن زهر بن أياد بن نزار . وقيل : هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى ابن مالك بن أيدعان بن النمر بن وائلة بن الطشان بن عوذ بن مناة بن يقدم ابن أفصى بن دعمى بن إياد وقيل هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدى ابن مالك والله تعالى أعلم . ومنهم :

(١) الموارد جمع مورد وهو محل الورود أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر وهو موضع الصدور أى الانصراف والرجوع (٢) الغابر : الماضى (٣) أى أيقنت انى منتقل حيث انتقل القوم ، فصائر خبر أن وصار بمعنى انتقل والقوم فاعله . ولا محالة ، بفتح الميم أى لا تغيير ولا تبديل وأنى بفتح الهمزة وأيقنت جواب لما

زيد بن عمرو بن نفيل

قال صاحب الاستيعاب كان زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح ابن عبد الله بن قرط بن رزاح بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشي العدوى يطلب دين الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام قبل أن يبعث النبى صلى الله تعالى عايه وسلم وكان لا يذبح للأنصاب ولا يأكل الميتة والدم . قال ابن حجر فى الإصابة ذكر البغوى وابن منده وغيرهما زيداً هذا فى الصحابة وفيه نظر لأنه مات قبل البعثة بخمس سنين ولكنه يجىء على أحد الاحتمالين فى تعريف الصحابى وهو أنه من رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمناً به هل يشترط فى كونه مؤمناً به أن تقع رؤيته له بعد البعثة فيؤمن به حين يراه أو بعد ذلك أو يكفى كونه مؤمناً به أنه سيبعث كما فى قصة هذا وغيره . وقد ذكر إبن إسحق أن أسماء بنت أبى بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : « يا معشر قريش والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى » وأخرج الفاكهى بسند له إلى عامر بن ربيعة قال لقيت زيد بن عمرو وهو خارج من مكة يريد (حراء) فقال : يا عامر إنى قد فارقت قومى واتبعت ملة إبراهيم وما كان يعبد إسماعيل من بعده كان يصلى إلى هذه البنية [1] وأنا أنتظر نبياً من ولد إسمعيل ثم من ولد عبد المطلب وما أرانى أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبى الحديث . زاد الواقدى فى حديث نحوه : فإن طالت بك مدة فاقرأه منى السلام . وفيه : ولما أسلمت أقرأت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منه السلام فرد عليه وترحم عليه وقال رأيته فى الجنة يسحب ذيولا . وروى الواقدى عن ابنه سعيد بن زيد قال : توفى أبى وقريش تبنى الكعبة وكان ذلك قبل المبعث بخمس سنين . وأما سعيد بن زيد المذكور فقد كان من السابقين إلى الإسلام

---

(١) مضى تفسيرها قريبا

وهاجر وشهد أحداً والمشاهد بعدها ولم يكن بالمدينة زمان بدر فلذلك لم يشهدها وهو أحد العشرة المبشرة وكان إسلامه قديما قبل عمر . وكان إسلام عمر عنده فى بيته لأنه كان زوج أخته فاطمة . قال الواقدى توفى بالعقيق فحمل إلى المدينة وذلك سنة خمسين من الهجرة ، وقيل إحدى وخمسين ، وقيل سنة اثنتين . وعاش بضعاً وسبعين وزعم الهيثم بن عدى أنه مات بالكوفة وصلى عليه المغيرة بن شعبة قال وعاش ثلاثاً وسبعين سنة . وزعم العلامة الدوانى فى شرح (ديباجة العقائد العضدية) وتبعه السيد عيسى الصفوى فى (شرح الفوائد الغياثية) أن زيد بن عمرو المذكور نبى أوحى إليه لتكميل نفسه ، وهذه عبارته : النبى إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ ما أوحاه إليه . وعلى هذا لا يشمل من أوحى الله ما يحتاج إليه لكماله فى نفسه من غير أن يكون مبعوثا إلى غيره كما قيل فى زيد بن عمرو بن نفيل اللهم إلا أن يتكلف .

أقول : هذا غير صحيح فإنه لم يقل أحد من المؤرخين والمحدثين أنه نبى أو ادعى النبوّة وأمره مشهور وكان حياً فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وليس فى عصره نبى غيره . قال الذهبى زيد بن عمرو بن نفيل هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يبعث أمة وحده وكان على دين إبراهيم ورأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وتوفى قبل مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم . وكان دخل الشام والبلقاء ، وكان نفر من قريش زيد وورقة وعثمان بن الحرث وعبيد بن جحش خالفوا قريشاً وقالوا لهم : إنكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام ولا يأكلون ذبائحهم واجتمع بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل البعثة وقال له : إنى شاممت النصرانية واليهودية فلم أر فيها ما أريد فقصصت ذلك على راهب فقال لى . إنك تريد ملة إبراهيم الحنيفية وهى لا توجد اليوم فالحق ببلدك فإن الله تعالى باعث من قومك من يأتى بها وهو أكرم الخلق على الله انتهى . ومنه تعلم أن ما قاله الدوانى لا يليق بمثله أن يذكره . وكذا ما فى (حواشى الكازرونى) من أنه يجوز أن يكون زيد مبعوثا إلى الخلق بدليل أنه كان يسند ظهره إلى

الـكعبة ويقول : أيها الناس هلموا إلىّ فإنه لم يبق على دين إبراهيم غيرى ويعلم من هذا أنه يجوز أن يكون نبياً فلا ينتقض به التعريف انتهى . وهذا مما يقضى منه التعجب وكذا جميع ما ذكره هنا أرباب حواشيه . وذكره البيضاوى عند تفسير قوله تعالى : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا » وقال هو موحد الجاهلية انتهى . وهو القائل فى فراق دين قومه وما كان لقى منهم :

أربًّا واحداً أم ألفَ ربٍ أدينُ إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعُزّى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتَيها ولا صَنَمَىْ بنى عمرو أزور
ولا غنماً أدين وكان رباً انا فى الدهر إذ حلمى يسير
عجبت وفى الليالى معجبات وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالاً كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببرِ قوم فيربل منهم الطفل الصغير (١)
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً كما يتروح الغصن المطير (٢)
ولـكن أعبد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها متى ماتحفظوها لا تبور
ترى الأبرار دارهم جنان وللـكفار حامية سعير (٣)

ومما يروى له وقد خالف فى ذلك ابن هشام :

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا وقولاً رضياً لا ينى الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه إلٰهٌ ولا رب يكون مدانيا
ألا أيها الإنسان إياك والردى فإنك لا تخفى من الله خافيا (٤)

---

(١) يقال ربل الطفل يربل اذا شب وعظم (٢) أى كماينبت ورق الغصن بعد سقوطه

(٣) نصب حامية على الحال من السعير لان نعت النكرة اذا تقدم عليها نصب على الحال وانشد فى مثله : لمية موحشا طلل (٤) قوله الا أيها الانسان الخ تحذير من الردى والردى هو الموت فظـاهر اللفظ متروك وانمـا هـو تحذير مما يأتى به الموت ويبديه ويكشفه من جزاء الاعمـال ولذلك قال : فانك لا تخفى من الله خافيـا

وإياك لا تجعل مع الله غيره فإن سبيل الرشد أصبح باديا
حنانيكَ إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجائيا [١]
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى أدين إلها غيرك الله ثانيا [٢]
وأنت الذى من فضل منٍّ ورحمة بعثت إلى (موسى) رسولا مناديا
فقلت له: إذهب وهارون فادعوَا إلى الله (فرعون) الذى كان طاغيا [٣]
وقولا له: أأنت سويت هذه بلا وتدٍ حتى اطمأنت كما هيا؟
وقولا له: أأنت رفعت هذه بلا عمد أرفِقْ إذا بك بانيا؟
وقولا له: أأنت سويت وسطها منيراً إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له: من يرسل الشمس غدوة فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا؟
وقولا له: من ينبت الحب فى الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا؟
ويخرج منه حبه فى رءوسه وفى ذاك آيات لمن كان واعيا؟
وأنت بفضل منك نجيت يونساً وقد بات فى أضعاف حوت لياليا [٤]
وإنى ولو سبحت باسمك ربَّنا لأكثر إلا ما غفرت خطائيا [٥]

---

(١) حنانيك بلفظ التثنية. قال النحويون: يريد حنانا كأنهم ذهبوا الى التضعيف والتكرار لا الى القصر على اثنين خاصة دون مزيد وقال بعض الائمة: ويجوز ان يريد حنانا فى الدنيا وحنانا فى الآخرة واذا قيل هذا لمخلوق نحو قول طرفة: (حنانيك بعض البشر أهون من بعض) فانما يريد حنان دفع وحنان نفع، لان كل من أمل ملكا فانما يؤمله ليدفع عنه ضيرا، أو ليجلب اليه خيرا (٢) قوله فلن أرى أدين الها أى لاله فحذف اللام وعدى الفعل لانه فى معنى أعبد ألها. وقوله (غيرك الله) برفع الهاء أراد يا الله. وهذا لا يجوز فيما فيه الالف واللام الا أن حكم الالف واللام فى هذا اللفظ المعظم يخالف حكمها فى سائر الاسماء الا ترى انك تقول. يا أيها الرجل ولا ينادى اسم (بيا أيها)؟ وتقطع همزته فى النداء فتقول (يا الله) ولا يكون ذلك فى اسم غيره الى أحكام كثيرة يخالف فيها هذا الاسم لغيره من الاسماء المعرفة، وفيها بيت حسن لم يذكره وذكره أبو الفرج فى أخبار (زيد) وهو:

أدين الها يستجيب ولا أرى أدين لمن لم يسمع الدهر داعيا

(٣) قوله اذهب وهرون عطفا على الضمير فى اذهب وهو قبيح اذ لم يؤكد ولو نصبه على المفعول معه لكان جيدا (٤) بعده بيت لم يذكره ووقع فى جامع ابن وهب وهو:

وانبت يقطينا عليه برحمة من الله لولا ذاك أصبح ضاحيا

(٥) معنى البيت انى أكثر من هذا الدعاء الذى هو باسمك ربنا الا ما غفرت و(ما) بعد (الا) زائدة. وان سبحت اعتراض بين اسم (ان) وخبرها

فربّ العباد ألقِ سيباً ورحمةً علىَّ و بارك فى بنى وماليا[1]

وعن ابن إسحق أنه قال حدثت عن بعض أهل زيد بن عمرو بن نفيل أن زيداً كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال : لبيك حقا حقا ، تعبداً ورقّا ، عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم إذ قال :

إنى لك اللهم عانٍ راغمُ مهما تجشمنى فإنى جاشم

وقال أيضاً على ما رواه ابن إسحاق :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقالا

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زُلالا

إذا هى سيقت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا

وقد كان الخطاب آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة فنزل حراء مقابل مكة ووكل به الخطاب شباباً من شباب قريش وسفهاء من سفهائهم فقال لهم : لا تتركوه يدخل مكة فكان لا يدخلها إلا سراً منهم فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراق ماهم عليه . فقال وهو يعظم حرمته على من استحل منه ما استحل من قومه .

لاهُمَّ إنى محرمٌ لاحله وإن بيتى أوسط المحله[2]

عند الصفا ليس بذى مضله

ثم خرج يطلب دين إبراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة ثم أقبل فجال الشام

= كما تقول انى لأكثر من هذا الدعاء الذى هو باسمك ربنا الا والله يغفرلى لا أفعل كذا . والتسبيح هنا بمعنى الصلاة أى لا أعتمد — وان صليت — الا على دعائك واستغفارك من خطاياى (١) السيب : العطاء (٢) لاهم — العرب تحذف اللام من اللهم وتكتفى بما بقى وكذلك تقول : لاه أبوك . وتريد لله أبوك . لاهنك . وتريدو الله انك وهذا لكثرة دور هذا الاسم على الالسنة وقد قالوا فيما هو دونه فى الاستعمال : اجنك تفعل كذا وكذا ، أى من أجل انك الخ . وقوله انى محرم لاحله : محرم ساكن الحرم ، والحلة : أهل الحل يقال للواحد والجميع حلة

كلها حتى انتهى إلى راهب بميفعة[1] من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم أهل النصرانية فيما يزعمون فسأله عن الحنيفية فقال له ما قال فخرج سريعا يريد مكة حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه فقال ورقة بن نوفل يبكيه :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا[2]
بدينك ربًّا ليس رب كمثله وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وإدراكك الدين الذى قد طلبته ولم تكُ عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها تعلّل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليلَ اللهِ فيها ولم تكن من الناس جباراً إلى النار هاويا
وقد تدْرِكُ الإنسان رحمةُ ربهِ ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

وذكر البخارى فى صحيحه أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إنى لعلىّ أن أدين دينكم فأخبرنى . فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ! قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبداً وأنا أستطيعه فهل تدلنى على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله فخرج فلقى عالما من النصارى فذكر مثله . فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله ! قال : ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبداً وأنا أستطيع فهل تدلنى على غيره ؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً . قال : وما الحنيف ؟ قال : دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال إنى اللهم أشهدك أنى على دين إبراهيم . ومنهم :

---

(١) تروى بكسر الميم والقياس فيها الفتح لانه اسم موضع أخذ من اليفاع وهو المرتفع من الارض

(٢) رشدت : أى بالغت فى الرشد كما يقال أمعنت النظر وأنعمته والابيات واضحة

أمية بن أبى الصلت

واسمه عبد الله بن أبى ربيعة بن عوف الثقفى . قال الأصمعى : ذهب أمية فى شعره بعامة ذكر الآخرة وعنترة بعامة ذكر الحرب . وقد صدقه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض شعره ، وفى صحيح مسلم عن الرشيد بن سويد قال ردفت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء ؟ قلت: نعم . قال : هيه . فأنشدته بيتاً فقال : هيه حتى أنشدته مائة بيت . فقال : كاد ليُسلم وفى رواية : كاد ليسلم فى شعره . وفى رواية : آمن شعره وكفر قلبه . وفى الإصابة عن ابن عباس أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنشد قول أمية :

رجل وثورٌ تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال : صدق وهذه صفة حملة العرش . وفى شرح ديوانه لمحمد بن حبيب : يقال إن حملة العرش ثمانية رجل وثور ونسر وأسد هذه أربعة وأربعة أخرى فأما اليوم فهم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدوا بأربعة أخرى فذلك قوله تعالى « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » كذلك بلغنى والله أعلم . ويقال : إن الذى فى صورة رجل هو الذى يشفع لبنى آدم فى أرزاقهم ، وأما الذى فى صورة نسر فهو الذى يشفع للطير فى أرزاقهم وبلغنى أيضاً أن لكل ملك منهم أربعة وجوه : وجه رجل ، ووجه ثور ، ووجه أسد ، ووجه نسر انتهى . وفى الأغانى بسنده لما أنشد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قول أمية بن أبى الصلت :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا

رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق أشطانا

ألا نبىٌّ لنا منا فيخبرنا مابعد غايتنا من رأس مجرانا

بينا يربينا آباؤنا هلكوا وبينما نقتنى الأولاد أبلانا

وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف تلحق أخرانا بأولانا

وقد عجبت وما بالموت من عجب ما بال أحيائنا يبكون موتانا

إلى أن قال :

يارب لاتجعلنيَ كافراً أبداً ⁂ واجعل سريرةَ قلبي الدهرَ إيمانا

واخلط به بنيتي واخلط به بشري ⁂ واللحم والدم ما عمرت إنسانا

إني أعوذُ بمن حج الحجيجُ له ⁂ والرافعون لدين الله أركانا

مسلّمين إليه عند حجهم ⁂ لم يبتغوا بثواب الله أثمانا

فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : آمن شعره وكفر قلبه . وقال ابن قتيبة فى طبقات الشعراء : وكان أمية يخبر أن نبياً يخرج قد أظل زمانه وكان يؤمل أن يكون ذلك النبي فلما بلغه خروج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كفر به حسداً . ولما أنشد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شعره قال : آمن لسانه وكفر قلبه : وأتى بألفاظ كثيرة لاتعرفها العرب وكان يأخذها من الكتب ، منها قوله : —

بآية قام ينطِقُ كلُّ شيء ⁂ وخانَ أمانةَ الديك الغرُابُ

وزعم أن الديك كان نديما للغراب فرهنه على الخمر وغدر به وتركه عند الخمار فجعله الخمار حارسا . ومنها قوله :

قمر وساهورٌ يسل ويغمد [(١)]

وزعم أهل الكتاب أن (الساهور) غلاف القمر يدخل فيه إذا انكسف وقوله فى الشمس :

ليست بطالعة لهم فى رسلها ⁂ إلا معذبة وإلا تجلد

وكان يسمى السموات صاقورة وحاقورة ، وعلماؤنا لايرون شعره حجة على الكتاب ولما حضرته الوفاة قال :

كل عيش وإن تطاول يوما ⁂ صائرٌ مرة إلى أن يزولا

---

(١) يقول : القمر وغلافه مختلفان فمرة ينزع من غلافه فيكون بدرا كاملا ومرة يرد الى غلافه حتى يكون مستترا ثم يبدو هلالا فيتزايد الى أن يعود بدرا

ليتنى كنت قبل ما قد بدالى   فى رؤوس الجبال أرعى الوعولا[1]

قال شارح ديوانه فى شرح بيت الشمس : قال أبو عمرو قال أبو بكر الهذلى ، قلت لعكرمة مولى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أرأيت ما بلغنا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لأمية ابن أبى الصلت آمن شعره وكفر قلبه فقال هو حق وما أنكرتم من ذلك ؟ قال : قلنا أنكرنا قوله : —

والشمس تُصبحُ كلَّ آخر ليلة   حمراء يصبح لونها يتورد

ليست بطالعة لهم فى رسلها   إلا معذبة وإلا تجلد

فما شأن الشمس تجلد ؟ قال : والذى نفسى بيده ما طلعت الشمس حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقال لها اطلعى ! فتقول : لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله فيأتيها ملكان حتى تستقل لضياء العباد فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع فتطلع على قرنيه فيحرقه الله تحتها وما غربت قط إلا خرت لله ساجدة فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن سجودها فتغرب على قرنيه فيحرقه الله تحتها ! فذلك قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : «تطلع بين قرنَىْ شيطان وتغرب بين قرنَىْ شيطان» . وفى الأغانى عن الزبير بن بكار قال حدثنى عمى قال : كان أمية فى الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح[2] تعبداً وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية وحرم الخمر وتجنب الأوثان وصام والتمس الدين طمعاً فى النبوَّة لأنه كان قد قرأ فى الكتب أن نبياً يبعث فى الحجاز من العرب وكان يرجو أن يكون هو فلما بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حسده وكان يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ويرثى من قتل فيها . فمن ذلك قصيدته الحائية التى نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم روايتها التى يقول فيها .

ماذا ببدرٍ فالعقنقل من مرازبة جحاجح[3]

---

(١) الوعول : جمع وعل وهو الشاة الجبلية (٢) جمع مسح وهو ثوب من الشعر الغليظ

(٣) المرازبة جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك ، والجحاجح جمع جحجح وهو السيد السمح وقيل الكريم ولا توصف به المرأة . وبدر والعقنقل : موضعان

لأن رؤوس من قتل بها عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وهما ابنا خاله لأن أمه رقية بنت عبد شمس . وفى الإصابة ذكر صاحب المرآة فى ترجمته عن ابن هشام قال كان أمية آمن بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر ، فلما نزل بدراً قيل له : إلى أين يا أبا عثمان ، فقال : أريد أن أتبع محمداً فقيل له ، هل تدرى مافى هذا القليب ؟ قال لا . قيل : فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان . فجدع[1] أنفَ ناقته وشق ثوبه وبكى وذهب إلى الطائف فمات بها ذكر ذلك فى حوادث السنة الثامنة ، والمعروف أنه مات فى السنة التاسعة ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً وصح أنه عاش حتى رثى أهل بدر . وقيل إنه الذى نزل فيه قوله تعالى « ٱلَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا » وقيل إنه مات سنة تسع من الهجرة فى الطائف كافراً قبل أن يُسلم الثقفيون ، ورأيت فى ديوانه قصيدة مدح بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أولها :

لك الحمد والمن رب العبا ... دِ أنت المليك وأنت الحكم

إلى أن قال :

ودنْ دين ربك حتى التقى ... واجتنبن الهوى والضجم[2]

(محمد) أرسله بالهدى ... فعاش غنيا ولم يهتضم

عطاء من الله أعطيته ... وخص به الله أهل الحرم

وقد علموا أنه خيرهم ... وفى بيتهم ذى الندى والكرم

يعيبون ما قال لما دعا ... وقد فرج الله إحدى البُهَم[3]

به وهو يدعو بصدق الحديث ... إلى الله من قبل زيغ القدم

أطيعوا الرسول عباد الإله ... تنجون من شر يوم ألم

تنجون من ظلمات العذاب ... ومن حر نار على من ظلم

دعا النبى به خاتم ... فمن لم يجبه أسرّ الندم

---

(١) أى قطع (٢) الضجم : الاختلاف (٣) البهم جمع بهمة بالضم : الخطة الشديدة .

نبى هدى صادق طيب   رحيم رؤوف بوصل الرحم
به ختم الله من قبله   ومن بعده من نبى ختم
يموت كما مات من قد مضى   يرد إلى الله بارى النسم
مع الأنبيا فى جنان الخلود   هم أهلها غير جل القسم
وقدس فينا بحب الصلاةِ   جميعاً وعلّم خط القلم
كتاباً من الله نقرا به   فمن يعتديه فقد ما أثم

وله :

ألا كل شيء هالك غير ربنا   ولله ميراثُ الذى كان فانيا
ولىّ له من دون كل ولاية   إذا شاء لم يمسوا جميعاً مواليا
وإن يكُ شيء خالداً ومعمَّراً   تأملْ تجِدْ من فوقِهِ اللهَ باقيا
له مارأت عين البصير وفوقه   سماء الإلهِ فوق سبع سمائيا

وهذه قصيدة عظيمة تشتمل على توحيد الله تعالى وقصص بعض الأنبياء كنوح ويوسف وموسى وداود وسليمان عليهم السلام . ويعجبنى منها قوله :

ألا لن يفوتَ المرءَ رحمةُ ربه   ولو كان تحت الأرض سبعين واديا
يعالى وتدركه من الله رحمة   ويضحى ثناء فى البرية زاكيا

وقوله فى آخرها :

وأنت الذى من فضل سيبٍ ونعمة   بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقال أعنى يا ابن أمى ! فإننى   كثير به يارب صل لى جناحيا
وقلت لهارون : اذهبا فتظاهرا   على المرء فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له آأنت الذى سويت هذه   بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له أأنت سويت وسطها   منيراً إذا ما جنه الليل ساريا
وقولا له من أخرج الشمس بكرة   فأصبح ما مست من الأرض ضاحيا

وقولا له من أنبت الحب فى الثرى ... فأصبح منه البقل يهتز رابيا
فأصبح منه حبه فى رؤوسه ... ففى ذاك آياتٌ لمن كان واعيا

وقد سبق أن بعض الأدباء نسب هذه القصيدة إلى زيد بن عمرو بن نفيل وهو غير صحيح فإنها مثبتة فى ديوان أمية وهى أنسب بشعره وعليه الشارحون ، والله ولى التوفيق . ومنهم :

أرباب بن رئاب

قال ابن قتيبة فى (كتاب المعارف) عند الكلام على من كان على دين قبل مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أرباب بن رئاب وهو من عبد القيس من شن وكان على دين عيسى وسمعوا قبل مبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مناديا ينادى خير أهل الأرض ثلاثة رئاب الشنى وبحيرا الراهب وآخر لم يأت بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فكان لا يموت أحد من ولد أرباب فيدفن إلا رأوا طشًّا على قبره انتهى . وكان هذا النداء من هتوف الجن فقد كثر قبيل البعثة النبوية . وذكر الإمام الماردى فى كتاب (أعلام النبوة) شيئاً كثيراً من ذلك قال يروى عن رجل من خثعم قال : كانت خثعم لا تحل حلالا ولا تحرم حراما وكانت تعبد أصناما فبينا نحن عند صنم منها ذات ليلة نتقاضى إليه فى أمر قد شجر بيننا إذ صاح من جوف الصنم صائح :

يا أيها الركب ذوو الأحكام ... ما أنتم وطائشو الأحلام
ومسندو الحكم إلى الأصنام ... يصدع بالحق وبالإسلام
هذا نبىٌّ سيدِ الأنام ... أعدل ذى حكم من الأحكام
ويتبع النور على الإظلام ... سيعلين فى البلد الحرام
قد طهر الناس من الآثام

قال الخثعمى : ففزعنا منه وخرجت إلى مكة وأسلمت مع النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم . ومن هتوفهم ما حكاه أبو عيس قال : سمعت قريش فى الليل هاتفاً على جبل (أبى قبيس) يقول :

إن يسلم (السعدان) يصبح بمكة ... (محمد) لا يخشى خلافَ المخالفِ

فلما أصبحوا قال أبو سفيان من السعدان سعد بكر وسعد تميم فلما كان فى الليلة الثانية سمعوه يقول :

ياسعدُ سعدَ الأوسِ كن أنت ناصراً ... و ياسعدُ سعدَ الخزرجين الغطارف [1]

أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا ... على الله فى الفردوس منية عارف

فإن ثواب الله للطالب الهدى ... جنان من الفردوس ذات زخارف

فلما أصبحوا قال أبو سفيان هو والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة انتهى واستيعاب ذلك كله فى الكتاب المذكور وسائر كتب السير . ومنهم :

سويد بن عامر المصطلقى

روى السيد المرتضى فى أماليه أن مسلم الخزاعى ثم المصطلقى قال : شهدت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر :

لا تأمَنن و إن أمسيت فى حرم ... إن المنايا بكفّىْ كل إنسان

واسلك طريقك تمشى غير مختشع ... حتى يبينَ ما يمنى لك المانى

فكل ذى صاحب يوماً يفارقه ... وكل زاد و إن أبقيتهُ فانى

والخير والشر مقرونان فى قَرَنٍ ... بكل ذلك يأتيك الجديدان

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو أدركته لأسلم انتهى . وذلك لأن هذه الأبيات تنبىء أنه كان يميل إلى الحنيفية ، والملة الإبراهيمية : ومنهم :

---

(١) جمع غطريف وهو السيد الشريف والسخى السرى

أسعد أبو كرب الحميرى

قال ابن قتيبة : كان أسعدُ آمنَ بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وقال :

شهدتُ على أحمد أنه ‏ ‏ ‏ رسولٌ من الله بارى النَسَمْ [(١)]

فلو مد عمرى إلى عصره ‏ ‏ ‏ لكنت وزيراً له وابنَ عَم

وهذا تُبّعُ الأوسط أكثر الغزوَ ولم يدع مسلكا سلكه آباؤه إلا سلكه وكان يغزو بالنجوم و يسير بها و يمضى أموره بدلالتها وطالت مدته واشتدت وطأته وملته حمير وثقل عليهم ما كان يأخذهم به من الغزو فسألوا ابنه حسان ابن تبع أن يمالئهم [(٢)] على قتله و يملكوه فأبى ذلك عليهم فقتلوه ، ثم ندموا على قتله فاختلفوا فيمن يملكون بعده حتى اضطرتهم الأمور إلى أن يملكوا ابنه حسانا وأخذوا عليه موثقا أن لا يؤاخذهم بما كان منهم فى أبيه . و يقال : إن تبعاً هذا أول من كسا الأنطاعَ والبرودَ البيتَ وهو القائل :

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً ‏ ‏ ‏ ملكاً تَدِين له الملوكُ وتحشدُ

من بعده بِلْقِيسُ كانت عمتى ‏ ‏ ‏ ملكتهم حتى أتاها الْهُدْهُدُ

ومنهم :

وكيع بن سلمة بن زهير الإيادى

قال ابن الكلبي كان وكيع بن سلمة ولى أمر البيت بعد جرهم فبنى صرحاً بأسفل مكة وجعل فيه أمة يقال لها (حزورة) وبها سميت حزورة مكة وجعل فى الصرح سلماً ، فكان يرقاه و يزعم أنه يناجى الله تعالى وكان ينطق بكثير من الخير ، وكان علماء العرب يزعمون أنه صديق من الصديقين . وكان من قوله (مرضعة وفاطمة ووادعة وقاصمة والقطيعة والفجيعة وصلة الرحم وحسن الكلم) ومن

---

(١) أنظر ص ١٧٠ : (٢) أي يساعدهم ويشايعهم

كلامه (زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا . وبالشر عقابا . إن من فى الأرض عبيد لمن فى السماء . هلكت جرهم وربلت إياد . وكذلك الصلاح والفساد) . فلما حضرته الوفاة جمع إياداً فقال لهم : اسمعوا وصيتى (الكلام كلمتان . والأمر بعد البيان . من رشد فاتبعوه . ومن غوى فارفضوه . وكل شاة برجلها معلقة) فأرسلها مثلا . قال ومات وكيع فنعى على الجبال وفيه يقول بشير بن الحجير الإيادى :

ونحن إياد عباد الآلهِ ورهط مناجيه فى سلم

ونحن ولاة الحجاب العتيق (زمان النخاع) على جرهم

يقال إن الله تعالى سلط على جرهم داء يقال له النخاع فهلك منهم ثمانون كهلاً فى ليلة واحدة سوى الشباب . وفيهم قال بعض العرب :

هلكت جرهم الكرام فعالاً وولاة البنية الحجاب[1]

نخعوا ليلة ثمانين كهلاً وشباباً كفى بهم من شباب

ومنهم :

عمير بن جندب الجهنى

كان هذا الرجل ممن يوحد الله تعالى فى الزمن الجاهلى ولا يشرك بربه أحداً وله قصة عجيبة ذكرها صاحب القاموس فى مادة فصل[2] من كتابه . فقال : روينا عن إسمعيل بن أبى خالد قال : مات عمير بن جندب من جهينة قبيل الإسلام فجهزوه بجهازه إذ كشف القناع عن رأسه فقال : أين القُصَل ؟ و (القصل أحد بنى عمه) قالوا : سبحان الله مر آنفاً فما حاجتك إليه ؟ فقال : أتيت فقيل لى (لامك الهَبَل[3] ألا ترى إلى حفرتك تنتثل . وقد كادت أمك تَثْكَلْ . أرأيت إن حولناك إلى محوّل . ثم غُيِّبَ فى حُفرتك القُصَل . الذى مشى فاحزألّ[4] .

---

(١) البنية : مضى تفسيرها قريبا (٢) وكان الاولى ذكرها فى : قصل وهى كما تراها عجيبة ! وعجيب من صاحب القاموس وغيره أن يوردها فى كتاب !!
(٣) الهبل : الثكل وهو الموت والهلاك وفقدان الحبيب أو الولد (٤) احزألّ البعير فى السير حزئلالا : ارتفع ، قال :
اذا احزألت زمر بعد زمر

ثم ملأناها من الجندل[1] أتعبد ربك وتُصَل . وتتركُ سبيلَ من أشرك وأضل ؟)
فقلت : نعم . قال : فأفاق ونكح النساء وولد له أولاد . ولبث القُصَل ثلاثا ثم مات
ودفن فى قبر عمير . ومنهم :

عدى بن زيد العبادى

كان عدىّ بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب من بنى امرئ القيس بن زيد
مناة بن تميم . قال صاحب الأغانى : وكان أيوب هذا أول من سمى من العرب
أيوبَ وكان عدى شاعراً فصيحا من شعراء الجاهلية وكان نصرانيا وكذلك أبوه
وأمه وأهله فقد كانوا على دين المسيح أيضا . قال : وكان سبب نزول آل عدى
الحيرة أن جده أيوب كان بمنزلة اليمامة فأصاب دما فى قومه فهرب إلى أوس بن
قلام أحد بنى الحرث بن كعب بالحيرة وكان بينهما نسب من قبل النساء فأكرمه
وابتاع له موضع دار بثلاثمائة أوقية من ذهب وأنفق عليها مائتى أوقية ذهبا ،
وأعطاه مائتين من الإبل برعاها وفرسا وقينة واتصل بملوك الحيرة وعرفوا حقه
وحق ابنه زيد بن أيوب فلم يكن منهم ملك يملك إلا ولولد أيوب منه جوائز .
ثم إن زيداً نكح امرأة من (آل قلام) فولد له حماد فخرج زيد بن أيوب يوما
للصيد فلقيه رجل من بنى امرئ القيس الذى كان له الثأر فاغتال زيداً وهرب ،
ومكث حماد فى أخواله حتى أيفع[2] وعلمته أمه الكتابة فكان أول من كتب
من بنى أيوب فخرج من أكتب الناس حتى صار كاتب النعمان الأكبر فلبث
كاتبا حتى ولد له ولد فسماه زيداً باسم أبيه . وكان لحماد صديق من دهاقين[3]
الفرس اسمه فروخ ماهان . فلما حضرت الوفاة حماداً أوصى بابنه زيد إلى الدهقان
وكان من المرازبة فأخذه إليه وكان زيد قد حذق الكتابة وعلمه الدهقان الفارسية

---

(١) هو ما يقله الرجل من الحجارة (٢) ايفع الغلام : راهق العشرين وهو يافع لا موفع

(٣) جمع دهقان بفتح الدال وكسرها فارسى معرب (ده خان) أى رئيس القرية ومقدم أهل الزراعة من العجم ولذلك تسب به العرب كما يقولون علج

وكان لبيبا فأشار الدهقان إلى كسرى أن يجعله على البريد فى حوائجه فولاه وبقى زمانا . ثم إن النعمان هلك فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد الأمر كسرى لرجل منهم فأشار المرزبان عليهم بزيد بن حماد فكان على الحيرة إلى أن ملك كسرى المنذر بن ماء السماء ونكح زيد نعمة بنت ثعلبة العدوية فولدت له عديًّا وولد للمرزبان ابن وسماه (شاهان مرد) فلما أيفع عدى أرسله المرزبان مع ابنه إلى كُتَّاب الفارسية وتعلم الكتابة والكلام بالفارسية حتى خرج من أفهم الناس وأفصحهم بالعربية وقال الشعر وتعلم الرمى بالنشاب وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة[1] وغيرها . ثم إن المرزبان لما اجتمع بكسرى قال له : إن عندى غلاما من العرب هو أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية والملك محتاج إلى مثله فأحضر المرزبان عدى بن زيد وكان جميل الوجه فائق الحسن ، وكانت الفرس تتبرك بالجميل الوجه فرغب فيه فكان عدى أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى فرغب أهل الحيرة إلى عدى ورهبوه ولم يزل بالمدائن فى ديوان كسرى معظما وأبوه زيد كان حيا إلى أن خمل صيته بذكر ابنه عدى :

ثم لما هلك المنذر اجتهد عدى عند كسرى حتى ملك النعمان بن المنذر الحيرة ثم بعد مدة افتروا على عدى وقالوا للنعمان إن عديا يزعم أنك عامله على الحيرة فاغتاظ منه النعمان وأرسل إلى عدى بأنه مشتاق إليه ليستزيره فلما أتى إليه حبسه وبقى فى الحبس إلى أن جاء رسول كسرى ليخرجه فخاف النعمان من خلاصه فغمه حتى مات وندم النعمان على قتله وعرف أنه غلب على رأيه ثم إنه خرج يوما إلى الصيد فلقى ابنا لعدى يقال له زيد فلما رآه عرف شبهه فقال له : من أنت ؟ قال : أنا زيد بن عدى فكلمه فإذا هو غلام ظريف ففرح به فرحا شديداً فقربه واعتذر إليه من أمر أبيه . ثم كتب إلى كسرى يربيه ويشفع له مكان

(١) جمع صولجان بفتح الصّاد واللام وهو العود المعوج . فارسى معرب . والهاء لمكان العجمة قال ابن سيده : وهكذا وجد أكثر هذا الضرب الاعجمى مكسرا بالهاء وفى التهذيب : الصولجان عصا يعطف طرفها يضرب بها الكرة على الدواب

أبيه فولاه كسرى وكان يلى المكاتبة عند آل ملوك العرب وفى خواص أمور الملك وكانت لملوك العجم صفة النساء مكتوبة عنـدهم وكانوا يبعثون فى تلك الأرضين تلك الصفة فإذا وجدت حملت إلى الملك غير أنهم لم يكونوا يطلبونها فى أرض العرب . فلما كتب كسرى فى طلب الصفة قال له زيد بن عدى أنا عارف بآل المنذر وعند عبدك النعمان بين بناته وأخواته و بنات عمه أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة فابعثنى مع ثقة من رجالك يفهم العربية حتى أبلغ ما تحبه فبعث معه رجلا فطناً وخرج به زيد فجعل يكرم الرجل ويلطفه حتى بلغ الحيرة فلما دخل على النعمان قال له : إن كسرى قد احتاج إلى نساء لنفسه ولولده وأراد كرامتك بصهره فبعث إليك . فقال النعمان لزيد والرسول يسمع : أما فى مها السواد وعِين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته ؟ فقال الرسول لزيد بالفارسية ما المها ؟ فقال له بالفارسية كاوان أى البقر فأمسك الرسول وقال زيد للنعمان : إنما أراد الملك أن يكرمك ولو علم أن هذا يشق عليك لم يكتب إليك به فأنزلهما عنده يومين . ثم كتب إلى كسرى : إن الذى طلب الملك ليس عندى . وقال لزيد : اعذرنى عنده فلما رجعا إلى كسرى قال زيد للرسول : أَصدق الملك عما سمعت فإنى سأحدثه بمثل حديثك ولا أخالفك فيه فلما دخلا إلى كسرى قال زيد : هذا كتابه فقرأه عليه فقال له كسرى : وأين الذى كنت خبرتنى به ؟ قال . قد كنت خبرتك ببخلهم بنسائهم على غيرهم و إن ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعرى على الشبع والرياش و إيثارهم السموم على طيب أرضك حتى إنهم ليسمونها السجن فسل هذا الرسول الذى كان معى عما قال فإنى أكرم الملك عن مشافهته بما قال ؟ فقال للرسول وما قال النعمان ؟ فقال له الرسول : إنه قال ؛ أما كان فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟ فعرف الغضب فى وجهه وسكت كسرى أشهراً وسمع النعمان غضبه ثم كتب إليـه كسرى أن أقبل فإن لى حاجةً بك فخاف النعمان وحمل سلاحه وما قدر عليه ولجأ إلى قبائل العرب فلم يُجِرْهُ أحد وقالوا : لا طاقة

لنا بكسرى حتى نزل بذى قار فى بنى شيبان سراً فلقى هانئ بن قبيصة فأجاره وقال : لزمنى ذمامك و إنى مانعك مما أمنع نفسى وأهلى و إن ذلك مهلكى ومهلكك وعندى رأىٌ لست أشير به لأدفعك عما تريده من مجاورتى ولكنه الصواب فقال : هاته ، قال : إن كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة[1] والموت نازل بكل أحد وَلَأَنْ تموت كريما خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك امض إلى صاحبك واحمل إليه هدايا ومالاً وألق نفسك بين يديه فإما أن يصفح عنك فعدت ملكا عزيزاً و إما أن يصيبك فالموت خير من أن تتلعب بك صعاليك العرب و يتخطفك ذئابها . قال : فكيف بحرمى وأهلى ؟ قال : هن فى ذمتى ولا يخلص إليهن حتى يخلص إلى بناتى فقال : هذا وأبيك الرأى . ثم اختار خيلا وحُللا من عصب اليمن وجواهر وطُرَفًا كانت عنده ووجه بها إلى كسرى و كتب إليه يعتذر و يعلمه أنه صائر إليه فقبلها كسرى وأمره بالقدوم فعاد إليه الرسول وأخبره بذلك وأنه لم ير له عند كسرى سوءًا فمضى إليه حتى إذا وصل إلى (ساباط) لقيه زيد ابن عدى فقال له : انجُ نعيم إن استطعت النجاة ! فقال له النعمان : أفعلتها يا زيد أما والله لئن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربى قط ! فقال له زيد : قد والله آخيت لك آخية لا يقطعها المُهر الأرِن[2] . فلما بلغ كسرى أنه بالباب غدر به[3] وذلك قبيل الإسلام بمدة وغضبت له العرب حينئذ فكان قتله سبب وقعة ذى قار . ومنهم :

---

(١) السوقة خلاف الملك وهم الرعية التى تسوسها الملوك . سموا سوقة لان الملوك يسوقونهم فينساقون أهم . وكثير من كتاب العصر يظن أن السوقة أهل الاسواق

(٢) الآخية بالمد والتشديد عروة تربط الى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة واصلها فاعولة والجمع الاواخى ... والمهر ولد الخيل ، والارن كنشط وزنا ومعنى (٣) ويقال بل انه لما بلغه انه بالباب بعث اليه فقيده وبعث به الى سجن كان له بخانقين فلم يزل فيه حتى وقع الطاعون هناك فمات فيه ، وقال حماد الراوية والكوفيون : بل مات بساباط فى حبسه . وقال ابن الكلبى : ألقاه تحت أرجل الفيلة فوطئته حتى مات واحتجوا بقول الاعشى :

فذاك وما أنجى من الموت ربه بساباط حتى مات وهو محزرق

قال المحزرق : المضيق عليه. وأنكر هذا من زعم أنه مات بخانقين ، وقالوا : لم يزل محبوسا مدة طويلة وانه انما مات بعد ذلك بحين قبيل الاسلام . . =

أبو قيس صرمة بن أبي أنس

قال ابن قتيبة : وهو من بنى النجار وكان ترهب ولبس المسوح[1] وفارق الأوثان وهمّ بالنصرانية ثم أمسك عنها ثم دخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخله طامث ولا جنب وقال : أعبد رب إبراهيم . فلما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة أسلم وحسن إسلامه ، وهو القائل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ثوى فى قريش بضعَ عشرةَ حجةً بمكة لو يلقى صديقا مواتيا

وهو القائل فى الجاهلية :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال

يا بنىّ الأرحامَ لا تقطعوها وصلوها قصيرة من طوال

يا بنىّ النجوم لا تظلموها إن ظلم النجوم داء عضال

ومنهم :

سيف بن ذى يزن

قال الإمام الماوردى فى (أعلام النبوة) لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة وذلك بعد مولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بسنين أتى وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئته ومدحه وذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس وعبد الإله بن جُدْعان وأسد بن خويلد بن عبد العزى فى ناس من أشراف قريش فلما قدموا عليه إذا هو فى رأس قصر يقال له (غمدان) وهو الذى يقول فيه أمية بن أبى الصلت :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا فى رأس (غُمْدَان) دار منك محلالا

قال : فاستأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه ، فإذا الملك مضمخ بالعنبر[2]

= (الاغانى : ج٢ ص٢٩) (١) مضى تفسيرها قريبا (٢) الضمخ : لطخ الجسد بالطيب حتى كأنه يقطر

يرى وبيص الطيب من مفرقه[١] عليه بردان متزر بأحدهما مرتد بالآخر سيفه بين يديه وعن يمينه وعن يساره الملوك وأبناء الملوك والمقاول[٢] قال : فدنا عبد المطلب واستأذن فى الكلام . فقال : إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فتكلم فقد أذنا لك ، فقال عبد المطلب (إن الله أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، شامخا باذخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومته[٣] ، وعزت جرثومته[٤] ، وثبت أصله ، وبسق فرعه[٥] ، فى أكرم موطن ، وأطيب معدن ، وأنت أبيت اللعن[٦] ملك العرب وربيعها الذى يخصب به ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى تلجأ إليه العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت انا منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا لكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة) فقال ابن ذى يزن فأيهم أنت أيها المتكلم ؟ فقال : أنا عبد المطلب بن هاشم . قال : ابن أختنا ؟ قال : نعم ابن أختكم . قال : ادنُ فأدناه على القوم وعليه ، فقال (مرحبا وأهلا وناقة ورحلا . ومستناخا سهلا . وملكا رِبَحْلاً يعطى عطاء جزلا . قد سمع الملك مقالتكم . وعرف قرابتكم . وقبل وسيلتكم . فأنتم أهل الليل وأهل النهار لكم الكرامة ما أقمتم . والحباء إذا ظعنتم) قال : ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود فأقاموا شهراً لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف . قال : ثم انتبه انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب فأخلاه وأدنى مجلسه وقال : يا عبد المطلب إنى مفوض إليك من سر علمى ما لو كان غيرك لم أبح له ولكن رأيتك مَعْدِنَهُ وأطلعتك عليه فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ فيه أمره . إنى أجد فى الكتاب المكنون ،

---

(١) الوبيص : اللمعان . ومفرق الرأس مثال مسجد حيث يفرق فيه الشعر
(٢) جمع مقول بكسر الميم وهو الرئيس وهو دون الملك (٣) الارومة بالفتح والضم : الاصل (٤) جرثومة الشيء : أصله (٥) بسق النخل بسوقا : طال
(٦) أبيت اللعن : من تحيات ملوك العرب فى الجاهلية راجع ص ١٩٢ من هذا الجزء

والعلم المخزون ، الذى اخترناه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيره ، خبراً عظيما ، وخطراً جسيما ، فيه شرف الحياة . وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة . ولك خاصة . قال عبد المطلب : أيها الملك فمثلك من سَرَّ وَبَرَّ ، فما هو فداك أهل الوبر ، زمراً بعد زمر . قال : (إذا ولد بتهامة . غلام بين كتفيه شامة . كانت له الإمامة ولكم به الزعامة . إلى يوم القيامة) ، فقال له عبد المطلب : (أبيتَ اللعن لقد أتيت بخبر ما أتى بمثله وافد . فلولا هيبة الملك و إجلاله و إعظامه لسألته من بشارته إياى ما ازداد به سروراً) قال ابن ذى يزن : (هذا حينه الذى يولد فيه أوقد ولد اسمه أحمد . يموت أبوه وأمه : و يكفله جده وعمه . وقد ولدناه مراراً . والله باعثه جهاراً . وجاعل منا له أنصاراً . يعز بهم أولياؤه . و يذل بهم أعداؤه . يضرب بهم الناس عن عرض . و يستفتح بهم كرائم الأرض . تكسر الأوثان . وتخمد النيران و يعبد الرحمن و يدحر الشيطان . قوله فصل . وحكمه عدل . يأمر بالمعروف و يفعله . و ينهى عن المنكر و يبطله) قال عبد المطلب : (أيها الملك عز جدك وعلا عقبك . وطاب ملكك . وطال عمرك فهل الملك سارّى بإفصاح . فقد أوضح بعد الإيضاح ؟) فقال ابن ذى يزن : (والبيت ذى الحجب . والعاملات على النصب . إنك يا عبد المطلب لجده غير الكذب) . قال : فخر عبد المطلب ساجداً . فقال ابن ذى يزن : (ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك . فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك) فقال : نعم أيها الملك كان لى ابن وكنت به معجباً رفيقاً أو رقيقاً فزوجته كريمة من كرائم قومى آمنة بنت وهب ابن عبد مناف فأتت بغلام سميته محمداً مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه . بين كتفيه شامة . وفيه كلما ذكرت من علامة) قال ابن ذى يزن : (إن الذى قلت لك لكما قلت لك فاحتفظ بابنك واحذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا . فاطو ما ذكرته دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن يداخلهم النفاسة . من أن تكون لك الرياسة . فيبغون له الغوائل . و ينصبون له الحبائل . وهم فاعلون وأبناؤهم . ولولا أنى أعلم أن الموت يجتاحنى

قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار ملكه ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق . والعلم السابق . أن يثرب استحكام أمره . وأهل نصرته وموضع قبره . ولولا أنى أقيه الآيات . وأحذر عليه العاهات . لأعلنت على حداثة سنه ذكره . وأوطيت أسنان العرب عقبه . ولكنى صارف ذلك إليك . بغير تقصير ممن معك) ثم أمر لكل رجل من القوم بعشرة أعبد وعشرة إماء سود ، وحلتين من حلل البرود ، وخمسة أرطال ذهب وعشرة أرطال فضة وكرشاً مملوءة عنبراً . ولعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك . وقال له : إذا حال الحول فأتنى بأمره . وما يكون من خبره . قال : فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول . قال : فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كان كثيراً فإنه إلى نفاد ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى ذكره وفخره وشرفه فإذا قيل له : وما ذاك ؟ قال : ستعلمون ما أقول لكم ولو بعد حين انتهى . وهذا من هواجس النفوس من إلهام العقول . فإن العقل ينذر بالخواص الكائنة حدساً . ويعلم بعد الوجود حساً . فقل حادث إلا تقدم نذيره . وبحسب خاطره يكون تأثيره . ومنهم :

ورقة بن نوفل القرشى

وهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى يجتمع مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى جد جده . قال الزبير بن بكار : كان ورقة قد كره عبادة الأوثان وطلب الدين فى الآفاق وقرأ الكتب وكانت خديجة رضى الله تعالى عنها تسأله عن أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيقول لها ما أراه إلا نبىّ هذه الأمة الذى بشر به موسى وعيسى . وقال ابن كثير : قال ابن إسحق ؛ وكانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ذكرت لورقة وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها (يعنى ميسرة) من أمر الراهب فى السفرة التى سافرها لخديجة إلى الشام ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى وما كان ميسرة يرى منه إذ كان الملكان يظلانه فقال ورقة : إن كان حقاً يا خديجة إن محمداً لنبىّ هذه

الأمة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر هذا زمانه قال فجعل ورقة يستبطىء الأمر ويقول حتى متى ؟ وقال فى ذلك :

لججتَ وكنتَ فى الذكرى لجوجا ... لهمٍّ طالما بعث النشيجا[1]

ووصف من (خديجة) بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا (خديجا)

ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا[2]

بما خبرتنا من قول (قُسٍّ) ... من الرهبان أكره أن يعوجا[3]

بأن (محمداً) سيسود يوماً ... ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا

---

(١) اللجاج : التمادى فى الامر ، والنشيج : مثل بكاء الصبى اذا ضرب فلم يخرج بكاؤه وردده فى صدره . وعن ابن الاعرابى : النشيج من الفم والنخير من الانف . وفى التهذيب : وهو اذا غص البكاء فى حلقة عند الفزعة (٢) قال الاما م المحدث أبو القاسم الخثعمى السهيلى فى (الروض الانف) ثنى مكة وهى واحدة لان لها بطاحا وظواهر . وللعرب مذهب فى اشعارها فى تثنية البقعة الواحدة وجمعها نحو قوله : « وميت بغزات » يريد بغزة . وبغادين فى بغدان . واما التثنية فكثير نحو قوله :

«بالرقمتين له أجر وأعراس» «والحمتين سقاك الله من دار»

وقال زهير «ودار لها بالرقمتين» وقول ورقة من هـذا «ببطن المكتين» لا معنى لادخال الظواهر تحت هذا اللفظ وقد أضاف اليها البطن كما أضافه المبرق حين قال « ببطن مكة مقهور ومفتون » وانما مقصد العرب فى هـذا الاشارة الى جانبى كل بلدة أو الاشارة الى أعلى البـلدة وأسفلها فيجعلونها اثنين على هذا المغزى وقد قالوا « صـدنا بقنوين » وهو فنا اسـم جبل وقول عنترة « شربت بماء الدحرضين » هو من هذا الباب فى أصح القولين . وقال عنترة أيضا : « بعنترتين وأهلنا بالعيلم » وعنيزة : اسم موضع . وقال الفرزدق : « عشية سال المربدان كلاهما » وانما هو مربد البصرة . وقولهم : « تسألنى برامتين سلجما » وانما هو رامة . وهذا كثير وأحسن ما تكون هذه التثنية اذا كانت فى ذكر جنة وبستان فتثنيتهما جنتـين فى فصيح الـكلام أشعارا بأن لها وجهين وانك اذا دخلتها ونظرت اليها يمينا وشمالا رأيت من كلتا الناحيتين ما يملأ عينيك قرة وصدرك مسرة . وفى التنزيل « عن يمين وشمال » الى قوله سبحانه « وبدلنـاهم بجنتيهم جنتين » وفيـه « جعلنا لاحدهما جنتين » الآية . وفى آخرها «ودخل جنته» فأفرد ماثنى وهى هى . وقد حمل بعض العلماء على هذا المعنى قوله سبحانه « ولمن خاف مقام ربه جنتان » والقول فى هذه الآية يتسع والله المستعان (٣) قس : هو ابن ساعدة الايادى خطيب العرب الموحد المشهور وقد تقدمت ترجمته قريبا

فيلقى من يحاربه خساراً ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتنى إذا كان ذاكُمْ شهدتُ وكنت أوَّلهم ولوجا [١]
ولو جافى الذى كرهت قريش ولوعجت بمكتها عجيجا
أرجى بالذى كرهوا جميعاً إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا
وهل أمر السفالة غير كفر بمن يختار من سَمَكَ البروجا
فإن يبقوا وأبْقَ تكُنْ أمورٌ يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى من الأقدار متلفةً خروجا

ومات ورقة فى فترة الوحى رضى الله تعالى عنه قبل نزول الفرائض والأحكام وقال الزبير فى كتاب نسب قريش : ورقة بن نوفل لم يعقب . وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تسبوا ورقة فإنى رأيته فى ثياب بيض . وهو الذى يقول

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك و إن من أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

ومر ببلال بن رباح رضى الله عنه وهو يعذب برمضاء مكة فيقول أحد أحد فوقف عليه فقال أحد أحد والله يا بلال ونهاهم عنه فلم ينتهوا فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذن قبره حناناً وقال :

لقد نصحتُ لأقوام وقلت لهم : أنا النذير فلا يغرركم أحدُ
لا تَعْبُدُنَّ إلهاً غير خالقكم فإن دُعيتم فقولوا دونه حَدَدُ [٢]
سبحان ذى العرش لاشىء يعادله رب البرية فرد واحد صمد

---

(١) قوله « فياليتى » بحذف نون الوقاية وحذفها مع ليت نادر وهو فى لعل أحسن منه لقرب مخرج اللام من النون . قال ابن مالك فى الالفية :
وليتنى فشا وليتى ندرا ومع لعل أعكس ... ...
(٢) الحدد : بفتح الحاء والدال المهملتين : المنع

سبحانهُ ثم سبحاناً نعوذ به وقبلنا سبّحَ الجودى والجمُدُ (١)

مسخر كلٌ من تحت السماء له لا ينبغى أن يناوى ملـكه أحد

لم تغن عن هُرْمُزٍ يوماً خزائنه والخلْدَ قد حاولت عادٌ فما خلَدوا

ولا سليمانُ إذا دان الشعوبُ له والجنُّ والأنسُ تجرى بينها البُرُد (٢)

لا شيء مما ترى تبقى بشاشتهُ يبقى الإله ويودى المال والولد

قال السهيل : قوله حناناً أى لأتخذن قبره منسكا ومترحماً والحنان الرحمة

وقد ألف أبو الحسن برهان الدين ابراهيم البقاعى الشافعى تأليفاً فى إيمان ورقة بالنبى وصحبته له صلى الله تعالى عليه وسلم ولقد أجاد فى جمعه وشدد الإنـكار على من أنـكر صحبته وجمع فيه الأخبار التى نقلت عن ورقة بالتصريح بإيمانه بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وسروره بنبوته والأخبار الشاهدة له بأنه فى الجنة وما نقله العلماء من الأحاديث فى حقه وما ذكروه فى كتبهم المصنفة فى أسماء الصحابة ، وسمى تأليفه (بذل النصح والشفقة . للتعريف بصحبة السيد ورقة) وحاصل ما ذكره البقـاعى فى شأن ورقة بن نوفل : أنه ممن وحـد الله فى الجاهلية فخالف قريشاً وسائر العرب فى عبادة الأوثان وسائر أنواع الإشراك وعرف بعقله الصحيح أنهم أخطأوا دين إبراهيم الخليل عليه السلام ووحد الله تعالى واجتهد فى طلب الحنيفية دين إبراهيم ليعرف أحب الوجوه إلى الله تعالى فى العبادة فلم يكتف بما هداه إليه عقله بل ضرب فى الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم بكتب الله تعالى المنزلة من عنده الضابطة للأديان فأداه سؤاله أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم إلى أن اتبع الذى أوجبه الله تعالى فى ذلك الزمان وهو الناسخ لشريعة موسى عليه السلام دين النصرانية ولم يتبعهم فى التبديل بل فى التوحيد ، وصار يبحث عن النبى

---

(١) وروى الرياشى « نعودله » بالدال المهملة واللام أى نعاوده مرة بعد أخرى ، والجمد بضم الجيم والميم وتخفيف الميم أيضـا بالسكون : جبل تلقاء أسنمة واسنمة بفتح الالف وسكون السين وضم النون وقيل بضم الهمزة والنون : رملة باسفل الدهناء على طريق فلج (٢) ويروى :

ولا سليمان اذ تجرى الرياح له والانس والجن فيما بينها ترد

صلى الله تعالى عليه وسلم الذى بشر به موسى وعيسى عليهما السلام . فلما أخبرته ابنة عمه الصديقة الكبرى خديجةُ رضوان الله تعالى عليها بما رأت وأخبرت به فى شأن النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم من المخايل بإظلال الغمام ونحوها ترجى أن يكون هو المبشر به ، وقال فى ذلك أشعاراً يتشوق فيها غايةَ التشوق إلى إنجاز الأمر الموعود لينخلع من النصرانية إلى دينه لأنه كان قال لزيد بن عمرو بن نفيل لما قال لهم العلماء إن أحب الدين إلى الله تعالى دين هذا المبشر به : أنا أستمر على نصرانيتى إلى أن يأتِيَ هذا النبى . فلما حقق الله الأمر وأوقع الإرهاصات[1] بالسلام من الأحجار والأشجار على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم و بمناداة إسرافيل عليه السلام للنبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم مع الاستتار وخاف النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك فاشتد خوفه فنقل ذلك إلى ورقة رضى الله تعالى عنه فاشتد سروره بذلك وثبته وشدّ قلبه وشجعه ، فلما بدا له الأمر بفراغ نوبة إسرافيل وأتاه جبريل عليه السلام وفعل ما أمره الله به من شق صدره الشريف وغسل قلبه و إيداعه الحكمة والرحمة وما يشاء الله تعالى وتبدى له جبريل وأنزل عليه بعضَ القرآن وأخبره به قفّ شعر ورقة وسبح الله وقدسه وعظم سروره بذلك وشهد أنه أتاه الناموس[2] الأكبر الذى كان يأتى الأنبياء قبله عليهم السلام وشهد أنه الذى أنزل عليه كلام الله وشهد أنه نبى هذه الأمة وتمنى أن يعيش إلى أن يجاهد معه . هذا مع ماله بالنبى عليه الصلاة والسلام وزوجته الصديقة خديجة من أعظم القُرْب والانتساب الموجب للحب رضى الله تعالى عنه وأرضاه . ومن شعره :

---

(١) الارهاص : الاثبات . يقال ارهص الشيء اذا أثبته وأسسه وهو مجاز ومنه ارهاص النبوة

(٢) ولفظ البخارى : فقال له ورقة هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ياليتنى فيها جذع ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به الا عودى وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى

أتبكر أم أنت العشيةَ رائحُ … وفي الصبر من إضمارك الحزن قادحُ
لفرقة قومٍ لا أُحبُّ فِراقَهم … كأنك عنهم بعد يومَيْنِ نازحُ (١)
وأخبار صدق خبرتْ عن (محمّدٍ) … يخبرها عنه إذا غاب ناصحُ
فتاكِ الذى وجهتِ يا خيرَ حرةٍ … بغورٍ وفى النجدَيْن حيثُ الصحاصحُ (٢)
إلى سوق بُصرى فى الركاب التى غدت … وهنَّ من الأحمال قُعصٌ ذوائحُ (٣)
يخبرنا عن كل حَبْرٍ بعلمه … وللحق أبوابٌ لهن مفاتحُ
بأن ابنَ (عبدِ الله أحمد) مرسل … إلى كل من ضمت عليه الأباطحُ
وظنى به أن سوف يبعث صادقاً … كما أرسل العبدانِ (هود) و(صالحُ)
و(موسى) و(إبراهيم) حتى يرى له … بهاء ومنشور من الذكر واضحُ
ويتبعه حيا (لؤىّ بن غالب) … شبابهم والأشيبون الجحاجحُ (٤)
فإن ابقَ حتى يدركَ الناسُ أمره … فإنى به مستبشرُ الودِ فارحُ
وإلا فإنى يا (خديجةُ) فاعلمى … عن أرضك فى الأرض العريضة سائحُ

ومن شعره أيضاً

وإن يك حقاً يا (خديجةُ) فاعلمى … حديثك إيانا (فأحمد) مرسلُ
و(جبريلُ) يأتيه و(ميكال) فاعلمى … من الله وحىٌ يشرح الصدر منزل
يفوز به من فاز فيها بتوبةٍ … ويشقى به العانى الغرير المضلل
فريقانِ منهم فرقةٌ فى جنانه … وأخرى بأجواز الجحيم تغلل
فسبحان من تهوى الرياح بأمره … ومن هو فى الأيام ما شاء يفعل

---

(١) نزح نزوحا اذا بعد (٢) الصحاصح : جمع صحصح وهو ما استوى من الارض وجرد وأرض صحاصح وصحصحان ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار الماء (٣) بصرى فى موضعين بالضم والقصر أحداهما بالشام من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديما وحديثا ذكرها كثير فى اشعارهم . وبصرى أيضا من قرى بغداد قرب عكبراء كما فى معجم البلدان . وقعصه واقعصه اذاقتله قتلا سريعا . وقوله ذوائح صوابه دوالح من دلح البعير اذا مر بحمله مثقلا . وقال الازهرى : الدالح البعير اذ دلح وهو تثاقله فى مشيه من ثقل الحمل وناقة داوح مثقلة حملا أو موقرة شحما .
(٤) جمع جحجح وهو السيد السمح وقيل الكريم .

وَمَنْ عرشه فوق السموات كلها وأقضاؤه فى خلقه لا تبدل

ومن شعره أيضاً

يا للرجال وصرف الدهر والقدر وما لشىء قضاهُ اللهُ من غيرِ[1]

جاءت (خديجةُ) تدعونى لأخبرَها وما لنا بخفىّ الغيب من خبر

جاءت لتسألنى عنه لأخبرها أمراً أراه سيأتى الناس من اخر

فخبرتنى بأمرٍ قد سمعتُ به فيما مضى من قديم الدهر والعصر

بأن (أحمدَ) يأتيه فيخبره (جبريلُ) أنك مبعوثٌ إلى البشر

فقلت : علّ الذى ترجين ينجزه لك الآله فرجى الخير وانتظرى

وأرسليه إلينا كَىْ نسائله عن أمره ما يرى فى النوم والسهر

فقال حين أتانا منطقاً عجباً يقفُّ منه أعالى الجلد والشعر :

إنى رأيت أمينَ الله واجهنى فى صورةٍ أكملت من أعظم الصور

ثم استمر فكاد الخوف يذعرنى مما يُسلّم ما حولى من الشجر

فقلت : ظنى وما أدرى أيصدقنى أن سوف يبعث يتلو منزل السور

وسوف أبليك أن أعلنتَ دعوتهم من الجهاد بلا منٍّ ولا كدر

ومنهم :

عامر بن الظرب العدوانى

كان من حكماء العرب وخطبائهم كما سبق فى فصلهم . وله وصية طويلة يقول فى آخرها : إنى ما رأيت شيئاً قطُّ خلق نفسه ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعا ولا جائيا إلا ذاهبا ، ولو كان يميت الناسَ الداء لأحياهم الدواء . ثم قال : إنى أرى أموراً شتى وحتى . قيل له : وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حيًّا ، و يعود اللاشىء شيّا ، ولذلك خلقت السموات والأرض فتولوا عنه ذاهبين . وقال :

---

(١) الغير : اسم من التغير عن اللحيانى وانشد :

اذ أنا مغلوب قليل الغير

وَيَلُمِّها[1] نصيحةً لو كان من يقبلها . وقد سبق لعامر هذا ذكر فى غير موضع من الكتاب وذكرنا بعضاً من أحواله وسنذكر بعضها فيما يناسِب . إن شاء الله ومنهم :

عبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة

كان يؤمن بالخالق عز وجل و بخلق آدم عليه السلام وقال فى ذلك شعراً وهو كذا :

أدعوك ياربِّ بما أنت أهلُه ... دعاء غريق قد تشبَّث بالعُصَمْ
لأنك أهلُ الحمد والخير كله ... وذو الطوْل لم تعجل بسخط ولم تلم
وأنت الذى لم يحيه الدهر ثانياً ... ولم يَرَ عبدٌ منك فى صالح وجم
وأنت القديم الأول الماجد الذى ... تبدأتَ خلق الناس فى أكنم العدم
وأنت الذى أحللتنى غيبَ ظلمةٍ ... إلى ظلمة فى صُلْب (آدم) فى ظلم

ومنهم :

علاف بن شهاب التميمى

كان أيضاً يؤمن بالله ويوم الحساب . وفى ذلك يقول وقد أحسن وأجاد فى مقاله :

---

(١) قوله ويلمها مدح خرج بلفظ الذم والعرب تستعمل لفظ الذم فى المدح فتقول : اخزاه الله ما أشعره ولعنه الله ما أجراه وكذلك يستعملون لفظ المدح فى الذم فيقولون للاحمق يا عاقل وللجاهل يا عالم ومعنى هذا يا أيها العاقل عند نفسه أو عند من يظنه عاقلا فسموه عاقلا على ما يعتقده فى نفسه وأما قولهم أخزاه الله ما أشعره ونحو ذلك من المدح الذى يخرجونه بلفظ الذم فلهم فى ذلك غرضان احدهما ان الانسان اذ رأى الشىء فأثنى عليه ونطق باستحسان فربما اصابه بعين وأضربه فيعداون عن مدحه الى ذمه لئلا يؤذوه والثانى انهم يريدون انه قد بلغ غاية الفصل وحصل فى حد من يذم ويسب لان الفاضل يكثر حساده والمعادون له والناقص لا يتلفت اليه ولذلك كانوا يرفعون أنفسهم عن مهاجاة الخسيس ومجاوبة السفيه ولذلك قال الفرزدق :

وان حراما أن أسب مقاعسا ... بآباءك الشم الكرام الخضارم
ولكن نصفا لو سببت وسبنى ... بنوعبد شمس من مناف وهاشم

وقال أبو الطيب :

صغرت عن المديح فقلت : أهجى ... كأنك ما صغرت عن الهجاء

هذا وقد بقى كلام فى أعراب الكلمة (ويلمها) يطلب من الاقتضاب

ولقد شَهدتُ الخصم يومَ رفاعةٍ فأخذت منـه خِطّةَ المغتالِ
وعلمت أن الله جازٍ عبدَهُ يومَ الحسابِ بأحسن الاعمال

ومنهم :

المتلمس بن أمية الكنانى

فقد كان يخطب العرب بفناء الـكعبة ويقول : أطيعونى ترشدوا . قالوا : وما ذاك ؟ قال : إنـكم قد تفردتم بآلهة شتى وإنى لأعلم ما اللهُ راضٍ به وإن الله تعالى رب هذه الآلهة وإنه ليحب أن يعبد وحده فتفرقت عنه العرب حين قال ذلك وتجنبت عنه طائفة وزعموا أنه على دين بنى تميم ومنهم :

زهير ابن أبى سلمى

وكان يمر بالعِضاه[1] وقد أورقت بعد يُبس فيقول : لولا أن تسبنى العرب لآمنتُ أن الذى أحياك بعد يُبس سيحيي العظامَ وهى رميم . وقال فى معلقته :

ألا أبلغ الأحلافَ عنِّى رسالةً وذُبيان هَلْ أقسمتُمُ كل مُقسَمِ

الأحلاف : أسَدٌ وغَطَفانُ[2] هنا . واحدهم حلف وفلان حلف بنى فلان إذا منعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأن يكون عوناً على غيرهم . ومعنى هل أقسمتم كل مقسم : أى كل إقسام . يقول أبلغ ذبيانَ وحلفاءها وقل لهم : قد حلفتم على إبرام حبل الصلح كل حلف فتحرجوا من الحنث وتجنبوا .

فلا تـكتُمُنَّ اللهَ مافى نفوسكم ليخفى ومهما يُـكتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

يقول : لا تـكتموا الله ما صرتم إليه من الصلح وتزعمون أنـكم لم تحتاجوا إلى الصلح وأنا لم نملّ الحرب فإن الله يعلم من ذلك ما تـكتمونه من الغدر كما فعل حصين بن ضمضم إذ قتل العَبْسى بعد الصلح . وتفسير الزوزنى أوضح من هذا حيث قال : أى لا تخفوا من الله ما تضمرون من الغدر ونقض العهد ليخفى على

---

(١) كل شجر له شوك (٢) أقول : وطيىء أيضـا

الله ومهما يكتم من الله شيء يعلمه . يريد أن الله عالم بالخفيات والسرائر ولا يخفى على الله شيء من ضمائر العباد فلا تضمروا الغدر ونقض العهد فإنكم لو أضمرتموه علمه الله تعالى .

يؤخَّرْ فيوضَعْ فى كتابٍ فَيُدَّخَرْ ليوم الحسابِ أو يعجّل فينقمِ

أى لا تكتمن الله مافى نفوسكم فيدخر ذلك إلى يوم الحساب فيحاسبكم به الله أو يعجل لكم النقمة فى الدنيا . وفى شرح الزوزنى يقول : يؤخر عقابه ويرقم فى كتابه فيدخر ليوم الحساب أو يعجل العقاب فى الدنيا قبل المصير إلى الآخرة فينتقم من صاحبه يريد لا مخلص من عقاب الذنب عاجلاً وآجلا انتهى . فقد اعترف فى هذه الأبيات بوجود البارىء عز اسمه وأثبت له سبحانه صفات الكمال كالعلم والحياة والقدرة ، وأقر بالبعث والنشور والثواب والعقاب والحَفَظة وغير ذلك مما جاءت به الحنيفية البيضاء ، وهذا أدلُّ دليلٍ على يقينه وإيمانه . ومنهم :

خالد بن سنان بن غيث العبسى

كان مقراً بتوحيد الربوبية والألوهية ، ناهجاً منهج الملة الحنيفية وكثير من الناس ذهب إلى أنه كان نبياً . وفى الحديث (ذاك نبى أضاعه قومه) وذلك أنه قال لقومه (ادفنونى فإذا جاءت الظباء بعد ثلاث فأخرجونى فسأنبئكم بما أمرت) فجاءت الظباء إلى قبره بعد ثلاث فلم يخرجوه وقالوا تتحدث العرب عنا أنا نبشنا موتانا . وأتت بنته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسمعته يقرأ قل هو الله أحد فقالت : قد كان أبى يقرأ هذا . وأهل هذا القول اختلفوا فى الزمن الذى كان فيه فالكثير على أنه كان فى الفترة التى بين عيسى ومحمد عليهما السلام . ومنهم من قال : كان قبل عيسى والبنت التى جاءت إلى الرسول ليست بنته الصلبية بل كانت من ذريته ونسله . وقد وقع فى بعض بلاد الحجاز فى الجاهلية

نار عظيمة فقام فى أمرها خالد بن سنان حتى أخمدها ومات بعد ذلك فى قصة له ذكرها أبو عبيدة معمر بن المثنى فى (كتاب الجماجم) وأوردها الحاكم فى المستدرك من طريق يعلى بن مهدى عن أبى عوانة عن أبى يونس عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من بنى عبس يقال له خالد بن سنان قال لقومه : إنى أطفىء عنكم نار الحدثان فذكر القصة . وفيها : فانطلق وهى تخرج من شق جبل من حرة يقال لها حرة أشجع فذكر القصة فى دخوله الشق والنار كأنها جبل سقر فضربها بعصاه حتى أدخلها وخرج وقد ذكرتُ طرفا من هذه القصة فى مبحث نيران العرب .

ويقال إن خالد بن سنان هذا هو الذى دعا على العنقاء فذهبت وانقطع نسلها . والأصح أن الذى دعا عليها حنظلة بن صفوان وكان نبياً بعثه الله تعالى إلى أهل الرس (والرس البئر) فكذبوه وقتلوه فأوحى الله تعالى إلى نبى كان مع بختنصر يقال له أرميا بن برخيا : مُرْ بختنصر يغزو العرب الذين لا إغلاق لبيوتهم فيقتلهم بما صنعوا بنبيهم . قال الزمخشرى فى أمثاله عند قولهم « طارت به عنقاء مُغْرِب » : زعموا أنها طائر كان على عهد حنظلة بن صفوان الحميرى نبى أهل الرس عظيم العنق . وقيل : كان فى عنقه بياض ولذلك سمى عنقاء وكان أحسن طائر خلقه الله تعالى فاختطف غلاما فأغرب به ولذلك سمى المغرب فدعا عليه حنظلة فرمى بصاعقة انتهى . وقال الدميرى فى حياة الحيوان هو طائر غريب تبيض بيضاً كالجبال وتبعد فى طيرانها سميت بذلك لأنه كان فى عنقها بياض كالطوق . وقال القزوينى إنه أعظم الطير جثةً وأكبرها خلقةً تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر وكانت قديماً بين الناس فتأذوا منها إلى أن سلبت يوماً عروساً بحليها فدعا عليها حنظلة النبى فذهب الله بها إلى بعض جزائر البحر المحيط وراء خط الاستواء . وهى جزيرة لا يصل إليها الناس وفيها حيوان كثير كالفيل والكركدن والجاموس والبَبْر والسباع وجوارح الطير . وعند طيرانها يسمع لأجنحتها دوىّ كدوى الرعد القاصف والسيل وتعيش ألفى سنة وتزاوج إذا

مضى لها خمسمائة عام . وقال العكبرى فى شرح المقامات كان لأهل الرس جبل شامخ فيه طيور شتى منها العنقاء وهى طائر عظيم الخلق طويل العنق ووجهه وجه إنسان من أحسن الطير شكلاً وكانت تأكل الطير فجاعت مرة فأخذت صبياً ثم جارية فاشتكوها لنبيهم حنظلة بن صفوان فدعا عليها حنظلة فذهبت وانقطع نسلها . وقيل : أصابتها صاعقة فاحترقت . وكان حنظلة فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وسميت العنقاء لطول عنقها . وقيل إنها كانت فى زمن موسى . وفى المثل (كالعنقاء تسمع بها ولا تُرى كالغول) وأراد عدم رؤيتها بعد الانقراض المذكور . وسميت مُغْرِبا بزنة اسم الفاعل من أغرب لأنها كانت تجىء بالغرائب . وقد وقع استعمالها فى هذا المثل بدون الوصف . ومنه يعلم جواز استعمالها بدون الوصف كقول الشاعر :

لما رأيت بنى الزمان وما بهم خلٌّ وفىٌّ للشدائد أصطفى
أيقنت أن المستحيلَ ثلاثةٌ الغولُ والعنقاء والخلّ الوفىّ

وكان القاضى الفاضل ينشد كثيراً :

وإذا السعادة أحرستك عيونها نَمْ فالمخاوف كلهن أمان
واصطَدْ بها العنقاء فهى حبالةٌ واقتد بها الجوزاء فهى عنان

« وقال غيره »

الجود والغول والعنقاء ثالثة أسماء أشياء لم توجد ولم تكنِ

وقد أورد ابن حجر العسقلانى طرفا من ترجمة خالد بن سنان فى كتابه فى الصحابة فعليك به . ومنهم :

عبد الله القضاعى

وهو ابن تغلب بن وبرة بن قضاعة وكان يؤمن بالله واليوم الآخر وكان من حكماء العرب وفضلائها الشهيرين ينهج فى ديانته منهج الحنفية كأضرابه السابقين

دل على ذلك ما روى من كلامه . و بليغ نظامه ومثل اسمه لم يكن فى الجاهلية إلا نادراً بناء على ما اتخذوه من القاعدة والعادة فى وضع أسمائهم . وسيأتى ذلك عند الكلام على مذاهبهم فى أعمالهم وأفعالهم . ومنهم :

عبيد بن الأبرص الأسدى

كان عبيد هذا ينتهى نسبه إلى خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر وشعره يدل على توحيده قال :

ولتأتين بعــدى قرون جمة ترعى محارم أيكة ولدودا
فالشمس طالعة وليل كاسف والنجم يجرى أنحساً وسعودا
حتى يقال لمن تعرق دهره : ياذا الزمانة هل رأيت عَبيدا ؟
مائتى زمان كاملين وبضعة عشرين عشت معمراً محمودا
أدركت أول ملك نصر ناشئاً و بناء شداد وكان أبيدا
وطلبت ذا القرنين حتى فاتنى ركضاً وكدت بأن أرى داودا
ما تبتغى من بعد هذا عيشة إلا الخلود ولن تنال خلودا
وليفنين هذا وذاك كلاهما إلا الإله ووجه المعبود

وكان من فحول شعراء الجاهلية جعله ابن سلام الجمحى فى الطبقة الرابعة وقرن به طرفة وعلقمة بن عبدة . قال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء عاش عبيد هذا أكثر من ثلثمائة سنة . وكان المنذر بن امرئ القيس جد النعمان بن المنذر له يوم بؤس و يوم نعيم . وكان يقتل أول من رأى فى يوم بؤسه فخرج المنذر فى يوم بؤسه فلقى عبيد بن الأبرص فقتله . فى قصة طويلة لا يسعها المقام[1] . ومنهم :

كعب بن لؤى بن غالب

وهو أحد أجداد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ذكرنا فى المجتمعات

(١) أنظرها فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

ما حكاه الزبير بن بكار من خطبته لقريش ، واجتماعهم عليه فى كل جمعة فكان يأمرهم فيها بالإطاعة والفهم والتعلم والتفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وتقلب الأحوال والاعتبار بما جرى على الأولين والآخرين ويحثهم على صلة الأرحام ، وإفشاء السلام ، وحفظ العهد ومراعاة حق القربة والتصدق على الفقراء والأيتام ، ويذكرهم بالموت وأهواله واليوم الموعود وأحواله ، ويبشرهم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه من ولده ويأمرهم باتباعه إن أدركوه وأنه يخرج من بيت الله الحرام . وينشد شعراً يذكر فيه ذلك ويتشوق إلى مشاهدة دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وغير ذلك مما يعد من فطن الإلهامات ، وصادق التخيلات وهذا من أوضح البراهين على تمسكه بدين إبراهيم عليه السلام وأخذه بالحنيفية والإسلام . وذهب كثير من العلماء إلى أن جميع أصول النبى عليه الصلاة والسلام من الآباء والأمهات كانوا موحدين فى اعتقادهم مؤمنين بالبعث والحساب ، وغير ذلك مما جاءت به الحنيفية من الأحكام . وإلى ذلك يشير كلام الماوردى فى (أعلام النبوة) فإنه قال : لما كان أنبياء الله صفوة عباده وخير خلقه لما كلفهم من القيام بحقه استخلصهم من أكرم العناصر ، وأمدهم بأوكد الأواصر[1] ، حفظاً لنسبهم من قدح ، ولمنصبهم من جرح ، لتسكون النفوس لهم أوطا ، والقلوب لهم أصغى فيكون الناس إلى إجابتهم أسرع ؛ ولأوامرهم أطوع . انتهى . وقد كان عبد المطلب يتلألأ من وجهه النور وتلوح فى أساريره علامات الخير . وكان يأمر ولده بترك البغى والظلم ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن سفاسف الأمور . وكان يقول فى وصاياه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم ولم تصبه عقوبة . فقيل لعبد المطلب فى ذلك ،

---

(١) الاواصر : جمع آصرة وهى ما عطفك على الرجل من الرحم والقرابة والمعروف والمنة . يقال ما تأصرونى على فلان آصرة أى ما تعطفنى عليه منة ولا قرابة قال الحطيئة :

عطفوا على بغير آ صرة فقد عظم الاواصر

أى عطفوا على بغير عهد قرابة

ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه . ويعاقب فيها المسيء بإساءته . . وكان مجاب الدعوة ، وقد حرم الخمر على نفسه ، وهو أول من تعبد بحراء . وكان إذا رأى هلال رمضان صعد إلى حراء يطعم المساكين ويرفع من مائدته للطير والوحوش فى رؤوس الجبال : وكان يفوح منه رائحة المسك الأذفر ، وكانت قريش إذا أصابها قحط يستسقون به فيسقيهم الله تعالى غيثاً عظيما . وانتقلت السقاية[1] والرفادة[2] والرئاسة إلى عبد المطلب وأخذ عهداً من ملوك الشام وأقيال حمير ، باليمن وصارت رحلته إليها وحفر عبد المطلب حين قوى واشتد بئر زمزم وأخرج منها ما كان ألقاه فيها عامر بن الحرث الجرهمى من غزالىْ الكعبة وحجر الركن فضرب الغزالين صفائح ذهب على باب الكعبة ووضع الحجر فى الركن وصار عبد المطلب سيداً عظيم القدر ، مطاع الأمر نجيب النسل ، حتى مر به أعرابى وهو جالس فى الحجر وحوله بنوه كالأسد . فقال : إذا أحب الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء فأنشأ الله تعالى لهم بالنبوة دولة خلد بها ذكرهم ورفع بها قدرهم حتى سادوا الأنام ، وصاروا الأعلام ، وصار كل من قرب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من آبائه أعظم رياسة وتنوهاً . وأكثر فضلا وتألهاً .

(وأما هاشم) فقد كان يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقوق وكان نور رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتلألأ فى وجهه لا يراه أحد إلا قبل يده ولا يمر بشىء إلا سجد له . وكان يضرب بجوده المثل وهو أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف . وأراد أمية بن عبد شمس أن يتشبه بهاشم فى صنيعه فعجز عنه فشمت به ناس كثير من قريش فقال فيه وهب بن عبد قصى :

---

(١) هى ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء .

(٢) الرفادة : شىء كانت تترافد به قريش فى الجاهلية فتخرج فيما بينها مالا وتشترى به للحجاج طعاما وزبيبا للنبيذ فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام موسم الحج

تحمل هاشم ما ضاق عنه   وأعيا أن يقوم به بريض
أتاهم بالغرائر مثقــلات   من الشام بالبر البغيض[١]
فأوسع أهل مكة من هشيم   وشاب اللحم باللحم الغريض[٢]

وكان اسمه عمراً فسمى هاشماً[٣] لأنه أول من هشم الثريد لقومه فى مكة فى سنة لزبة وقحطة رحل فيها إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق وقدم به إلى مكة ونحر الجزر وجعلها ثريداً عم به أهل مكة حتى استقلوا فقال فيه الشاعر :

يا أيها الرجل المحول رحله   هلاّ نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها   الراحلون لرحلة الإيلاف
والرائشون وليس يوجد رائش   والقائلون هلم للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم   حتى يكون فقيرهم كالـكافى
عمرو العلى هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

(وأما عبد مناف) فقد كان يقال له قمر البطحاء لحسنه وجماله واسمهُ المغيرة وعن الزبير رضى الله تعالى عنه أنه وجد حجراً منقوشاً عليه أنا المغيرة بن قصى أوصى قريشاً بتقوى الله وصلة الرحم وكان يبغض الأصنام وكان يلوح عليه نور

---

(١) الغرائر : جمع غرارة بهـاء ولا تفتح وهى الجوالق (٢) لحم غريض . طرى (٣) قال السهيلى : المعروف فى اللغة أن يقـال ثردت الخبز فهو ثريد ومثرود فلم يسم ثاردا وسمى هاشما . وكان القيـاس كما لا يسمى الثريد هشيما بل يقال فيه ثريد ومثرود أن يقال فى اسم الفاعل أيضا كذلك ولكن سبب هذه التسمية يحتاج الى بيان : ذكر أصحاب الاخبار أن هاشـما كان يستعين على اطعام الحاج بقريش فيرفدونه بأموالهم ويعينونه ثم جاءت أزمة شديدة فكره أن يكلف قريشا أمر الرفادة فاحتمل الى الشام بجميع ماله واشترى به أجمع كعكا ودقيقا ثم أتى الموسم فهشم ذلك الكعك كله هشما ودقه دقا ثم صنع للحاج طعاما أشبه الثريد فبذلك سمى هاشما لان الكعك اليابس لا يثرد وانما يهشم فبذلك مدح حتى قال شاعرهم فيه عبد الله بن الزبعرى :

كانت قريش بيضـــة فتفقأت   فالمح خالصـــه لعبـــد منـــاف
الخالطـــين فقـيرهم بغنيهم   والظـــاعنين لرحـــلة الايلاف
والرائشين وليس يوجد رائش   والقـــائلين : هلم للاضيـــاف
عمرو العلى هشم الثريد لقومه   قـــوم بمكة مســـنتين عجـــاف

انتهى ما أريد نقله . والمح بالضم صفرة البيض

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وكان اسمه المغيرة فدفعته أمه إلى (مناف) وكان من أعظم أصنام مكة تعظيما له فغلب عليه عبد مناف واستحكمت رئاسته بعد أبيه لجوده وسياسته حتى قال فيه الشاعر :

كانت قريش بيضة فتفقأت فالمُخُّ خالصه لعبــد مناف

(وأما قصى) فكان عالم قريش وأقومها للحق وكان يجمع قومه يوم العروبة ويذكرهم ويأمرهم بتعظيم الحرم ويخبرهم بأنه سيبعث فيه نبى وكان ينهى عن عبادة الأصنام وخلصت الرئاسة فى مكة لقصى بعد أن أجلى خزاعة عنها فجمع قريشاً وهم فى أوزاع بنى كنانة فمنعت بنو كنانة منهم فحاربهم بمن أطاعه حتى أفردهم منهم وجمعهم بمكة فسمى (مجمعاً) وفيه يقول شاعرهم :

أبونا قصى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

فلما اجتمعوا أنزلهم بطحاء مكة فى الشعاب ورءوس الجبال وقسمها رباعاً بين قومه وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها . وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء [1] وصارت سنة فى قريش كالدين الذى لا يعمل بغيره فزادت القوة بجمعهم حتى عقد الولاية وجدد بناء الكعبة ، وهو أول من بناها بعد إبراهيم وإسماعيل وبنى دار الندوة للتحاكم والتشاجر والتشاور وهى أول دار بنيت بمكة وكانوا يجتمعون فى جبالهم ثم بنى القوم دورهم بها فتمهدت لهم الرياسة ، وظهرت فيهم السياسة . وبالجملة إذا خبرت حال نسبه ،

(١) الحجابة : سدانة البيت أى خدمته وهى مما أحدثه قصى . والحجابة عندهم منصب شريف تكون مفاتيح الكعبة عند من تقلد هذا المنصب وهو المسئول عن ما فى الكعبة من الامانات ، والاموال المهداة ، وهى بيد آل شيبة ، والندوة : من محدثات قصى أيضا وهى بمنزلة قصر الامارة ودار الحكومة وكانوا يجتمعون فيها لابرام أمرهم وتشاورهم والندوة الجماعة ودار الحكومة دار الجماعة وقيل فى وجه التسمية غير ذلك . وكانت الجارية اذا حاضت ادخلت دار الندوة ثم شق عليها بعض ولد عبد مناف درعها ودرعها اياه وانقلب بها أهلها فحجبوها ولا يعذر غلام (أى يختن) الا فيها . واللواء : منصب أحدثه قصى أيضا وهو بمنزلة وزير الحرب فى عصرنا فاذا أخرجه من كان بيده اجتمعت عنده صناديد قريش لايتخلف أحد منهم عنه وذلك اذا نابتهم نائبة . وغيره لا يمكن من ذلك اللواء وكان هذا المنصب مخصوصا ببنى عبد الدار . أما السقاية والرفادة فقد مضى تفسيرها فى ص ٢٨٣

وعرفت طهارة مولده ، علمت أنه سلالة آباء كرام سادوا ورأسوا فإنه محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وليس فى هؤلاء خامل مسترذل ، ولا مغمور مستذل ، كلهم سادة قادة اشتهروا بأحسن المكارم والفضائل . وقد ذكر ذلك مفصلاً فى كتب السير ولا يسعنا إيراده فى مثل هذا المقام . ومات أبوه عبد الله بمكة وهو حمل ، وأما أمه آمنة فماتت عنه بالمدينة وهو ابن ست سنين ، والله أعلم .

بيان ما كان العرب عليه من العبادات والأعمال فى الجاهلية

اعلم أن العرب قبل ظهور الإسلام لم يكونوا مكلفين بشريعة من الشرائع لا شريعة إبراهيم ولا غيرها من شرائع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لقوله سبحانه : (لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) وقد ذكر المفسرون فى هذا المقام أنه لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بل كانوا فى فترة وهى الزمن بين الرسولين والمراد بالقوم هنا العرب لوجودهم فى فترة بين إسماعيل ومحمد عليهما السلام وهى مايزيد على ثلاثة آلاف سنة بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببنى إسرائيل لما فى الصحيحين (أعطيتُ خُمساً لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلى ؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعلتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجلٍ من أمتى أدركته الصلاة فليصلِّ وأحلت لى الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلى وأعطيت الشفاعةَ وكان النبى يبعث إلى قومه و بعثت إلى الناس عامة) ولا ينافى كون إسماعيل عليه السلام مرسلا إليهم القول بعدم تكليفهم ، فإن التكليف إنما يبقى إذا لم تندرس شريعة الرسول وههنا قد اندرست كما سبق . ومعلوم أن الأنبياء هم رسل الله تعالى إلى

عباده بأوامره ونواهيه زيادة على ما اقتضته العقول من واجباتها وإلزاما لما جوزته من مباحاتها لما أراده الله تعالى من كرامة العاقل وتشريف أفعاله ، واستقامة أحواله ، وانتظام مصالحه ، حين هيأه للحكمة ، وطبعه على المعرفة ، ليجعله حكيما ، وبالعواقب عليما ، لأن الناس بنظرهم لاينكرون مصالحهم بأنفسهم ولا يشعرون لعواقب أمورهم بغرائزهم ولا ينزجرون مع اختلاف هممهم دون أن يرد عليهم آداب المرسلين ، وأخبار القرون الماضين ، فتكون آداب الله فيهم مستعملة ، وحدوده فيهم متبعة ، وأوامره فيهم ممتثلة ، ووعده ووعيده فيهم زاجراً ، وقصص من غبَرَ من الأمم واعظا ، فإن الأخبار العجيبة إذا طرقت الأسماع والمعانى الغريبة إذا أيقظت الأذهان استمدتها العقول فزاد علمها وصح فهمها ، وأكثر الناس سماعا أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً ، وأكثرهم تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علما أكثرهم عملا ، فلم يوجد عن بعثة الرسل معدل ، ولا منهم فى انتظام المصالح بدل ، فلما خلت أمة العرب فى تلك المدة المديدة من النذير اختلت أفعالهم ، وتشوشت أحوالهم ، ومع ذلك بقيت فيهم بقايا من سنن إبراهيم وشرائعه ، وكان لهم بعض عبادات وأعمال من ذلك العهد وإن عرض لبعضها تغيير بزيادة أو نقصان وقد أسلفنا شيئاً منها ونذكر هنا بعضها :

« فمن ذلك » أنهم كانوا مداومين على طهارات الفطرة التى ابتلى بها إبراهيم عليه السلام فى قوله سبحانه (وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) وهى الكلمات العشر : خمس فى الرأس وخمس فى الجسد . فأما التى فى الرأس فالمضمضة والاستنشاق وقص الشارب والفرق والسواك . وأما التى فى الجسد فالاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان . فلما جاء الإسلام قررها سنة من السنن . وفى كتب الحديث تفصيل ذلك « ومن ذلك » أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة ويغسلون موتاهم . قال الأفوه الأودى :

ألا عللانى واعلما أننى غرر   فما قلت ينجينى الشقاق ولا الحذر

وما قلت يجدينى ثوابى إذا بدت مفاصل أوصالى وقد شخص البصر
وجاءوا بمـاء بارد يغسلوننى فيالك من غسل سيتبعه غبر

وكانوا يكفنون موتاهم و يصلون عليهم وكانت صلاتهم إذا مات الرجل وحمل على سريره يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها و يثنى عليه ثم يدفنه ثم يقول عليك رحمة الله . وقال رجل من كليب فى الجاهلية لابن ابن له :

أعمـرو إن هلـكت وكنت حياً فإنى مكثر لك من صـلاتى
وأجعـل نصف مالى لابن سام حياتى إن حييت وفى مماتى

« ومن ذلك » أن قريشاً كانوا فى الجاهلية يصومون يوم عاشوراء ولعلهم تلقوه من الشرع السالف ولهذا كانوا يعظمون هذا اليوم بكسوة الكعبة فيه وغير ذلك و يقال إن قريشاً أذنبت ذنبا فى الجاهلية فعظم فى صـدورهم فقيل لهم صوموا عاشوراء يكفر ذلك . وفى بعض الأخبار أنهم كانوا أصابهم قحط ثم رفع عنهم فصاموه شـكراً «ومن ذلك» أنهم كانوا يحجون البيت و يعتمرون و يحرمون ، قال زهير بن أبى سُلمى :

جعلْنَ القنَانَ عن يمين وحزنهُ وكم بالقَنان من مُحلٍ ومُحْرِمِ[1] .

وكانوا يطوفون بالبيت سبعا و يمسحون الحجر و يسعون بين الصفا والمروة قال أبو طالب :

وأشواط بين المروتين إلى الصفا وما فيهما من صورة ومخـايل

وكانوا يلبون إلا أن بعضهم كان يشرك فى تلبيته فيقول « لبيك اللهم لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملـكه وما ملك » . وكانوا يقفون المواقف كلها و بذلك نطقت أشعارهم . وكانوا يهدون الهدى و يرمون الجمار

---

(١) القنان جبل لبنى أسد ، والحزن ما غلظ من الأرض ، والمحل الذى لا عهد ولا ذمة له ولا جوار، والمحرم الذى له حرمة وذمة من أن يغار عليه . وقيل المحل الذى دخل فى أشهر الحل ، والمحرم الذى دخل فى أشهر الحرم ، والمعنى أن هؤلاء الظغن لما تحملن جعلن عن ايمانهن حزن القنان ومن أقام به من عدو محل من نفسه وصديق محرم

ويروى عن أبي مجلز . أن أهل الجاهلية كان الرجل منهم إذا أحرم تقلد قلادة من شعر فلا يتعرض له أحد فإذا حج وقضى حجه تقلد قلادة من إذخر[١] .
وقيل كان الرجل يقلد بعيره أو نفسه قلادة من لحاء[٢] شجر الحرم فلا يخاف من أحد ولا يتعرض له أحد بسوء ، وكانوا لا يغيرون فى الأشهر الحرم وينصلون فيها الأسنة ويهرع الناس فيها إلى معائشهم ولا يخشون أحداً وقد توارثوا ذلك على ماقيل من دين إسماعيل عليه السلام . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي زيد قال : كان الناس كلهم فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض ولم يكن فى العرب ملوك كذلك فجعل الله تعالى لهم البيت الحرام قياماً يدفع به بعضهم عن بعض فلو لقى الرجل قاتل أبيه أو ابنه عنده ماقتله . وقد كانت قريش ابتدعت رأى الحمس[٣] رأيا رأوه وأدارو فقالوا نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة[٤] وولاة البيت وقطان[٥] مكة وسكانها فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يعترفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبرهيم عليه السلام . ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس والحمس أهل الحرم ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم يحل لهم مايحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم . وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك . ويروى عن أبي عبيدة النحوى : أن بنى عامر بن صعصعة دخلوا معهم فى ذلك أيضاً . وقال عمرو بن معد يكرب .

---

(١) الا ذخر بكسر الهمزة والخاء المعجمة : نبات معروف زكى الرائحة واذا جف أبيض (٢) اللحاء بالكسر والمد والقصر لغة ما على العود من قشرة (٣) الحمس : التشدد (٤) فى نسخة : الحرم
(٥) القطان : السكان

أعباس لو كنت شياراً جيادنا (بتثليث) ماناصيت بعدى الأحامسا

وتثليث موضع من بلادهم والشيار الحسان . يعنى بالأحامس بنى عامر بن صعصعة وعباس هو ابن مرداس السلمى وكان أغار على بنى زبيد بتثليث . وقال لقيط بن زرارة الدارمى فى (يوم جبلة) .

أجذم إليك أنها بنو عبس المعشر الحلة فى القوم الحمس[1]

لأن بنى عبس كانوا يوم جبلة حلفاء فى بنى عامر بن صعصعة ويوم جبلة يوم كان بين بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة ، و بين بنى صعصعة فكان الظَّفر فيه لبنى عامر على بنى حنظلة . ثم ابتدعوا فى ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا : لا ينبغى للحمس أن يأتقطوا الأقط[2] ولا يسلأوا السمن[3] وهم حرم ولا يدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرماً ، ثم رفعوا ذلك فقالوا لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجًا أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً[4] . وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى[5] فحملوا على ذلك العرب

---

(١) اجذم : زجر معروف الخيل وكذلك أرحب وهب وهقط وهقب .
(٢) الاقط : يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل وهو بفتح الهمزة وكسر القاف وقد تسكن القاف التخفيف مع فتح الهمزة وكسرها مثل تخفيف كبد نقله الصاغاني عن الفراء (٣) سلا السمن يسلؤه سلأ : طبخه وعالجه فأذاب زبده قال ابن هرمه :

ان لنا صرمة مخيسة نشرب ألبانها ونسلؤها

(٤) ذكر الحلة وهم ما عدا الحمس وانهم كانوا يطوفون عراة أن لم يجدوا ثياب الحمس وكانوا يقصدون فى ذلك طرح الثياب التى اقترفوا فيها الذنوب عنهم . ولم يذكر الطلس من العرب وهم صنف ثالث غير الحلة والحمس : كانوا يأتون من أقصى اليمن طلسا من الغبار فيطوفون بالبيت فى تلك الثياب الطلس فسموا بذلك ذكره محمد بن حبيب (٥) هو الثوب الذى يطرح بعد الطواف فلا يأخذه أحد

فدانت به ، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها وطافوا بالبيت عراة . أما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعا مفرجا عليها ثم تطوف فيه . فقالت امرأة[١] من العرب وهى كذلك تطوف بالبيت :

اليومَ يبدو بعضهُ أو كلُّه ... وما بدا منـه فلا أحله

أخثم مثل القعب بادٍ ظله ... كأن حمّى خيبر تمله[٢]

ومن طاف منهم فى ثيابه التى جاء فيها من الحل ألقاها فلم ينتفع بها هو ولا غيره . فقال قائل من العرب يذكر شيئاً تركه من ثيابه فلا يقربه وهو يحبه :

كفى حزناً كرّى عليها كأنها ... لقى بين أيدى الطائفين حريم[٣]

يقول لا تمس فـكانوا كذلك الى البعثة النبويه فنزل « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » فأمر قريشا بالإفاضة من حيث أفاض العرب ونزل إبطالاً لما ابتدعوه من تحريم الطعام واللبوس عند البيت حين طافوا عراةً وحرموا ما جاؤا بهمن الحل من الطعام . قوله تعالى «يا بنى آدم خذوا زينتـكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » فوضع الله تعالى أمر الحمس

(١) يذكر ان هذه المرأة هى ضباعة بنت عامر بن صعصعة ثم من بنى سلمة بن قشير وذكر محمد بن حبيب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبها فذكرت له عنها كبرة فتركها فقيل انها ماتت كبدا وحزنا على ذلك . قال السهيلى : ان كان صح هذا فما أخرها عن أن تكون أما للمؤمنين . وزوجا لرسـول رب العالمين . الا قولها « اليوم يبدو بعضه أو كله » تكرمة من الله لنبيه وعلما منه بغيرته والله أغير منه

(٢) الاحثم : صوابه الاخثم وهو الركب المرتفع الغليظ والركب محركة العانة أو منبتها أو الفرج أو ظاهره أو الركبان أصل الفخـذين عليهما لحم الفرج أو خاص بهن . والقعب : القدح الضخم الغليظ الجافى

(٣) قوله (حريم) أى محرم لا يؤخذ ولا ينتفع به وكل شىء مطرح فهو لقى قال الشاعر يصف فرخ قطا :

تروى لقى ألقى فى صفصف ... تصهره الشمس فما ينصهر

تروى بفتح التاء أى تسقى له . ومن اللقى حديث فاختة أم حكيم بن حزام وكانت دخلت الـكعبة وهى حامل متم بحكيم بن حزام فجاءها المخاض فلم تستطع الخروج من الكعبة فوضعته فيها فلفت فى الانطاع هى وجنينها وطرح مثبرها وثيابها التى كانت عليها فجعلت لقى لا تقرب

وما كانت قريش ابتدعت منه وجعل الناس كلهم فى الإفاضة من عرفات والوقوف عليها سواء .

« ومن ذلك » أنهم كانوا يقطعون يد السارق اليمنى إذا سرق . وكانت ملوك اليمن وملوك الحيرة يصلبون الرجل إذا قطع الطريق ، وكانوا يأخذون فى دية النفس مائة من الإبل ، ويحكمون بإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثا وللزوجة الرجعة فى الواحدة والاثنتين وتفريق الفراش فى وقت الحيض وفى القرآن « واعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله » فجاء الشرع بتأكيد ما كان والقصاص فى الجروح والرجم للزانى المحصن والزانية المحصنة واتباع الحكم فى المبال فى الخنثى وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر والنسب . وكانوا يتواصون بدفع الظلم والوفاء بالعهود وإكرام الجار والضيف . وهذه أمور مشهورة عندهم نطقت بها أشعارهم وخطبهم يحتاج ذكرها لمزيد بسط أغنى عنه ما ذكره أهل الحديث والتفسير والتاريخ « ومن ذلك » أنهم كانوا يعتبرون القَسامة وهى بفتح القاف وتخفيف المهملة اليمين وهى فى عرف الشرع حلف معين عند التهمة بالقتل على الإثبات أو النفى وهى مأخوذة من قسمة الأيمان على الحالفين . وأول قسامة كانت فى الجاهلية لفينا بنى هاشم كان رجل من بنى هاشم استأجره رجل من قريش من فخذ أخرى فانطلق معه فى إبله فمر به رجل من بنى هاشم قد انقطعت عروة جُوالقه (وهو الوعاء من جلود وثياب وغيرها وهو معرب) فقال أغثنى بعقال أشد به عروة جوالقى لا تنفر الإبل فأعطاه عقالاً فشد به عروة جوالقه فلما نزلوا عقلت الإبل إلا بعيراً واحداً فقال الذى استأجره ما شأن هذا البعير لم يعقل من بين الإبل قال ليس له عقال قال فأين عقاله قال مرّ بى رجل من بنى هاشم قد انقطع عروة جوالقه واستغاث بى فأعطيته فحذفه (أى رماه) بعصاً كان فيها أجله فمر به رجل من أهل اليمن قال أتشهد الموسم أى موسم الحج قال ما أشهد وربما شهدته . قال هل أنت مبلغ عنى رسالة من الدهر قال نعم ذلك . قال فكتب

إذ أنت شهدت الموسم فناديا آل قريش فإذا أجابوك فناديا آل بنى هاشم فإن أجابوك فاسأل عن أبى طالب فأخبره أن فلاناً قتلنى فى عقال . ومات المستأجر بعد أن أوصى اليمانى بما أوصاه ، فلما قدم الذى استأجره أتاه أبو طالب فقال ما فعل صاحبنا قال مرض فأحسنت القيام عليه فوليت دفنه . قال : قد كان أهل ذاك منك فمكث حيناً فإنهم صدقوه ولم يظنوا به غير ذلك . ثم إن الرجل الذى أوصى إليه أن يبلغ عنه وافى الموسم فقال يا آل قريش قالوا هذه قريش قال يا بنى هاشم قالوا هذه بنو هاشم قال من أبو طالب قال هذا أبو طالب قال أمرنى فلان أن أبلغك رسالة أن فلاناً قتله فى عقال فأتاه أبو طالب فقال له اختر منا إحدى ثلاث إن شئت أن تؤدى مائة من الإبل فإنك قتلت صاحبنا و إن شئت حَلَفَ خمسون من قومك أنك لم تقتله فإن أبيت قتلناك به . فأتى قومه فقالوا نحلف فأتته امرأة من بنى هاشم كانت تحت رجل منهم وهو عبد العزى ابن أبى قيس العامرى قد ولدت له واسم ولدها منه حويطب . فقالت يا أبا طالب أحب أن تجيز ابنى هذا برجل من الخمسين ولا تصبر يمينه حيث تصبر الإيمان أى لاتلزمه أن يحلف بأعظم الإيمان وهو اليمين بين الركن والمقام ففعل فأتاه رجل منهم فقال يا أبا طالب أردت خمسين رجلاً أن يحلفوا مكان مائة من الإبل يصيب كل رجل بعيران هذان بعيران فاقبلهما عنى ولا تصبر يمينى حيث يصبر الأيمان فقبلهما ، وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا بين الركن والمقام أن خداشاً برىء من دم المقتول . قال ابن عباس فوالذى نفسى بيده ما أحال الحول ومن الثمانية والأربعين عين تطرف أى تتحرك . زاد ابن الكلبى وصارت رباع الجميع لحويطب فبذلك كان أكثر من بمكة رباعاً ، وروى الفاكهى من طريق ابن أبى نجيح عن أبيه قال حلف ناس عند البيت قسامة على باطل ثم خرجوا فنزلوا تحت صخرة فانهدمت عليهم . ومن طريق حويطب أن أمة فى الجاهلية عاذت بالبيت فجاءتها سيدتها فجذبتها فشلت يدها . ومن طريق طاووس قال : كان أهل الجاهلية لا يصيبون فى الحرم شيئاً إلا عجلت لهم عقوبته . وفى كتاب (مجابى الدعوة)

لابن أبي الدنيا فى قصة طويلة فى معنى سرعة إجابة الدعوة فى الحرم المظلوم فيمن ظلمه ، قال فقال عمر كان يفعل بهم ذلك فى الجاهلية ليتناهوا عن الظلم لأنهم كانوا لا يعرفون البعث فلما جاء الإسلام أخر القصاص إلى يوم القيامة . قال وروى الفاكهى من وجه آخر عن طاووس قال : يوشك أن لا يصيب أحد فى الحرم شيئاً إلا عجلت له العقوبة فكأنه أشار إلى أن ذلك يكون فى آخر الزمان عند قبض العلم وتناسى أهل ذاك الزمان الأمور الشرعية فيعود الأمر غريباً كما بدا . والله الهادى الى سواء السبيل .

« ومن ذلك » أن منهم من كان يحرم الخمر على نفسه تكرماً وصيانه لأنفسهم وهم أناس كثيرون ، قال أبو القاسم عبد الرحمن السعدى الأندلسى وتوفى بمصر فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة فى كتاب (مساوى الخمرة) وهو كتاب ضخم فى مجلدين . قال فيه : وقد حرم الخمر والقمار والزنى على نفسه فى الجاهلية عفيف ابن معد يكرب الكندى عم الأشعث بن قيس وقال فى ذلك :

فلا والله لا ألفى وشَرْباً أنازعهم شراباً ما حَييتُ
أبى لى ذاك آباء كرام وأخوال بعزِّهِم رَبيتُ

وقال أيضاً :

وقالت لى : هلّم إلى التصابى فقلت : عففت عما تعلمينا
وودّعت القداح وقد أرانى لها فى الدهر مشغوفاً رهينا[1]
وحرمت الخمور علىّ حتى أكونَ بقعر ملحود دفينا

أنت ترى كيف تفهم مافى القمار من المشاركة للزنى والخمر فى سوء الذكر ولا تنس قوله وحرمت الخمور فأتى بها بلفظ الجمع إشارة الى اختلاف أجناسها

---

(١) قوله مشغوفا صوابه مشعوفا والشعف حرقة يجدها الرجل مع لذة فى قلبه ولذلك قال امرؤ القيس :

ايقتلنى وقد شعفت فؤادها كما شعف المهنوءة الرجل الطالى

لان المهنوءة تجد للهناء لذة مع حرقة .

كالخمر المتخذة من ماء العنب ونبيذ الزبيب والتمر والذرة والشعير والحنطة والعسل وأمثال هذه إذ الكل خمور مختلفة الألوان والطعوم والأمزجة . وقد قال ابن شبرمة منبهاً على اشتراك هذه كلها فى المعنى :

يا أخلاء إنما الخمر ذيب وأبو جعدة الطلاء المريب
ونبيذ الزبيب ما اشتد منه فهو للخمر والطلاء نسيب

وقال عبيد بن الأبرص :

هى الخمر تكنى الطلاء كما الذئب يكنى أبا جعدة

وقال أبو الأسود الدؤلى :

دع الخمر تشربْها الغواة فإننى رأيت أخاها مجزئاً لمكانها

فقيل له فنبيذ الزبيب فقال :

فإلاّ يَكُنْها أو تكُنْهُ فإنه أخوها غذته أمه بلبانها

وقد أودع فى كتابه هذا من مساوى الخمرة ومفاسدها ما يكفى اللبيب عبرة إذا وقف على بعض منها وأورد قصصاً عجيبة فى ذلك يطول الكلام بذكر شىء منها . وكان عامر بن الظَرب الذى أسلفنا ذكره قد حرم الخمر على نفسه فيمن حرمها وقال فيها :

إن أشرب الخمر أشربْها للذتها وإن أدعها فإنى ماقتٌ قالى
لولا اللذاذة والقينات لم أرَها ولا رآنى إلا من مدًى عالى
سآلةٌ للفتى ما ليس فى يده ذهابة بعقول القوم والمال
تورث القوم أضغاناً بلا إحَن مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى
أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى تمزق ترب الأرض أوصالى

وممن كان قد حرم الخمر فى الجاهلية قيس بن عاصم التميمى وقال ذلك :

لعمرك إن الخمرَ ما دمت شارباً لَسَالبة مالى ومُذهِبة عقلى

وتاركة بين الضيوف قراهم ومورثة حربَ الصديق بلا قتل[١]

وحرمها صفوان بن أمية بن محرّب[٢] الكناني . وقال في ذلك :

رأيت الخمر صالحةً وفيها مناقب تفسد الرجل الحليما

فلا والله أشربها حياتي ولا أشفي بها أبداً سقيما

وابن قتيبة يروي هذين البيتين لقيس كما سيأتي وما ذكرته رواية ابن دريد

وقال آخر وقد حرم الزنى والخمر أيضا في الجاهلية :

سالمت قومي بعد طول مضاضة والسلم أبقى في الأمور وأعرف

وتركت شرب الراح وهي أميرة والمومسات وترك ذلك أشرف[٣]

وعففت عنه يا أميم تكرماً وكذاك يفعل ذو الحجى المتعففُ

وحرمها سويد بن عدي الطائي وقد أدرك الإسلام وقال في ذلك :

تركتُ الشعرَ واستبدلتُ منه كتابَ اللهِ ليس له شَريكُ

وقال أيضاً :

إذا داعي مُنادي الصبح قاما وودعتُ المُدامة والندامى

وحرّمت الخمور وقد أراني بها سَدِكاً وإن كانت حراما[٤]

قال ابن قتيبة في كتاب الخمرة ويسمى أيضاً كتاب الأشربة : وقد كان كثير من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حرموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جنايتها . وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما شرب أبو بكر خمراً في جاهلية ولا إسلام » ، وقال عثمان رضي الله تعالى عنه : « ما تغنيت ولا تمنيت ولا شربت خمراً في جاهلية ولا إسلام ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » وقيل للعباس بن مرداس في الجاهلية :

---

(١) رواه القالي في اماليه :

وتاركتي من الضعاف قواهم ومورثتي حرب الصديق بلانيل

(٢) صوابه : محرث (٣) الراح : الخمر ، والمومسات جمع مومسة وهي الفاجرة وتجمع على مواميس أيضا (٤) قوله سدكا أي مولعا .

لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد فى جراءتك ؟ فقال : « ما أنا بآخذ جهلى بيدى فأدخله فى جوفى وأصبح سيد قومى وأمسى سفيههم » . وقيل له بعد ما أسن وأسلم : قد كبرت سنك ودق عظمك فلو أخذت من هذا النبيذ شيئاً يقويك ! فقال : « أصبح سيد قومى وأمسى سفيههم آليت أن لا يدخل رأسى ما يحول بينى و بين عقلى » وكان قيس بن عاصم يأتيه فى الجاهلية تاجر خمر فيبتاع منه ولا يزال الخمار فى جواره حتى ينفذ ما عنده فشرب قيس ذات يوم فسكر سكراً قبيحاً فجذب ابنته وتناول ثوبها ورأى القمر فتكلم بشىء ثم نهب ماله ومال الخمار وأنشد وهو يضر به :

عن تاجرٍ فاجر جاء الإلهُ به كأنَّ لحيتهُ أذنابُ أجمال
جاء الخبيث (بتيسانية) تركت صحبى وأهلى بلا عقل ولا مال [(١)]

فلما صحا أخبرته ابنته بما صنع وما قال فآلى لا يذوق الخمر وقال :

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها خصالٌ تُفْسِدُ الرجلَ الحليما
فلا واللهِ أشربها صحيحاً ولا أشفى بها أبداً سقيما
ولا أعطى بها ثمناً حياتى ولا أدعو لها أبداً نديما

وكان عثمان بن مظعون حرَّم الخمر فى الجاهلية وقال : لا أشرب شراباً يذهب بعقلى و يضحك بى من هو أدنى منى وأزوج كريمتى من لا أريد فبينا هو بالعوالى إذ أتاه آتٍ فقال : أشعرت أن الخمر حرمت وتلا عليه الآية فى المائدة فقال : تبًّا لها لقد كان بصرى بها نافذاً . وكان العرب فى الجاهلية يشتدون على النساء فى شرب الخمر حتى لم يحفظ أن امرأة سكرت . وعن الأصمعى قال : كان عقيل ابن علقمة المرى غيوراً . فكان يسافر ببنت له يقال لها (الجرباء) فسافر بها مرة فقال :

---

(١) قوله (بتيسانية) صوابه (ببيسانية) بالفتح ثم السكون وهى الخمر المنسوبة الى بيسان مدينة بالاردن بالغور الشامى قال حسان :

من خمر بيسان تخيرتها ترياقة توشك فتر العظام

قضت وطراً من دير سَعْدٍ وربما   على عرَض ناطحته بالجمــاجم[١]

ثم قال لابن يقال له عملس[٢] أجز فقال :

فأصبحن بالموماة يحملن فتيةً   نشاوَى من الإدلاج ميلَ العمائم[٣]

ثم قال لابنته : أجيزى يا جرباء . فقالت :

كأن الـكرى سقاهم صرخَديّةً   عُقاراً تمشت بالمطــا والقوائم[٤]

فقال لها : ما وصفتها هذه الصفة إلا وقد شربتها ثم أحال عليها يضربها فلما رأى ذلك بنوه وثبوا عليه فخلوا فخذه بسهم فقال :

إن بنيَّ ضرّجونى بالدمِ   من يلقَ أبطالَ الرجالِ يُـكلمِ
شِنْشِنَةٌ أعرفُها من أخْزَمِ[٥]

وقد كفانا الله تعالى فيها بقوله سبحانه : (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِـعَ بَيْنَـكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْـتُمْ مُنْتَهُونَ) . قال ابن قتيبة فى كتاب الخمرة : وقد فضح الله بالشراب أقواماً من الأشراف وحدّوا ودونت بالـكتب أخبارهم ، ولحقت تلك السبة أعقابهم . ثم

---

(١) دير سعد : بين بلاد غطفان والشام ، والجماجم دير بظاهر الكوفة ؛ والوطر : الحاجة (٢) العملس لغة القوى على السير السريع والذئب الخبيث وكلب الصيد (٣) الموماة : المفازة الواسعة ونشاوى : سكارى ، والادلاج : سير الليل كله . (٤) الكرى : النعاس ، والصرخدية : الخمر المنسوبة الى صرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة . قال الشاعر :

ولذ لطعم الصرخدى تركتـــه   بأرض العدى من خشية الحدثان

اللذ : ههنا النوم . . والمطا : الظهر مقصور يكتب بالالف (٥) ضرجه بالدم : أدماه ، ويكلم يجرح ، والشنشنة : الطبيعة والعادة أى اشبهوا أباهم فى العقوق وهو مثل يضرب فى قرب الشبه ، وهو كقولهم : ان العصا من العصية ويروى نشنشة وكأنه مقلوب شنشنة ، وفى الحديث أن عمر قال لابن عباس رضى الله عنه حين شاوره فأعجبه اشارته : شنشنة أعرفها من اخزم ويروى : نشنشة اعرفها من اخشن وذلك انه لم يكن لقرشى مثل رأى العباس فشبهه بأبيه فى جودة الرأى . وقال الليث : الاخزم الذكر وكمرة خزماء قصر وترها وذكر اخزم . وكان لاعرابى بنى يعجبه فقال يوما : شنشنة من اخزم . أى قطران الماء من ذكر أخزم .

أخذ يعددهم فقال : منهم ومنهم مما يطول ذكره وقال بعد ذلك وربما بلغت جناية الكأس زوال النعمة وسقوط المرتبة وتلف النفس فإن الرجل ربما استخلصه السلطان لمنادمته وأدخله موضع أنسه فيزين له الكأس غمزة القينة والعبث بالخادم والتعرض للحرمة . وقال المأمون : الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء ، إفشاء السر ، والقدح فى الملك ، والتعرض للحرم . وقد بلغك من ذلك ما لا احتياج إلى ذكره . وقديماً بلى المعاقرون بمثل هذا من جرائر الكأس وقد كان عمرو بن هند استخلص طرَفة بن العبد لمنادمته فبينا هو يوماً معه يشرب أشرفت أخته عليهما فرأى طرفة ظلها فى الجام الذى فى يده فقال :

ألا يا أيها الظبى الـ ذى تتفرق شفتاه[1]

ولولا الملك القاعد قـد ألثمنى فاه

فسمعه عمرو بن هند فكتب له كتاباً لعامله بالبحرين وأوهمه أنه أمر له فيه بجائزة وأمر العامل بقتله فلما ورد على العامل سقاه الراح حتى أثمله ثم فصد له من عرق الأكحل حتى نُزِفَ[2] فمات وقبره هناك مشهور يشرب عنده الأحداث ويصبون فضل كؤوسهم عليه . . وروى أن رجلاً من طيء نزل به رجل من شيبان يقال له المكاء فذبح له الطائى شاة وسقاه من الخمر فلما سكر الطائى قال للشيبانى : هلم أفاخرك أطيء أكرم أم شيبان ؟ فقال له الشيبانى : حديثٌ حسن ومنادمة كريمة أحبُّ إلينا من الفخار . فقال الطائى : لا والله ما مدَّ رجل يداً أطولَ من يدى ومد يده . فقال له الشيبانى : أما والله لئن أعدتَها لاحصبنّها من كوعها[3] فأعاد فضرب به الشيبانى فقتله . فقال أبو زبيد فى ذلك لبنى شيبان :

---

(١) هكذا أورده المؤلف وهو — كما ترى — محرف وغير مستقيم الوزن وصوابه :

الا يأتى لى الظبى الـ ـذى يبرق شنفاه

(٢) قال المجد : الاكحل عرق فى اليد وهو عرق الحياة ولا تقل عرق الاكحل ، ونزف دمه كعنى : سال حتى يفرط فهو منزوف ونزيف .

(٣) الكوع : طرف الزند الذى يلى الابهام أو غير ذلك . واخضبنها ادمينها.

خبرتنا الركبان أن قد فخرتم وفرحتم بضربة (المكاء)

ولعمرى لعارها كان أدنى لكم من تقى وحق وفاء

ظل ضيفاً أخوكم لأخينا فى صبوح ونعمة وشواء[1]

ثم لما رآه ثابت به الخمر إلا تريبه باتقاء

لم تهب حرمة النديم وحقت يا لقومى للسوأة السوآء[2]

وذكر ابن قتيبة للخمرة أنواعاً من المفاسد والمساوى ونبذة مما كان أهل الجاهلية يعدونه من المنافع وهى كما ورد فى القرآن : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » وقد اتفق جميع أهل الملل والنحل على قبحها بالمرة .. وقد رأيت فى بعض الصحف العربية المطبوعة فى دار السلطنة العثمانية ما نصه : قد رأينا فى البشير تحت عنوان (نتائج المشروبات المسكرة) ما نصه : كتب فى التقاويم الأخيرة أن المشروبات المسكرة تقتل فى ألمانيا فى السنة أربعين ألفاً ، وفى روسية عشرة آلاف ، وفى بلجيكا أربعة آلاف ، وفى فرانسة ألف وخمسمائة وأما فى أمريكا فقد مات ثلاثمائة ألف نفس فى الولايات المتحدة فى مدة ثمان سنوات فيكون عدد الذين تقتلهم الخمور فى أمريكا سنوياً تسعاً وثلاثين ألفاً وخمسمائة نسمة . وقتلى الخمر فى الممالك المذكورة فى كل سنة ثلاثاً وتسعين ألف نفس انتهى ما هو المقصود . فهل ينبغى للأريب أن يوقع نفسه فى مثل هذه المهالك سيما إن كان ممن يتعبد بالاجتناب عنها والعرب لم يكونوا مكلفين بالنهى عنها ومع ذلك قد سمعت ما ذكرناه من كلام عقلائهم فيها ، هذا وقد بقى من أعمالهم الموافقة لما جاءت به الحنيفية ما يطول بيانه وهى مذكورة فى غالب أبواب العلم من حديث وفقه وغير ذلك فمن جدّ وجد والله الموفق .

---

(١) الصبوح بالفتح شرب الغداة (٢) السوْة السواء : الخصلة القبيحة . وانظر القصة فى الاغانى (ج ١١ ص ٢٤) .

بيان ما كان عليه العرب فى الجاهلية
من الأعمال التى أبطلها الإسلام

اعلم أن ههنا نكتاً ممتعة من مذهب العرب وتخيلاتها قد نسخها الإسلام وأبطلها وقد ساقنا الموضع إلى ذكرها . أنشد هشام بن الكلبى لأمية ابن أبى الصلت :

سنة أزمة تبرح بالناس ترى للعضاهِ فيها صريراً[1]
لا على كوكب تنوء ولا ريح جنوب ولا ترى طحرورا[2]
ويسوقون باقر السهل للطود مهازيل خشية أن تبورا[3]
عاقدين النيران فى ثُكن الأذناب منها لكى تَهيجَ البحورا[4]
سُلَعٌ مّا ومثله عُشَرٌ مّا عائل مّا وعالت البيقورا[5]

يروى : أن عيسى بن عمرو قال ما أدرى معنى هذا البيت؟ ويقال : إن الأصمعى صحف فيه فقال وغالت البيقور ، بالغين المعجمة وفسره غيره فقال عالت بمعنى أثقلت البقر بما حملتها من السلع والعشر والبيقور البقر وعائل غالب أو مثقل « وكانت العرب » إذا أجدبت وأمسكت السماء عنهم وأرادوا أن يستمطروا عمدوا الى السلع والعشر فحزموها وعقدوها فى أذناب البقر وأضرموا فيها النيران وأصعدوها فى جبل وعر واتبعوها يدعون الله تعالى ويستسقونه وإنما يضرمون النيران فى أذناب البقر تفاؤلا للبرق بالنار . وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات وقال أعرابى :

---

(١) سنة أزمة : شديدة ، وتبرح بالناس : تجهدهم (٢) قال أبو حنيفة: نوُ النجم هواول سقوط يدركه بالغداة اذا همت الكواكب بالمصوح وذلك فى بياض الفجر المستطير . وفى التهذيب ناء النجم ينوُ نوْا اذا سقط ... والطحرور بالحاء والخاء : اللطخ من السحاب القليل (٣) وباقر : جماعة البقر
(٤) الثكن جمع ثكنة وهى القلادة والجماعة ... (٥) البيقور : البقر ، والسلع بالتحريك شجر مر ، والعشر شجر فيه حراق مثل القطن لم يقتدح الناس فى اجود منه ويحشى فى المخاد ويخرج من زهره وشعبه سكر يقال له سكر العشر وفيه شىء من مرارة .

شفعنا ببيقور إلى هاطل الحيـا　　فلم يُغْنِ عنا ذاك بل زادنا جَدْبا
فعدنا إلى رب الحيـا فأجارنا　　وصير جدب الأرض من عنده خصْبا[١]

وقال آخر :

قل لبنى نهشل أصحاب الحور　　أتطلبون الغيث جهلًا بالبقر ؟
وسلع من بعد ذاك وعُشَر　　ليس بذا يجلل الأرض المطر

ويمكن أن يحمل تفسير الأصمعى على محمل صحيح فيقال غالت بمعنى أهلكت يقال غاله كذا واغتاله أى أهلكه ، وغالتهم غول يعنى المنية . ومنه : الغضب غول الحلم .

وقال آخر :

لما كسونا الأرض أذناب البقر　　بالسـلع المعقود فيها والعُشَرْ

وقال آخر :

يا (كَحْلُ) قد أثقلت أذنابَ البقَرْ　　بسـلع يعقـد فيها وعُشَر
فهل تجودين ببرقٍ ومَطَرْ ؟

وقال آخر[٢] يعيب العرب بفعلهم هذا :

لا دَرَّ درُّ أناسٍ خاب سعيهمُ　　يستمطرون لدى الإعسار بالعُشَرِ
أجاعلٌ أنت بيقوراً مسلّعةً　　ذريعةً لك بين الله والمطر[٣]

وقال بعض الأدباء : كل أمة قد اتخذوا فى مذاهبها مذاهب ملة أخرى وقد كانت الهند تزعم أن البقر ملائكة سخط الله عليها فجعلها فى الأرض وإن

---

(١) الحيا : المطر ، والهاطل المتتابع المتفرق العظيم القطر ، والجدب: المحل: والخصب بكسر فسكون : ضده (٢) هو وداك الطائى (٣) اعلم ان صاحب القاموس ادعى فى مادة (س ل ع) ان فى هذا البيت تسعة اغلاط ولم يذكرها . ولا يكاد يسلم وجود ذلك فى هذا البيت كما قد بسط الكلام عليه شيخ مشايخنا الامام أبو الثناء السيد محمود شهاب الدين الالوسى المفسر الشهير فى كتابيه غرائب الاغتراب ، والاجوبة العراقية عن الاسئلة الايرانية فراجعهما ان شئت .. ومعنى الذريعة الوسيلة والمسلعة ثيران وحش علق عليهاالسلع كما فى شرح شواهد المغنى للسيوطى نقلا عن أئمة اللغة .

لها عنده حرمةً وكانوا يلطخون الأبدان بأخثائها و يغسلون الوجوه ببولها و يجعلونها مهور نسائهم و يتبركون بها فى جميع أحوالهم فلعل أوائل العرب حذوا هـذا الحذو وانتهجوا هذا المسلك .

وللعرب فى البقر خيال آخر :

وذلك أنهم إذا أوردوها فلم ترد ضربوا الثور ليقتحم الماء فتقتحم البقر بعده و يقولون : إن الجن تصد البقر عن الماء و إن الشيطان يركب قرنى الثور . وقال قائلهم:

إنى وقتلى سُلَيْـكاً حين أعقله ۞ كالثور يُضْرَبُ لما عافَتِ البَقَرُ[1]

وقال نهشل بن جرى :

كذلك الثور يضْرَبُ بالهراوى ۞ إذا ما عافتِ البقر الظماء[2]

وقال آخر :

كالثور يضرب للورو ۞ د إذا تمنعتِ البقَرْ

فإن كان ليس إلا هذا فليس ذاك بعجيب من البقر ولا بمذهب من مذاهب العرب لأنه قد يجوز أن تمتنع البقر من الورود حتى يرد الثور كما تمتنع الغنم من سلوك الطرق أو دخول الدور والأخبية حتى يتقدمها الـكبش أو التيس كالنحل تتبع اليعسوب[3] والـكرا كى تتبع أميرها ولـكن الذى يدل عليه أشعارهم أن الثور يرد و يشرب ولا يمتنع ولـكن البقر تمتنع وتعاف الماء وقد رأت الثور يشرب فحينئذ يضرب الثور مع إجابته إلى الورد فتشرب البقر عند ضربه وهذا هو العجب

---

(١) يروى بدل قوله (حين أعقله) : ثم أعقله . وبعد البيت :

غضبت للمرء اذ نيكت حليلته ۞ واذ يشد على وجعائها الثفـر

وهما لرجل اسمه انس يقول أهل الاخبار انه قالهما عند قتله السليك ابن السلكة وكان السليك مر بامرأة فى بيت وحدها فاغتصبها فلما علم بذلك هذا تبعه فقتله وأبى أن يعطى ديته فقال : انى وقتلى سليكا . . الخ وقوله ثم أعقله بالنصب على تقدير ان المصدرية عطفا على وقتلى . ولما عافت البقر: أى لما كرهت شرب الماء الخ . . يقول ان قتل سليك كان بحق فالعقل يكون ظلما كضرب الثور عند امتناع البقرـ (٢) الهراوى بفتح الهاء جمـع هراوة بكسرها وهى العصا (٣) هو أمير النحل وذكرها .

قال الشاعر :

فإنى إذاً كالثور يضرب جنبه إذا لم يَعفْ شرباً وعافت صواحِبُه

وقال آخر :

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها يكسر ضرباً وهو للورد طائع

وماذنبه إنْ لم تَرِدْ بَقَراته وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

وقال الأعشى :

لكالثور و (الجنىّ) يضرب وجهه وماذنبه إن عافت الماء باقر[١]

وما إن تعاف الماء إلا لتضربا

قالوا فى تفسيره : لما كان امتناعها يتعقبه الضرب حسن أن يقالَ عافت الماء ليضرب وهذه اللام هى لام العاقبة كقوله :

له ملك ينادى كلَّ يومٍ لِدُوا للموت وابنُوا للخرابِ

وعلى هذا فسر أصحابنا قوله سبحانه : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ والْإِنْسِ)[٢].

ومن مذاهب العرب أيضاً

تعليق الحلى والجلاجل على اللديغ يرون أنه يُفيق بذلك ويقال إنه إنما يعلق عليه لأنهم يرون إن نام يسرى السم فيه فيهلك فشغلوه بالحلىّ والجلاجل وأصواتها عن النوم وهذا قول نضر بن شميل . و بعضهم يقول : إنه إذا علق عليه حلى الذهب برأ و إن علق الرصاص أوحلى الرصاص مات . وقيل لبعض الأعراب : أتريدون سهره ؟ فقال : إن الحلىّ لا تسهر ولكنها سنة ورثناها . وقال النابغة :

فَبِتُّ كأنى ساورتنى ضئيلةٌ من الرُقْش فى أنيابها السمُّ ناقعُ[٣]

يسهد من ليل التمام سليمُها لحلى النساء فى يَدَيْهِ قعاقع[٤]

---

(١) أراد بالجنى اسم راع (٢) معنى ذرأنا : خلقنا (٣) تساورنى : تواثبنى وتقاتلنى ، والضئيلة : الحية الدقيقة ، والرقش الحيات المنقطة بسواد وبياض
(٤) فلان يسهد : لا يترك ان ينام .

وقال بعض بنى عذرة :

كأنى سليمٌ نالَهُ كلم حيةٍ ترى حوله حلى النساء موضعا

وقال آخر :

وقد عللوا بالبطل فى كل موضعٍ وغروا كما غر السليم الجلاجل

وقال جميل وظرف فى قوله ولو قاله العباس بن الأحنف لكان ظريفاً :

إذا ما لديغ أبرأ الحلى داءهُ فحليكِ أمسى يا بثينة دائيا

وقال عويمر النبهانى وهو يؤكد قول النضر بن شميل :

فَبِتُّ معنًّى بالهموم كأننى سَليمٌ نفى عنه الرقاد الجلاجِلُ

ومثله قول الآخر :

كأنى سَليمٌ سَهَّدَ الحلىُ عينَهُ فراقَبَ من ليل التِّمام الكواكبا

(وشبه مذهبهم فى ضرب الثور) مذهبهم فى العُرّ يصيب الإبل فيكوى الصحيح ليبرأ السقيم وقال النابغة :

وكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العُرّ يُكْوَى غيرُه وهو راتعُ

وقال بعض الأعراب :

كمن يكوى الصحيح يروم برءاً به من كل جرباء الإهاب

وهذا البيت يبطل رواية من روى بيت النابغة كذى العر بضم العين لأن العر بالضم قروح فى مشافر الإبل غير الجرب والعر بالفتح الجرب نفسه فإذا دل الشعر على أنه يكوى الصحيح ليبرأ الأجرب فالواجب أن يكون بيت النابغة كذى العَرّ بالفتح ومثل هذا البيت قول الآخر :

فألزمتنى ذنباً وغيرى جَرَّهُ حنانَيْكَ لا تكْوِ الصحيحَ بأجربا

إلا أن يكون إطلاق لفظ الجرب على هذا المرض المخصوص من باب المجاز

لمشابهته له . وفى كتاب لب لباب لسان العرب عند الكلام على شرح قصيدة النابغة التى منها :

أتوعد عبداً لم يخنك أمانةً وتترك عبداً ظالماً وهو ظالع

حملت علىّ ذنبه وتركته كذى العرّ يكوى غيره وهو راتع

ما نصه ؛ قال الأصمعى : العَر بالفتح الجرب نفسه وأنشد « كالعر يكمن حيناً ثم ينتشر » والعُر بالضم قرح يأخذ الإبل فى مشافرها وأطرافها شبيه بالقرع وربما تفرق فى مشافرها مثل القُوَباء يسيل منه ماء أصفرُ ، قال ابن السيد فى شرحه لأدب الكاتب : فى معناه خمسة أقوال « أحدها » أن هذا أمر كان يفعله جهال الأعراب كانوا إذا وقع العُر فى إبل أحدهم اعترضوا بعيراً صحيحا من تلك الإبل فكووا مشفره وعضده وفخذه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العَر عن إبلهم كما كانوا يعلقون على أنفسهم كعوب الأرانب خشيةَ العطب ، ويفقئون عين فحل الإبل لئلا تصيبها العين وهذا قول الأصمعى وأبى عمرو وأكثر اللغويين .

« ثانيها » قال يونس سألت رؤبة بن العجاج عن هذا فقال : هذا وقول الآخر « كالثور يضرب لما عافت البقر » شىء كان قديما ثم تركه الناس ويدل عليه قول الراجز :

وكان شكرُ القوم عند المنن كىَّ الصحيحات وفقء الأعين

« ثالثها » قيل إنما كانوا يكوون الصحيح لئلا يتعلق الداء به لا ليبرأ السقيم حكى ذلك ابن دريد « رابعها » قال أبو عبيدة : هذا لم يكن وإنما هو مثل لاحقيقة أى أخذت البرىء وتركت المذنب فكنت كمن كوى البعير الصحيح وترك السقيم لو كان هذا مما يكون . قال : ونحو من هذا قولهم : «يشرب عجلان ويسكر ميسرة» ولم يكونا شخصين موجودين « خامسها » قيل أصل هذا أن الفصيل كان إذا أصابه العُر لفساد فى ابن أمه عمدوا إلى أمه فكووها فتبرأ ويبرأ فصيلها ببرئها لأن ذلك الداء إنما كان سرى إليه فى لبنها وهذا أغرب الأقوال وأقربها إلى الحقيقة ، ومن روى كذى العَر بفتح العين فقد غلط لأن العَر الجرب ولم يكونوا يكوون من الجرب

و إنما يكوون من القروح التى تخرج فى مشافر الإبل وقوائمها خاصة وهذا ضربه مثلا لنفسه يقول أنا برىء وغيرى سقيم فحملتنى ذنب السقيم وتركته وقد قال الكميت :

ولا أكوى الصحاح براتعات بهن العرّ قبلى ما كوينا

قال ابن أبى الإصبع أنشد ابن أبى شرف القيروانى ابن رشيق :

غيرى جنى وأنا المعاقبُ فيكم فكأننى سَبّابة المتندم

وقال له : هل سمعت هذا المعنى ؟ فقال : سمعته وأخذته أنت وأفسدته . فقال : ممن ؟ فقال : من النابغة الذبيانى حيث يقول :

وكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتعُ

أما فساده فلأنك قلت فى صدر بيتك : إنك عوقبت بجناية غيرك ولم يعاقب صاحب الجناية ثم قلت فى عجز بيتك : إن صاحب الجناية قد شركك فى العقوبة فتناقض معناك وذلك أنك شبهت نفسك بسبابة المتندم وسبابة المتندم تألم فى المتندم ثم يشركها المتندم فى الألم فإنه متى تألم عضو من الحيوان تألم كله لأن المدرك من كل مدرك حقيقته وحقيقته على المذهب الصحيح هى جملته المشاهدة منه والمكوى من الإبل يألم وما به عر وصاحب العر لا يألم جملة فمن ههنا أخذت المعنى وأفسدته انتهى ، وهذا تدقيق فلسفىٌّ لا مدخلَ له فى الشعر .

(فأما مذهبهم فى البلية) وهى ناقةٌ تعقل عند القبر حتى تموت فمذهب مشهور والبلية أنهم إذا مات منهم كريم بلوا ناقته أو بعيره فعكسوا عنقها وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها فى حفيرةٍ لا تطعم ولا تسقى حتى تموت وربما أحرقت بعد موتها وربما سلخت وملىٔ جلدها ثُماماً . وكانوا يزعمون أن من مات ولم يبل عليه حشر ماشياً ومن كانت له بلية حشر راكباً على بليته قال حريبة ابن الأشيم الفقعسى لابنه :

يا سعدُ إما أهلكنّ فإننى أوصيك أن أخا الوصاة الأقربُ

لا أعرفنّ أباك يحشر خلفكم تعباً يخرّ على اليدين وينكب

واحمل أباك على بعيرٍ صالح وتقى الخطيئة إنه هو أصوب
ولعل لى مما جمعتُ مطية فى الحشر أركبها إذا قيل : اركبوا !

وقال حربية أيضاً :

إذا متّ فادفنى بجرّاء ما بها سوى الأصرخين أو يفوِّز راكب[١]
فإن أنت لم تعقر علىّ مطيتى فلا قام فى مال لك الدهر حالب
ولا تدفننى فى صوىً وادفننى بديمومة تنزو عليها الجنادب[٢]

قال ابن أبى الحديد : وقد ذكرت فى مجموعى المسمى (بالعبقرىّ الحسان) أن أبا عبد الله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع رحمه الله تعالى ذكر فى كتابه فى (آراء العرب وأديانها) هذه الأبيات واستشهد بها على ما كانوا يعتقدون فى البلية وقلت : إنه وهم فى ذلك و إنه ليس فى هذه الأبيات دلالة على هذا المعنى ولا لها به تعلق و إنما هى وصية لولده أن يعقر مطيته بعد موته إما لكى لا يركبها غيره بعده أوعلى هيئة القربان كالهدى المعقور بمكة أو كما كانوا يعقرون عند القبور . إلى أن قال: وليس فى هذا الشعر ما يدل على مذهبهم فى البلية فإن ظن ظانٌّ أن قوله أو يفوِّز راكب فيه إيماء إلى ذلك فليس الأمر كما ظنه . ومعنى البيت أدفنى بفلاة جداء مقطوعة عن الإنس ليس بها إلا الذئب والغراب أو أن يعتسف راكبها المفازة وهى المهلكة سموها مفازة على طريق الفأل . وقيل أنها تسمى مفازة من فوّز أى هلك فليس فى البيت ذكر البلية ولكن الخالع أخطأ فى إيراده فى هذا الباب كما أخطأ فى هذا الباب أيضا فى إيراده قول مالك بن الريب :

وعطل قلوصى فى الركاب فإنها ستبرد أكباداً وتبكى بواكيا

فظن أن ذلك من هذا الباب الذى نحن فيه ولم يرد الشاعر ذلك و إنما أراد

(١) فوز الرجل : مات ، وفوز الطريق بدا وظهر والرجل اذا صار الى المفازة وقيل ركبها ومضى فيها (٢) الصوى : الاعلام من الحجارة الواحد صوة . وفى الحديث (ان للاسلام صوى ومنارا) أى طرائق واعلاما يهتدى بها، والديمومة : الفلاة يدوم السير فيها لبعدها والجمع الدياميم ، والجنادب : جمع جندب وهو الذكر من الجراد وفسره السيرافى بانه الصدى يصير بالليل ويقفز ويطير.

لا تركبوا راحلتى بعدى وعطلوها بحيث لا يشاهدها أعادىّ وأصادقى ذاهبة جائية تحت راكبها فيشمت العدو ويساء الصديق . وقد أخطأ الخالع فى مواضع عدة من هذا الكتاب وأورد أشعاراً فى غير موضعها وظنها مناسبة لما هو فيه . وأنا أقول إن الحق مع ابن أبى الحديد ، فإن بصره فى هذا الباب حديد ، والعقر على القبور غير مذهبهم فى البلية وسأذكر ذلك إن شاء الله تعالى . وقال عمرو بن زيد المتمنى يوصى ابنه عند موته فى البلية :

أبنىَّ زوّدنى إذا فارقتنى   فى القبر راحلةً برحل فاتر

للبعث أركبُها إذاقيل : اظعنوا   مستوثقين معاً لحشر الحاشر

من لا يوافيه على عثَراته   فالخلق بين مدفع أو عاثر

وقال عويمر النبهانى :

أبنىّ لا تنسَ البلية إنها   لأبيك يوم نشوره مركوبُ

وذكر أبو زيد فى تشبيه رجال بالبلايا فقال :

كالبلايا رؤوسها فى الولايا   مانحات السموم حُرَّ الخدود

قال : الولايا البراذع وكانوا يقورون البرذعة ويدخلونها فى عنق تلك الناقة . وقال الشهرستانى كانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها مما يلى ظهرها أو مما يلى كلكلها أو بطنها ويأخذون ولية فيشدون وسطها ويقلدونها عنق الناقة ويتركونها كذلك حتى تموت عند القبر ، وهذه الأقوال مآلها واحد ولا اختلاف إلا فى اللفظ .

ومن مذاهب العرب العقر على القبور

قال زياد الأعجم يرثى المغيرة بن المهلب :

قل للقوافل والغزاة إذا غزوا   والباكرين والمجدّ الرائح[1] :

(١) القوافل جمع قافلة وهى الرفقة الراجعة من سفرها الى وطنها ، والباكرين : المسرعين فى الذهاب من أول النهار ، وأجد فى الامر : اجتهد ، والرائح : الراجع .

إن الشجاعة والسماحة ضُمِّنَا قبراً (بمَرْوَ) على الطريق الواضح[1]
فإذا مررت بقبره فاعقِرْ به كُومَ الجلاد وكل طِرْفٍ سابح[2]
وانضَح جوانب قبرِهِ بدمائها فلقد يكون أخا دَمٍ وذبائح[3]

وهذه أبيات من قصيدة طويلة عدّتها خمسون بيتاً أوردها القالى فى ذيل الأمالى وأورد أكثرها ابن خلكان فى ترجمة والده المهلب .

وقال الآخر[4] .

نفَرت قَلوصى عن حجارة حَرَّةٍ بُنِيَتْ على طَلْقِ اليدَين وهُوبِ
لاتنفِرى يا ناقَ منه فإنه شَرّيبُ خمر مِسْعَرٌ لحرُوبِ
لولا السفارُ وبعد خرْقٍ مَهْمَهٍ لتركْتُها تحبوا على العُرقوب

قال ابن السيد فيما كتبه على كامل المبرد : اختلف فى سبب عقرهم الإبل على القبور فقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الإبل فى حياته وينحره للأضياف واحتجوا بقول الشاعر :

وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخا دمٍ وذبائح

وقد قال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك إعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام وقيل إنما كانوا يفعلونه لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت فكأنهم

(١) مرو : هنا (مرو الشاهجان) لا (مرو الروذ) وكلاهما فى أقليم خراسان ومن سراة اولاد المهلب أبو فراس المغيرة وكان أبوه يقدمه فى قتال الخوارج وله معهم وقائع مشهورة ابان فيها عن نجدة وصرامة وكان مع أبيه فى خراسان واستنا به فى مرو الشاهجان وتوفى فى حياة أبيه سنة ٨٢ هـ فى رجب وهذا البيت يستشهد به النحويون على اعادة الضمير الى المؤنثين بضمير المذكرين وكان القياس ان يقول (ضمنتا) وعده ابن عصفور من قبيل الضرورة .

(٢) عقر البعير بالسيف : اذا ضرب قوائمه به ولا يطلق العقر فى غير القوائم وربما قيل عقره اذا نحره كذا فى المصباح ، والكوم بالضم جمع كوماء بالفتح وهى الناقة العظيمة السنام ، والجلاد جمع جلدة بفتحها وهى ادسم الابل دهنا ، والطرف بالكسر : الاصيل من الخيل ، والسابح : الفرس الكثير الجرى

(٣) النضح : الرش القليل . والنضح البل فهو ابلغ من الأول ، وهذا البيت يستشهد به النحويون على ان المضارع وهو (يكون) مؤول بالماضى أى ولقد كان لأنه مرثية ميت وهو اخبار عن شىء وقع ومضى لااخبار عما سيقع لانه غير ممكن . هذا ولا يسعنا ايراد القصيدة لضيق المقام ..

(٤) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء .

يثأرون لهم فيها . وقيل إن الإبل أنفس أموالهم فكانوا يريدون بذلك أنها قدهانت عليهم لعظم المصيبة وقد أبطلت الشريعة ذلك بحديث لا عقر فى الإسلام قال المناوى كانوا فى الجاهلية يعقرون أى ينحرون الإبل على قبور الموتى فنهى عنه .

(ومن تخيلات العرب ومذاهبها) ما حكاه ابن الأعرابى قال : كانت العرب إذا نفرت الناقة فسميت لها أمها سكنت من النفار قال الراجز :

أقول والوجناء بى تقحم : ويلك قل ما اسم أمها (علكم)[1]

علكم اسم عبده وإنما سأل عبده ترفعاً أن يعرف اسم أمها لأن العبيد بالإبل أعرف وهم رعاتها وأنشد السكرى :

فقلت له ما اسم أمها هات فادعها تجبك ويسكن روعها ونفارها

ومما كانت العرب كالمجتمعة عليه الهامة

وذلك أنهم كانوا يقولون ليس من ميت يموت ولا قتيل يقتل إلا ويخرج من رأسه هامة فإن كان قتل ولم يؤخذ بثأره نادت الهامة على قبره اسقونى فإنى صدية ! وعن هذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (لا هامة) . وحكى أن أبازيد كان يقول الهامة مشددة الميم إحدى هوام الأرض وأنها هى المتكونة المذكورة . وقيل : إن أبا عبيد قال ما أرى أبا زيد حفظ هذا وفى مروج الذهب للمسعودى من العرب من يزعم أن النفس طائر ينبسط فى الجسم فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم وهو أبداً مستوحش ويوجد فى الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور وأنها لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره انتهى . وقيل الهامة أنثى الصدى وهو ذكر البوم وقد يسمونها الصدى والجمع أصداء قال قائلهم :

---

(١) الوجناء : الناقة الشديدة الصلبة وقيل العظيمة الوجنتين .

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام !

وقال أبو دؤاد الإيادى :

سلط الموت والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام

وقال بعضهم لابنه :

ولا تزقون لى هامةٌ فوقَ مرقبٍ فإن زقاء الهام المرء عائب

تنادى : ألااسقونى ! وكل صدى به وتلك التى تبيضُ منها الذوائب

المرقب : الموضع الذى شرف يطلع عليه الرقيبُ ويقال له المرقبة أيضاً يقول له لا تترك ثأرى إن قتلت فإنك إن تركته صاحت هامتى . اسقونى ! فإن كل صداء (وهو ههنا العطش) بأبيك وتلك التى تبيض منها الذوائب لصعوبتها وشدتها كما يقال أمر يشيب رأس الوليد ، ويحتمل أن يريد صعوبة الأمر عليه وهو مقبور إذا لم يثأر به ، ويحتمل أن يريد صعوبة الأمر على ابنه يعنى أن ذلك عار عليك .

وقال ذو الإصبع :

يا عمرو إلاَّ تدعْ شتمى ومنقصتى أضرِبْكَ حتى تقولَ الهامةُ اسقونى !

وقال آخر :

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتى بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى

ويحتمل هذا البيت أن يكون خارجا عن هذا المعنى الذى نحن فيه وأن يكون رىّ هامة الذى طلبه من ربه وهو وصال ليلى وهما فى الدنيا وهم يكنون عما يشفيهم بأنه يروى هامتهم . وقال مغلس الفقعسى وهو أبو قبيلة :

وإن أخاكم قد علمت مكانه بسفح (قُبا) تسفى عليه الأعاصر[1]

له هامة تدعو إذا الليل جنّها : بنى عامر هل للهلالىّ ثائر

تسفى أى تذرى عليه التراب . وقال توبة بن الحمير :

---

(١) سفح الجبل وجهه ، والاعاصر : الرياح التى فيها العصار وهو الغبار الشديد ، وسفت الريح التراب ذرته ، أو حملته .

ولو ان (ليلى الأخيلية) سلمت علىَّ ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليمَ البشاشةِ أو زقا إليها صــدى من جانبِ القبر صائح

وقال قيس بن الملوح وهو المجنون :

ولو تلتقى أصداؤنا بعد موتنا ومن دوننا رمس من الأرض أنــكب
لظل صدى رمسى و إن كنت رمَّةً لصوت صدى ليلى يهشُّ و يطرب

و بعضهم يرو يه « ومن دون رمسينا من الأرض سبسب » وقال حميـد ابن ثور :

ألا هل صدى (أم الوليد) مكلم صداى إذا ما كنت رمساً وأعظما

ومما أبطل الإسلام قول العرب بالصفر

زعموا أن فى البطن حية إذا جاع الإنسان عضت على شرسوفه وكبده وقيل هو الجوع بعينه ليس أنها تعض بعد حصول الجوع . فأما لفظ الحديث (لاعدوى ولا هامة ولا صفر ولا غول) فإن أبا عبيدة معمر بن المثنى قال : هو صــفر الشهر الذى بعــد المحرم . قال : نهى عليه الصلاة والسلام عن تأخيرهم المحرم إلى صفر يعنى ما كانوا يفعلونه من النسىء . قال ابن أبى الحديد : ولم يوافق أحــد من العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير . أقول الذى رأيته فى (فتح البارى) ماحاصله : إن العرب كانت تحرم صفر وتستحل المحرم فجاء الإسلام برد ما كانوا يفعلونه من ذلك فلذلك قال صلى الله تعالى عليه وســلم : (لاصفر) وهــذا القول مروى عن مالك وقــد فسره البخارى فى صحيحه بأنه داء يأخذ البطن . وقد نقل أبو عبيدة معمر بن المثنى فى (غريب الحديث) له عن يونس بن عبيد الجرمى : أنه سأل رؤبة بن العجاج فقــال : هى حية تــكون فى البطن تصيب المــاشية والناس وهى أعدى من الجرب عند العرب فعلى هــذا فالمراد بنفى الصفر ما كانوا يعتقدونه فيه من العدوى . ورجح عند البخارى هــذا القول لــكونه قرن فى الحديث

بالعدوى انتهى . والذى يظهر أن لفظ الصفر من الألفاظ المشتركة والشارع نفى كل ما كان يعتقده العرب من المعانى الباطلة . والإمام الطبرى رجح تفسير البخارى من أنه داء يأخذ البطن على ماسبق واستشهد له بقول الأعشى[١] :

لايتأرّى لمـا فى القدر يرقبهُ ولايعضُّ على شُرسوفه الصَفَرُ

والشُرسوف بضم المعجمة وسكون الراء ثم مهملة ثم فاء الضلع والصفر يكون فى الجوف فربما عض الضلع أو الـكبد فقتل صاحبه . وقال بعض شعراء بنى عبس يذكر قيس بن زهير لماهجر الناس وسكن الفيافى[٢] وآنس بالوحش ثم رأى ليلة ناراً فَعَشَى إليها فشم عندها قُتار اللحم[٣] فنازعته شهوته فغلبها وقهرها ومال إلى شجرة سَلَمَ فلم يزل يكدمها[٤] ويأكل من خَبَطها[٥] إلى أن مات :

إن قيساً كان مِيتته كرَمٌ والحىُّ منطلقُ
شام ناراً (بالهوى) فهوى وشجاع البطن يختفق
فى دَرِيسٍ ليس يستره رُبَّ حُرٍّ ثوبه خَلَقُ

قوله فى دريس أى ثوب مندرس حقير وقوله بالهوى اسم موضع بعينه . وقال أبو النجم العجلى :

إنك ياخـير فتى تستعدى على زمان مسنا بجهـد
عضا كعض صفر بكبد

---

(١) هو اعشى باهلة واسمه عامر بن الحرث بن رياح ويكتنى أبا قحافـة والبيت من شعره يرثى به المنتشر بن وهب الباهلى ومعناه انه يمدحه بأن همته ليست فى المطعم والمشرب وانما همته فى طلب المعالى فليس يرقب نضج ما فى القدر اذا هم بأمر له فيه شرف بل يتركها ويمضى لما يريده ، وهذا البيت مركب من بيتين والذى رواه ابو العباس المبرد :

لا يتأرى لما فى القدر يرقبـــه ولا تراه امام القـــوم يقتفـــر
لا يغمز الساق من أين ولا وصب ولا يعض على شرسوفه الصـــفر

هذا ويجوز أن يكون مانقله فضيلة الاستاذ رواية ثانية (٢) جمع فيفاة أو فيفاء وهو المكان المستوى أو المفازة التى لا ماء فيها (٣) قتار اللحم : ريحه (٤) أى يعضها بأدنى فمه (٥) أى ورقها .

وقال آخر :

أردُّ شجاع البطن قد تعلمينه   وأوثر غيرى من عيالك بالطعم

فإن قلت : مامعنى النفى إذا أريدبالصفر الحية أو الجوع أو وجع فى البطن يأخذ من الجوع أو اجتماع الماء الذى يكون منه الاستسقاء مع تحققه ففى الحديث (صفرة فى سبيل الله خير من حمر النعم) أى جوعة و يقولون صفر الإناء إذا خلا عن الطعام وفى حديث رواه ابن مسعود (أن رجلا أصابه الصفر فنعت له السَكَر) أى حصل له الاستسقاء فوصف له النبيذ ؟ قلت المراد بالنفى نفى ما كانوا يعتقدون أن من أصابه قتله أو أعدى فردّ ذلك الشرع بأن الموت لا يكون إلا إذافرغ الأجل فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعةً ولا يستأخرون .

(ومن خرافات العرب) أن الرجل منهم كان إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها أو جِنّها وقف على بابها قبل أن يدخلها فنهق نهيق الحمار ثم علق عليه كعب أرنب كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن ويسمون هذا النهيق التعشير . قال شاعرهم :

ولاينفع التعشيرُ إنْ حُمَّ واقعٌ   ولازعزع يغنى ولا كعب أرنبِ[1]

وقال الهيثم بن عدى : خرج عروة بن الورد إلى خيبر فى وقعة ليمتاروا فلما قربوا منها عشروا وعاف عروة أن يفعل فعلهم وقال :

لعمرى إن عشّرْتُ من خيفةالردى   نُهاقَ حمير إننى لجزوع[2]

فلا وألت تلك النفوس ولا أتوا   قفولاً إلى الأوطان وهى جميع[3]

وقالوا ألا انهق لاتضرك خيبر   وذلك من فعل اليهود وُلوع

---

(١) حم الامر بالضم : قضى وله ذلك قدر (٢) ويروى :

وانى وان عشرت فى أرض مالك   نهاق حمار . . . الخ

(٣) وال اليه يئل والا وؤولا ووئيلا ، ووآءل موآءلة ووئالا : لجأ وخلص وفى حديث على رضى الله عنه ان درعه كانت صدرا بلا ظهر فقيل له : لو احترزت من ظهرك . فقال : اذا أمكنت من ظهرى فلا وألت أى لا نجوت . وقال الشاعر :

لا وآءلت نفسك خليتها   للعامريين ولم تكلم

وقفل من سفره قفولا : رجع .

الولوع بالضم الكذب يقال ولع الرجل إذا كذب فيقال إن رفقته مرضوا ومات بعضهم ونجا عروة من الموت والمرض . وقال آخر :

لاينجينك من حمام واقع كعب تعلقه ولا تعشيرُ

« ويشابه هذا » أن الرجل منهم كان إذا ضل فى فلاة قلب قميصه وصفق بيديه كأنه يومئ بهما إلى إنسان فيهتدى . قال أعرابى :

قلبت ثيابى والظنونُ تجولُ بى وترمى برجلى نحوَ كلِّ سبيل
فلأياً بلأيٍ ما عرفت حليلتى وأبصرت قصداً لم يصب بدليل (١)

وقال أبو العملّس الطائى :

فلو أبصرتنى بلوى بطانٍ أصفق بالبنان على البنان ! (٢)
فأقلب تارةً خوفاً ردائى وأصرخ تارة بأبى فلان !
لقلت أبو العملس قد دهاه من الجنّان خالعةُ العنان !

والأصل فى قلب الثياب التفاؤل بقلب الحال وقد جاء فى الشريعة الإسلامية نحو ذلك فى الاستسقاء .

ومن مذاهب العرب الرتم

وذلك أن الرجل منهم كان إذا سافر عمد إلى خيط فعقده فى غصن شجرة أو فى ساقها فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإن وجده بحاله علم أن زوجته لم تخنه وإن لم يجده أو وجده محلولا قال : قد خانتنى وذلك العقد يسمى الرتم . ويقال بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن الشجر بطرف غصن آخر . وذكر ابن الأعرابى أن رجلا من العرب أراد سفراً فأخذ يوصى امرأته ويقول : إياك أن تفعلى وإياك فإنى عاقد لك رتمة بشجرة فإن أحدثت حدثاً انحلّت ! فقال له الراجز :

هل ينفعنك اليوم إن همت بِهَمْ كثرة ماتوصى وتَعقاد الرتم

---

(١) اللأى كالسعى : الابطاء والاحتباس والجهد والمشقة .
(٢) بطان بكسر الباء : موضع .

وقال آخر :

خانته لما رأت شيباً بِمَفْرِقِهِ وغرَّهُ حَلْفُها والعَقْدُ للرتمِ (١)

وقال آخر :

لا تحسبن رتائما عقَّدتها تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال آخر :

يعلل عمرٌو بالرتائم قلبَهُ وفى الحيّ ظبى قد أحلت محارمه

فما نفعت تلك الوصايا ولا جنت عليه سوى ما لا يحب رتائمه

وقال آخر :

ما الذى تنفعك الرتائمُ إذ أصبحت وعشقها ملازم

وهى على لذاتها تداومُ يزورها طبٌّ الفؤاد عازم (٢)

بكل أدواء النساء عالم

ومن أمثال العرب (أَمْحَلُ (٣) تَعَقُّادِ الرتَمَ) قال الميدانى : كان من عادة العرب إذا أراد الواحد منهم سفراً أن يعقد خيطاً بشجرة و يعتقد فيه أنه إن أحدثت امرأته حدثاً انحل ذلك الخيط وكانوا يسمونه الرتم والرتمة . وقد كانوا يعقدون الرتم للحمى و يرون أن من حلها انتقلت الحمى إليه . قال الشاعر :

حللت رتيمة فمكثت شهراً أكابد كلّ مكروه الدواء

(ومن مذاهبهم) ما حكاه ابن السكيت قال : إن العرب كانت تقول إن المرأة المقلاة وهى التى لا يعيش لها ولد إذا وطئت القتيل الشريف عاش ولدها . قال بشر بن أبى حازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقُلْنَ ألا يُلْقَى على المرء مئزرُ

وقال أبو عبيدة : تتخطاه المقلاة سبعَ مراتٍ فذلك وطؤها له . وقال

---

(١) المفرق كمقعد ومجلس وسط الرأس وهو الذى يفرق فيه الشعر .
(٢) الطب بالفتح الماهر الحاذق بعلمه كالطبيب (٣) امحل من المحال وهو الباطل

ابن الأعرابى : يمرون به و يطئون حوله . وقيل : إنما كانوا يفعلون ذلك بالشريف يقتل غدراً أو وقوداً . وقال الكميت :

وتطيل المرزآت المقاليت إليـه القعود بعد القيـام

وقال آخر :

تركن (الشعثمين) برمل خَبْتٍ تزورهما مقاليت النساء [١]

وقال آخر :

بنفسى الذى تمشى المقاليت حوله يطأن له كشحاً هضيماً مهشما [٢]

وقال آخر :

تباشرت المقالت حين قالوا ثوى (عمرو بن مرة) بالحفير

(ومن تخيلات العرب وخرافاتهم) أن الغلام منهم كان إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال يا شمس أبدلينى بسن أحسن منها ولتجر فى ظلمها آياتك أو تقول أياؤك وهما جميعاً شعاع الشمس . قال طرفة بن العبد البكرى :

سقته أياة الشمس إلا لثاته أسِفَّ ولم تـكدم عليه بأثمد

يصف ثغر معشوقته فقال سقاه شعاع الشمس أى كأن الشمس أعارته ضوءها . ثم قال إلا لثاته لأنه لا يستحب بريقها . ثم قال أسف الأثمد على اللثة أى ذر عليها ولم تـكدم بأسنانها على شىء يؤثر فيها . ونساء العرب تذر الأثمد على الشفاه واللثات فيكون ذلك أشد للمعان الأسنان و إلى هذا الخيال أشار شاعرهم :

شادن يحلو إذا ما ابتسمت عن أقاح كأقاح الرمل غر [٣]

بدلته الشمس من منبـته برَداً أبيض مصقولَ الأثر [٤]

---

(١) الشعثمانى : شعثم وشعيث ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة . عن أبى عبيد البكرى فى شرح امالى القالى ، وخبت : هو فى الاصل المطمئن من الارض فيه رمل وقيل غير ذلك . . (٢) الكشح مثال فلس ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف ، والكشح الهضيم المنضم اللطيف ، والمهشم : المكسر .

(٣) الشادن : ولد الظبية الذى قد قوى يكنى به عن الامرد الجميل .

(٤) البرد بالتحريك : حب الغمام .

وقال آخر :

وأشنب واضح عـذب الثنايا كأن رضابه صافى المُدَامِ
كسته الشمسُ لوناً من سناها فلاح كأنه برقُ الغمامِ

وقال آخر :

بذى أشرب عذب المذاق تفردت به الشمس حتى عاد أبيض ناصعا

والناس اليوم فى صبيانهم على هذا المذهب (وكانت العرب) تعتقد أن دم الرئيس يشفى من عضة الـكلب الـكَلِب . قال الشاعر :

بُناة مكارم وأُساة جرحٍ دماؤهم من الـكلب الشفاء (١)

وقال عبد الله بن الز بير الأسدى :

من خير بيت علمناه وأكرمه كانت دماؤهم تَشفى من الـكلب

وقال الـكميت :

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكُمُ تشفى من الـكلب

(ومن تخيلات العرب) أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون وتعرض الأرواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الأقذار عليه كخرقة الحيض وعظام الموتى قالوا : وأنفع من ذلك أن تعلق عليه طامث عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك . وأنشدوا للممزق العبدى :

فلو أن عندى جارتين وراقياً وعلق أنجاساً علىّ المعلق

قالوا والتنجيس يشفى إلا من العشق قال أعرابى :

يقولون علق يا لك الخير رُمةً وهل ينفع التنجيس من كان عاشقا (٢)

وقالت امرأة وقد نجست ولدها فلم ينفعه ذلك ومات :

نجسته لا ينفع التنجيس والموت لا تفوته النفـوس

---

(١) الأساة : الاطباء ، والكلب داء يشبه الجنون يأخذه فيعقر الناس .
(٢) الرمة : القطعة من الحبل .

وكان أبو مهدية يعلق فى عنقه العظام والصوف حذر الموت وأنشدوا :

أتونى بأنجاس لهم ومنجس   فقلت لهم ما قدر الله كائن

(ومن مذاهبهم) أن الرجل منهم كان إذا خدرت رجله ذكر من يحب أو دعاه فيذهب خدرها . وروى أن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما خدرت رجله فقيل له ادع أحب الناس إليك فقال يا رسول الله (١) . وقال الشاعر :

على أن رجلى لا يزال امذلالها   مقيماً بها حتى أجيلك فى فكرى

والامذلال : الاسترخاء والفتور . وقال كثير :

إذا مذلت رجلى ذكرتك اشتفى   بدعواك من مذل بها فيهون

وقال جميل :

وأنت لعينى قرة حين نلتقى   وذكرك يشفينى إذا خدرت رجلى

وقالت امرأة :

إذا خدرت رجل دعوت ابن مَصعب   فإن قلت : عبد الله ! أجلى فتورها

وقال آخر :

صبّ محبّ إذا ما رجله خدرت   نادى (كبيشة) حتى يذهب الخدرُ

---

(١) أقول : قد استدل الحشويون وعباد القبور بهذا الكلام على جواز الاستغاثة باصحاب القبور عند الشدائد ونداء غير الله سبحانه وتعالى وهو كما ترى استدلال غريب يدل على جهل فيهم عظيم .. والجواب عنه أن هذا ليس نداء بما لا يقدر عليه الا الله تعالى غاية ما فيه ذكر المحبوب لاطلب شىء منه ولا استغاثته والالزم ان كل من ذكر محبوبه فقد استغاث به وبطلانه ظاهر . وهذا الفعل كما علمت من مذاهب العرب فى الجاهلية وقد ساق فضيلة الاستاذ من اشعارهم ما يؤيد ذلك وفيه يقول أبو العتاهية :

وتخدر فى بعض الاحايين رجله   فان لم يقل ياعتب لم يذهب الخدر

أفيقال ان هؤلاء لما خدرت ارجلهم استغاثوا بمن يحبونه من امرأة أو غلام؟ لا أرى من يقول بذلك الا من خدر عقله وتركب جهله !

وقد علل بعض العلماء زوال الخدر بذكر المحبوب بأنه بمسرته وتوجه حواسه نحوه تنتفش حرارته الغريزية فيذهب الخدر . وقال ان فعل الجاهلية وحديث ابن عمر يؤيدان صحة ما جربه الناس فى ذلك ! ...

وقال الموصلى .

والله ما خدرت رجلى وما عثرت   إلا ذكرتك حتى يذهب الخدر

وقال الوليد بن يزيد :

أثيبى هائماً كلفاً مُعنّى   إذا خدرت له رجل دعاكِ

(ومن مذاهبهم) وهو نظير هذا الوهم أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال (أرى من أحبه) فإن كان غائباً توقع قدومه و إن كان بعيداً توقع قربه

وقال بشر :

إذا اختلجت عينى أقول لعلها   فتاة بنى عمرو بهـا العين تلمع

وقال آخر :

إذا اختلجت عينى تيقنت أننى   أراك و إن كان المزار بعيدا

وقال آخر :

إذا اختلجت عينى أقول : لعلها   لرؤيتهـا تهتاج عينى وتطرف

وهذا الوهم باقٍ فى الناس اليوم وربمـا كان ذلك لدى البعض منهم كالقاعدة المطردة .

(ومن مذاهبهم) أن الرجل منهم كان إذا عشق ولم يسل وأفرط عليه العشق حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبي وقام آخر فأحمى حديدة أو ميلا وكوى به بين إليتيه فيذهب عشقه فيما يزعمون .

قال أعرابى :

كويتُم بين رانفتىّ جهلا   ونار القلب يضرمها الغرام[1]

وقال آخر :

شكوت إلى رفيقىّ اشتياقى   فجاآنى وقد جمعـا دواءا

---

(١) الرانفة : أسفل الالية اذا كنت قائما .

وجاءا بالطبيب ليكويانى ولا أبغى ـ عدمتهما ـ اكتواءا
ولو أتيا (بسلمى) حين جاءا لعاضانى من السقم الشفاءا

واستشهد الخالع على هذا المعنى بقول كُثَيِّر :

أغاضر لو شهدت غداة بنتم حنوّ العائذات على وسادى
أويت لعاشق لم ترحميه بواقدة تلذع بالزناد

وهذا البيت ليس بصريح فى هذا الباب . ويحتمل أن يكون مراده فيه المعنى المشهور المطروق بين الشعراء من ذكر حرارة الوجد ولذعه وتشبيهه بالنار إلا أنه قد روى فى كتابه خبراً يؤكد المقصد الذى عزاه وادعاه وهو عن محمد بن سليمان بن فليح عن جده قال : كنت عند عبد الله بن جعفر فدخل عليه كثير وعليه أثر علة فقال عبد الله : ما هذا بك ؟ قال : هذا ما فعلت بى أم الحويرث ! ثم كشف عن ثوبه وهو مكوى وأنشد :

عفا الله عن أم الحويرث ذنبها علام تعنينى وتكمى دوائيا
ولو آذنونى قبل أن يرقموا بها لقلت لهم : أم الحويرث دائيا !

(ومن أوهامهم وتخيلاتهم) أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا أحب امرأة وأحبته فشق برقعها وشقت رداءه صلح حبهما ودام فإن لم يفعلا ذلك فسد حبهما ! قال سحيم عبد بنى الحسحاس(١) :

وكم قد شققنا من رداء محبر ومن برقع عن طفلة غيرِ عانسِ(٢)

(١) قيل : بل اسمه حية ومولاه جندل وهو من المخضرمين قد ادرك الجاهلية والاسلام ولا تعرف له صحبة وكان اسود شديد السواد وكان مع جودة شعره أعجمى اللسان ينشد الشعر ثم يقول « أهنست والله ! » يريد « احسنت والله » . وكان عبد الله بن أبى ربيعة قد اشتراه وكتب الى سيدنا عثمان رضى الله عنه : (انى قد ابتعت لك غلاما شاعرا حبشيا) فكتب اليه : (لاحاجة لى به فاردده فانما قصارى أهل العبد الشاعر ان شبع أن يشبب بنسائهم ، وان جاع ان يهجوهم) فرده عبد الله فاشتراه معبد فكان كما قال ذو النورين شبب ببنته عميرة وفحش وشهرها فحرقه معبد بالنار .

(٢) قوله (ومن برقع الخ) يروى بدله (على طفلة ممكورة غير عانس) والطفلة بفتح الطاء أى ناعمة ، والممكورة الطويلة الخالق من النساء يقال أمرأة ممكورة الساقين أى جدلاء مفتولة ، والعانس التى طال مكثها فى منازل أهلها

إذا شُقَّ برد شق بالبرد برقع دَوالَيْكَ حتى كلنا غير لابس[1]
نروم بهذا الفعل بُقيا على الهوى وألف الهوى يغرى بهذى الوساوس[2]

وقال آخر :

شققت ردائى يوم (برقة عالج) وأمكنتنى من شق برقعك السحقا
فما بال هذا الود يفسد بيننا ويمحق حبلَ الوصل ما بيننا محقا

(ومن مذاهبهم) أنَّهم كانوا يرون أن أكل لحوم السباع يزيد فى الشجاعة والقوة وهذا مذهب طبي والأطباء يعتقدون به . قال بعضهم :

أبا المعارك لا تتعب بأكلك ما تظن أنك تلقى منه كرّارا
فلو أكلت سباع الأرض قاطبةً ما كنت إلا جبان القلب خوّارا[3]

وقال بعض الأعراب وقد أكل فؤاد الأسد ليكون شجاعاً فعدا عليه نمر فجرحه :

أكلت من الليث الهصور فؤاده لأصبح أجرأ منه قلباً وأقدما[4] !
فأدرك منى ثأره بابن أخته فيالك ثأراً ما أشدّ وأعظما !

وقال آخر :

إذا لم يكن قلبُ الفتى غدوةَ الوغى أصمَّ فقلب الليث ليس بنافعِ
وما نفع قلب الليث فى حومة الوغى إذا كان سيفُ المرء ليس بقاطع[5]

(ومن مذاهبهم) أن صاحب الفرس المهقوع إذا ركبه فعرق تحته اغتلمت امرأته وطمحت إلى غيره والهقعة دائرة تكون بالفرس وربما كانت على الكتف فى الأكثر ، وهى مستقبحة عندهم . قال بعضهم لصاحبه ينبهه على ذلك :

بعد ادراكها حتى خرجت عن عداد الابكار وهذا ما لم تتزوج فان تزوجت فلا يقال عنست .

(١) معنى دواليك مداولة بعد مداولة ولا يفرد له واحد ، ومن ذلك حنانيك وحواليك وغيرهما (٢) البقيا بالضم ويفتح اسم من بقى يبقى بقاء ؛ قال الشاعر :

فما بقيا على تركتمانى ولكن خفتما صرد النبال

(٣) الخوار : الضعيف (٤) الهصور من صفات الاسد ؛ من الهصر وهو الكسر والدفع (٥) الوغى : الحرب نفسها ، وحومة القتال : معظمه أو أشد موضع فيه .

إذا عرق المهقوع بالمرء أنعظت حليلتُهُ وازداد حَرًّا عجانها[1]

فأجابه صاحبه راداً عليه فيما اعتقده : —

وقد يركب المهقوع من ليس مثله وقد يركَب المهقوع زوج حَصانِ[2]

(ومن مذاهبهم) أنهم كانوا يوقدون النار للمسافر الذى لا يحبون رجوعه خلفه ويقولون فى دعائهم (أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً أثره) قال بعضهم :

صحوتَ وأوقدتَ للجهل ناراً وردّ عليك الصبا ما استعارا

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقدوا ناراً بينهم و بين المنزل الذى يريدونه ولم يوقدوها بينهم و بين المنزل الذى خرجوا منه تفاؤلا بالرجوع إليه ، ولهم نيران كثيرة غير هذه قد ذكرناها سابقاً .

(ومن مذاهبهم المشهورة تعليق كعب الأرنب)

قال ابن الأعرابى : قلت لزيد بن كثوة : أتقولون أن من عاق عليه كعب أرنب لم تقر به جنان الدار ولا عمار الحى ؟ قال : أى والله ولا شيطان الحماطة (وهو شجر شبيه بالتين وهو أحب شجر إلى الحيات) ولا جار العشيرة وهى تصغير العشرة (وهى شجرة أيضاً) ولا غول القفر . وقال امرؤ القيس :

أيا هند لا تنكحى بوهةً عليه عقيقته أحسبا[3]

موضعة بين أزناقه به عَسَم يبتغى أرنبا[4]

ليجعل فى رجله كعبها حذار المنية أن يعطبا[5]

---

(١) انعظ الرجل والمرأة علاهما الشبق، والعجان مثل كتاب مابين الخصية وحلقة الدبر كذا فى المصباح (٢) امرأة حصان كسحاب عفيفة (٣) البوهة : الرجل الضاوى وقيل الضعيف الطائش وقيل الاحمق ، والاحسب رجل فى شعر رأسه شقرة . قال الزبيدى فى التاج : يصفه باللؤم والشح كأنه لم تحلق عقيقته فى صغره حتى شاخ وعقيقته شعره الذى يولد به ، يقول لا تتزوجى من هذه صفته (٤) العسم محركة يبس فى مفصل الرسغ تعوج منه اليد والقدم ، وقوله « موضعه بين أزناقه » محرف تحريفا ظاهرا وصوابه « مرسعةبينأرساغه » وفىرواية « مرسعةوسط أرفاغه » المرسعة التميمة التىكانوا يعلقونها علىالرسغ مخافة الموت أو العطبوالارساغ جمع رسغ وهو من الانسان مفصل ما بين الكف والساعد وما بين القدم والساق.

(٥)كان حمقى العرب فى الجاهلية يعلقون كعب الارنب فى الرجل كالمعاذة

وقال أبو مجلم : كانت العرب تعلق على الصبى سن ثعلب وسن هرة خوفا من الخطفة والنظرة ، ويقولون : ان جنية أرادت صبىّ قوم فلم تقدر عليه فلامها قومها من الجن فى ذلك . فقالت تعتذر إليهم :

كان عليه نُفَره ثعالب وهِرَرَه
والحيض حيض السَّمُرَه

يعنى كان عليه ماينفرنى منه لأن أتعرض له . والسمرة من شجر الطلح وحيضها شيء يسيل من السمر كدم الغزال (وكانت العرب) إذا ولدت المرأة أخذوا من دم السمر وهو صمغه الذى يسيل منه ينقطونه بين عينى النُّفَساء وخطوا على وجه الصبى خطاً ويسمى هذا الصمغ السائل من السمر الدودم ويقال بالذال المعجمة أيضاً وتسمى هذه الأشياء التى تعلق على الصبى (النفرات) قال عبد الرحمن ابن أخى الأصمعى : إن بعض العرب قال لأبى : إذا ولد لك ولد فنفر عنه ! فقال له أبى : وما التنفير ؟ قال : غرب اسمه فولد له ولد فسماه قنفذاً وكناه أبا العدا . قال : وأنشد أبى :

كالخمر مزج دوائها منها بهـا تشفى الصداع وتبرىء المنجودا[1]

قال يريد أن القنفذ من مراكب الجن وسيأتى إن شاء الله تعالى بيان ذلك فداوى منهم ولده بمراكبهم .

ومن مذاهبهم الاستعاذة بالجن

كان الرجل منهم اذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل عمد إلى واد ذى شجر فأناخ راحلته فى قرارته وهى القاع المستديرة وعقلها وخط عليها خَطا ثم قال : أعوذ بصاحب هذا الوادي . وربما قال بعظيم هذا الوادى . وعن هذا قال الله سبحانه فى القرآن (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن

ويزعمون ان من علقه لم يضره عين ولا سحر لان الجن تمتطى كعب الثعالب والظباء والقنافد وتجتنب الارانب لمكان الحيض. يقول : هو من أولئك الحمقى

(١) المنجود : المكروب .

فزادوهم رهقا) واستعاذ رجل منهم ومعه ولد فأكله الأسد فقال :

قد استعذنا بعظيم الوادى   من شر ما فيه من الأعادى

فلم يُجِرْنا من هِزَبْرٍ عادى[1]

وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البِيد   بسيدٍ معظَّمٍ مجيدٍ[2]

أصبح يأوى بلوى زَرودِ   ذى عزة وكاهلٍ شديدِ

وقال آخر :

يا جنّ أجزاء اللوى من عالج   عاذَبكم سارى الظلام الدالج

لا ترهقوه بغوىّ هائج

وقال آخر :

قد بِتُّ ضيفاً لعظيم الوادى   المانعى من سطوة الأعادى

راحلتى فى جاره وزادى

وقال آخر :

هياصاحب الشجراء هل أنت مانعى   فانىَ ضيفٌ نازل بفنائكا

وإنك للجنّان فى الأرضْ سيد   ومثلك آوى فى الظلام الصعالكا

(ومن مذاهبهم) أن الرجل اذا خرج من بلده إلى آخر فلا ينبغى له أن يلتفت فإنه إذا التفت عاد فلذلك لا يلتفت إلا العاشق الذى يريد العود .

قال بعضهم :

دَعِ التلفت يا (مسعود) وارمِ بها   وجه الهواجر تأمنْ رجعة البلدِ

وقال آخر أنشده الخالع :

عيل صبرى بالثعلبية لما   طال ليلى وملنى قُرَنائى

كلما سارت المطايا بنا ميـ   ـلاً تنفستُ والتفتُّ ورائى

---

(١) الهزبر : الأسد ، وأجاره : حفظه   (٢) البيد : المقفرة من الأنس

قال ابن أبى الحديد : هذان البيتان ذكرهما الخالع فى هـذا الباب وعندى أنه لا دلالة فيهما على ما أراد لأن التلفت فى أشعارهم كثير ومرادهم به الإبانة والإعراب عن كثرة الشوق والتأسف على المفارقة وكون الراحل عن المنزل حيث لم يمكنه المقام فيه بجثمانه يتبعه بصره و يتزود من رؤيته كقول السيد الرضى :

ولقد مررت على طلولهم ورسومُها بيد البلى نَهْبُ
فوقفت حتى ضجَّ من لغب نِضْوى ولج بعذلىَ الرَّكْبُ(١)
وتلفتتْ عينى فمـذ خفيت عنّى الطلول تلفَّتَ القلب

وليس يقصد بالتلفت ههنا التفاؤل بالرجوع إليها لأن رسومها قد صارت نهباً بيد البلى فأى فائدة فى الرجوع إليها و إنما يريد ما قدمنا ذكره من الحنين والتذكر لمـا مضى من أيامه فيها . وكذلك قول الأول :

تلفتُّ نحو الحى حتى وجـدتُنى وَجِعتُ من الإصعار ليتاً وأخدعا(٢)

ومثل ذلك كثير انتهى . وقال بعضهم فى المذهب الأول :

تلفتُّ أرجو رجعةً بعد نيةٍ فـكان التفاتى زائداً فى بلائيا

(١) اللغب : الاعياء ، والنضو بالكسر : المهزول من الابل وغيرها .
(٢) الاصعار : الانقلاب فى الوجه الى أحد الشقين ، والليت : صفحةالعنق، والاخدع : عرق فيها وهما منصوبان على التمييز ؛ والبيت من ابيات للصمة ابن عبد الله بن طفيل بن الحرث بن قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير بن كعب وكان شاعرا غزلا مقلا من شعراء الدولة الاموية وكان قد خطب بنت عمه وكان لها محبا فاشتط عليه عمه فى المهر فسأل اباه ان يعاونه فلم يعنه بشىء فسأل عشيرته فأعطوه فأتى بالابل عمه فلم يقبلها فى مهر ابنته وقال له سهل أباك أن يبدلها لك فأبى أبوه عليه ذلك فلما رأى منهما مارأى قطع عقلها وخلاها فعاد كل بعير الى أهله وتحمل راحلا فقالت بنت عمه حين رأته يتحمل : تا لله ما رأيت كاليوم رجلا باعته عشيرته بأبعرة ثم مضى الى الشام فلما طال مقامه تبعتها نفسه فقال هذه الابيات وهى من أشهر ما يحفظ من النسيب الجزل اللفظ الفخم المعنى البديع ديباجة وحسنا :

حننت الى (ريا) ونفسك باعـدت مزارك من ريا وشـعبا كمـا معـا
فما حسـن أن تأتى الامر طائعـا وتجزع ان داعى الصبابة أسـمعا

وأرجو رجوعا بعد ما حال بيننا ... وبينكم حَزْنُ الفلا والفيافيا[1]

وقال آخر وقد طلق امرأته فتلفتت إليه :

تلفتت ترجو رجعة بعد فرقة ... وهيهات مما ترتجى أم مازن

ألم تعلمى أنى جموح عنانه ... إذا كان من أهواه غير ملاين

(ومن مذاهبهم) إذا بثرت شفة الصبي حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحى الحلأ الحلأ الطعام الطعام فتلقى له النساء كسر الخبز وأقطاع التمر واللحم فى المنخل ثم يلقى ذلك للكلاب فتأكله فيبرأ من المرض فإن أكل صبى من الصبيان من ذلك الذى ألقاه للكلاب تمرة أو لقمة أو لحمة بثرت شفته ، وأنشد لامرأة :

ألا حلا فى شفة مشقوقه ... فقد قضى منخلنا حقوقه !

الحلأ محركة العقبول وهو واحد العقابيل وهى بقايا العلة وما يخرج على الشفة غب الحمى وحلئت الشفة برئت بعد المرض كذا فى كتب اللغة ومثل هذه المذاهب لا مجال للعقل فيه .

(ومن مذاهبهم) أن الرجل منهم كان إذا طرفت عينه بثوب آخر مسح الطارف عين المطروف سبع مرات يقول فى الأولى بإحدى جاءت من المدينة . وفى الثانية باثنتين جاءتا من المدينة . وفى الثالثة بثلاث جئن من المدينة إلى أن يقول فى السابعة بسبع جئن من المدينة فتبرأ عين المطروف وفيهم من يقول بإحدى

قفاودعا نجدا ومن حل بالحمى ... وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الارض ما أطيب الربى ... وما احسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا ... وحالت بنات الشوق يحنن نزعا
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفت نحو الحى حتى وجدتنى ... وجعت من الاصغار ليتا واخدعا
وأذكر ايام الحمى ثم أننى ... على كبدى من خشية ان تصدعا

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض وهو خلاف السهل ، والفلا جمع فلاة وهى الأرض لا ماء فيها وكذلك الفيافى جمع فيفاة .

من سبع جئن من المدينة باثنتين من سبع إلى أن يقول بسبع من سبع .

(ومن مذاهبهم) أن الرجل منهم كان إذا ظهرت فيه القُوَباء عالجها بالريق ويروى أن أعرابياً أصابته قوبة فقيل له كل يوم ضع عليها الريق فوضع عليها فصحت فقال :

يا عجباً لهذه الفليقه　　　هل تذهبن القُوَباءَ الريقه

الفليقة الداهية والمنكر والقوباء بضم القاف وفتح الواو و بالمد داء يعالج بالريق

(من مذاهبهم) أنهم يزعمون أن ابن المجوسي إذا كان من أخته وخط على النملة تبرأ وتنصلح وترأب قال الشاعر يشير إلى هذا المذهب :

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر　　　كرام وأنا لانخطّ على النمل

أى لسنا بمجوس ننكح الأخوات وكانوا يكنون عن المجوسى بقولهم فلان يخط على النمل وهذه الطريقة فى الشعر هى إخراج الشىء المحمود بلفظ يوهم غيره يقال فلان كريم غير أنه شريف . قال النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　　بهن فُلولٌ من قراع الكتائب[1]

وقال آخر :

فتى كرمت أخلاقه غير أنه　　　كريم فما يبقى على المال باقياً

وصحف ابن الأعرابى البيت الأول فروى « وأنا لانحط على النّمل » وفسره بأن قال نحن قوم أعزاء كرام ننزل أعالى الأمكنة فلا يخرقنا السيل ولا نحط على قرى النمل إذا كانت فى البطون ولذلك قال النابغة الذبيانى :

يا دار مية بالعلياء فالسند　　　أقوت وطال عليها سالف الأمد[2]

---

(١) الكتائب جمع كتيبة وهى الطائفة من الجيش مجتمعة (٢) قال الزوزنى : انما قال يادار مية بالعلياء توجعا منه لأنه كان معها (أى مع مية) فى نعيم . وقال بالعلياء لأنه كان ذلك المكان الذى فيه الدار بمرتفع من الأرض حيث لا يضره السيل ووصف الدار وقد أضافها الى معرفة لانها ليست فى معنى فلان فلما لم تكن كذلك توهم أنه فى مذهب الالف واللام ، والعلياء اذا فتحت العين مدت واذا ضمت العين قصرت ، والسند : سند الجبل حيث تستند فيه قال أعشى همدان :

فرد عليه أبو عمرو ذلك ، فرجع إلى الصواب والنملة قرحة . وفى القاموس النملة شق فى حافر الدابة وقروح فى الجنب كالنمل و بثرة تخرج فى الجسد بالتهاب واحتراق ويرم مكانها يسيراً و يدب إلى موضع آخر كالنملة وسببها صفراء حادة تخرج من أفواه العروق الدقاق ولا تحتبس فيما هو داخل من ظاهر الجلد لشدة لطافتها وحدتها انتهى . وفى سائر كتب اللغة كذلك .

(ومن مذاهبهم) أن المرأة منهم كانت إذا عسر عليها خاطب النكاح نشرت جانباً من شعرها وكحلت إحدى عينيها مخالفة للشعر المنشور وحجلت على إحدى رجليها و يكون ذلك ليلًا وتقول يا لكاح . أبغى النكاح . قبل الصباح ! فيسهل أمرها وتتزوج عن قرب . قال رجل لصديقه وقد رأى أمه تفعل ذلك :

أما ترى أمك تبغى بَعلا ... قد نشرت من شعرها الأقلا[1]

ولم توفِّ مُقْلَتَيْها كحلا ... ترفع رجلا وتحط رجلا[2]

هذا وقد شابَ بنوها أصلا ... وأصبح الأصغر منهم كهْلا[3]

خذ القطيعَ ثم سُمْها الذلا ... ضرباً به تترك هذا الفعلا[4]

وقال آخر :

تصنَّعى ما شئت أن تصنعى ... وكحِّلى عينيك أو ، لا ! فدعى !

ثم احجلى فى البيت أو فى المجمع ... مالك فى بعل أرى من مطمع

وقال آخر :

قد كحلت عيناً وأعفت عينا ... وحجلت ونشرت قرينا

تظن زيناً ما تراه شينا

عهدى بهم فى النقب قد سندوا ... تهدى صعاب مطيعهم ذلله

وأقوت بمعنى خلت .

(١) البعل : الزوج (٢) المقلة : العين (٣) الكهل : من جاوز الثلاثين ووخطه الشيب وقيل من بلغ الاربعين (٤) قوله خذ القطيع أى اهجرها ، وسمها الذل أى أهنها .

(ومن مذاهبهم) كانوا إذا رحل الضيف أو غيره عنهم وأحبوا أن لا يعود كسروا شيئا من الأوانى وهذا مما يعمله بعض الناس اليوم أيضاً قال بعضهم :

كسرنا القدر بعد أبى سواح فعاد وقدرنا ذهبت ضياعا

وقال آخر :

ولا نكسر الكيزان فى إثر ضيفنا ولكننا نكفيه زاداً ليرجعا

وقال آخر :

أما والله إن بنى نفيل لحلالون بالشرف اليَفَاع[1]

أناس ليس تكسر خلف ضيف أوانيهم ولا شعب القصاع

(ومن مذاهبهم) أنهم يقولون أن من ولد فى القمراء تقلصت غرلته فكان كالمختون (والغرلة بالغين المعجمة والراء المهملة القلفة وهى الجلدة فى رأس الإحليل قبل الختان) . قال ابن أبى الحديد : ويجوز عندنا أن يكون ذلك من خواص القمر كما أن من خواصه إبلاء الكتان وإنتان اللحم . وقد روى عن أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه إذا رأيت الغلام طويل الغرلة فاقرب به من السؤدد و إذا رأيته قصير الغرلة كأنما ختنه القمر فأبعده به . وقال امرؤ القيس لقيصر وقد دخل معه الحمام فرآه أقلف :

إنى حلفتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ لأنت أغلف إلا ما جنى القَمَرُ

والأغلف والأقلف بمعنى واحد وهو الذى لم يختن .

ومن مذاهبهم التشاؤم بالعطاس

قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العُطاس بهيكل شديد منيع الجنب فعم المنطق

أراد أنه كان يتنبه للصيد قبل أن يتنبه الناس من نومهم لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم بعطاسه . وقال آخر :

---

(١) الشرف العلو وأشرف الموضع ارتفع فهو مشرف ، واليفاع مثل سلام ما ارتفع من الأرض .

وخرقٍ إذا وجهت فيه لغزوة مضيت ولم يحبسك عنه العواطس

والخرق : القفر والأرض الواسعة . يعنى : ورب قفر إذا وجهت فيه للغزو مضيت فيه على عزمك ولم يحبسك عن السير فيه العواطس وتشاؤمك منها . وقال رؤبة بن العجاج يصِفُ فلاة « قطعتها ولا أهاب العطاسا » وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له : عمراً وشباباً و إذا عطس من يبغضونه قالوا له : وريًا وقحاباً . والورى كالرمى داء يصيب الـكَبِد فيفسدها . والقحاب كالسعال وزناً ومعنى ، فـكان الرجل إذا سمع عطاساً يتشاءم به و يقول : بكلابى . أسأل الله أن يجعل شؤم عطاسك بك لابى . وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد كما حكى عن بعض الملوك أن مسامراً له عطس عطسة شديدة راعته فغضب الملك فقال سميره : والله ما تعمدت ذلك ولـكن هذا عطاسى : فقال : والله لئن لم تأتنى بمن يشهد لك بذلك لأقتلنك ! فقال أخرجنى إلى الناس لعلى أجد من يشهد لى فأخرجه وقد وكل به الأعوان فوجد رجلا فقال : يا سيدى نشدتك بالله إن كنت سمعت عطاسى يوماً فلعلك تشهد لى به عند الملك : فقال : نعم أنا أشهد لك . فنهض معه وقال : أيها الملك أنا أشهد أن هذا الرجل عطس يوماً فطار ضرس من أضراسه . فقال له الملك عد إلى حديثك ومجلسك ! ! فلما جاء الله تعالى بالإسلام وأبطل برسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان عليه أهل الجاهلية من الضلالة نهى عن التشاؤم والتطير وشرع لهم أن يجعلوا مكان الدعاء على العاطس بالمـكروه دعاء له بالرحمة كما أمر العاين أن يدعو بالتبريك للمعين . ولما كان الدعاء على العاطس نوعاً من الظلم والبغى جعل الدعاء له بلفظ الرحمة المنافى للظلم وأمر العاطس أن يدعو لسامعه و يشمته بالمغفرة والهداية و إصلاح البال فيقول يغفر الله لنا ولـكم أو يهديكم الله و يصلح بالـكم . قال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة : فأما الدعاء بالهداية فلما أنه اهتدى الى طاعة الرسول ورغب عما كان عليه أهل الجاهلية فدعا له أن يثبته الله عليهـا ويهديه إليها ، وكذلك الدعاء بإصلاح البال

وهى حكمة جامعة لصلاح شأنه كله وهى من باب الجزاء على دعائه لأخيه بالرحمة فناسب أن يجازيه بالدعاء له بإصلاح البال وأما الدعاء بالمغفرة فجاء بلفظ يشمل العاطس والمشمت كقوله : يغفر الله لنا ولكم ليتحصل من مجموع دعوى العاطس والمشمت لهما بالمغفرة والرحمة لهما معاً فصلوات الله وسلامه على المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة . ولأجل هذا والله أعلم لم يؤمر بتشميت من لم يحمد الله فإن الدعاء له بالرحمة نعمة فلا يستحقها من لم يحمد الله و يشكره على هذه النعمة و يتأسى بأبيه آدم عليه السلام فإنه لما نفخت فيه الروح إلى خياشيمه عطس فألهمه ربه تبارك وتعالى أن نطق بحمده فقال : الحمد لله . فقال الله سبحانه : يرحمك الله يا آدم . فصارت تلك سنة العاطس فمن لم يحمد الله لم يستحق هذه الدعوة ولما سبقت هذه الكلمة لآدم قبل أن يصيبه ما أصابه كان مآله إلى الرحمة وكان ما جرى عارضاً وزال فإن الرحمة سبقت العقوبة وغلبت الغضب . وأيضاً إنما أمر العاطس بالتحميد عند العطاس لأن أهل الجاهلية . كانوا يعتقدون فيها أنه داء ويكره أحدهم أن يعطس و يود أنه لم يصدر منه لما فى ذلك من الشؤم وكان العاطس يحبس نفسه عن العطاس و يمتنع من ذلك جهده من اعتقاد جهالهم فيه ولذلك والله أعلم بنوا لفظه على بناء الأدواء كالزكام والسعال والدوار والسهام وغيرها فاعلموا أنه ليس بداء ولكنه أمر يحبه الله تعالى وهو نعمة منه يستوجب عليها من عبده أن يحمده عليها . وفى الحديث المرفوع أن الله تعالى يحب العُطاس و يكره التثاؤب ، والعطاس ريح مختنقة تخرج وتفتح السُّدَد من الكبد وهو دليل جيد للمريض مؤذن بانفراج بعض علته . وفى بعض الأمراض يستعمل ماء يعطس العليل ويجعل نوعاً من العلاج ومعيناً عليه هذا قدر زائد على ما أحبه الشارع وأمر بحمد الله عليه و بالدعاء لمن صدر منه وحمد الله عليه . ولهذا والله أعلم يقال : شمته إذا قال له يرحمك الله وسمته بالمعجمة وبالمهملة وبهما روى الحديث فأما التسميت بالمهملة فهو تفعيل من السمت الذى يراد به حسن الهيئة فمعنى سمت

العاطس وقرته وأكرمته وتأدبت معه بأدب الله ورسوله فى الدعاء له لا بأخلاق أهل الجاهلية من الدعاء عليه والتطير به والتشاؤم منه . وقيل سمته دعا له أن يعيده الله تعالى إلى سمته قبل العُطاس من السكون والوقار وطُمَأنينة الأعضاء فإن فى العطاس من انزعاج الأعضاء واضطرابها ما يخرج العاطس عن سمته فإذا قال له السامع «يرحمك الله» فقد دعا له أن يعيده الله إلى سمته وهيئته . وأما التشميت بالمعجمة فقالت طائفة منهم ابن السكيت وغيره : أنه بمعنى التسميت وأنهما لغتان ذكر ذلك فى كتاب القلب والإبدال ولم يذكر أيهما الأصل ولا أيهما البدل . وقال أبو على الفارسى : المهملة هى الأصل فى الكلمة والمعجمة بدل منها واحتج بأن العاطس إذا عطس انتفش وتغير شكل وجهه فإذا دعا له فكأنه أعاده إلى سمته وهيئته . وقال تلميذه ابن جنى : لو جعل جاعل الشين المعجمة أصلاً وأخذه من الشوامت وهى القوائم لكان وجهاً صحيحاً وذلك أن القوائم هى التى تحمل الفرس ونحوه وبها عصمته وهى قوامه فكأنه لما دعا بالرحمة قد قصد إزالة الشماتَة عنه وينشد فى ذلك :

ما كان ضر المرضى بجفونه لو كان مرّض منعما من أمرضا

وإلى هذا ذهب ثعلب . والمقصود أن التطير من العطاس من فعل الجاهلية الذى أبطله الإسلام وأخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أن الله يحب العطاس كما فى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : إن الله يحب العُطاس ويكره التثاؤب فإذا تثاوب أحدكم فَلْيَسْتُرْهُ ما استطاع فإنه اذا فتح فاه فقال آه آه ضحك منه الشيطان .

ومن مذاهبهم التشاؤم بالغراب ونحوه

من الطيور وسائر الحيوان

كانوا يضربون الغراب مثلا فى الشؤم فقالوا فلان أشأم من غراب البين . وإنما لزمه هذا الاسم لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة أى طلب الكلأ

فى موضعه وقع فى موضع بيوتهم يتلمس و يتقمم فتشاءموا به وتطيروا منه إذ كان لا يعترى منازلهم إلا إذا بانوا فسموه غراب البين . ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم مخافة الزجر والطيرة وعلموا أنه نافذ البصر صافى العين حتى قالوا أصفى من عين الغراب ، كما قالوا أصفى من عين الديك ، وسموه الأعور كناية كما كنوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بصير . وكما سموا الملدوغ والمنهوش السليم . وكما قالوا للمهلك من الفيافى المفاوز ، وهذا كثير . ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب . وليس فى الأرض بارح ولا نطيح ولا قعيد ولا أعضب ولا شىء مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه ! و يرون أن صياحه أكثر أخباراً وأن الزجر فيه أعم . قال عنترة :

حرق الجناح كأن لَحْيَىْ رأسه جَلَمَانِ بالأخبارِ هش مولع

الجلم الذى يخبر به والهش الخفيف . وقال غيره :

وصاح غراب فوق أعواد بانةٍ بأخبار أحبابى فقسمنى الفكر
فقلت : غراب باغتراب و بانة ببين النوى تلك العيافة والزجر
وهبت جنوب باجتنابى منهم وهاجت صبا قلت : الصبابة والهجر

وقال آخر :

تغنى الطائران ببين سلمى على غصنين من غرب و بانِ
فكان البان إن بانت سليمى وفى الغرب اغتراب غير دانِ

وقال آخر :

أقوم يوم تلاقينا وقد سجعت حمامتان على غصنين من بان :
الآن أعلم أن الغصن لى غصص و إنما البان بَيْنٌ عاجل دان
فقمت تخفضنى أرض وترفعنى حتى ونيت وهذا السير أركانى

وحمل على هذا المذهب قول ذى الرمة :

رأيت غُراباً ساقطاً فوق قضبة من القضب لم ينبت لها ورق خضر

فقلت : غراب لاغتراب وقضبة لقضب النوى هذى العيافة والزجر
وهبت جنوب باجتنابك منهم ونفح الصبا تلك الصبابة والهجر

وقول بعضهم

دعا صُرَد يوماً على غصن بانةٍ وصاح بذات البين منها غرابها[١]
فقلت : أتصريدٌ وشحط وغربة ؟ فهـذى لعمرى نأيها واغترابها[٢]

فهذا نمط شعرهم فى الغراب لا يتغير وهو كثير لا يمكننا استقصاؤه . بلى قد يزجرون من الطير غير الغراب على طريقين . أحدهما : على طريق الغراب فى التشاؤم . والآخر على طريق التفاؤل . قال الشاعر :

وقالوا : تغنى هُدْهُدٌ فوق بانةٍ فقلت : هدى يغدو به ويروح

وقال آخر :

وقالوا : عقاب قلت : عقبى من النوى دنت بعـد هجر منهم ونزوح

وقال آخر :

وقالوا : حمام . قلت : حُمَّ لقاؤها وعادت لنا ريح الوصال تفوح[٣]

فهذا إلى الشاعر لأنه إن شاء جعل العقاب عقبى خيرٍ وإن شاء جعلها عقبى شر وإن شاء جعل الحمام حماماً وإن شاء قال حم اللقاء والهدهد هدى وهداية والحبارى حبور وحبرة والبان بيان يلوح والدوم دوام العهد كما صارت الصبا عنده صبابة والجنوب اجتناب والصرد تصريداً إلا أن أحـداً منهم لم يزجر فى الغراب شيئاً من الخير هذا قول أهل اللغة . وذكر بعض أهل المعانى : أن نعيب الغراب يتطير منه ونعيقه يتفاءل به وأنشد قول جرير :

إن الغراب بما كرهت لَمُولَعٌ بنوى الأحبـة دائم التَّشحاج

---

(١) الصرد وزان عمر قال أبو حاتم فى كتاب الطير : هو طائر أبقع أبيض البطن أخضر الظهر ضخم الرأس والمنقار له برثن ويصطاد العصافير وصغار الطير وهو مثل القارية فى العظم انتهى (٢) الشحط : البعد ومثله النأى ، والتصريد : التقليل وقيل انما كرهوا الصرد وتشاءموا به من اسمه من التصريد (٣) معنى حم : دنا .

ليت الغراب غداة ينعب دائباً   كان الغراب مقطع الأوداج[1]

شحيج الغراب صوته وكذلك النعيب . وقول ابن أبى ر بيعة :

نعب الغراب ببين ذات الدُّمْلُجِ   ليت الغرابَ ببينها لم يشحج[2]

ثم أنشدوا فى النغيق :

تركت الطير عاكفة عليهم   وللغربان من شبع نغيق

قال : ويقال نغق الغراب نغيقاً إذا قال غيق غيق فيقال عندهانغق بخير ويقال نعب نعيباً إذا قال غاق فيقال عندها نعب بشرّ . ومنهم من يقول نغق ببين وزهيرٌ منهم . وأنشد له :

ألقى فراقهم فى المقلتين قذى   أمسى بذاك غراب البين قد نغقا

وقال من احتج للغراب : العرب قد تتيمن بالغراب فتقول هم فى خير لا يطير غرابه أى يقع الغراب فلا ينفر لكثرة ما عندهم فلولا تيمنهم به لكانوا ينفرونه فقال الدافعون لهذا القول : الغراب فى مثل هذا المثل السواد . واحتجوا بقول النابغة :

ولرهط حراب وقدّ سورة   فى المجد ليس غرابها بِمُطارِ

أى من عرض لهم لم يمكنه أن ينفر سوادهم لعزهم وكثرتهم وهى مشئومة ومن أمثالهم « لاقيت أخيل » قال ابن الأعرابى الأخيل الشقراق ويتطيرون منه للظهر ويسمونه مقطع الظهور يقال إذا وقع على بعير وإن كان سالماً يئسوا منه وإذا لقى المسافر الأخيل تطير وأيقن بالعقر إن لم يكن موت فى الظهر . قال الفرزدق :

إذا قطن بلغتنيه ابنَ مدرك   فلاقيت من طير العراقيب أخيلا

وكل طائر يتطير منه للإبل فهو طير العراقيب . وهذه لفظة يتكلم بها عند الدعاء على المسافر كذا فى شرح مجمع الأمثال الميدانى . وقال ابن رشيق فى العمدة :

(١) الاوداج جمع ودج وهو عرق فى العنق

(٢) الدملج والدملوج : المعضد .

الغراب أعظم ما يتطيرون به و يتشاءمون بالثور الأعضب وهو المكسور القرن والسانح ماولاك ميامنه والبارح ماولاك مياسره وأهل نجد تتيمن بالأول وتتشاءم بالثانى وأهل العالية على عكس هذا . وأنشد للكميت :

ولا أنا ممن يزجر الطير همه   أصاح غُرابٌ أم تعرض ثعلب ؟
ولا السانحات البارحات عشية   أمر سليم القرن أم مرّ أعضب ؟

وسيجىء فى بيان علومهم عند الكلام على علم الزجر والعيافة أن من العرب من أنكر هذه الأمور بعقله . وأبطل تأثيرها بنظره . وذم من اغترّبها واعتمد فى أمره عليها . وما ورد فى الشريعة من إبطال ذلك على أتم وجه وأبينه إن شاء الله تعالى .

ومن مذاهبهم العدول عن الألفاظ المتطير بها إلى غيرها

كانت العرب تتطير من ذكر البرص فتكنى عنه بالوضح ومنه (جَذِيمة الوضاح) وكان أبرص وكنوا عنه بالأبرش أيضاً وكان يسمى الوضاح و يسمى الأبرش أيضاً وجَذِيمة بفتح الجيم وكسر الذال المعجمة . قال الجاحظ فى البيان والتبيين عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى أن جذيمة الوضاح هو الأبرش التنوخى الأزدى وهو آخر ملوك قضاعة بالحيرة وهو أول من حذا النعال واتخذ المنجنيق ووضعه على الحصون وأول من أدلج من الملوك وأول من رفع له الشمع . وكان جَذِيمة من أفضل ملوك العرب رأياً وأبعدهم مغاراً وأشدهم نكاية وأظهرهم حزماً وهو أول من استجمع له الملك بأرض العراق وضم إليه العرب وغزا بالجيوش وكان به برص وكانت العرب تكنى عن أن تسميه به وتنسبه إليه إعظاماً له فقيل له جذيمة الوضاح وجذيمة الأبرش وكانت منازله فيما بين الحيرة والأنبار و بقة وهيت وناحيتها وعين التمر وأطراف البر وتجبى إليه الأموال وتفد عليه الوفود وكان غزا طسماً وجديساً فى منازلهما من جوّ وما حوله وجوّ هى اليمامة فوافق خيول حسان بن أسعد

أبى كرب قد أغارت على طسم وجديس فانكفأ جذيمة راجماً انتهى . وكل أبيض وضح عند العرب يقول قائلهم ما أكثر الوضح عندكم ! أى ما أكثر اللبن عندكم « ومما يتفاءل بذكره عندهم » قولهم للفلاة مفازة لأن القفار فى ركوبها الهلاك وكان حقها أن تسمى مهلكة ولكنهم اجتنبوا لفظها تطيراً وعكسوه تفاؤلا ، ولبعض المحدثين :

أحب الفأل حين رأى كثيراً ... أبوه عن اقتناء المجد عاجز

فسماه لقلته كثيراً ... كتقليب المهالك بالمفاوز

وقال بعضهم : المفازة مفعلة من فوّز الرجل إذا هلك فعلى هذا تكون الكلمة على أصلها غير معدول بها إلى غيرها « ومن ذلك » قولهم للديغ سليم تفاؤلا قال الشاعر :

أرقت ونام عنى من يلومُ ... ولكن لم أنم أنا والهموم

كأنى من تذكرها ألاقى ... إذا ما أظلم الليل البهيم

ومن تأميل رؤية أم جهم ... وقد خفقت مع الغور النجوم

سليم ملّ منه أقربوه ... وأسلمه المجاور والحميم

ومنه قولهم للأعور (ممتع) تطيراً من ذكر الأعور . ومثل ذلك كثير فى كلامهم . وفى كتاب الكنايات الكبير للإمام الثعالبى مايغنى عن إتعاب القلم فى هذا الباب .

(ومن مذاهبهم) قولهم فى الدعاء (لاعشت إلا عيش القراد) يضربونه مثلا فى الشدة والصبر على المشقة ويزعمون أن القراد يعيش ببطنه عاماً وبظهره عاماً ويقولون إنه يترك فى طينة ويرمى بها الحائط فيبقى سنة على بطنه وسنة على ظهره ولا يموت قال بعضهم :

فلا عشت إلا كعيش القراد ... عاما ببطن وعاماً بظهر

(ومن مذاهبهم) أن النساء منهم كن إذا غاب عنهن من يحببنه أخذن تراباً

من موضع قدمه وموضع رجله وكانت العرب تزعم أن ذلك أسرع لرجوعه ! وقالت امرأة من العرب :

أخـذت ترابًا من مواطئ رجله غـداةَ غدٍ كيما يئوب مسلمـا

وقالت امرأة أخرى :

قالت له واقتبضت من أثره يارب أنت جاره فى سفره
وجار خصيَيْه وجار ذكره ! !

(ومن مذاهبهم) أنهم كانوا يسمون العشاء فى العين الهدبد وأصل الهدبد اللبن الخاثر أى الغليظ فإذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سنام فقطع منه قطعة ومن الـكبد قطعة وقلاها ، وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبابته :

فيا سناماً وكبدْ ألا اذهبا بالهُدَبِدْ
ليس شفاء الهدبد إلا السنام والـكبد

ويزعمون أنه يذهب العشاء بذلك .

(ومن مذاهبهم) أنهم يعتقدون أنهم يرون الجن ويظاهرونهم ويخاطبونهم ويشاهدون الغول وربما جامعوها وتزوجوها وتولد لهم أولاد منها كل ذلك من المسلمات لديهم .

قصة عمرو بن يربوع والغول

قالوا : إن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها بنين ومكثت عنده دهراً فـكانت تقول له إذا لاح البرق من جهة بلادى وهى جهة كذا فاستره عنى فإنى إن لم تستره عنى تركت ولدك عليك وطرت إلى بلاد قومى ، فـكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطى وجهها بردائه فلا تبصره . وإلى هذا المعنى أشار أبو العلاء المعرّى فى قوله يذكر الإبل وحنينها إلى البرق :

طربن لضوء البارق المتعالى ببغداد وهناً مالهن ومالى !
سمت نحوه الأبصار حتى كأنها بناريه من هنّا وثَم وصالى
إذا طال عنها سرها لو رؤوسها تمد إليه فى صدور عوالى
تمنت قُوَيْقاً والصراة أمامها تراب لها من أينق وجمال
إذا لاح إيماض سترت وجوهها كأنى عمرو والمطىّ سعالى
وكم همّ نِضوٌ أن يطيرَ مع الصبا إلى الشام لولا حبسه بعقال

قالوا : فغفل عمرو بن يربوع عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يستر وجهها فطارت وقالت له وهى تطير :

أمسك بنيك عمرو إنى آبق برق على أرض السعالى آلق

ومنهم من يقول : ركبت بعيراً وطارت عليه أى أسرعت فلم يدركها وعن هذا قال الشاعر :

رأى برقاً فأوضع فوق بَكْر فَلَأْياً ما أسال ولا أعاما[1]

قال : فبنو عمرو بن يربوع إلى اليوم يدعون ببنى السعلاة . ولذلك قال الشاعر يهجوهم :

ياقبح الله بنى السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا بأبطال ولا أكيات

والمراد بالنات الناس وبالأكيات الأكياس فأبدل السين تاء وهى لغة قوم من العرب .

ومن مذاهبهم فى الغول

أنهم يقولون إنها إن ضربت بالسيف ضربة واحدة هلكت فإن ضربت ثانية عاشت وإلى هذا المعنى أشار الشاعر بقوله :

---

(١) أوضع : أسرع فى السير ، والبكر بالفتح : الفتى من الابل ، واللأى : الشدة ، والاسالة : الجرى ، والاعامة : مسير الابل .

فقالت : ثنِّ ! قلت لها : رويداً مكانك إننى ثبت الجنان

ومما ورد من شعرهم فى الغول : قول أبى البلاد الطهوى . ويروى لتأبط شرًّا وهو من أبيات :

لهانَ على جهينةَ ما ألاقى من الروعات يوم رحا بِطان(١)

لقيت الغول تسرى فى ظلام بسهب كالعباءة صحصحان

فقلت لها : كلانا نِضْو أرض أخو سفر فخلى لى مكانى(٢)

فشدت شدة نحوى فأهوى لها كفى بمصقول يمانى

فقالت: زد ! قلت : رويدَ إنى على أمثالها ثبت الجنان

والذين يروون هذا الشعر لتأبط شرا يروون أوله :

ألا من مبلغ فتيات جهم بما لاقيت عند رحا بِطان

بأنى قد لقيت الغول تلوى بمرت كالصحيفة صحصحان

فصدت فانتحيت لها بعضب حسام غير مؤتشب يمانى

فقدّ سراتها والبرك منها فخرت لليدين وللجران

فقالت : ثنِّ ، قلت لها: رويداً مكانكِ إننى ثبت الجنان

ولم أنفك مضطجعاً لديها لأنظر مصبحاً ماذا دهانى

إذا عينان فى رأس دقيق كرأس الهر مشقوق اللسان

وساق مخدَج ولسان كلب وثوب من عباء أو شنان

والمرت المفازة والصحصحان المكان المستوى والمؤتشب المخلوط وسراة كل شىء ظهره ووسطه والبرك الصدر وجران البعير مقدم عنقه والمخدج الناقص والشنان جمع شن وهو القربة الخلقة .

وقال البهرانى :

وتزوجت فى الشبيبة غولاً بغزال وصدقتى زق خمر

---

(١) بكسر الباء : موضع (٢) النضو بالكسر : المهزول من الابل وغيرها .

قال الجاحظ : أصدقها الخمرَ اطيب ريحها والغزال لأنه من مراكب الجن .
وقال أبو عبيد بن أيوب العنبرى أحد اصوص العرب :

تقول وقد ألممت بالأمس لمـة   مخضبة الأطراف خرس الخلاخل :
أهذا خَدِينُ الغول والذئب والذى   يهيم بربات الحجال الهراكل
رأت خلق الدرسين أسود شاحباً   من القوم بساماً كريم الشمائل
تعوّد من آبائه فتـكاتِهِم   وإطعامَهم فى كل غبراء شامل
إذا صاد صيداً ألقه بضرامة   وشيكا ولم ينظر لغلى المراجل
فنهشاً كنهش الصقر ثم مراسة   بكفيه رأس الشيحة المتمائل

والهراكل جمع هركولة وهى الجارية الضخمة والغبراء الشامل السنة المجدبة والضرامة ما يوقد به النار والوشيك القريب والمراجل جمع مرجل وهو القدر والشيحة اسم نبت ومن هذه الأبيات :

إذا ما أراد الله ذل قبيلة   رماها بتشتيت الهوى والتخاذل
وأول عجز القوم عما ينوبهم   تقاعدهم عنه وطول التواكل
وأول خبث الماء خبث ترابه   وأول لؤم القوم لؤم الحلائل

التواكل تفاعل من وكل أمرء إلى غيره يكله وكلا فهو وكل . والحلائل جمع حليلة وهى الزوجة وهذا الشعر من جيد شعر العرب وإنما كان غرضنا منه متعلقاً بأوله وذكرنا سائره لما فيه من الأدب . وقال أبو عبيد بن أيوب أيضاً فى المعنى الذى نحن بصدده :

وصار خليل الغول بعد غرارة   صفياً وربته القفار البسابس[1]

وقال أيضاً :

فلله درّ الغول أى رفيقة   لصاحب قفر فى المهامه يذعر[2]
أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت   حوالىّ نيرانا تلوح وتزهر[3]

(١) البسابس جمع بسبس وهو القفر الخالى .
(٢) المهامه : المفاوز البعيدة والبلاد المقفر .
(٣) أرنت صوتت ، وقوله تلوح صوابه تبوخ أى تسكن وتزهر : تضىء .

وقال أيضاً :

وغولا قفرة ذكر وأنثى كأن عليهما قطعَ البجاد[١]

وقال أيضاً :

فقد لاقت الغزلان منى بليةً وقدلاقت الغيلان منى الدواهيا

وقال البهرانى فى قتل الغول :

ضربت ضربة فصارت هباء فى محاق القمر آخر شهر[٢]

وقال أيضاً يزعم أنه لما ثنى عليها الضرب عاشت :

فثنيت والمقدار يحرس أهله فليت يمينى يوم ذلك شلتِ

وقال تأبط شراً يصف الغول ويذكر أنه راودها عن نفسها فامتنعت عليه فقتلها :

فأصبحت والغول لى جارةٌ فيا جارة أنت ما أغولا

وطالبتها بضعها فالتوت فكان من الرأى أن تقتلا[٣]

فجللتها مُرْهَفاً صارماً أبان المرافق والمفصلا

فطار بقحف ابنة الجن ذو شقاشق قد أخلق المحملا

فمن يك يسأل عن جارتى فإن لها باللوى منزلا

غطاءة أرض لها حلتان من ورق الطلح لم تغزلا[٤]

وكنت إذا ما هممت اهتبلت وأحرى إذا قلت أن أفعلا[٥]

قوله التوت أى امتنعت وتثاقلت والمرهف السيف والصارم القاطع وقوله ذو شقاشق قد أخلق المحملا معناه لو كانت هذه الشقاشق لجمل لكان يخلق المحمل

---

(١) البجاد ككتاب : كساء مخطط من أكسية الاعراب (٢) الهباء : الغبار أو يشبه الدخان ودقاق التراب ساطعة ومنثورة على وجه الأرض ، والمحاق مثلثة آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره أو أن يستسر القمر فلا يرى غدوة ولا عشية سمى لانه طلع مع الشمس فمحقه والمحق الابطال (٣) البضع : التزوج والمجامعة (٤) الطلح : من شجر العضاه (٥) اهتبل الرجل : كذب ، واهتبل الصيد بغاه وتكسبه وعلى ولده اثكل واهتبلت غفلته اغتنمتها وافترصتها .

ويدرسه لكثرتها إذا أراد بالمحمل حمائل السيف قال امرؤ القيس فى معلقته :

ففاضت دموع العين منى صبابة على النحر حتى بل دمعىَ مِحْمَلى

والشعر فى الغول كثير والغالب منه من شعر تأبط شراً وهو من فحول شعراء الجاهلية وفرسانها المشهورين فناسب بيان حاله ، وذكر نبذة من لطيف أخباره . وذلك على سبيل الإيجاز والاختصار :

ترجمة تأبط شراً

اسمه ثابت وكنيته أبو زهير بن جابر بن سفيان بن عميل بن عدى يعنى كعب بن حرب بن تيم بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان وأمه أميمة من قين بطنٍ من فهم . وفى تلقيبه بتأبط شراً أربعة أقوال « أحدها » وهو المشهور أنه تأبط سيفاً وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : لا أدرى تأبط شراً وخرج « الثانى » أن أمه قالت له فى زمن الكمأة : ألا ترى غلمان الحى يجتنون لأهلهم الكمأة فيروحون بها : فقال لها : أعطنى جرابك حتى أجتنى لك فيه فأعطته فملأه لها أفاعى من أكبر ما قدر عليه وأتى به متأبطاً له فألقاه بين يديها ففتحته فسعين بين يديها فى بيتها فوثبت وخرجت فقالت لها نساء الحى : ماذا كان الذى تأبطه ثابت اليوم ؟ قالت : تأبط شراً « الثالث » أنه رأى كبشا فى الصحراء فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول طول الطريق عليه فلما قرب من الحى ثقل عليه حتى لم يقله فرمى به فإذا هو الغول . فقال له قومه : بم تأبطت يا ثابت ؟ فأخبرهم . فقالوا : لقد تأبط شراً « الرابع » أنه أتى بالغول فألقاه بين يديها فسئلت أمه عما كان متأبطاً ؟ فقالت ذلك فلزمه . وكان أحد لصوص العرب يغزو على رجليه وحده وكان إذا جاع نظر إلى الظباء فينتقى على نظره أسمنها ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه . وترجمته مذكورة فى الأغانى بحكايات كثيرة يتعجب منها العقل لغرابتها فعليك بذلك الكتاب إن أردتها .

ماورد فى الشريعة من أمر الغول والسعلاة

قد ورد فى شأن الغول حديثان صحيحان « أحدهما » قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا غول « والثانى » قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : إذا تغولت الغيلان فنادوا بالأذان أى ادفعوا شرها بذكر الله تعالى . وحاصل ما ذكر أهل الحديث فى الجمع بين هذين الحديثين المتعارضين أنه ليس المراد بالحديث الأول نفى وجود الغول وإنما معناه إبطال ما تزعمه العرب من تلون الغول بالصور المختلفة واغتيالهم وقد قال أهل اللغة : إن الغول من السعالى وهى إناث الشياطين سميت بذلك لأنها بزعمهم تغتالهم أو لأنها تتلون كل وقت من قولهم تغولت على البلاد إذا اختلفت . قالوا : ومعنى لا غول أى لا تستطيع أن تضل أحداً ويشهد له حديث لا غول ولكن السعالى وهم سحرة الجن أى ولكن فى الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل ، فحيث أثبتت فى الحديث فالمراد إثبات وجودها . وحيث نفيت فالمراد نفى ما كانوا يزعمون فيها . ومثل ذلك كثير فى الكلام الفصيح . وعلى هذا يحمل قول ابن هشام فى شرح بانت سعاد : إن للعرب أموراً تزعمها لا حقيقة لها . منها أن الغول تتراءى لهم فى الفلوات وتتلون لهم وتضلهم عن الطريق . ومنها الهديل زعموا أنه فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده بعض الجوارح وأن جميع الحمام يبكيه إلى يوم القيامة قال قائلهم : —

يذكرنيك حنين العجول وصوت الحمامة يدعو هديلا

والعَجول بالفتح الفاقدة لولدها من الإبل انتهى . وفى كتاب حياة الحيوان للدميرى : الغول بالضم أحد الغيلان وهو جنس من الجن والشياطين وهم سحرتهم قال الجوهرى هو من السعالى والجمع أغوال وغيلان وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول والتغول التلون قال كعب :

فما تدوم على حال تكون بها كما تلون فى أثوابها الغول

ويقال تغولت المرأة إذا تلونت ويقال غالته غول إذا وقع فى مهلكة والغضب غول الحلم . قال : وسأل رجل أبا عبيدة عن قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين » وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف فأجابه بأن الله تعالى كلم العرب على قدر كلامهم أما سمعت امرأ القيس كيف قال :

أيقتلنى والمَشْرَفِىّ مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال (١)

وهم لم يروا الغول قط ولكن لما كان يهولهم أو عدوا به قال أبو عبيدة : ومن يومئذ عملت كتابى الذى سميته (المجاز) ثم ذكر الدميرى كلاماً لا حاجة لنا به . ثم قال : قال جمهور العلماء كانت العرب تزعم أن الغيلان فى الفلوات وهى جنس من الشياطين تتراءى للناس وتغول تغولا أى تتلون تلوناً فتضلهم عن الطريق وتهلكهم فأبطل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك . قال : وقال آخرون ليس المراد بالحديث نفى وجود الغول وإنما معناه إبطال ما تزعمه العرب من تلون الغول بالصور المختلفة واغتيالها قالوا : ومعنى لا غول لا تستطيع أن تضل أحداً ، ويشهد له حديث آخر لا غول ولكن السعالى وذكر بعد كلام طويل : والذى ذهب إليه المحققون أن الغول شىء يخوّف به ولا وجود له ، كما قال الشاعر :

الغول والخل والعنقاء ثالثة أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

ولذلك سموا الغول خَيْتَعُور وهو كل شىء لا يدوم على حالة واحدة ويضمحل كالسراب وكالذى ينزل من الكوى فى شدة الحر كنسج العنكبوت قال الشاعر :

كل أنثى وإن بدا لك منها آيةُ الحبِّ حبها خَيْتَعُورُ

وقال : قال قوم ؛ الغول ساحرة الجن وهى تتصور فى صور شتى وأخذوا ذلك

---

(١) المشرفى: السيف المنسوب الى مشارف (راجع ص ٦٢) من هذا الجزء، والمسنون : المحدد المصقول ووصف النصال بالزرقة للدلالة على صفائها وكونها مجلوة ويستشهد أهل المعانى بهذا البيت على التشبيه الوهمى « وهو الغير المدرك باحدى الحواس ولكنه بحيث لو أدرك لكان مدركا بها فان انياب الغول مما لا يدركه الحس لعدم تحققها مع انها لو أدركت لم تدرك الا بحس البصر » .

من قول كعب بن زهير :

فما تكون على حال تدوم بها كما تلوّن فى أثوابها الغول

وقد تقدم ذلك قريباً . وفى (دلائل النبوة) للبيهقى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قال : إذا تغولت لأحدكم الغيلان فليؤذن فإن ذلك لا يضره وتزعم العرب أنه إذا انفرد الرجل فى الصحراء ظهرت له فى خلقة الإنسان فلا يزال يتبعها حتى يضل عن الطريق فتدنو منه وتتمثل له فى صور مختلفة فتهلكه روعاً . وقالوا : إذا أرادت أن تضل إنساناً أوقدت له ناراً فيقصدها فتفعل به ذلك قالوا وخلقتها خلقة إنسان ورجلاها رجلا حمار . قال القزوينى : ورأى الغول جماعة من الصحابة منهم عمر رضى الله عنه حين سافر إلى الشام قبل الإسلام فضربها بالسيف وذكر عن ثابت بن جابر الفهرى أنه لقى الغول وذكر أبياته النونية فى ذلك انتهى ما ذكره الدميرى فى الغول . وأنت تعلم ما فى كلامه من الاضطراب . وقال فى تفسير السعلاة ، إنها أخبث الغيلان وكذلك السعلا تمد وتقصر والجمع السعالى واستسعلت المرأة أى صارت سعلاة أى صارت صخابة وبذيئة . قال الشاعر :

لقد رأيت عجباً مذ أمسا عجائزاً مثل السعالى خمسا

يأكلن ما أصنع همساً همسا لاترك الله لهن ضرسا (١)

ثم قال ، قال الجاحظ : يقال إن عمرو بن يربوع كان متولداً من السعلاة والإنسان قال : وذكروا إن جرهما كان من نتاج الملائكة وبنات آدم عليه السلام قال وكان الملك من الملائكة إذا عصى ربه فى السماء أهبط إلى الأرض فى صورة رجل كما صنع بهاروت وماروت فوقع بعض الملائكة على بعض بنات آدم عليه السلام فولدت جرهما ! ولذلك قال شاعرهم :

---

(١) الهمس : كل خفى ومضغ الطعام والفم منضم ويروى :

يأكلن ما فى رحلهن همسا

ورووا بعد هذين البيتين قوله :

ولا لقين الدهر الا تعسا فيها عجوز لا تساوى فلسا

لا تأكل الرندة الا نهسا

لاهُمَّ إن جرهما عبادكا　　الناس طرف وهما تلادكا [1]

قال : ومن هذا الضرب كانت بلقيس ملكة سبأ وكذلك كان ذو القرنين ولهذا لما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً ينادى رجلاً : ياذا القرنين ! قال : أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسماء الملائكة انتهى . والحق فى ذلك أن الملائكة معصومون من الصغائر والكبائر كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما قاله القاضى عياض وغيره . وأما ما ذكروه من أن جرهما كان من نتاج الملائكة و بنات آدم وكذلك ذو القرنين و بلقيس فممنوع واستدلالهم بقصة هاروت وماروت ليس بشىء فإنها لم تثبت على الوجه الذى أوردوه انتهى كلام الدميرى المقصود . ونقل عن السهيلى بعد أن أسهب وأطال أن السعلاة ما يتراءى للناس بالنّهار والغول ما يتراءى للناس بالليل . وقال القزوينى : السعلاة نوع من المتشيطنة مغايرة للغول قال عبيد بن أيوب :

وساحرة عينىّ لو أن عينها　　رأت ما ألاقيه من الهول جنّتِ

أبيت وسعلاة وغول بقفرة　　إذا الليل وارى الجن فيه أرنّتِ

قال : وأكثر ما توجد السعلاة فى الغياض وهى إذا ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر قال : وربما اصطادها الذئب بالليل فأكلها وإذا افترسها ترفع صوتها وتقول أدركونى فإن الذئب قد أكلنى : وربما تقول من يخلصنى ومعى ألف دينار يأخذها : والقوم يعرفون أنه كلام السعلاة فلا يخلصها أحد فيأكلها الذئب انتهى . وفيها حكايات كثيرة قديماً وحديثاً الله أعلم بصحتها .

---

(١) قوله لا هم : العرب تحذف اللام من اللهم وتكتفى بما بقى وكذلك تقول لاه أبوك وتريد لله أبوك وكذلك تقول لاهنك وتريد والله انك وهذا لكثرة دور هذا الاسم على الالسنة ، والطرف المال المستحدث وهو خلاف التلاد .

أشعار العرب وأحاديثهم في رؤية الجن

وخطابهم وهتوفهم ونحو ذلك

روى أبو عثمان الجاحظ لسمير بن الحرث الضبي .

ونار قد حضأت بُعَيْدَ وَهْن بدار لا أريد بها مقاما [1]

سوى تحليل راحلة وعين أكالئها مخافة أن تناما [2]

أتوا ناري فقلت منون ؟ قالوا سراة الجن: قلت عمُوا ظلاما [3]

فقلت: إلى الطعام: فقال منهم زعيم : نحسد الإنس الطعاما

لقد فُضِّلتمُ بالأكل فينا ولكن ذاك يعقبكم سقاما

أمطْ عنا الطعامَ فإن فيه لآكله النقاصةَ والسقاما

ذكر في أبياته أن الجن طرقته وقد أوقد ناراً لطعامه فدعاهم إلى الأكل منه فلم يجيبوه وزعموا أنهم يحسدون الإنس في الأكل وأنهم فضلوا عليهم بأكل الطعام ولكن ذلك يعقبهم السقام . وقوله (لقد فضلتم بالأكل فينا) ظاهره أن الجن لا يأكلون ولا يشربون . وقال ابن السيرافي : قال زعيمهم نحسد الإنس . على أكل الطعام والالتذاذ وليس من شأننا أن نأكل ما يأكله الإنس . وقال ابن المستوفي : لم يُرِدْ أن الجن لا تأكل ولا تشرب وإنما أراد أن طعام الإنس أفضل من طعام الجن . وهذان القولان خلاف الظاهر . ويؤيد ما قلنا قول ابن خَرُوف في شرح أبيات سيبويه قوله (لقد فضلتم بالأكل فينا) مخالف للشرع لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال إن الجن تأكل وتشرب . وفي (آكام

---

(١) حضأ النار : أوقدها أو فتحها لتلتهب ، وبعيد ظرف تصغير بعد ، والوهن من أول الليل الى ثلثه اشتق من وهن يهن اذا فتر وضعف لهدوء الناس فيه (٢) كالأه مكالأة وكلاء : راقبه (٣) قوله منون أى من أنتم وهذا نادر واليه أشار ابن مالك بقوله :

وان تصل فلفظ من لا يختلف ونادر منون في نظم عرف

وقوله : عموا ظلاما وكذلك قولهم عموا صباحا من تحياتهم في الجاهلية (راجع ص ١٩٢) من هذا الجزء ، والسراة : الاشراف .

المرجان فى أحكام الجان) لبدر الدين محمد بن عبد الله الشبلى الحنفى الشامى وقد صنفه كما قال الصفدى فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة : — وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال « أحدها » أن جميع الجن لا يأكلون ولا يشربون وهذا قول ساقط « ثانيها » إن صنفاً منهم يأكلون ويشربون وصنفاً لا يأكلون ولا يشربون « ثالثها » إن جميع الجن يأكلون ويشربون فقال بعضهم : أكلهم وشربهم تشمم واسترواح لا مضغ وبلع وهذا لا دليل له . وقال آخرون : أكلهم وشربهم مضغ وبلع . ويدل لهذا حديث أمية ابن مخشى من رواية أبى داود : ما زال الشيطان يأكل معه فلما ذكر الله تعالى استقاء ما فى بطنه . وفى الصحيحين : إن الجن سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الزاد فقال : كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى يد أحدهم أوفر ما يكون لحماً وكل بعر علف علف لدوابهم . وفى حديث يزيد بن جابر قال ما من أهل بيت من المسلمين إلا وفى سقف بيتهم من الجن من المسلمين إذا وضع غداؤهم نزلوا فتغدوا معهم وإذا وضع عشاؤهم نزلوا فتعشوا معهم يدفع الله بهم عنهم . والجن على مراتب قال ابن عبد البر : إذا ذكروا الجن خالصاً قالوا جنى فإن أرادوا أنه ممن يسكن مع الناس قالوا عامر والجمع عمار فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا أرواح فإن خبث ولؤم قالوا شيطان فإن زاد على ذلك فهو مارد فإن زاد على ذلك وقوى أمره قالوا عفريت فإن طهر ولطف وصار خيراً كله فهو ملك . وقال ابن عقيل : الشياطين العصاة من الجن وهم من ولد إبليس والمردة أعتاهم وأغواهم وهم أعوان إبليس . وقال الجوهرى كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان . وقال ابن دريد : الجن خلاف الإنس . ويقال جنه الليل وأجنه وأجن عليه وغطاه فى معنى واحد إذا ستره وكل شىء استتر عنك فقد جن عنك وبه سميت الجن . وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة جناً لاستتارهم عن العيون قالوا والحن بالحاء المهملة زعموا أنه ضرب من الجن . وقال أبو عمر الزاهد : الحن كلاب الجن وسفلتهم والجان أبو الجن . قال

السهيلي فى (كتاب النتائج) : ومما قدم للفضل والشرف تقديم الجن على الإنس فى أكثر المواضع لأن الجن تشتمل على الملائكة وغيرهم مما اجتن عن الأبصار . قال تعالى (وجعلوا بينه و بين الجنة نسباً) وقال الأعشى :

وسخر من جن الملائك سبعة — قياماً لديه يعملون بلا أجر

فأما قوله تعالى (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وقوله تعالى (فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) وقوله تعالى (و أنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً) فإن لفظ الجن ههنا لا يتناول الملائكة لنزاهتهم عن العيوب فلما لم يتناولهم عموم اللفظ لهذه القرينة بدأ بلفظ الإنس لفضلهم وكمالهم . وقال جذع بن سنان :

أتوا نارى فقلت : منون أنتم ؟ — فقالوا : الجن قلت : عموا صباحا
نزلت بِشِعْبِ وادى الجن لما — رأيت الليل قد نشر الجناحا
أتيتهمُ وللأقدارِ حتم — تلاقى المرء صبحاً أو رواحا
أتيتهم غريباً مستضيفاً — رأوا قتلى إذا فعلوا جناحا
أتونى سافرين فقلت : أهلاً — رأيت وجوههم وسماً صِباحا
نحرت لهم وقلت : ألا هلموا ! — كلوا مما طهيتُ لكم سماحا
أتانى (قاشر) و بنو أبيه — وقد جن الدجى والليل لاحا
فنازعنى الزجاجة بعد وهن — مزجت لهم بها عسلا و راحا
وحذرنى أموراً سوف تأتى — أهز لها الصوارم والرماحا
سأمضى للذى قالوا بعزم — ولا أبغى لذلكُم قداحا
أسأت الظن فيه ومن أساه — بكل الناس قد لاقى نجاحا
وقد تأتى إلى المرء المنايا — بأبواب الأمان سدى صراحا
سيبقى حكم هذا الدهر قوما — و يهلك آخرون به ذُباحا
أثعلبة بن عمرو ليس هذا — أوان السير فاعتدّ السلاحا
ألم تعلم بأن الذل موت — يتيح لمن ألمَّ به اجتياحا

ولا يبقى نعيم الدهر إلا لِقَرْم ماجد صدق الكفاحا

قال ابن السيد : إن قيل كيف جاز أن يقول لهم عموا صباحاً وهم فى الليل وإنما يليق هذا الدعاء بمن يلقى فى الصباح ؟ فالجواب من وجهين « أحدهما » أن الرجل إذا قيل له عم صباحاً فليس المراد أن ينعم فى الصباح دون المساء كما أنه إذا قيل أرغم الله أنفه وحيا الله وجهه فليس المراد الأنف والوجه دون سائر الجسم . وكذلك إذا قيل له أعلى الله كعبك وإنما هى ألفاظ ظاهرها الخصوص ومعناها العموم . ومثله قول الأعشى (الواطئين على صدور نعالهم) والوطء لا يكون على صدور النعال دون سائرها « والوجه الثانى » أن يكون معنى أنعم الله صباحك أطلع الله عليك كل صباح بالنعيم لأن الصباح والظلام نوعان والنوع يسمى به كل جزء منه بما تسمى به جملته . والشِعب بالكسر الطريق فى الجبل وَوُسْماً بالضم جمع وسيم وهو الذى عليه سمة الجمال وكذلك الصباح بالكسر جمع صبيح شبه بالصبح فى إشراقه ، وطهيت طبخت يقال طهيت اللحم وطهوته فأنا طاهٍ . وقوله لا أبغى لذلكم قداحاً أى لا أطلب ضرب القداح لأنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر ضربوا بالقداح فإن خرج القدح المكتوب عليه افعل فعل الأمر . وإن خرج القدح المكتوب عليه لا تفعل لم يفعل الأمر . وقوله أسأت الظن فيه يقول أسأت الظن بضرب القداح والتعويل على ما تأمر به وتنهى عنه وعلمت أن ما أمرتنى به الجن أحرى أن يعوّل عليه . وقوله سدَى صراحاً . السدى الإبل المهملة التى لا يردها أحد والصراح الظاهرة . والذُّباح بضم الذال المعجمة بعدها موحدة نبات يقتل من أكله ومن رواه بكسر الذال جعله جمع ذبيح . وقوله يتيح أى يقدر ويجلب يقال أتاح الله كذا أى قدره وألمّ نزل . والاجتياح بجيم بعدها مثناة فوقية الاستئصال . والقَرْم بفتح القاف وسكون الراء السيد وأصله الفحل من الإبل . والكفاح بالكسر ملاقاة الأعداء انتهى . وهذا الشعر وقع فى كتاب خبر سدمأرب ونسبه إلى جذع بن سنان الغسانى

فى حكاية طويلة زعم أنها جرت له مع الجن . قال ابن السيد فى شرح أبيات الجمل للزجاجى : وكلا الشعرين أكذوبة من أكاذيب العرب لم تقع قط . وفى كتاب اللب : جذع بن سنان الغسانى بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة شاعر جاهلى قديم . وغسان قبيلة من الأزد من قحطان وجذع خرج مع من خرج من الأزد قبل سيل العرم وجاءوا إلى الشام وكان ملكها إذ ذاك سليح وهم من غسان أيضاً . وقيل من قضاعة وكانوا يؤدون لسليح عن كل رجل دينارين فجاء عامل الملك إلى جذع بن سنان يطلب الخراج الذى وجب عليه فدفع إليه سيفه رهناً فقال أدخله فى حرامك فغضب جذع وقنعه به[1] فقيل خذ من جذع ما أعطاك وسارت مثلا تضرب فى اغتنام ما يجود به البخيل[2] وقيل فى سبب المثل غير هذا وامتنعت غسان من هذا الخراج بعد ذلك وولوا الشام كما تقدم شرحه فى ملوك بنى جفنة .

ويزعمون أن عمير بن ضبيعة رأى غلمانا ثلاثة يلعبون نهاراً فوثب غلام منهم فقام على عاتقَىْ صاحبه ووثب الآخر فقام على عاتقَىْ الأعلى منهما فلما رآهم كذلك حمل عليهم فصدمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يضحكون فقال عمير بن ضبيعة فما مررت يومئذ بشجرة إلا وسمعت من تحتها ضحكا فلما رجع إلى منزله مرض أربعة أشهر .

وحكى الأصمعى عن بعضهم : أنه خرج هو وصاحب له يسيران فإذا غلام على طريق فقالا له : من أنت ؟ قال : أنا مسكين قد قطع بى ! فقال أحدهما لصاحبه أردفه خلفك ؟ فأردفه فالتفت الآخر إليه فرأى فمه يتأجج ناراً فشد عليه بالسيف فذهبت النار فرجع عنه ، ثم التفت فرأى فمه يتأجج ناراً فشد عليه بالسيف فذهبت النار ففعل ذلك مراراً فقال ذلك الغلام : قاتلكما الله ما أجلدكما ! والله ما فعلتها بآدمى إلا وانخلع فؤاده ! ثم غاب عنهما فلم يعلما خبره !

وذكر الأصفهانى فى كتاب الأغانى ، قال أبو عبيدة . خرج عَبيد بن الأبرص

---

(١) قنع راسه بالسيف : غشاه به ضربا (٢) انظر ص ١٧٣ من هذا الجزء

يريد الشام فلما كان فى بعض الطريق عرض له شجاع يلهث عطشاً فعمد إلى إداوته ونزل عن بعيره فسقاه حتى رواه ثم مضى إلى الشام فقضى حوائجه ورجع فأضلَّ فى بعض طريقه بعيره فنكب عن الطريق ليطلبه . فإذا هاتف يقول :

يا صاحبَ البَكرِ المضلّ مذهبه   دونك هذا البكر منا فاركبه (١)

حتى إذا الليل تراءى غيهبه   وأقبل الصبح ولاح كوكبه (٢)

* فحط عنه رحله وسيبه *

فرأى بعيراً واقفاً فاستوى على ظهره فلم يلبث ساعة أن رأى بيته ! وكان بينه و بينه عشرين مرحلة ! فخلى عنه الرحل وهو يقول : —

يا صاحب البكر قد أنجيت من كرب   ومن فيافٍ تضل المدلج الهادى (٣)

هلا بدأت لنا خلقاً لتعرف من   (عليك) قد جاد بالنعماء فى الوادى

ارجع حميداً فقد بلغت حاجتنا   بوركتَ من ذى سلام رائح غادى

« فأجابه » :

أنا الشجاع الذى أرويتنى ظمأً   فى صَحْصَحٍ حَصِبٍ عن أهله صادى (٤)

وجدت بالماء لما عزّ مطلبه   نصف النهار على الرمضاء فى الوادى

هذا جزاؤك منّا لا يمن به   لك الجميل علينا إنك البادى

الخير يبقى و إن طال الزمان به   والشر أقبح ما أوعيت من زادِ

وقال الشرقى بن القطامى : كان رجل من كلب يقال له عبيد بن الحارس شجاعاً وكان نازلاً بالسماوة أيام الربيع فلما حسر الربيع وقل ماؤه ، وأقلعت أنواؤه تحمل إلى وادى ثبل فرأى روضة وغديراً . فقال « روضة وغدير . وخطب يسير .

---

(١) البكر : الفتى من الابل ، ودونك بمعنى خذه (٢) الغيهب : الظلمة ولا يخفى ما فى هذا النظم من الخلل والفساد ! (٣) الفيافى المفاوز المهلكة ، والمداج : السائر فى الليل (٤) الصحصح ما استوى من الارض ، والحصب : ذو الحجارة

وأنا لما حويت مجير » فنزل هناك وله امرأتان اسم أحدهما الرباب والأخرى خولة فقالت له خولة :

أرى بلدة قفراً قليلا أنيسها ... وإنا لنخشى إن دجا الليل أهلها

وقالت له الرباب :

أرتك برأيي فاستمع عنك قولها ... ولا تأمن جن العزيف وجهلها

فقال مجيباً لهما :

ألست كمياً فى الحروب مجربا ... شجاعاً إذا شبت له الحربُ مِحْرَبا (١)

سريعاً إلى الهيجا إذا حمس الوغى ... فأقسم لا أعدو الغدير منكبا

ثم صَعدَ إلى جبل ثبل فرأى شيهمة (وهى الأنثى من القنافذ) فرماهافأقعصها ومعها ولدها فارتبطه فلما كان الليل هتف به هاتف من الجن : —

يا ابن الحارس قد أسأت جوارنا ... وركبت صاحبنا بأمر مفظع

وعقرت لقحتهُ وقُدْتَ فصيلَها ... قوداً عنيفاً فى المنيف الأرفع (٢)

ونزلت مرعى شاتنا وظلمتنا ... والظلم فاعله وخيم المرتع

فلنطرقنّك بالذى أوليتنا ... شراً يجيك وماله من مدفع

فأجابه ابن الحارس :

يا مدعى ظلمى ولست بظالمٍ ... اسمع لديك مقالتى وتسمّع

إن كنتُم جنّا ظلمتم قنفذاً ... عقرت فشر عقيرة فى مصرع

لا تطمعوا فيما لدىّ فما لكم ... فيما حويت وحزته من مطمع

فأجابه الجنّىّ :

يا ضارب اللقحة بالعضب الأفل ... قد جاءك الموت ووافاك الأجل (٣)

وسافت الحيْن الى جن ثَبل ... فاليوم أقوَيْتَ وأعيتك الحيَل (٤)

---

(١) المحرب بكسر الميم صاحب الحرب وفى حديث على كرم الله وجهه : فابعث عليهم رجلا محربا أى معروفا بالحرب عارفا بها (٢) اللقحة : الناقةالتى نتجت ، وفصيلها : ولدها ، والمنيف : الجبل (٣) العضب : السيف ، والافل : المنثلم (٤) الحين بالفتح والسكون : الهلاك

فأجابه ابن الحارس :

يا صاحب اللقحة هل أنت بجل مستمع منى فقد قلت الخطل
وكثرة المنطق فى الحرب فشل هيجت قمقاماً من القوم بطل[1]
ليث ليوث وإذا همّ فعل لا يرهب الجن ولا الإنس أجل

* من كان بالعقوة من جن ثبل *

قال فسمعها شيخ من الجن فقال لا والله لا ترى قتل إنسان مثل هـذا ثابت القلب ماضى العزيمة ! فقام ذلك الشيخ وحمد الله تعالى ثم أنشد : —

يا ابن الحارس قد نزلت بلادنا فأصبت منها مشرباً ومناما
فبدأتنا ظلماً بعقر لقوحنا وأسأت لما أن نطقت كلاما
فاعمد لأمر الرشد واجتنب الردى إنا نرى لك حرمة وذِماما
واغرم لصاحبنا لقوحاً متبعاً فلقد أصبت بما فعلت أثاما

فأجابه ابن الحارس :

الله يعلم حيث يرفع عرشه إنى لأ كرهُ أن أصيب أثاما
أما ادعاؤك ما ادعيت فإننى جئت البلاد ولا أريد مقاما
فأسمت فيها مالنا ونزلتها لأريحَ فيها ظهرنا أياما
فليغدُ صاحبكم علينا نُعطهِ ما قد سألت ولا نراه غراما

ثم غرم للجن لقوحاً متبعاً للقنفذ وولدها . قال ابن أبى الحديد بعد إيراده هذه القصة فى شرح نهج البلاغة : وهذه الحكاية وإن كانت كذباً إلا أنها تتضمن أدبا وهى من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها . ويقال إن الشرقى بن قطامى : كان يصنع أشعاراً وينحلها غيره انتهى . وأقول لعل ابن أبى الحديد بنى ذلك على مذهبه فقال ماقال فإنه من المعتزلة وهم لا يثبتون الجن على الوجه الذى يدعيه غيرهم وسيجىء تفاصيل ذلك قريباً .

---

(١) القمقام بالفتح ويضم : السيد

فأما ذكرهم عزيف الجن فى المفاوز والسباسب فكثير مشهور

والعزيف أصوات الجن ومن شعرهم فى ذلك قول بعضهم :

وخَرْقٍ تحدث غيطانه حديث العذارى بأسرارها[1]

والغيطان جمع غائط وهو المطمئن من الأرض . وقال الآخر :

ودويةٍ سبسبٍ سَمْلَقٍ من البِيد تعزف جِنَّانها[2]

وقال الأعشى :

وبهماء تعزف جنانها مناهلها آجناتٌ سدم[3]

البهماء أرض كثيرة البهاء ومعنى سدم دفن مناهلها ومواضع مياهها وقال :

وبلدةٍ مثل ظهر التُّرس موحشة للجن بالليل فى حافاتها زَجَلُ[4]

الحافات الجوانب والزجل التصويت . وقال آخر : —

* ببيداء فى أرجائها الجنُّ تعزفُ *

والشعر فى هذا كثير . ومن ذلك ما أسلفناه من القصص قريباً . وفى آكام المرجان مايغنى عن الإطالة .

(ومن مذاهبهم) أنهم كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره فيأخذون روثة ويفتونها على رأسها ويقولون روثة راث ثائرك . وقال بعضهم :

طرحنا عليه الروث والزجر صادق فراث علينا ثاره والطوائل

وقد يذر على الحية المقتولة يسير رماد ويقال لها قتلك العين فلا ثائر لك وفى أمثالهم لمن ذهب العين دمه هدر هو قتيل العين . قال الشاعر :

---

(١) الخرق: القفر والارض الواسعة،والواو واورب أى رب خرق (٢)الدوية: الفلاة المستوية الواسعة البعيدة الاطراف ، والسبسب المفازة أو الارض المستوية البعيدة ، والسملق كجعفر القاع الصفصف ، والبيد جمع بيداء وهى الفلاة (٣) الآجنات : المتغيرات الطعم واللون

(٤) الترس بالضم من جلد الارض الغليظ منها كانه على التشبيه . ويقال هو القاع المستدير لاطلس كما قاله الزمخشرى ومنه قولهم واجهت ترسا من الارض

ولم أكن كقتيل العين وسطكم ولا ذبيحة تشريق وتنحار

(ومن أعاجيبهم) أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم وظنوا أن به مساً من الجن لأنه قتل حية أو يربوعاً أو قنفذاً عملوا جمالا من طين وجعلوا عليها جوالق وملأوها حنطة وشعيراً وتمرا وجعلوا تلك الجمال فى باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين فإذا رأوا أنها بحالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ماعليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا بالدف. قال بعضهم:

قالوا وقد طال عنائى والسقم احملْ إلى الجن جمالات وضم

فقد فعلت والسقام لم يرم فبالذى يملك برئى أعتصم

لم يرم أى لم يصلح ومالك البرء هو الله تعالى. وقال آخر:

فياليت إن الجن جازوا جمالتى وزحزح عَنِّى ماعنانى من السقم

وياليتهم قالوا أنطنا كل ما حوت يمينك فى حرب غماس وفى سلم

أعلّل قلبى بالذى يزعمونه فياليتنى عوفيت فى ذلك الزعم

وأنطنا أى أعطنا والغماس الشديد والسلم الصلح. وقال آخر:

ألا إن جنان النُّوَيْرة أصبحوا وهم بين غضبانٍ علىّ وآسفِ

حملت ولم أقبل إليهم حَمَالَةً تسكن عن قلب من السقم تالف

ولو أنصفوا لم يطلبوا غير حقهم ومن لىَ من أمثالهم بالتناصف

تغطوا بثوب الأرض عنى ولو بدوا لأصبحت منهم آمناً غير خائف

النويرة بالنون تصغير النار وبالباء تصغير البُور وهى الأرض التى لم تزرع والتالف الهالك.

ومن عجائب اعتقادات العرب ومذاهبها فى بعض الحيوان

فإنهم يعتقدون فى الديك والغراب والحمامة والورل وساق حر والقنفذ والأرنب والظبى واليربوع والنعام والحية اعتقادات عجيبة . فمنهم من يعتقد أن للجن بهذه الحيوانات تعلقاً . ومنهم من يزعم أنها نوع من الجن . ومنهم من يعتقد أن الورل والقنفذ والأرنب والظبى واليربوع والنعام مراكب الجن يمتطونها أى يجعلونها مطية لهم ومن أشعارهم فى مراكب الجن قول بعضهم فى قنفذ رآه ليلا :

فما يعجب الجنان منك عدمتهم　　　وفى الأسـد أفراس لهم ونجائب

أيسرح يربوع ويلـجم قنفـذ　　　لقد أعوزتـكم ما علمت النجائب

فإن كانت الجنان جنّت فبالحرى　　　ولا ذنب للأقوام والله غالب

ومن الشعر المنسوب إلى الجن فى ذلك :

وكل المطـايا قد ركبنا فلم نجد　　　ألذ وأشهى من ركوب الأرانب

ومن عضرفوط عنَّ لى فركبته　　　أبادر سرباً من عظاء قوارب

والعضرفوط العظاء الذكر بعين مهملة وظاء معجمة ممدودة دويبة أكبر من الوزغة ويقال فى الواحدة عظاءة وعظاية والجمع عظاء وعظايا قال عبد الرحمن بن عوف « كمثل الهر يلتمس العظايا » وقال الأزهرى : هى دويبة ملساء تعدو وتتردد كثيراً تشبه (سام أبرص) إلا أنها أحسن منه ولا تؤذى وتسمى شحمة الأرض وشحمة الرمل وهى أنواع كثيرة منها الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر وكلها منقطة بالسواد وهذه الألوان بحسب مساكنها فإن منها ما يسكن الرمال ، ومنها ما يسكن قريباً من الماء والعشب ، ومنها ما يألف الناس وتبقى فى جحرها أربعة أشهر لا تطعم شيئاً ومن طبعها محبة الشمس لتصلب فيها .

(ومن خرافات العرب) قالوا : إن السموم لما فرقت على الحيوانات احتبست العظاية عند التفرقة حتى نفد السم وأخذ كل حيوان قسطا منه على قدر السبق

إليه فلم يكن لها فيه نصيب . ومن طبعها أنها تمشى مشياً سريعاً ثم تقف ويقال إن ذلك لما يعرض لها من التذكر والأسف على ما فاتها من السم ، والقوارب جمع قاربة وهى السارية فى الليل . وحاصل مادل عليه هـذا الشعر أن ركوب الأرنب والعضرفوط لمبادرة سرب العظاء ألذّ من ركوب سائر المطايا . وقال أعرابى يكذب بذلك .

ويستمع الأسرار راكب قنفذ لقـد ضاع سر الله يا أم معبد !

يريد الرد على ما كان يعتقده بعض العرب من إثبات العـلم بالغيب للجن فإن من يحتاج فى ركوبه إلى القنفذ بزعمهم كيف يعلم غيب السموات والأرض . ومنهم من يزعم أن سهيلاً والزُّهَرَةَ (وهمـا كوكبان فى السماء) والضب والذئب والضبع كلها مسوخ . ومنهم من يزعم أن الظباء ماشية الجن . وفى (كتاب آكام المرجان) فى بيان أن الظباء ماشية الجن فى اعتقاد العرب عن حميد بن هلال قال : كنا نتحدث أن الظباء ماشية الجن فأقبل غلام ومعه قوس ونبل فاستتر بأرطاة[1] وبين يديه قطيع من ظبى وهو يريد أن يرمى بعضه فهتف هاتف لا يرى وقال :

إن غلاماً عسر اليـدين يسعى بكيد أو لهين مين[2]
متخذ الأرطاة جُنَّتَيْنِ ليقتل القيس مع العنزين[3]

فسمعت الظباء فتفرقت . وعن النعمان بن سهل الحرانى قال : بعث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا إلى البادية فرأى ظبية مصرورة[4] فطاردها حتى أخذها فإذا رجل من الجن يقول :

يا صاحب الـكنانة المـكسوره خلِّ سبيلَ الظبيةِ المصروره

---

(١) الارطاة واحدة الارطى وهو شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب مرة تأكلها الابل غضة وعروقها حمر (٢) عسر اليدين : الذى يعمل بيديه (٣) الجنة بالضم الدرع وكل ما وقى من السلاح وفى الصحاح : الجنـة ما استترت به من السلاح والجمع الجنن (٤) هى التى شد ضرعها بالصرار ككتاب وهو ما يشد به الضرع

فإنهـا لصبيـة مضروره غاب أبوهم غيبة مذكوره
* فى كورة لا بوركت من كوره *

وخرج مالك بن حريم الدالانى فى نفر من قومه فى الجاهلية يريدون عكاظ فاصطادوا ظبياً وأصابهم عطش شديد فانتهوا إلى موضع فقصدوا ظبيا وجعلوا يشربون من دمه من العطش فلما ذهب دمه ذبحوه وخرجوا فى طلب الحطب وكمن مالك فى خبائه فأثار بعضهم شجاعا فأقبل منساباً حتى دخل رحل مالك فلاذ به وأقبل الرجل فى أثره فقال : يا مالك استيقظ فإن الشجاع عندك فاستيقظ مالك فنظر إليه وهو يلوذ به فقال عزمت عليك إلا تركته فكف عنه وانساب الشجاع إلى مأمنه وأنشأ مالك يقول :

وأوصانى الحريم بعز جارى وأمنعه وليس به امتناع
وأدفع ضيمه وأذب عنـه وأمنعه إذا منع المتاع

إلى آخر ما قال من الأبيات فارتحلوا واشتد بهم العطش فإذا بهاتف يهتف بهم ويقول :

يا أيهـا القوم لا ماء أمامَـكُمُ حتى تسوموا المطايا يومها التَّعبَا
ثم اعدلوا شامةً فالماء عن كَثَبٍ عين رواء وماء يذهب اللَّغَبَا[1]
حتى إذا ما أصبتم منه ريكمُ فاسقوا المطايا ومنه فاملأوا القرَبا

فعدلوا شامـة فإذا هم فى عين خرارة فى أصل جبل فشربوا وسقوا إبلهم وحملوا ريهم حتى أتوا عكاظ ثم أقبلوا حتى انتهوا إلى ذلك الموضع فلم يروا شيئا وإذا بهاتف يقول :

يا مال عنى جزاك الله صالحـةً هذا وداعٌ لـكم منى وتسليمُ
لا تزهدنْ فى اصطناع الخير مَعْ أحدٍ إن الذى يحرم المعروف محروم
من يفعل الخير لا يعدم مغبته ما عاش والـكفر بعد الغب مذموم

---

(١) الشامة ضد اليمنة ، والرواء الكثير المروى ، واللغب : تعب المسير ، والكثب بالتحريك : القرب

أنا الشجاع الذى أنجيت من رهق شكرت ذلك إن الشكر مقسوم

فطلبوا العين فلم يجدوها . وعن رقاد بن زياد قال : حملت ظبيـاً جنحَ الليل فبات عندى فسمعت هاتفاً يهتف من الليل و يقول :

أيا طلحةَ الوادى ألا إنَّ شاتنا أصيبت بليل وهى منك قريب

أحسى لنا من بات يحتلّ فرقنا له بهليع الوَادِ بَيْن دبيب

قال فبشكتها أى أطلقتها . قال وسألته عن هليع الوادى فقال أسفله والفرق من الظباء مثل القطيع من الغنم انتهى والديك والغراب والحمام طيور معلومة والورل تقدم معناه « وأما ساق حر » فهو بالسين المهملة و بالقاف بينهما ألف وحر بالحاء والراء المهملتين الورشان وهو ذكر القمارى لا يختلفون فى ذلك . قال الكميت :

تغريد ساق على ساق يجاوبها من الهواتف ذات الطوق والعطل

عنى بالأول الورشان و بالثانى ساق الشجرة . وقال حميد بن ثور الهلالى :

وما هاج هذا الشوق إلا حمامةُ دعت ساقَ حر ترحةً وترنما

مطوقة غراء تسجع كلما دنا الصيف وانحال الربيع فأنجما

محلاة طوق لم تكن من تميمة ولا ضرب صواغ بكفيه درهما

تغنت على غصن عشاء فلم تدع لنائحة من نوحها متألما

إذا حركته الريحُ أو مال ميلة تغنت عليه مائلا ومقوما

عجبتُ لها أنى يكون غناؤها فصيحاً ، ولم تفغر بمنطقها فما؟ (١)

فلم أرَ مثلى شاقه صوت مثلها ولا عربياً شاقه صوتُ أعجما

قال ابن سيده : إنما سمى ذكر القمارى ساق حر لحكاية صوته فإنه يقول : ساق حر ساق حر وقد وهم ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة حيث قال : ساق حر هو الهديل فإن الهديل طائر آخر فى حياة الحيوان الهديل ذكر الحمام . قال جران العوْد :

---

(١) فغر فاه : فتحه ويعنى بالمنطق بكاءها

كأن الهديلَ الظالعَ الرجلِ وسطَها من البغى شرِّيب يغرّدُ مُنزِفُ (١)

والهديل صوت الحمام يقال هدل القمرى يهدل هديلا ، والهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح من الطير فليس من حمامة إلا وتبكى عليه إلى يوم القيامة . قال نصيب :

فقلت : أتبكى ذات طوق تذكرت هديلاً وقد أودى وما كان تُبَّعُ ؟

يقول لم يخلق تبع بعد انتهى . وقال ابن قتيبة فى (كتاب أدب الكاتب) : العرب تجعل الهديل مرةً فرخاً تزعم الأعراب أنه كان على عهد نوح فصاده جارح من جوارح الطير قالوا فليس من حمامة إلا وهى تبكى عليه . قال الكميت فى هذا المعنى :

وما من تهتفين به لنصر بأقرب جابةً لك من هديلِ

ومرةً يجعلونه الطائر نفسه قال جِران العوْد « كأن الهديل الظالع الرجل » البيت السابق ، ومرةً يجعلونه الصوت قال ذو الرمّةِ :

أرى ناقتى عند المحصَّبِ شاقها رواح اليمانى والهديل المرجَّعُ (٢)

انتهى . وهذا بعين ما فى حياة الحيوان . وفى كتاب لب لباب لسان العرب عند شرح قول كعب بن سعد الغنوى :

فإنك واللوم الذى ترجعينه علىّ وما لوّامة بِمَقُولِ

كداعى هديل لا يجاب إذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء هَديلِ

الهديل . فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح من جوارح الطير قالوا فليس من حمامة إلا وتبكى عليه وأنشد بيت الكميت السابق ذكره ، ومثل

---

(١) شبه الهديل فى تغنيه وتمايله من المرح بسكير قد سكر فهو يتغنى ، والمنزف السكران ويروى بفتح الزاى وكسرها لأنه يقال انزف الرجل اذا سكر ونزفه السكر وانزفه (٢) المحصب موضع رمى الجمار بمكة ، يقول : لما رات ناقتى اهل اليمن يروحون الى بلادهم عند انقضاء الحج والابل ترجع هديلها — حنت الى وطنها ، وذكر ناقته انما يريد نفسه ولم يرد باليمانى رجلا واحدا من أهل اليمن انما أراد جميع من كان بمكة من أهل اليمن ، والهديل يكون للابل ويكون للحمام أيضا

ذلك مانقلناه سابقاً عن ابن هشام . ولعل شارح نهج البلاغة اعتبر اعتباراً آخر أو ثبت عنده عن أهل اللغة ماقرره .

(ومن مذاهبهم) أنهم يعتقدون أن السفعة نظرة الجن والمسفوع المعيون وأصابته سفعة أى عين والعين عينان عين إنسية وعين جنية ولبعضهم :

وقد عالجوه بالتمائم والرقى وصبوا عليه الماء من ألم النكس[1]

وقالوا أصابته من الجن أعين ولو علموا داووه من أعين الإنس

وقد صح عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها : أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة فقال : استرقوا لها فإن بها النظرة . والسفعة النظرة من الجن يقال بها عين أصابتها من نظر الجن وهى أنفذ من أسنة الرماح . وعن أبى عبيدة يقال رجل معين للذى أصابته عين ورجل معيون للذى به منظر ولا مخبر له .

ومن مذاهب العرب أن لكل شاعر شيطانا يلقى إليه الشعر

وهذا مذهب مشهور بين العرب فى الجاهلية ، والشعراء كافةً عليه قال بعضهم :

إنى وإن كنت صغيرَ السنّ فإن فى العين نبوًّا عنى

فإن شيطانى أميرُ الجن يذهب بى فى الشعر كلَّ فن

وقال حسان بن ثابت :

إذا ما ترعرع فينا الغلامُ فما إنْ يقال له : من هُوَهْ[2]

إذا لم يَسُدْ قبل شدّ الإزارِ فذلك فينا الذى لاهوهْ

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطوراً أقول وطوراً هوهْ[3]

وكانوا يزعمون أن اسم شيطان الأعشى (مسحل) واسم شيطان المُخبَّل (عمرو) قال الأعشى :

---

(١) النكس : عود المريض بعد النقه (٢) ترعرع : قارب الحلم ، وفينا اى بيننا ، وأدخل فى (هوه) هاء السكت كما فى قوله تعالى (ماهيه . وعاليه . وسلطانيه) (٣) الشيصبان : قبيلة من الجن على زعمهم

دعوت خليلى مسحلًا ودعوا له جُهنـــام جَـــدْعاً للهجين المذمم[١]

وقال آخر :

لقد كان جـــنّىّ الفرزدق قدوة ولا كان فينا مثل فحل (المخبّلِ)

ولا فى القوافى مثل (عمرو) وشيخه ولا بعد عمرو شاعر مثل (مسحل)

وقال أبو النجم :

إنى وكلّ شاعرٍ من البَشَرْ شيطانُهُ أنثى وشيطانى ذَكَرْ

وفى كتاب (آكام المرجان) ماحاصله : يقال للشعراء كلاب الجن . قال عمرو ابن كلثوم فى معلقته :

وأنزلنا البيوت بذى طُـــلوح إلى الشـــامات ننفى الموعدينا

وقد هَرّتْ (كلابُ الجن) منا وشـــذبنـــا قتـــادة من يلينـــا[٢]

يقول أنزلنا بيوتنا بمكان يعرف بذى طلوح إلى الشامات ننفى من هذه الأماكن أعداءنا الذين كانوا يوعدوننا وقد لبسنا الأسلحة حتى شرعت الشعراء يذكروننا وقد كسرنا شوكة من يقرب منا من أعدائنا وذلك لزعمهم أن الشياطين تلقى الشعر على أفواههم وسموا الملقى تابعاً ورئيًّا قال جرير : « إنى ليلقى علىَّ الشعر مكتهل . من الشياطين » البيت . ووسموا توابعهم بأعلام قالوا كان للأعشى مسحل ولفرو ابن قطن جهنام وابشار سنقناق ويقال للخلعاء والمجان جند إبليس . قال الشاعر :

وكنتُ فتى من جندِ إبليسَ فارتقتْ بىَ الحالُ حتى صار إبليس من جندى

ويقال للشعر رقى الشياطين . قال جرير :

رأيت رقى الشـــيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيـــا

وكذلك كلمات الخلابة[٣] ونحوها قال الشاعر :

---

(١) جهنام بضم الجيم والهاء تابعة الاعشى أى شيطانه ، والهجين : اللئيم ، والجدع : القطع (٢) وفى رواية كلاب الحى بدل كلاب الجن وعلى هذه الرواية فلا شاهد فيه (٣) الخداع .

ماذا يظن بسلمى إذْ يُلمُّ بها مرجَّل الرأس ذو بُرْدين أوصاح[1]
خزٌّ عمامته حلوٌ فكاهته في كفه من رقى الشيطان مفتاح

انتهى بزيادة بعض توضيح . وكثير من شعر العرب يدل على هذا المذهب وفيه حكايات عجيبة ذكرها الثقات من رواة الأخبار .

قصة عجيبة وفيها ذكر مسحل هاجس الأعشى

روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني بسنده قال : حدث جرير ابن عبد الله البجلي الصحابي قال : سافرت في الجاهلية فأقبلت ليلة على بعيري أريد أن أسقيه ماء فلما قربته من الماء فإذا قوم مشوهون عند الماء فبينا أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشد تشويهاً منهم فقالوا : هذا شاعر . ثم قالوا : يا أبا فلان أنشد هذا فإنه ضعيف . فأنشد :

ودّع هريرة إن الركب مرتحلُ وهل تطيق وداعاً أيها الرجلُ ؟

فوالله ما خرم منها بيتاً حتى أتى على آخرها . فقلت : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا أقولها ! قلت : لولا ما تقول لأخبرتك أن أعشى قيس بن ثعلبة أنشدنيها عام أول بنجران ! قال : إنك صادق أنا الذي ألقيتها على لسانه وأنا (مسحل) ما ضاع شعر شاعر وضعه عند ميمون بن قيس . وروى صاحب الأغاني أيضاً بسنده عن الأعشى قال : حدث الأعشى عن نفسه قال : خرجت أريد قيس بن معديكرب بحضرموت فضللت في أوائل أرض اليمن لأني لم أكن سلكت ذلك الطريق قبل فأصابني مطر فرميت ببصري أطلب مكاناً ألجأ إليه فوقعت عيني على خباء من شعر فقصدت وإذا أنا بشيخ على باب الخباء فسلمت عليه فرد عليّ السلام وأدخل ناقتي خباء آخر كان بجانب البيت فحططت رحلي وجلست . فقال : من أنت ؟ وأين تقصد ؟ قلت : أنا الأعشى أقصد قيس بن معد يكرب . فقال :

---

(١) يلم بها اى يجتمع ، ومرجل الراس مسرح الراس وممشطه

حياك الله أظنك امتدحته بشعر ، قلت : نعم . قال : فأنشدنيه فابتدأت مطلع القصيدة :

رحلت سميةُ غدوة أجمالها غضباً عليك فما تقول بدالها

فلما أنشدته هذا المطلع منها قال : حسبك أهذه القصيدة لك ؟ قلت : نعم . قال : من سمية التى تنسب بها ؟ قلت : لا أعرفها وإنما هو اسم ألقى فى روعى . فنادى : يا سمية اخرجى ، وإذا جارية خماسية قد خرجت فوقفت وقالت : ما تريد يا أبت ؟ قال : أنشدى عمك قصيدتى التى مدحت بها قيس بن معد يكرب ونسبت بك فى أولها فاندفعت تنشد القصيدة حتى أتت على آخرها لم تخرم منها حرفاً فلما أتمتها قال انصرفى . ثم قال : هل قلت شيئاً غير ذلك ؟ قلت : نعم كان بينى وبين ابن عم لى يقال له يزيد بن مسهر يكنى أبا ثابت ما يكون بين بنى العم فهجانى وهجوته فأفحمته . قال : ماذا قلت فيه ؟ قال : قلت :

ودّع هريرة إن الركب مرتحلُ وهل تُطيق وداعاً أيها الرجل

فلما أنشدته البيت الأول قال . حسبك . من هريرة هذه التى نسبت فيها ؟ قلت : لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها . فنادى : يا هريرة فإذا جارية قريبة السن من الأولى خرجت . فقال : أنشدى عمك قصيدتى التى هجوت بها أبا ثابت يزيد ابن مسهر فأنشدتها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفاً — فَسُقِطَ فى يدى وتحيرت وتغشتنى رعدة . فلما رأى ما نزل بى قال : ليفرخ روعك يا أبا بصير أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذى ألقى على لسانك الشعر فسكنت نفسى ورجعت إلىّ وسكن المطر فدلّنى على الطريق وأرانى سمت مقصدى وقال : لا تعج يميناً ولا شمالا حتى تقع ببلاد قيس . وروى صاحب الأغانى أيضاً ، أن الأعشى قال هذه القصيدة ليزيد بن مسهر أبى ثابت الشيبانى . قال أبو عبيدة : وكان من حديث هذه القصيدة أن رجلًا من بنى كهف بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس ابن ثعلبة يقال له ضبيع قتل رجلا من بنى همام يقال له زاهر بن سيار بن أسعد بن همام

وكان ضبيع مطروفاً ضعيف العقل فهاهم يزيد بن مسهر وهو من بنى ثعلب ابن أسعد بن همام أن يقتلوا ضبيعاً بزاهر وقال : اقتلوا به سيداً من بنى سعد بن مالك ابن ضبيعة لحض بنى سيار بن أسعد على ذلك وأمرهم به فبلغ بنى قيس ما قاله فقال الأعشى هذه القصيدة فى ذلك يأمره أن يدع بنى سيار و بنى كهف ولا يعين بنى سيار فإنه إن أعانهم أعانت قبائل بنى قيس بنى كهف وحذره أن يلقى بنو سيار منهم ما قالوا يوم العين عين محلم بهجر . وكان من حديث ذلك اليوم كما زعم عمر ابن هلال أحد بنى سعد بن قيس بن ثعلبة أن يزيد بن مسهر كان خالع أصرم ابن عوف بن ثعلبة بن سعد بن قيس بن ثعلبة فلما خلع يزيد بن مسهر أصرم من ماله خالعه على أن يرهنه بنيه أقلب وشهابا ابنى أصرم وأمهما فطيمة بنت شرحبيل ابن عوسجة بن ثعلبة بن سعد بن قيس وأن يزيد قمر أصرم فطالب إليه أن يدفع إليه ابنيه رهينة فأبت أمهما ذلك فنادت قومها لحضر الناس واشتملت فطيمة على ابنيها بثوبها ودافع قومها عنهما وعنها . فذلك قول الأعشى :

نحن الفوارس يوم العين ضاحية جنبى فطيمة لا ميـلٌ ولا عُزل(١)

قال : فانهزم بنو سيار لحذر الأعشى يزيد بن مسهر مثل تلك الحالة قال أبوعبيدة وذكر عامر ومسمع عن قتادة الفقيه أن رجلين من بنى مروان تنازعا فى هذا الحديث لجردوا رسولاً فى ذلك إلى العراق حتى قدم الـكوفة فأخبر أن فطيمة من بنى سعد بن قيس وأنها كانت عند رجل من بنى سيار وله امرأة غيرها من قومه فتعايرتا فعمدت السيارية لحلقت ذوائب فطيمة فاهتاج الحيان فاقتتلوا فهزمت بنو سيار يومئذ .

:::::::::::::::::::::::::

تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث

وفيه تتمة البحث مما كان يعتقده بعض العـرب من النكت

---

(١) الميل جمع اميل وهو من يميل على السرج فى جانب ومن لاترس معـه ولا سيف ولا رمح والجبان ، والعزل جمع اعزل وهو الذى لا سلاح معه . .

أنظر الفهارس

ثلاثة فهارس

الفهرس الأول : فى موضوعات الكتاب

الفهرس الثانى : فى أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثالث : فى أسماء البلدان والقبائل

عنى بجمعها وترتيبها

محمد جمال

الفهرس الأول

فى موضوعات الكتاب

﴿ انظر الفهرس الثانى ﴾

الفهرس الثانى

فى أسماء الرجال والنساء

(ن)

الفهرس الثالث

فى أسماء البلدان والقبائل

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

تمت الفهارس الثلاثة